

# المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة / العدد التاسع و الثلاثون / صيف / ٢٠٢٢

عمر شبلي	المثقف والسلطان
د. وليد سروجي	قواعد التفسير وتوظيفها عند الخطيب الشربيني
د. زينة حبلي	تنظيم "الذولة الإسلامية" النشأة والتطور وأحلام الخلافة
د. هيام عيسى	الفاطميون في جبل عامل
زينب محمد/د. ريتا نصرالله	دور مشاريع خدمة المجتمع في اكتساب مبادئ المواطنة
د. أمينة قصص	تعاقت المصطلحات النحوية
د سجاد عباس حمزة	مفردة النحو في الشعر العربي في القرن الزابع للهجرة
رئيسه الزروق	الزئاء عند عمر شبلي قصيدة "إلى شيرين أبو عاقلة" أنموذجاً
هدى الزروق	الرمز الضوئي في شعر عبد الوهاب البياتي
كاتيا بركات	دور التعزيز في تعديل السلوك العدوانية
رانية مرعي	عندما (شعر)
عالية عيسى	التهمة إنني عربية (شعر)
د. درية فرحات	قصص وجيزة ق ق ج
بتول حمادة/نورهان غدار/منيرة الحجار	أقلام واعدة
DrMichelle Saab	L'impact de l'histoire collective sur la psychologie individuelle
Dr Ghina EL Sayed	Les âmes agonisantes dans un espace infernal

- موقف "المنافذ الثقافية"  
من قضايا الانتماء الفكري والأدبي والروحي  
للأمة العربية والاستجابة الإيجابية للتحدي

# المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

العدد التاسع والثلاثون - صيف 2022

رئيس التحرير  
عمر محمد شبلي

نائب رئيس التحرير  
أ. د. درية كمال فرحات

المدير المسؤول: علي حمود

## الهيئة الثقافية والإدارية

د. علي أيوب	أ. د. عماد هاشم	د. هالة أبو حمدان
أ. د. منى دسوقي	د. زهور شتوح (الجزائر)	أ. د. عيدا زين الدين
د. جمانة ابو علي	د. رضا العليبي (تونس)	د. دلالة مهنا الحلبي
د. سميرة طليس	د. ندى الرمح	د. منال شرف الدين
أ. رولا الحاج حسن	د. أناند فرح	د. ربي شوكت محسن
أ. حكمت حسن	أ. ربيعة الرزوق	أ. زينب راضي
أ. مروان درويش	أ. رانية مرعي	أ. سوزان زعيتر

تدقيق لغوي د. فاطمة البزال. أ. سامي التراس / د. إيمان صالح مسؤولة القسم الانكليزي

## اللجنة المحكّمة

أ. د. حسن جعفر نور الدين	أ. د. ديزيريه سقال
أ. د. علي حجازي	أ. د. فؤاد خليل
أ. د. محمد عواد	أ. د. جمال زعيتر
أ. د. يوسف كيال	أ. د. عائشة شكر
أ. د. درية فرحات	أ. د. ماغي عبيد
أ. د. حسن جعفر نور الدين	أ. د. لارا خالد مخول
أ. د. محمد عواد	أ. د. مها خير بك ناصر
أ. د. يوسف كيال	أ. د. أحمد رباح
أ. د. درية فرحات	أ. د. سعيد عبد الرحمن

تصميم المجلة وإخراجها: دار النهضة العربية

ISSN 2708-4302

موقع المجلة الإلكتروني – [www.al-manafeth.com](http://www.al-manafeth.com)

تطلب المجلة من دار النهضة العربية – بيروت – شارع جامعة بيروت العربية  
للمراسلات: 00961 1 833 270  
[darnahdainfo@gmail.com](mailto:darnahdainfo@gmail.com)

الاشتراكات السنوية:  
لبنان للأفراد 100 ألف ليرة لبنانية – للمؤسسات 150 ألف ليرة لبنانية

باقي الدول العربية:  
لأفراد 100 دولار – للمؤسسات 200 دولار  
للمراسلات: [chebli\\_omar@hotmail.com](mailto:chebli_omar@hotmail.com)

- 1 - المتقف والسُّلطان  
**عمر شبلي** ..... 5  
 2 - قواعد التفسير وتوظيفها عند الخطيب الشَّرْبِينِي في تفسيره (السَّراج المنير)  
**وليد مصطفى سروجي** ..... 8  
 3 - تنظيم «الدولة الإسلاميَّة» النشأة والنُّطُور وأحلام الخلافة  
**زينة إبراهيم حبلي** ..... 30  
 4 - الفاطميّون في جبل عامل (297-567هـ/909-1171م)  
**هيام عيسى** ..... 46  
 5 - دور مشاريع خدمة المجتمع في اكتساب مبادئ المواطنة لدى المتعلّمين في المرحلة الثَّانويَّة: دراسة حالات - ثلاث ثانويّات رسميَّة في محافظة النُّبْطِيَّة - جنوب لبنان.  
**زينب احمد محمد د. ريتا نصرالله** ..... 66  
 6 - الاتِّفاق النَّووي وانعكاساته على مستقبل العلاقات بين إيران وأمريكا  
**محمد إبراهيم قانصو** ..... 99  
 7 - تهافت المصطلحات النحويَّة (باب المرفوعات نموذجًا)  
**أمينة محمد حسن قصص** ..... 116  
 8 - مفردة النَّحو في الشَّعر العربيّ في القرن الرَّابِع للهجرة.  
**م.د سجاد عباس حمزة** ..... 134  
 9 - الرِّثاء عند عمر شبلي قصيدة «إلى شيرين أبو عاقلة» أنموذجًا  
**رئيفه محمّد الرِّزُوق** ..... 148  
 10 - الرِّمَز الصَّوْفِيّ في شعر عبد الوهَّاب البياتي شخصيَّة «الحلاج» في قصيدة «عذاب الحلاج» أنموذجًا  
**هدى محمّد الرِّزُوق** ..... 158  
 11 - دور التَّعزيز في تعديل السُّلوك العدوانيّ من وجهة نظر معلِّمي الصِّف السَّادس الأساسي في بعض مدارس بيروت  
**كاتيا بركات** ..... 171  
 12 - عبد المحسن شلاش دوره السِّياسي وإنجازاته الوطنيَّة  
**علي ظاهر محسن** ..... 188  
 13 - لفظة «الأخ» في اللُّغة العربيَّة  
**أحمد نديم أمون** ..... 204  
 14 - اللذة الجنسيَّة وأزمة إيمان المرثيات الإباحيَّة لدى الشَّباب الجزائريّ: البحث عن الإشباع والجرعة الزائدة  
**كرايس الجيلاي / أ. جومانة إبراهيم عبد الستار / د. عباس الزهر** ..... 222  
 15 - عندما (شعر)  
**رانية مرعي** ..... 252  
 16- التَّهمة إني عربيَّة (شعر)  
**عالية عيسى / اليمن** ..... 253  
 17- أقلام واعدة كيف لك؟  
**بتول حمادة الجامعة اللبنانيَّة** ..... 254

256	18- أقلام واعدة الحلاج في بلادي نورهان غذار الجامعة اللبنانية	.....
259	19- أقلام واعدة العشق المباح منيرة الحجار الجامعة اللبنانية	.....
260	20- قرأت في العدد السابق رانية مرعي	.....
262	21- قصص وجيزة ق ق ج أ.د. درية فرحات	.....
1- L'impact de l'histoire collective sur la psychologie individuelle dans l'ÂGE D'OR de Diane Mazloum		
	<b>Michelle Georges Saab.</b>	..... 1
2- Les voix narratives dans La Couronne du diable d'Alexandre Najjar Vraisemblance et énonciation		
	<b>Michelle Georges Saab.</b>	..... 15
3- Les âmes agonisantes dans un espace infernal dans Les Hirondelles de Kaboul de Yasmina KHADRA		
	<b>Dr Ghina EL SAYED</b>	..... 31

## المثقف والسُّلطان

### عمر شبلي

ليستقيم أمرُ المجتمع يجب أن يكون المثقف نقيض السُّلطان، لأن السُّلطان يريد ثبات سلطته، وثبات السُّلطة يناقض حركة الحياة، وحين تُحاصر حركة الحياة تصبح موتاً يلبس جثة الحياة، ويصاب المجتمع بالعمى المستقبلي، ويصبح الماضي وقتئذ هو المستقبل، ويُحارب كلُّ فكر يؤكد أن الأرض تدور، وأن الحياة نهر يتجدد بتدفقه واستمرار جريانه إلى الأمام. وهذا ما يؤكد حتمية التناقض بين الثقافة والسُّلطة، الثقافة تقوم على التطور وفهم معطياته المتحركة، والسُّلطة تريد سكوناً ليكون عمرها هو الماضي والحاضر والمستقبل في استمرارية جامدة. هذا التناقض هو الذي جعل الثقافة ضحية، وجعلها في الوقت نفسه السيف الذي يجب ألا يُعمد، فالسُّلطة تدوم بركود الثقافة، والثقافة تغيير يجب أن يستمر ولو أصبح ضحية. والسُّلطة تنتج قطيعاً جاهزاً للحلب والذبح، بينما الثقافة تبقى الإدراك الكامل للعالم، ولذا تتسم بالعظمة والبناء والنقد وحذف كل ما يناقض مجرى نهر الحياة المتجدد باستمرار. والإنسان نفسه لا يكون عظيمًا إلا حين يكون مثقفًا تغييرياً. فالعظمة ليست رداءً ولا منصباً، وليست إرثاً يورثه الجهل إلى الجهل. إنَّ العظمة هي خدمة النَّاس بما يعلي شأنهم ويدفع عنهم كل ما يسيء إلى إنسانيتهم التي فُطروا على كونها حركة من الأدنى إلى الأعلى باستمراراً

ومنذ البدء التكويني للسُّلطة تظلُّ خائفة من الثقافة، ويظل الخوف الجدار الذي تبنيه السُّلطة لمنع الثقافة من فتح أبواب الحياة المتطورة بإنسانها إلى الأعلى. ولذا لجأت السُّلطة منذ كينونتها لإيجاد ثقافة تدافع عنها وتسوّغ وجودها، وأوجدت ثقافة سكونية جامدة منافقة. ومثقفها يقول ما تقول له السُّلطة «كما تقول الببغا»، وجعلت لمتقفها مراكز سلطوية، وصار لصوص الثقافة يشرفون على النصوص التي يجب أن تنتقل من السلف إلى الخلف، وتغدو الثقافة وقتئذٍ قشرة لا تلامس جواهر الفكر المتمردة باستمرار على التحنيط والإقامة في كهوف الماضي المتشبهة بظلاميتها، يجب أن نقر ونميز بدقة أن عيون الثعبان التي تلمع في الكنز ليست هي جواهر هذا الكنز، و«ليس التكلُّ في العينين كالكحل». وهذا لا يعني أبداً التكرار لحقائق الفكر الكبرى الوافدة من الماضي. هناك ثقافة وافدة من رحم الماضي فيها حقائق

كونية، ولكن سكونيتها تقتلها، فما كان صحيحًا بالأمس يمكن أن يكون بحاجة إلى تصحيح، هذه هي الثقافة التي يجب أن تكون فيها الأسئلة أكثر دائمًا من الأجوبة. نعم هناك ثقافة موروثية، ولكن يجب ألا تتناقض مع الفكر الذي يناقض كثيرًا من مقولات الماضي، وينفيها. وهكذا تكون مهمة مثقفي السلطة التثبيت وليس التحريك والنقد البناء. إن الحركة هي نهر الحياة المتجدد، فإذا منعت جريان النهر تحوّل مستنقعًا. مثقفو السلطة هم دائمًا مستنقعات تنمو فيها بكتيريا إغناء الحياة وقتلها، إنهم يخدعون الناس العاديين بتسويق تصرفات السلطة وأحقيتها. وهنا يصبح مثقف السلطة أكثر فتكًا من أسلحة الدمار الشامل، إنه يخرب العقل ويلغيه بينما يستطيع الإنسان إعادة بناء ما دمرته الأسلحة مهما كان فتكها صعبًا. إن مثقف السلطة مأجور لتضليل الفكر، إنه يقول دائمًا للمتسلط أنت «خير من تسعى به قدم». وتضليل الفكر يطيل عمر السلطات المتخلفة التي تبقى مسيطرة ما دام الجهل هو السائد الكامن في العقول. وهي تدرك أن رجعيّتها وتخلّفها ضمان استمراريتها.

لا بدّ من التأكيد على أنّ المثقف الحقيقي يجب أن يكون حرّاً، وحرّيته المنطلقة من قناعاته هي التي تجبره على التصحيح إذا أخطأ. والمثقف الحقيقي هو الذي لا يقف على أبواب مسؤولي السلطة، ولا يمكن أن نسير باتجاه الحياة الواعية والبناءة إلاّ إذا رأينا مسؤولي السلطة يفتقون على أبواب المثقفين، ويطلبون منهم تصحيح المسيرة. قرأت أنّ مسؤولاً في السلطة كان يقول لمثقف تنويريّ صادق: إنّي أخاف من قلمك. كانت السلطات منذ القديم تدرك قوة فعل الكلمة وتأثيرها في توجيه الرأي العام، وقد صدق الأخطل التغلبي حين قال: «والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر». الكلمة الملتزمة ترعب السلطات لأن السلطات والثقافة هما دائماً في صراع وجودي مزمن. وهذا الخوف المعكوس هو الذي يصحح مسيرة الحياة لقد ثبت الفكر عبر التاريخ أمّا أصنام السطات فقد دفنوا في مزابل التاريخ، فالدهر ملك العبقريّة وحدها. إن الحرية التي يحملها المثقف في رأسه وقلمه هي ضمان استمرار مسيرة الحياة من الأدنى إلى الأعلى، وهي ضمان حضور الإنجازات المعنوية والمادية التي نراها اليوم فينا ومعنا. ولأنّ المثقف الحقيقي هو تنويريّ ومستقبلي فإن ثقافته تعرّضه لأعنى الصعوبات، ونجيب محفوظ أوضح الأدلة على ما نذهب إليه، لأنّ بلوغ الحقيقة دونه صعوبات التخلف والتقليد والجهل المتراكم عبر تاريخ طويل طويل. والمثقف التغييري الهادف

يعاني من غربة في مجتمعه، وتزداد غربته بازدياد تخلف مجتمعه وجهله. وهذه الغربة لا بد من مواجهتها مهما غلا ثمنها، ولا بد للمتقف من مواجهة هذه الغربة بعقله وسلوكه في آن. إن الثَّقافة هي هجرة من التخلف إلى الوعي، والمتقف يدرك أن أهدافه عظيمة ولذا سيكثر معارضوه، و «إذا عظم المطلوبُ قلَّ المساعدُ». نعم للمكرمات الغاليات هموم، «ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل» وصعب العلا في الصعب والسهل في السهل.

قواعد التفسير وتوظيفها عند الخطيب الشربيني في تفسيره  
(السراج المنير)  
الدكتور وليد مصطفى سروجي

### الملخص

وضع المفسرون تقاسيرهم على أسس قويمية، سواء أكان من حيث المصادر، أو من حيث القواعد التي شكّلت أساساً متيناً من أسس الفهم والاستنباط، وقد قام المفسر الخطيب الشربيني في كتابه (السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير) باعتماد هذه القواعد المنهجية، وطبقها بإنصاف واعتدال في تفسيره لآيات القرآن الكريم. وقد أبرز هذا المبحث هذه الأبعاد من خلال مطلبين وخاتمة، عارضاً بإيجاز حياة المؤلف، وآثاره العلمية، ومنهجه، وأبرز قواعد التفسير وتطبيقاتها عند الخطيب الشربيني، وانتهى بعرض الخاتمة والتوصيات. الكلمات المفتاحية: التفسير، القواعد، الخطيب الشربيني، السراج المنير.

### Abstract

The commentators placed their interpretations on sound foundations, whether in terms of sources, or in terms of rules that formed a solid foundation of the foundations of understanding and deduction. The commentator Al-Khatib Al-Sherbiny in his book (Al-Siraj Al-Munir in Helping to Know Some of the Meanings of the Words of Our Lord, the Wise, the All-Knowing) adopted these methodological rules, and applied them with fairness and moderation in his interpretation of the verses of the Noble Qur'an. This topic highlights these dimensions through two demands and a conclusion, presenting briefly the author's life, his scientific effects, and his approach, and highlights the rules of interpretation and their applications for Al-Khatib Al-Sherbiny, and ends with the presentation of the conclusion and recommendations.

Keywords: interpretation, rules, Al-Khatib Al-Sherbiny, Al-Siraj Al-Munir.

## مقدمة:

تميّزت ثقافة نخبة علماء المسلمين بالشموليّة، وظهر ذلك في كتاباتهم التي تكشف عن ثقافة موسوعيّة؛ ذلك أنّ الكثيرين منهم كان يكتب التفسير -مثلاً- مُدجّجًا بلغة الفُصحاء، ونظرة الفقهاء، وتدقيق الأصوليين، وإحاطة المفسّرين الذين يملكون أدواتهم البحثيّة باقتدار كبير، ويُحسنون إعمالها بمهارةٍ وحرصٍ وتقوى تُملي عليهم الحذر؛ لأن المفسّر يكشف عن مراد الله بحسب الطاقة البشريّة، ولا يتيسّر ذلك لغير الأثبات والأثقياء، ومنهم الخطيب الشربيني رحمه الله تعالى في كتابه (السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير)؛ وقد رغبتُ في الإضاءة على عمله في التفسير، ولا سيّما تقيّده بقواعد التفسير على علم ودراية، وطريقته في توظيف هذه القواعد، فكان هذا المبحث الذي أرجو أن يشكّل إضافةً ذات بال.

## تمهيد:

### أولاً: الدراسات السابقة:

لم أقع على بحثٍ عالج مسألة قواعد التفسير وتوظيفها عند الخطيب الشربيني في تفسيره (السراج المنير).

### ثانياً: أهميّة البحث:

- التأكيد على أنّ القرآن الكريم كتابٌ هداية، وفي الوقت عينه يعدُّ عمدةً للعلوم الشرعيّة.
- إبراز قيمة كتب التفسير في ثقافتنا العربيّة والإسلاميّة.
- الإضاءة على كتب التفسير المتأخّرة التي أهملت بجريرة أنها نتاجُ عصور التخلّف العلمي.
- الكشف عن الجوانب التأصيليّة في كتب المتأخّرين من المفسّرين.

### ثالثاً: أهداف البحث:

- إبراز الجانب التأصيلي في ثقافة أحد أعلام التفسير، وهو الخطيب الشربيني.
- دراسة بعض القواعد التي اعتمدها المفسّرون في تفسيرهم لكتاب الله.

- عرض نماذج من توظيف الخطيب الشربيني لقواعد التفسير في تفسيره للآيات القرآنية.

رابعاً: إشكالية البحث:

عني المفسرون عناية عظيمة بتفسير القرآن الكريم، ولم يألوا جهداً في التوفّر على القواعد التي شرعوا على ضوئها يفسرون كلام الله تعالى. فهل كان الخطيب الشربيني ممن التزم باعتماد هذه القواعد؟ وهل أجاد في تطبيقها وتوظيفها من خلال تفسير الآيات الكريمة؟

خامساً: منهج البحث وخطواته:

ينتهج هذه المبحث المنهج الوصفي والتحليلي.

أما الخطوات المتبعة فيه فتمثّل في إبراز قواعد التفسير، ولا سيّما عند الخطيب الشربيني، وتقديم نماذج من تفسيره ترصد جانباً من تطبيقاته لهذه القواعد.

وقد وقع هذا المبحث تحت مطلبين، أولهما: الخطيب الشربيني: حياته ومنهجه، وثانيهما: قواعد التفسير وتوظيفها في تفسير «السراج المنير»، والخاتمة.

المطلب الأول: الخطيب الشربيني حياته ومنهجه:

المسألة الأولى: الاسم، والنشأة، والتحصيل:

- اسمه ولقبه:

طغى لقب الخطيب الشربيني على اسمه، أما اسمه فهو محمد بن أحمد<sup>(1)</sup> الشربيني، ويلقب بشمس الدين<sup>(2)</sup>.

- ولادته ونشأته:

أما ولادته ونشأته فكانت في مدينة شربين في الدقهلية في مصر، ثم قدّر الله له أن يتوجّه إلى القاهرة، وأن يستقرّ فيها متعلّماً ومعلّماً.

(1) وهو الصحيح، خلافاً لابن العماد الذي ذكر أن اسم أبيه «محمد». انظر: شذرات الذهب: 10/561؛ ذلك لأن الشربيني نفسه ذكر في خاتمة تفسيره أن اسم أبيه «أحمد». انظر: تفسير السراج المنير، دار الكتب العلمية، بيروت، 2017م، ط1، 4/453.

(2) انظر: الكواكب السائرة، للغزي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ط1، 3/72.

## - تحصيله ووظائفه:

حفظ الشربيني القرآن الكريم منذ حداثة سنّه، وطلب العلم في الأزهر وتخرّج فيه، ثم غدا مدرّساً من أمتع مدرّسيه، وقد خُصّص له عمود في الأزهر يتولّى عنده التدريس، ثم عهدت إليه الخطابة فيه.

## - صفاته وثناء العلماء عليه:

- كان الخطيب الشربيني من أهل العلم، والنّقوى، والإيثار، والعكوف على العلم، والانشغال بالتصنيف والتدريس، والعزوف عن الشهرة، والميل إلى العزلة، وعدم الانهماك بالدنيا<sup>(1)</sup>.

وقد التقى الناس على أنّه ممّن جمع بين العلم والعمل؛ حتى «أجمَعَ أهل مصر على صلاحه، ووَصَفوه بالعلم والعمل، والزهد والورع، وكثرة النُّسك والعبادة»<sup>(2)</sup>.

ومن صور تنسُّكه: أنه كان يعتكف طيلة شهر رمضان، ولا يركب في رحلة الحج إلا إذا أنهكه التعب، وكان كثير التلاوة، وكثير الطواف أثناء الحج، ويصوم بمكة وخلال السفر أكثر أيامه<sup>(3)</sup>.

## - شيوخه<sup>(4)</sup>:

أبرز شيوخه نور الدين المحلي<sup>(5)</sup>، وناصر الدين اللقاني<sup>(6)</sup>، وبدر الدين المشهدي<sup>(7)</sup>، وشهاب الدين الرملي<sup>(8)</sup>. قال ابن العماد: «وأجازوه بالإفتاء والتدريس، فدرّس وأفتى في حياة أشياخه»<sup>(9)</sup>.

(1) انظر: شذرات الذهب، لابن العماد: 10/561.

(2) م. ن. 10/561.

(3) انظر: الكواكب السائرة: 3/73.

(4) انظر للتوسّع في ذكر شيوخه: شذرات الذهب: 10/561.

(5) هو علي بن محمد نور الدين، المحلي، الشافعي، شاعر وأديب، نظم المعراج النبوي في قصيدة، توفي سنة ٨٤١ هـ. انظر: الضوء اللامع، للسخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت. ط1، 5/314.

(6) محمد اللقاني، المالكي (ناصر الدين، أبو عبد الله) فقيه، أصولي، صرفي. من آثاره: حاشية على شرح جمع الجوامع في اصول الفقه، توفي: 958 هـ. انظر: معجم المؤلفين، عمر كحالة: 11/167.

(7) محمد المشهدي، محمد بن أبي بكر المصري الشافعي، ولد في سنة اثنتين وستين وثمانمائة، عالم كثير العبادة، توفي نحو العام 933 هـ. انظر: الكواكب السائرة، للغزي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997 م. ط1، 1/27.

(8) شهاب الدين أحمد الرملي المصري الشافعي، انتهت إليه رئاسة العلوم الشرعية بمصر. توفي في العام 957 هـ. انظر: شذرات الذهب، دار ابن كثير، دمشق، 1406 هـ. 8/316.

(9) شذرات الذهب: 10/561.

## أهم مؤلفاته:

- «السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير». طبع في أربعة مجلدات ضخام بمطبعة بولاق 1285هـ. ثم تكرر طبعه، ومنها: طبعة دار الكتب العلمية، في بيروت، 2017م. ويُعرف بتفسير الخطيب الشربيني.
- الإقناع في حلّ ألفاظ أبي شجاع. طُبع في مجلدين بمطبعة بولاق 1291هـ.
- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (شرح منهاج الطالبين للنووي) طبع بالمطبعة الميمنية بمصر 1308هـ. في أربعة مجلدات، وله طبعة معاصرة نشرتها دار الكتب العلمية، في بيروت، 1994م.
- شرح التنبيه (المسمّى النجم الثاقب في شرح تنبيه الطالب)، دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، ط1، 2021م.
- شرح جمع الجوامع في أصول الفقه، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2021م.
- شرح شواهد القطر (قطر الندى وبل الصدى)، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2018م.
- مناسك الحج، دار الكتب العلمية، ط1، 2006م.

## تلاميذه:

لم تُعنَ المصادر بذكر أسماء طلابه، لكنّ أبرز من تمّ تداول اسمه كتلميذ للشربيني هو ابنه عبد الرحمن، الملقّب بزین الدین، أخذ عن والده العلم، وكان يصاحبه في رحلاته، وتوفّي في العام 1014هـ.<sup>(1)</sup>

## وفاته:

بعد حياة حافلة بالعبادة، والعلم، والتصنيف، توفي الخطيب الشربيني في مصر بعد عصر الخميس في الثاني من شهر شعبان من العام سبع وسبعين وتسعمئة للهجرة، رحمه الله تعالى.

(1) انظر: خلاصة الأثر، للمحبي: 2/378.

## المسألة الثانية: منهجه في التفسير:

نال تفسير السراج المنير للخطيب الشربيني حظّه من الدرس وبيان المنهج الذي سار عليه صاحبه؛ لذا سأكتفي بعرضٍ موجزٍ لمنهجه رحمه الله تعالى (1).

### أولاً: المنهج الذي أعلنه الشربيني في مقدمة تفسيره:

عرض الشربيني لمنهجه في المقدمة التي وضعها بين يدي تفسيره (السراج المنير)، وأبرز ما جاء فيها:

- رغبته في وضع تفسيرٍ لكتاب الله على غرار ما فعل السابقون طلباً للثواب.
- تردّده في وضع التفسير الذي كان مطلباً من بعض إخوانه، وذلك خوفاً من وقوعه تحت مغبّة قوله -صلى الله عليه وسلم-: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» (2)، فلم يُقدّم عليه إلا بعد أن شرح الله صدره عقب صلاة الاستخارة في الروضة الشريفة بالمدينة المنورة في العام 961هـ.
- إثبات أرجح الأقوال في التفسير.
- إعراب ما يُحتاج إليه عند السؤال.
- ترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية.
- الاكتفاء بإثبات القراءات السبع المشهورات.
- المذكور أولاً من الأقوال هو ما ارتضاه المؤلف ورجّحه.
- جاء تفسيره وسطاً بين الطويل المُمَلِّ والقصير المُخَلِّ (3).

(1) من الدراسات التي وُضعت في منهج الشربيني في التفسير:  
- الخطيب الشربيني ومنهجه في التفسير، ثقيّل بن سائر الشمري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مطبعة المدني، الرياض، 1991م. ط1.  
- العلامة الخطيب الشربيني ومنهجه في تفسير السراج المنير، وفاء محمود سعدوي، جامعة الأزهر، 2007م.  
- منهج الخطيب الشربيني في القراءات القرآنية في تفسيره السراج المنير، محمد خالد الشقاقي، الجامعة الإسلامية بغزة، 2020م.  
- اختيارات الخطيب الشربيني في التفسير جمعاً ودراسة (الأجزاء: من السابع إلى الثاني عشر من القرآن الكريم)، إيمان الريح أحمد، جامعة أم درمان الإسلامية، 2010م.  
(2) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه: 5/200، رقم الحديث (2952) دار إحياء التراث العربي، بيروت، وأبو داود، كتاب العلم، باب الكلام في كتاب الله بغير علم: 3/320، رقم الحديث (3652)، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت. ورواه أحمد بلفظ: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار». قال المحقق (شعيب الأرنؤوط): «إسناده ضعيف». مسند أحمد: 4/250.  
(3) انظر: مقدمة الخطيب الشربيني على تفسيره: 1/3.

وبعد أن فرغ من كتابته أبدى مميّزات تفسيره الذي وصفه «بسبيكة عسجد»، ومُجمل جاء في خاتمة كتابه أنه جمع معظم التفاسير، وأثبت القراءات المتواترة، وأظهر الأقوال، واستشهد بالأحاديث الصحيحة والحسنة، وحرّر الأدلة والدلائل مُستعملاً دقائق التفكير<sup>(1)</sup>.

وقد علّق د. حسين الذهبي<sup>(2)</sup> على ما التزمه الخطيب الشربيني فيما قدّم من منهج، فقال: «وقد وقى فيه صاحبه بما وعد»<sup>(3)</sup>. فهو جنّب تفسيره ما لا ينبغي أن يُداخله، وبين ضعف الأحاديث التي أوردها المفسّرون السابقون، من ذلك قوله: «روى الطبري (ت. 310 هـ.) لكن بإسناد ضعيف: من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس»<sup>(4)</sup>.

وقد عبّ الشربيني كذلك على كلّ من الزمخشري (ت. 538 هـ.) والبيضاوي (ت. 685 هـ.) لإيرادهما أحاديث نسبوها للنبي صلى الله عليه وسلم، منها: «من قرأ سورة آل عمران أعطي بكل آية منها أماناً على جسر جهنم». قال الشربيني: «فهو من الأحاديث الموضوعية على أبي بن كعب في فضائل السور»<sup>(5)</sup>. ثم علّق على ذلك بقوله: «فليُتنبّه لذلك ويُحذّر منه، وقد نبّه أئمة الحديث قديماً وحديثاً على ذلك، وعابوا على من أورده من المفسّرين في تفاسيرهم»<sup>(6)</sup>. وقد كرّر هذا التنبيه في مواضع كثيرة من تفسيره<sup>(7)</sup>.

### ثانياً: مراجعه في التفسير:

أ- اعتمد الشربيني على كتب التفسير الموثوقة والمتنوعة؛ منها ما اشتمل على التفسير بالرأي، ومنها ما اشتمل على التفسير المأثور، من ذلك اعتماده الواسع على

(1) انظر: السراج المنير: 4/452.

(2) محمد حسين الذهبي (1915-1977م.) من كبار علماء مصر، تخرّج في الأزهر الشريف، وعيّن وزيراً للأوقاف. أشهر كتبه: «التفسير والمفسرون». انظر: إتمام الأعلام، نزار أباطة، ومطبع الحافظ، دار صادر، بيروت، 1999م. ط1، ص 231، وتكملة معجم المؤلفين، محمد خير يوسف، دار ابن حزم، بيروت، 1997م. ط1، ص 474.

(3) التفسير والمفسرون، للذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة. 1/242.

(4) السراج المنير: 1/224.

(5) م. ن. 1/224.

(6) م. ن. 1/224.

(7) منها: 1/18 - 279 - 325 - 435 - 462، و 2/35 - 70 - 114 - 132 - 152 - و 3/27 - 54 - 83 - 117 - 140 - 159 و 4/14 - 31 - 54 - 79 - 104 - 166 - 206 - 243.

تقاسير: الطبري<sup>(1)</sup>، الزمخشري<sup>(2)</sup>، والبيضاوي<sup>(3)</sup>، والماوردي (ت. 450هـ.)<sup>(4)</sup>، كما أخذ عن البغوي (ت. 516هـ.)<sup>(5)</sup>، وابن عطية (ت. 542هـ.)<sup>(6)</sup>، والرازي (ت. 606هـ.)<sup>(7)</sup> والقرطبي (ت. 671هـ.)<sup>(8)</sup>، وابن كثير (ت. 774هـ.)<sup>(9)</sup>، والمحلي (ت. 864هـ.)<sup>(10)</sup>، والبقاعي (ت. 885هـ.)<sup>(11)</sup>، والسيوطي (ت. 911هـ.)<sup>(12)</sup>.

• ولقد كان يُعبر أحياناً عن اغتباطه بالرأي المنقول عن المفسرين، كقوله: «وقد أحسن الطبري بقوله»<sup>(13)</sup>.

• ولم يكن ينقل دون تحفظ؛ فهو وإن كان يكثر النقل عن الزمخشري لكنه كان حذراً من آرائه الاعتزالية<sup>(14)</sup>، من ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) آل عمران/8. فقد نقل عن الزمخشري قوله: «ما ذكر كناية أو مجاز؛ إذ لا تحسن من الله الإزاعة ليشمل نفيها»<sup>(15)</sup>، فيستدرك الشربيني بقوله: «وهذا بناء على مذهبه من الاعتزال، وأمّا مذهب أهل السنة فالزيغ والهداية خلق الله تعالى»<sup>(16)</sup>. وأحياناً كان يأخذ على البيضاوي موافقته الزمخشري في بعض

(1) انظر: م. ن. 1/297، 2/145، 3/51، 389، 4/34، 110 - 221 - 375 - 429.

(2) انظر: م. ن. 1/14 - 30 - 129 - 2/69 - 138 - 3/20 - 35 - 82 - 90 - 4/7 - 35 - 59 - 117 - 135 - 209.

(3) انظر: م. ن. 1/11 - 37 - 77 - 96 - 146 - 2/7 - 141 - 222 - 3/98 - 150 - 254 - 4/17 - 88 - 367.

(4) انظر: م. ن. 3/219 - 288 - 4/82 - 204 - 377 - 414.

(5) وكثيراً ما يعول على البغوي بترجيح الأقوال: انظر: 1/11 - 47 - 58 - 66 - 233 - 294 - 434. كما أنه ينقل عن البغوي ما يُعبر عن مذهب أهل السنة. انظر: 1/67، كما أنه ينقل رأيه بعدم الخوض بتفصيل الآيات المتشابهات. انظر: 1/117.

(6) انظر: م. ن. 1/442 - 2/171 - 3/51 - 4/7 - 185 - 377.

(7) انظر: م. ن. 1/12 - 40 - 404 - 411 - 2/46 - 72 - 93 - 3/40 - 116 - 179 - 204 - 4/17 - 44 - 72 - 91 - 223.

(8) انظر: م. ن. 1/94 - 321 - 2/466 - 3/184 - 4/92 - 102 - 196.

(9) انظر: م. ن. 2/335 - 429 - 437.

(10) انظر: م. ن. 1/12 - 26 - 2/318 - 3/83 - 343 - 4/120 - 269.

(11) انظر: م. ن. 1/148 - 275 - 313 - 2/106 - 3/70 - 90 - 4/79 - 130.

(12) انظر: م. ن. 1/67 - 279 - 325 - 2/136 - 222 - 241.

(13) انظر: م. ن. 1/297.

(14) نسبة إلى المعتزلة، وهي فرقة كلامية ظهرت في أواخر العصر الأموي، من أبرز مؤسسيها واصل بن عطاء، أصولهم الخمسة في العقائد: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. انظر: مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري، المكتبة العصرية، بيروت، 2005م، ط1، 1/130.

(15) السراج المنير: 1/163.

(16) م. ن. 1/163. ومن ذلك استدراكه على الزمخشري في مسألة مرتكب الكبيرة: 1/201. وانظر: 2/65.

الآراء الاعتزالية<sup>(1)</sup>. وكان يواجه آراء جهاذة التفسير -أحياناً- بآراء المحققين، ما يشير إلى تدقيقه في ما ينقل. من ذلك ما أورده من استدراك التفتازاني<sup>(2)</sup> على الزمخشري والرازي والبيضاوي في تفسير قوله تعالى (وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا) الأعراف/ (3)156. ولد كان يثبت زبدة الأقوال وملخصها في كثير من الأحيان<sup>(4)</sup>، وفي أحيان أخرى لا يرتضي ما ينقل عن غيره، فيستدرك ويعرض رأيه مُعللاً<sup>(5)</sup>. وقد يواجه الآراء بأمورٍ خالف أصحابها ما اتفق عليه المفسرون، كتعبئه الزمخشري والبيضاوي اللذين قالوا بعودة بني إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون<sup>(6)</sup>، فردّ قائلاً: «لم يُصرِّح أحدٌ من المفسرين والمؤرخين بأنهم دخلوا مصر بعد خروجهم منها»<sup>(7)</sup>.

ثالثاً: منهجه في التفسير:

• تفسير القرآن بالقرآن:

تفسير القرآن بالقرآن شائع في تفسير الخطيب الشربيني، من ذلك أنه فسّر الآية: (وَلَيْسَتِ النَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) النساء/18. بقوله تعالى: (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا). غافر/ (8)85.

• تفسير القرآن بالسنة:

من تفسير القرآن بالسنة الذي شاع في كتابه أنه فسّر قوله تعالى (وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ) سورة آل عمران/145. بقوله -صلى الله عليه وسلم- «من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة؛ ومن كانت نيته طلب الدنيا

(1) انظر: م. ن. 1/ 54 - 117 - 173.

(2) سعد الدين التفتازاني (722هـ - 792هـ)، فقيه، ومتكلم، وأصولي، ونحوي. توفي في سمرقند. من كتبه: شرح العقائد النسفية، وحاشية على تفسير الكشاف. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1972م. 6/112.

(3) انظر: السراج المنير: 1/408.

(4) انظر: م. ن. 1/418.

(5) انظر استدراكه على الرازي مثلاً: 18/2. واستدراكه على البيضاوي: 16/1.

(6) انظر: السراج المنير: 1/57.

(7) م. ن. 1/57.

(8) السراج المنير: 1/233.

جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه أمره، ولا يأتيه منها إلا ما كتب له»<sup>(1)</sup>.

### ج- التفسير عن الصحابة والتابعين:

نقل الشربيني باستفاضة أقوال الصحابة والتابعين واستدل بها في تفسيره، من ذلك ما ورد عند تفسير قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا) سورة البقرة/58. فسرها الشربيني بأريحاء نقلاً عن ابن عباس، أو بيت المقدس كما جاء عن مجاهد<sup>(2)</sup>.

وأحياناً كان يجمع بين ما ورد في التفسير المأثور والتفسير بالرأي، كما فعل حين جمع بين الآراء في تفسير «الكوثر» في قوله تعالى: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) سورة الكوثر/1. فقال: «لا منافاة بين هذه الأقوال كلها؛ فقد أُعطيها النبي -صلى الله عليه وسلم- وأعطى النبوة، والحكمة، والعلم، والشفاعة، والحوض المورود»<sup>(3)</sup>.

### د - اهتمامه بالقراءات:

حرص الشربيني على إيراد القراءات المشهورة وضبطها، وأحياناً يذكر الاختلاف في الرسم، ويوجه القراءات، ويبين الفروقات بينها والمعاني المتصلة بها.

من ذلك: ما أورده عند قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ) سورة المائدة/6. حيث قال: «قرأ نافع وابن عامر وحفص والكسائي بنصب اللام عطفاً على وجوهكم. وقيل: على أيديكم والباقون بالكسر على الجوار ومنهم من عطف على المجرور على قراءة الجرّ والممسوح ليفيد مسح الخفّ، وعطف على المنصوب على قراءة النصف على المغسول ليفيد غسل الرجل المتجرّدة منه، يفيد كلٌّ من القراءتين غير ما أفادته الأخرى»<sup>(4)</sup>.

(1) م. ن. 1/205. الحديث رواه الترمذي بلفظ: «مَنْ كَانَتْ الْأَجْرَةُ هَمَّةً..». كتاب صفة القيامة والرقائق، باب 30: رقم الحديث (2465)، 4/642. والحديث حسن غريب. انظر: كنز العمال، للمتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 15/1172.

(2) انظر: السراج المنير: 1/60.

(3) م. ن. 4/436.

(4) م. ن. 1/286.

## هـ - الاعتماد في تفسيره على اللغة:

من أبرز سمات تفسير الشربيني عنايته الفائقة باللغة والتعويل عليها في التفسير، من هذا تفسير «المراغم» في قوله تعالى: (وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا) سورة النساء/100. فقد فسّر كلمة مراغم بأنه متحوّل يتحوّل إليه، وأورد قولاً آخر، وهو أنه طريق يراغم بسلوكه قومه أي: يفارقهم على رغم أنوفهم، وذلك مأخوذ من الرغام، وهو الذل والهوان، وأورد أنّ أصله لصوق الأنف بالرغام وهو التراب<sup>(1)</sup>. «يقال: راغمت الرجل إذا فارقتة وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك»<sup>(2)</sup>.

وكذلك الأمر بالنسبة للإعراب، حيث يوجّه معنى الآية من خلال إعرابها، كما فعل في تفسير (عوجا)<sup>(3)</sup> في قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) الكهف/1.

## و - عنايته بآيات الأحكام:

الخطيب الشربيني فقيه شافعي لامع؛ لذا ما كان يُغفل الأحكام التي يستنبطها الفقهاء من آيات الكتاب العزيز، فكان يستخرج الحكم، ويبين مآثاه، ويورد أقوال الفقه، مرجحاً بينها، كما جاء في تفسيره قوله تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَسْتِطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) النساء/25<sup>(4)</sup>. وتارةً يورد أقوال الفقهاء دون تعقيب، كما في قوله تعالى: (فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) سورة البقرة/173<sup>(5)</sup>. غير أنه لا يُكثر من ذكر الفروع ولا يتوسّع فيها<sup>(6)</sup>.

## ز - تعامله مع الإسرائيليات:

يؤخّذ على الخطيب الشربيني إيراد غرائب الإسرائيليات دون أن ينقضها أو يُحدّر منها<sup>(7)</sup>، من ذلك ما أورده عند قوله تعالى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

(1) انظر: م. ن. 1/262.

(2) م. ن. 1/262.

(3) انظر: م. ن. 2/272.

(4) انظر: م. ن. 1/238.

(5) انظر: م. ن. 1/99 - 232.

(6) انظر: التفسير والمفسرون، للذهبي: 1/243.

(7) انظر: م. ن. 1/244.

عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفُضْلُ الْمُبِينُ) سورة النمل/16. وفيه كلام طويل عن صيحات الحيوانات وما تحمله من معانٍ<sup>(1)</sup>. لكن ذلك لا يمنع أن الشرييني كان ضئيلاً بمقام النبوة، فلم يمرَّ على الإسرائيليات التي تطعن بعصمة الأنبياء دون أن يكشف عُوارها، بل كان يُحذِّر منها، من ذلك ردُّ الروايات التي نالت من داود -عليه السلام- حين اتَّمر بقائه ليتزوَّج بامرأته<sup>(2)</sup>.

**المطلب الثاني: قواعد التفسير وتوظيفها في تفسير «السراج المنير»:**

**المسألة الأولى: قواعد التفسير ومفهومها:**

**أولاً: تعريف القاعدة.**

أ- القاعدة لغة: الأساس. وقاعدة البيت: أساسه<sup>(3)</sup>.

ب- القاعدة اصطلاحاً: هي قضية كلية تشتمل على جميع جزئياتها (فروعها)<sup>(4)</sup>، وقيل قضية أغلبية<sup>(5)</sup>.

**ثانياً: تعريف التفسير:**

أ- التفسير لغة: الإبانة وكشف المغطى<sup>(6)</sup>.

ب- التفسير اصطلاحاً: هو «علمٌ يُعرَف به فهمُ كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم»<sup>(7)</sup>. وزاد ابن جُزي<sup>(8)</sup>: «والإفصاح بما يقتضيه بنصه أو إشارته أو فحواه»<sup>(9)</sup>.

(1) انظر: السراج المنير: 3/59، والتفسير والمفسرون، للذهبي: 1/244.

(2) انظر: م. ن. 3/331.

(3) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م. 8/536.

(4) انظر: التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م. ط1، ص 171، والكلبيات، لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1/728.

(5) انظر: غمز عيون البصائر، للحموي: دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م. ط1، 1/51.

(6) انظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (فسر) دار صادر، ط1، بيروت، 5/55. وتاج العروس، للزبيدي: مادة (فسر) دار الهداية، 13/323.

(7) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، البابي الحلبي، القاهرة، 1957م. ط1، 1/13.

(8) محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (693 - 741 هـ)، مفسِّر، وفقه مالكي، من أهل غرناطة. من كتبه: «القوانين الفقهية»، و«التسهيل إلى علوم التنزيل». انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، 2/275.

(9) التسهيل إلى علوم التنزيل، لابن جزي، دار الأرقم، 1416هـ. بيروت، ط1، 1/15.

أما قواعد التفسير اصطلاحاً فهي: «الأحكام الكلية التي يتوصّل بها إلى استنباط معاني القرآن الكريم». وقد عبّر عنها الزركشي<sup>(1)</sup> «بالقوانين المتحدة»<sup>(2)</sup>، ورآها الطاهر بن عاشور<sup>(3)</sup> «كليات تتعلق بالقرآن»، وأنها تتعلّق -على سبيل التمثيل- بتقرير قواعد النسخ والتأويل المُحكّم والمتشابه.

وتتجلّى أهمية هذه القواعد، في أنها أدعى إلى ضبط الجزئيات واستحضارها وحفظها، فضلاً عن الاستعانة بها كأداة من أدوات الفهم والتطبيق<sup>(4)</sup>.

وسيتّم الاكتفاء في هذا المبحث بعرض بعض هذه القواعد كمثال على عناية الشربيني بقضية القواعد في تفسيره.

### المسألة الثانية: الجوانب التي تراعيها قواعد التفسير:

#### أولاً: القراءات يُفسّر بعضها بعضاً:

من ذلك قوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاغْتَرِلُوا الْبَسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ النَّوَافِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) سورة البقرة/222.

يرى الخطيب الشربيني أن المراد بقوله تعالى (حتى يطهرن) الجماع، «ويدلّ عليه صريحاً قراءة شعبة وحمزة والكسائي بتشديد الطاء والهاء أي: يتطهّرن بمعنى يغتسلن»<sup>(5)</sup>. وعند قوله تعالى: (دُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) الدخان/49. أورد قراءة الكسائي بفتح الهمزة (أي: أنك)، ورأى أن القراءتين متحدثان في المعنى بجامع إفادتهما العلة<sup>(6)</sup>؛ وذلك لأنّ المقرّر عند العلماء أنّ «توافق القراءتين خيرٌ من تخالفهما»<sup>(7)</sup>.

وفي ما يتّصل بالقراءات الشاذّة فإنّ الشربيني لم يكن يُعيّرها انتباهاً، وقد نكّر القراءة الشاذّة عند تفسير قوله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ

(1) محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الموصلي الشافعي (745-794هـ.). أشهر مصنفاته البرهان في علوم القرآن. انظر: طبقات المفسرين، للأدنه وي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 1997م. ط1، ص302.

(2) القواعد المنثورة، للزركشي، وزارة الأوقاف، الكويت، 1405هـ. ط2، ص65.

(3) محمد الطاهر بن عاشور (1879-1973م). مفسّر ورئيس المفتين المالكيين بتونس، أهم آثاره: تفسيره «التحرير والتنوير». انظر: معجم المفسرين، عادل نويهض، مؤسسة نويهض، بيروت، 1988م. ط3، 2/541.

(4) انظر: القواعد المنثورة، ص65.

(5) السراج المنير: 1/123.

(6) انظر: م. ن. 3/466.

(7) روح المعاني، للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. 4/168.

رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) آل عمران/ 164؛ حيث أورد قراءة (أَنْفُسِهِمْ)، قائلاً: «ولم أذكر في التفسير قراءة شاذة إلا هذه لكونها في شرف الرسول صلى الله عليه وسلم»<sup>(1)</sup>. وقد تقدّم أنّ الشربيني قرّر أنه يعتمد القراءات السبع المشهورة.

**ثانياً: التفسير المؤيد بقريضة السياق مقدّم على ما سواه:**

وهذا الأمر شائع شيوعاً واسعاً في تفسير الخطيب الشربيني؛ بل إنه قد يفيد من السياق في ترجيح المسائل الإعرابية، مثال ذلك: ما جاء تحت تفسير قوله تعالى: (وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) الشعراء/186. فقد ذهب البصريون إلى أنها مخففة من الثقيلة، وذهب الكوفيون إلى كونها (إِنْ) النافية، وقد رجّح الشربيني كونها نافية فقال: «والذي يقتضيه السياق ترجيحُ مذهب الكوفيين»<sup>(2)</sup>، وعلّل ترجيحَه بأنهم أرادوا بإثبات الواو في قوله (وما أنت) المبالغة في نفي كونه رسولاً بتعداد ما ينافي رسالته، «فيكون مرادهم أنه ليس لنا ظنٌ يتوجّه إلى غير الكذب، وهو أبلغ من إثبات الظنّ به»<sup>(3)</sup>.

وكذلك بيّن -رحمه الله- ما تفيده السياقات المتعدّدة في القرآن، من مثل قوله تعالى: (لَكِنَّ الرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا) النساء/ 162، حيث جاء قوله تعالى (والمقيمين الصلاة) في سياق المدح. وجاء قوله تعالى (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ) الماعون/4. في سياق الذمّ<sup>(4)</sup>، وذكر أنّ الكلام قد يرد في سياق الامتحان والامتحان<sup>(5)</sup>، والثناء<sup>(6)</sup>، والإنكار<sup>(7)</sup>.

(1) السراج المنير: 1/212.

(2) م. ن. 3/49.

(3) م. ن. 3/49.

(4) انظر: السراج المنير: 1/22.

(5) انظر: م. ن. 3/126.

(6) انظر: م. ن. 3/166.

(7) انظر: م. ن. 3/215.

ثالثاً: القرآن الكريم مُحَكَّم باعتبارٍ ومتشابه باعتبار آخر (1):

المتشابه ما يكون مُلتبساً<sup>(2)</sup>، وهو الذي استأثر الله بعلمه<sup>(3)</sup>. أما المُحَكَّم، فليس فيه التباس<sup>(4)</sup>. وشأنُ الصادقين أن يَزُدُوا المتشابه إلى المُحَكَّم. وأمام سؤالٍ لِمَ جاء القرآن كله مرةً مُحَكَّمًا كما في قوله تعالى: (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ) هود/1، وجُعِلَ كُلُّه متشابهاً في موضعٍ آخر في قوله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا) (الزمر/23)؟ أفاد الشربيني بأن معنى كونه مُحَكَّمًا أنَّ آياته محفوظةٌ من الضعف والفساد؛ وأما أنه متشابه فمردهُ إلى أنَّ آياته يشبه بعضها بعضاً صحَّةً في المعنى وجزالةً في اللفظ<sup>(5)</sup>. وهو المراد بكونه مُحَكَّمًا باعتبارٍ ومتشابهاً باعتبار. ورأى أنَّ المحكم يجب أن يكون مبيَّناً، وأنَّ المتشابه هو المُجَمَّل<sup>(6)</sup>.

مثال ذلك ما ذكره عند قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ) سورة الرحمن/2-1. موردًا تساؤلاً عن كيفية الجمع بين هذه الآية وقوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) آل عمران/7. فأجاب عن ذلك وفق القواعد المنقذمة، ومفادُ الجواب أنَّ «المراد لا يعلمه من تلقاء نفسه»<sup>(7)</sup>.

رابعاً: الأمر المُطَلَق في القرآن يفيد الوجوب<sup>(8)</sup>:

لا شكَّ أنَّ هذه القاعدة مفادها أنَّ الأمر للوجوب ما لم يصرفه عن ذلك صارفٌ كالقرينة المفيدة لذلك.

وهذه القاعدة كثيراً ما وجدنا الشربيني يعتمدها في تفسيره، ويطبِّقها عند الاستدلال التشريعي، من ذلك ما جاء عند قوله تعالى: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) النور/63. حيث قال: «الآية تدلُّ على أنَّ الأمر للوجوب؛ لأن تارك الأمور مخالف للأمر، ومخالف الأمر يستحقُّ العذاب، ولا معنى

(1) انظر: قواعد التفسير، خالد السبتي، دار ابن عفان، 1421هـ، ط1، 661.

(2) انظر: السراج المنير: 3/453.

(3) انظر: م. ن. 1/19 - 2/326.

(4) انظر: م. ن. 3/453.

(5) انظر: م. ن. 1/162 - 3/356.

(6) انظر: م. ن. 2/183.

(7) م. ن. 4/157.

(8) انظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي: 2/8.

للوّجوب إلا ذلك»<sup>(1)</sup>.

وفي الوقت عينه أكد الشربيني على أنّ الأمر قد يخرج عن الوجوب لدواعٍ، منها الإباحة، كما في قوله تعالى: (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى) طه/54. أو أن يرد على سبيل التهديد والوعيد<sup>(2)</sup>، كقوله تعالى: (قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) إبراهيم/30. أو أن يفيد الإهانة والتوبيخ<sup>(3)</sup> كقوله تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ وَفَّعُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) الأنعام/30.

#### خامساً: يُكره التكرار إلا إن كان لفائدة كالتعظيم والتهويل<sup>(4)</sup>:

الأصل في المفسر اتقاء القول بالتكرار ما أمكنه<sup>(5)</sup>، كما أنّ التكرار يحسن عند الفائدة، كتكرار كلمة «لدى» في قوله تعالى: (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) مريم/44. وذلك للتباعد بينهما أو لرفع توهم المجاز<sup>(6)</sup>، كقوله تعالى: (كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) النساء/164. وتكرار قوله تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) القمر/17. الذي يدعو إلى تجدد الاعتاض؛ لأنّ لكلّ نبياً من تلك الأنبياء ما يستحق اعتباراً خاصاً<sup>(7)</sup>. والتكرار سمة من سمات البيان العربي إن حمل معنى زائداً كالتوكيد، ورفع الإيهام، والإبهام، والمبالغة<sup>(8)</sup>. ولقد سار الشربيني سير العلماء في تقرير قواعد التكرار<sup>(9)</sup>؛ من ذلك قوله بعدم جواز التكرار في موضع واحد<sup>(10)</sup>، لذا لم يكن يجازف بالقول بالتكرار دون تبيين، وكان يحرص على إجراء الكلام على أصوله، ويدفع القول بالتكرار لغير فائدة، ومن ذلك أنه لم يرد تكررًا في قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا

(1) السراج المنير: 2/508.

(2) انظر: السراج المنير: 2/143 - 186.

(3) انظر: م. ن. 3/491.

(4) انظر: التسهيل، لابن جزي: 2/123.

(5) انظر: الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1974م. 4/229.

(6) انظر: م. ن. 3/223.

(7) انظر: الكشف، للزمخشري: دار الكتاب العربي، 1407هـ. ط3، 4/439.

(8) انظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 149.

(9) انظر: السراج المنير: 3/394 - 4/376.

(10) انظر: م. ن. 3/302.

بَعْتَهُ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).  
النازعات/187. وذلك «لأن السؤال الأول عن وقت قيام الساعة، والثاني عن كونه  
ثقل الساعة وشدتها ومهابتها، فلا يلزم التكرار»<sup>(1)</sup>. ومثله في قوله تعالى: (وَيُرِيدُ اللَّهُ  
أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ  
الْمُجْرِمُونَ (8)) سورة الأنفال. حيث رأى أن المعنيين متباينان<sup>(2)</sup>.

ومن لطائف التكرار التي ذكرها الشربيني أن يرد تطبيبا لخواطر المؤمنين وتعظيما  
لشأنهم<sup>(3)</sup>، كما في قوله تعالى: (قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ  
اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ  
رَءُوفٌ رَحِيمٌ) التوبة/117.

#### سادسا: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب<sup>(4)</sup>:

هذه القاعدة كانت عمدة عند المفسرين السابقين واللاحقين، والشربيني كان ممن  
انطلق من هذه القاعدة في تفسيره في غير موضع، من ذلك ما جاء عند تفسير  
قوله تعالى: (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا  
يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)  
التوبة/91. أي: ليس إلى ذمهم ولومهم طريق، سواء أكان ذلك في أنفسهم أو في  
أموالهم؛ وذلك «لإباحة الشرع بدليل منفصل؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص  
السبب»<sup>(5)</sup>. ومن ذلك قوله تعالى: (أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) الانفطار/6.  
فقد تباينت الأقوال في من نزلت فيه الآية؛ ومما جاء في نزولها عن ابن عباس أن  
الإنسان هنا الوليد بن المغيرة، وعن عكرمة أنه أبي بن خلف، وقيل: نزلت في أبي  
الأشد بن كلدة الجمحي<sup>(6)</sup>. وقيل: نزلت في الأسود بن شريق<sup>(7)</sup>. لكن الشربيني ذهب  
إلى أن هذه الآية تتناول جميع العصاة؛ معللا ذلك بأن الاعتبار بعموم اللفظ لا

(1) م. ن. 1/429.

(2) انظر تفصيل هذا التباين في السراج المنير: 1/441 - 458 - 2/208 - 209.

(3) انظر: م. ن. 1/517.

(4) انظر: الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله الدهلوي، دار الصحوة، القاهرة، 1986م، ط2، ص176، وهذه  
القاعدة ليست على إطلاقها، وقد فصل القول فيها الإمام الزركشي في البحر المحیط، دار الكتب العلمية، بيروت،  
2000م، ط1، 2/352.

(5) السراج المنير: 1/506.

(6) انظر: تفسير القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964م، ط2، 19/245.

(7) انظر: تفسير البغوي، دار طيبة، 1997م، ط4، 8/356.

بخصوص السبب<sup>(1)</sup>.

### سابعًا: النكرة في سياق النفي تعم:

ذكر العلماء أهم الصيغ التي تدلُّ على العموم، منها: الأسماء الموصولة، وأسماء الشرط، وأسماء الاستفهام، والمعرف بـأل، والمضاف إلى معرفة، ومنها أيضًا ورود النكرة في سياق النفي، أو النهي، أو الشرط<sup>(2)</sup>؛ فإن جاءت في سياق الإثبات لم تُعد العموم<sup>(3)</sup>.

وقد التزم الشربيني في تفسيره بهذه القواعد، وقد اعتمدها في عدة مواطن؛ من ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُعْرِفُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) النساء/152. فبيِّن أنَّ كلمة «أحد» يقتضي متعدّدًا وذلك لعمومه، لكونه وقع في سياق النفي<sup>(4)</sup>. والأمر عينه فعَله عند تفسير آية (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) الأحزاب/36. حيث تفيد كلمتا «مؤمن ومؤمنة» العموم؛ لوقوعهما في سياق النفي<sup>(5)</sup>.

### ثامنًا: حذف المتعلّق يفيد تعميم المعنى المناسب له<sup>(6)</sup>:

يتعلق الفعل -أو ما كان بمعناه- بشيء؛ ثم قد يُحذف هذا المتعلّق لأغراض بلاغيّة أو معنويّة؛ بحيث يكون الحذف أبلغ من التصريح بهذا المتعلّق أو ذاك المفعول<sup>(7)</sup>. وهذا ملحوظ كثيرًا في كتاب الله، وقد اهتم المفسّرون بإيلائه العناية المطلوبة، والكشف عن أغراض حذف المتعلّق، والشربيني من هؤلاء المفسّرين؛ حيث بيّن جوانب من أغراض الحذف. من ذلك ما أورده عند قوله تعالى: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا) التغابن/16. فقد فسّر (واسمعوا) بأنها: «وأطيعوا»، ولفّت إلى أنّ حذف متعلّق (واسمعوا) قد جاء «ليصدق الأمر بكل طاعة»<sup>(8)</sup>. ومن ذلك

(1) انظر: السراج المنير: 4/361.

(2) انظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي: 2/6.

(3) انظر: دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي، ص 413.

(4) انظر: السراج المنير: 1/273.

(5) انظر: م. ن. 3/212. وانظر: 4/275.

(6) انظر: القواعد الحسان، للسعدي، ص 43.

(7) انظر: م. ن. ص 43.

(8) السراج المنير: 4/221.

أيضاً ما جاء عند قوله تعالى: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) الطلاق/3. فقد فسّر (حسبه) بأنه «كافيه ما أهمه، وحذف المتعلق للتعميم»<sup>(1)</sup>. وقد يكون المراد من حذف المتعلق اختصار اللفظ<sup>(2)</sup> كما في قوله تعالى: (قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) التحريم/3.

تاسعاً: المطلق من الأسماء يتناول الكامل من المسميات<sup>(3)</sup>:

هذه القاعدة مفادها أنّ الشيء إذا أُطلق ينصرف إلى فرده الكامل ما لم يقم الدليل على خلافه<sup>(4)</sup>. كالماء إذا أُطلق انصرف إلى الكامل منه، وكذلك إذا أُطلق النكاح انصرف إلى الخالي عن وطء، والواجبات المطلقة تقتضي أن تكون سالمة من العيوب<sup>(5)</sup>.

هذا الملمح كان حاضرًا في تفسير الشربيني، وقد أشار إليه في مواضع عدة من كتابه، منها: عند قوله تعالى: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) الكهف/84. حيث ذهب إلى أن «التمكين الكامل في الدين هو النبوة»<sup>(6)</sup>.

وعند قوله تعالى: (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) النمل/19. قال الشربيني: «الصالح الكامل هو الذي لا يعصي الله تعالى، ولا يفعل معصية، ولا يهمل بمعصية وهذه درجة عالية»<sup>(7)</sup>.

وعند قوله تعالى: (وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) القصص/53. قال: «الكامل الذي ليس وراءه إلا الباطل»<sup>(8)</sup>.

(1) م. ن. 4/227.

(2) انظر: م. ن. 4/235.

(3) انظر: شرح الكوكب المنير، لابن النجار، مكتبة العبيكان، الرياض، 1997م. ط2، 3/409.

(4) الآيات البيّنات على شرح جمع الجوامع، لابن قاسم العبادي: 3/231.

(5) انظر: شرح الكوكب المنير، لابن النجار: 3/409.

(6) السراج المنير: 2/316.

(7) م. ن. 3/62.

(8) م. ن. 3/105.

## عاشراً: في زيادة البناء زيادةً في المعنى<sup>(1)</sup>:

ذلك لأنَّ كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى<sup>(2)</sup>، ولقد كانت هذه القاعدة حاضرةً في كلام المفسرين، ومن بينهم الخطيب الشربيني، الذي التفَتَ إلى هذا عند تفسير البسمة في قوله تعالى: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) الفاتحة/1. قال -رحمه الله-: «والرحمن أبلغ من الرحيم؛ لأنَّ زيادة البناء تدلُّ على زيادة المعنى»<sup>(3)</sup>. ومثَّل لذلك بكلمتي (قَطَعَ) بالتخفيف، و(قَطَعَ) بالتشديد. ثم ذَكَرَ إيراداً يقول: أليس «حَذَرَ» أبلغ من «حاذر»؟ ما يُفيد أنَّ زيادة البناء هنا لم تحمل معنىً زائداً. فأجاب الشربيني بجوابين: الأول: أنَّ ذلك أكثرُ لا كَلِي. والثاني: أنَّ القاعدة تنطبق على الكلام إذا كان المتلاقيان في الاشتقاق متَّحدي النوع في المعنى، وليس كذلك حذر وحاذر<sup>(4)</sup>.

ومن الأمثلة على ذلك ما أورده عند قوله تعالى: (أَمْ نَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) المؤمنون/72. حيث رأى في كلمة «خراج» زيادةً معنى عن كلمة «خَرْج»<sup>(5)</sup>. كما وجد أنَّ في (يلق آثامًا) في قوله تعالى (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يَلْقَ أَثَامًا) الفرقان/68 زيادةً معنى عن قولنا «يأثم»، ومردُّ ذلك إلى زيادة المبنى<sup>(6)</sup>.

## الخاتمة:

بعد هذه الجولة مع الخطيب الشربيني التي أوقفتنا على منهجه، وعلى حرصه على الالتزام بقواعد تفسير النصوص، وإطلعنا على نماذج من توظيف هذه القواعد وتطبيقاتها الموثقة في ثنايا كتابه (السراج المنير) نقف على النتائج والتوصيات الآتية:

- كان الخطيب الشربيني ممن أحاط بمُجمل المعارف الشرعية التي تُحوِّله خوض غمار التفسير.
- امتلك الشربيني أدوات البحث، فكان دقيقاً في اختياراته وترجيحاته وعباراته التي تميَّزت بالدقَّة، والسلاسة، والبُعد عن التعقيد.
- ألَمَّ الشربيني بقواعد تفسير النصوص، وسار على منهاج المفسرين في الالتزام بقواعد التفسير.

(1) انظر: معترك الأقران في إجاز القرآن، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م. ط1، 1/271.

(2) البرهان في علوم القرآن، للزركشي: 2/477.

(3) السراج المنير: 1/13.

(4) انظر: م. ن. 1/13.

(5) انظر: م. ن. 2/462.

(6) انظر: م. ن. 3/23.

وأصوله.

- أحسن الشربيني توظيف القواعد، وكان موفقاً في استخدامها وتطبيقها على الآيات القرآنية دون تكلف.
  - الشربيني وإن كان متأخراً لكنه استطاع أن يفيد من عمل المتقدمين، وفي الوقت عينه شكّل تفسيره (رغم بعض الشوائب) إضافةً تمثّلت في حُسن عَرْضِه - متجاوزاً تكلف صياغة المتأخّرين - إلى جانب اختياراته وتحقيقاته واستدراكاته.
- أخيراً يوصي الباحث بإبلاء التفاسير المتأخّرة عنايةً خاصّة، وإبراز ما فيها من جوانب لم تتلّ المعالجة الكافية، ومن ذلك الأثر الذي تركته التبدّلات العلميّة والاجتماعيّة -التي طبّعت الحياة الثقافيّة- في كتب المفسّرين المتأخّرين.

## المصادر والمراجع:

### القرآن الكريم

- الآيات البيّنات على شرح جمع الجوامع، لابن قاسم العبادي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، الهيئة المصرية العامة، 1974م.
- إتمام الأعلام، نزار أباطة، ومطبع الحافظ، دار صادر، ط1، بيروت، 1999م.
- اختيارات الخطيب الشربيني في التفسير جمعاً ودراسة (الأجزاء: من السابع إلى الثاني عشر من القرآن الكريم)، إيمان الريح أحمد، جامعة أم درمان الإسلامية، 2010م.
- البحر المحيط، للزركشي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2000م.
- البرهان في علوم القرآن، للزركشي: البابي الحلبي، ط1، القاهرة، 1957م.
- تاج العروس، للزبيدي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1965م.
- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2014م.
- التسهيل إلى علوم التنزيل، لابن جزى محمد بن أحمد، دار الأرقم، ط1، 1416هـ. بيروت.
- التعريفات، علي بن أحمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1983م.
- تفسير البغوي، حسين بن مسعود البغوي، دار طيبة، ط4، 1997م.
- تفسير البيضاوي، عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1418هـ.
- تفسير القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب المصرية، ط2، القاهرة، 1964م.
- التفسير الكبير، محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، ط3، بيروت، 1420.
- التفسير والمفسّرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة.
- تكملة معجم المؤلّفين، محمد خير يوسف، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 1997م.
- خلاصة الأثر، للمحبي، دار صادر، بيروت.
- الخطيب الشربيني ومنهجه في التفسير، ثقل بن سائر الشمري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، مطبعة المدني، ط1، 1991م.
- دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي، ط14، الرياض، 2005م.

الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1972م.

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.

روح المعاني، محمود بن عبد الله الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

السراج المنير، للخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2017م.

سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت.

سنن الترمذي، محمد بن عيسى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

شذرات الذهب، عبد الحي بن أحمد بن العماد، دار ابن كثير، دمشق، 1406هـ.

شرح الكوكب المنير، لابن النجار، مكتبة العبيكان، ط2، الرياض، 1997م.

الضوء اللامع، للسخاوي، دار مكتبة الحياة، ط1، بيروت.

طبقات المفسرين، للأدبني، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1، 1997م.

العلامة الخطيب الشربيني ومنهجه في تفسير السراج المنير، وفاء محمود سعداوي، جامعة الأزهر، 2007م.

غمز عيون البصائر، أحمد بن محمد الحموي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1985م.

الفوز الكبير في أصول التفسير، ولي الله الدهلوي، دار الصحوة، ط2، القاهرة، 1986م.

القواعد الحسان، عبد الرحمن السدي، دار الرشد، ط1، 1999م.

قواعد التفسير، خالد السبت، دار ابن عفان، ط1، 1421هـ.

القواعد المنثورة، للزركشي، وزارة الأوقاف، الكويت، ط2، 1405هـ.

الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ.

الكليات، لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1998م.

كنز العمال، للمتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت. د. ت.

الكواكب السائرة، محمود بن محمد الغزي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1997م.

لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، ط1، بيروت.

المحكم والمحيط الأعظم، علي بن إسماعيل بن سيده، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م.

معترك الأقران في إعجاز القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1988م.

معجم المؤلفين، عمر كحالة، مكتبة المثنى، بيروت.

معجم المفسرين، عادل نويهض، مؤسسة نويهض، بيروت، ط3، 1988م.

مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري، المكتبة العصرية، ط1، 2005م. بيروت.

منهج الخطيب الشربيني في القراءات القرآنية في تفسيره السراج المنير، محمد خالد الشقافي، الجامعة الإسلامية بغزة، 2020م.

## تنظيم «الدولة الإسلامية» النشأة والتطور وأحلام الخلافة د. زينه إبراهيم حبلي (1)

### ملخص

عُدَّ إنهاء أزمة العلاقة بين العراق والكويت عام 1991 نقطة تحوّل في تاريخ منطقة الشرق الأوسط وتياراتها السياسيّة والجهاديّة بعيد انتهاء العمليّات العسكريّة لحرب الخليج الأولى. فكانت بداية مرحلة تاريخيّة جديدة جاءت عقب نهاية حقبة حرب أفغانستان، 1989 وبدء عودة عناصر الجهاديين العرب إلى المنطقة العربيّة الذين شاركوا إلى جانب الأفغان في حربهم ضدّ الاتحاد السوفياتيّ. ثمّ جاء الغزو الأميركيّ للعراق، وما انتجته هذا الغزو من فوضى وحروب أهليّة طائفية زكّتها السياسات الفاشلة لحكّام العراق، أنّ فتح الباب واسعاً أمام التيارات والحركات الجهاديّة لتتخذ من هذه السياسة مدخلاً لتفرض سيطرتها على أراض واسعة من العراق؛ ثمّ جاءت الحرب السوريّة لتفتح الطريق، ويجتاز «تنظيم الدولة» الحدود ويتمدد في الأراضي السوريّة، ويمارس أيديولوجيته وتطرّفه وإرهابه.

الكلمات المفتاحيّة: تنظيم الدولة الإسلاميّة، داعش، التطرّف، الإرهاب، الخلافة، أبو بكر البغداديّ، التحالف الدوليّ، الولايات المتحدة الأميركيّة.

### مقدمة

جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول 2001 في الولايات المتّحدة الأميركيّة، وما تلاها من إعلان الحرب على بعض الجماعات الإسلاميّة، أن ألقت الضوء على الحركات والتنظيمات الإسلاميّة في المنطقة العربيّة، لدراستها والبحث عن أسباب نموّها واشتداد قوتها وتطرّف أفعالها، والبحث عن المنطلقات الأساسيّة التي ساهمت في تبلور أفكارها وأيديولوجيتها وسياستها في المنطقة، على اعتبار أنّ الدولة الإسلاميّة ضرورة دينيّة تشكّل حاضنة للدين وراعية له، فطغت السياسة والحركات الجهاديّة على المفاهيم الأخرى في فكر الحركات والتنظيمات الإسلاميّة. وأبرز مثال على هذه الحركات كان إعلان «تنظيم الدولة الإسلاميّة في العراق والشام»؛ ثمّ إعلان «دولة الخلافة» من قبل أبو بكر البغداديّ أمير «التنظيم». فمنذ

(1) أستاذة مساعدة في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة الجامعة اللبنانيّة، قسم التاريخ [com.hotmail@zeinahabli](mailto:com.hotmail@zeinahabli)

أن احتلَّ «تنظيم الدولة الإسلاميَّة» مناطق شاسعة في شمال غرب العراق وشرق سورية صيف العام 2014، وممارسته مع أعدائه لمستوى عالٍ من العنف والتطرّف والإرهاب، بدأت التساؤلات حول أصول أفكار هذا «التنظيم» الدينيَّة المتشدّدة، وحول الأسباب التي أدت إلى التحوّل من السلفيَّة كشرعية إسلاميَّة، إلى حركة سياسيَّة جهاديَّة تتخذ العنف والتطرّف وسيلة؟ ثمّ إلى إعلان «الدولة الإسلاميَّة» بمفهومها الواسع. كيف استطاع «تنظيم الدولة الإسلاميَّة» تأمين موارده الماديَّة والبشريَّة على الرغم من سياسة تضيق الخناق عليه من دول التحالف الغربيّ؟ وما هي عوامل استمراريَّة ومستقبل «تنظيم الدولة الإسلاميَّة»؟

### من السلفيَّة إلى «تنظيم الدولة الإسلاميَّة»

أظهر «تنظيم الدولة الإسلاميَّة» نفسه كمثل حقيقيّ للإسلام والعودة إلى الأصول الأولى له. وهناك العديد من الحركات الإسلاميَّة التي ظهرت حديثاً بعد مرحلة الاستعمار وتوحي بأنها هي الأخرى سلفيَّة، منها الوهابيَّة المنتشرة في المملكة العربيَّة السعوديَّة<sup>(1)</sup>، والتي تعود نشأتها إلى مؤسسها محمد بن عبد الوهاب الذي عاش في القرن الثامن عشر الميلاديّ، وساعد في ذلك الوقت في تأسيس الدولة السعوديَّة الأولى<sup>(2)</sup>، وتمتدّ الوهابيَّة بأصولها للفقهاء ابن تيميَّة، ومن قبله للإمام الفقيه أحمد بن حنبل<sup>(3)</sup> اللذين يناديان بوجود العودة إلى صفاء ونقاء الدين كما طبَّقه المسلمون الأوائل. السلفيَّة والإسلام السياسيّ يحثّان على المثل والأخلاق التي تمنع نوع التطرّف والعنف الذي يطبّقه بعض الحركات الجهاديَّة في الوقت الحالي<sup>(4)</sup>، كما أنّ الشعور بالغضب من الحاكم وحده لا يؤدّي إلى الانضمام إلى الحركات الجهاديَّة المتطرّفة، بل هناك دوافع أخرى منها الأفكار التي يبنيها منظرو الحركات الجهاديَّة الحاليين، ورجال الدين التابعين في عقول الشباب المنتسبين الجدد، على أنّ هناك بعض أوجه التشابه بين الفكر الدينيّ للحركات الجهاديَّة والسلفيَّة، منها أنّ الوهابيَّة ترفض المفاهيم المتعلّقة بعلم الكلام (الفلسفة)، والصوفيَّة (الروحانيَّة الإسلاميَّة)، والعلة (المقاصد

(1) طارق حمو : أفكار في الإسلام السياسي، المركز الكردي للدراسات، 2018-3-3 على الرابط <http://www.net.nlka>

(2) جبران شاميَّة: الإسلام هل يقدم للعالم نظريَّة الحكم ، دار الأبحاث والنشر، لبنان، لا تاريخ نشر، ص 450.

(3) جيم موير BBC News عربي 27 أبريل/ نيسان 2016 على الرابط <http://www.bbc.com>

(4) مجموعة مؤلّفين: إشكاليَّة الدولة والإسلام السياسيّ قبل وبعد ثورات الربيع العربيّ، المركز الديمقراطيّ العربيّ للدراسات الاستراتيجيةَّة والسياسيَّة الاقتصاديَّة، الطبعة الأولى، برلين، 2018، ص 21.

الدينيّة)، والمجاز (الاستعارة)، والبدعة باعتبار الأخيرة ابتداع أمور جديدة ليس لها أصول دينيّة ولم يمارسها المسلمون الأول. إلا أنّ تركيز رجال الدين الوهابيين على البدعة باعتبارها شركاً بالله يخلق مساحة خطيرة في بعض الأحيان، تؤدّي إلى وصف المسلم المبتدع بأنّه مرتدّ. كما ويعتبر اتخاذ قبور الأولياء والتوسّل إليهم بالدعاء إلى الله، على سبيل المثال، أمراً يؤدّي إلى خروج الفرد من ملة الإسلام، وغيرها من الممارسات التي تصنّف تحت اسم البدعة لم يمارسها المسلمون الأوائل منذ عهد الرسول (ص). وبينما يتفق عموم المسلمين على أنّ البدعة محرّمة في الدين، يذهب رجال الدين الوهابيون خطوة إلى الأمام بإعطاء اسم البدعة على الكثير من الممارسات التي يعتبرها المسلمون المعتدلون جائزة، مرجعين ذلك إلى موقف ابن تيميّة المتشدّد.

ومن خلال قانون الجزاء الذي تبنته المملكة العربيّة السعوديّة، والذي تمارسه بصورة أخفّ بعض الدول الإسلاميّة، أخذ «تنظيم الدولة الإسلاميّة» وهو إحدى الحركات الجهاديّة التي تطبّق سياسة العنف والتطرّف والقتل مع أعدائها، هذا القانون مع المغالاة فيه، وبذلك يكون مفهوم الولاء والبراء (أي الولاء للإسلام والتكفّر للبدع) والتوحيد (أي وحدانيّة الله) أكثر ما تمسّك به «التنظيم»؛ وكلّ هذا قد أخذه «تنظيم الدولة» من الوهابيّة وغالى به لأبعد حدود التطرّف، على الرغم من أنّ هذين المفهومين يطبّقان في السلفيّة التقليديّة. ووفقاً لمفهوم الولاء والبراء ينبغي على المسلم ليس فقط أن يبغض الممارسات غير الإسلاميّة وغير المسلمين، بل ينبغي على المسلم الحقيقيّ رفض الممارسات غير الإسلاميّة، ورفض غير المسلمين بكلّ جوارحهم. وظهر ذلك في كتابات محمد بن عبد الوهاب نفسه إذ قال: «الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وحّد الله وترك الشرك، إلاّ بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض»<sup>(1)</sup>، وهذا ما ينبغي على أفراد «تنظيم الدولة» إظهار العداوة ليس للمشركين فقط، وإنّما للمسلمين الذين لا يستوفون شروط التوحيد من خلال الإقرار بوحدانيّة الله.

يشهد على ذلك أفعالهم في المناطق التي خضعت «لتنظيم الدولة» من هدم رموز الشرك، وأضرحة المتصوّفين والشيعة، وتدمير المساجد وغيرها... إنّ «تنظيم الدولة الإسلاميّة» وإن كان يشترك مع تنظيم «القاعدة» وغيرها من الجماعات السلفيّة

(1) محمد بن سعيد الفحطاني: الولاء والبراء في الإسلام، الطبعة السادسة، دار طيبة، مكّة المكرّمة، 1413هـ، ص 11. ويستند في قوله هذا في القرآن الكريم في سورة المجادلة الآية 22.

الجهاديّة بالأمر العقائديّة، لكنّه يختلف عنهم بأن جعل «دولة الخلافة» دولة بالفعل، وجاء تشريعه قتل المدنيين من المسيحيّين والشيعة، وتنجير المساجد، والتوسّع الكبير في العمليّات الانتحاريّة منفرداً عن الجماعات الجهاديّة الأخرى، حتى أصبحت قائمة الأهداف بالنسبة له كبيرة جداً<sup>(1)</sup>. أمّا عن طريقة تمديد دولة «تنظيم الدولة الإسلاميّة» وإدارتها، فيصفاها أحد أبرز منظري «تنظيم الدولة» بأنّها تمرّ بثلاث مراحل هي: أولاً: شوكة النكاية والإنهاك، وهي المرحلة التي يعمل مسلحو «التنظيم» على إنهاءك الخصم، وضرب مقدّراته بعمليات نوعيّة وكبيرة، وتشتيت جهوده من ضرب الوزارات أو استهداف الأسواق أو دوائر أو مناطق شعبيّة أو غيرها، وتتوافق مع هذه المرحلة جذب شباب جدد للعمل الجهادي، وإنشاء شبكة دعم لوجستيّ منها تأمين المال ومحطّة انتقال الأفراد وإيواء العناصر والإعلام<sup>(2)</sup>.

المرحلة الثانيّة تسمّى بمرحلة إدارة التوحّش، حيث يسيطر التنظيم على دولة أو مدينة أو حتّى قريّة، وبعدها تتمثّل في إدارة حاجيات الناس من توفير الطعام والعلاج، وحفظ الأمن والقضاء بين الناس، وتأمين الحدود من خلال مجموعات الردع لكلّ من يحاول الاعتداء، إضافة إلى إقامة التحصينات الدفاعيّة<sup>(3)</sup>. ثمّ تأتي المرحلة الثالثة والتي تسمى شوكة التمكين، وهي قيام الدولة المنشودة.

### النشأة والتطوّر من «التنظيم» إلى «دولة الخلافة»

إنّ تطوّر الفكر الدينيّ السلفيّ «لتنظيم الدولة الإسلاميّة» يمكن إرجاع جذوره إلى أنّه نتاج عمليّة دمج بين الفكر الدينيّ السلفيّ وبين التيارات الإسلاميّة الأخرى، لا سيّما جماعة الإخوان المسلمين التي نشأت في مصر، أو ما يمكن أن نسمّيه الإسلام السياسيّ. ويبدو أنّ أفكار سيّد قطب وحكمه بارتداد المجتمع عن الإسلام وترديّ هذا المجتمع في الجاهليّة لرفضه حكم الله<sup>(4)</sup> وبالتالي فإنّ دعوته للقطع مع «الأنظمة السياسيّة القائمة» وعلى مستوى كونيّ<sup>(5)</sup> قد شكّلت مصدر إلهام كبير

(1) محمد أبو رمان: مستقبل داعش عوامل القوّة والضعف، مؤسسة فريدريش إيبيرت، مكتب الأردن والعراق، عمّان، تشرين الثاني 2020، ص 10.

(2) ياسر جاسم قاسم: داعش خبايا وأسرار، البصرة، صيف 2016، ص 7 و ص 8.

(3) أبي بكر ناجي: إدارة التوحّش أخطر مرحلة ستمرّ بها الأمة، لا تاريخ، ص 11، و ص 15.

(4) عبد الوهاب الأفندي وآخرون: الحركات الإسلاميّة وأثرها في الاستقرار السياسيّ في العالم العربيّ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجيّة، أبو ظبي، 2002، ص ص 53-13.

(5) معتز الخطيب وآخرون: تنظيم «الدولة الإسلاميّة» النشأة، والتأثير، والمستقبل، الدار العربيّة للعلوم ناشرون ومركز الجزيرة للدراسات، الطبعة الأولى، الدوحة وبيروت، 2016، ص 43.

لعدد من جيل المتشددين في تسعينات القرن الماضي. تأثر بأفكاره أسامة بن لادن الذي أسس تنظيم «القاعدة» في أفغانستان كأداة للجهاد العالمي عام 1989، ونائبه المصري أيمن الظواهري القائد الحالي لتنظيم القاعدة التي انبثق عنها «تنظيم الدولة الإسلامية»، ووصف سيّد قطب بأنه فيلسوف «الثورة الإسلاميّة».

في عام 1979 شكّل غزو الاتحاد السوفياتي لأفغانستان، وما تلاه من احتلال دام عشر سنوات، عامل جذب للمجاهدين العرب وغيرهم من المجاهدين لإخراج الجيش السوفياتي من البلاد، وتلاقت هنا المصالح الأميركيّة الهادفة لمحاصرة الاتحاد السوفياتي واستنزاف قواه في الأرض الأفغانيّة، في حروب عصابات، ولقطع سبل التعاون بينه وبين الحكومات العربيّة، مع مصالح الحركات الإسلاميّة الراميّة لضرب السوفيات وإخراجهم من أفغانستان<sup>(1)</sup>. فجاءت تجربة الجهاد على أرض الواقع في أفغانستان مرحلة تكوين زعماء جهاديين سلفيين، وخبراء في القتال<sup>(2)</sup>. كان أبرزهم الأردنيّ أبو مصعب الزرقاويّ، الزعيم الروحيّ «لتنظيم الدولة الإسلاميّة» فيما بعد. ثمّ جاء احتلال العراق للكويت، وما تلاه من تحالف دوليّ تكوّن من أكثر من ثلاثين دولة لطرد القوات العراقيّة من الكويت وتحريرها<sup>(3)</sup>، ونجح التحالف في تحقيق أهدافه. اعتبر المجاهدون العرب هذا التحالف الدوليّ الذي اتخذ من جزيرة العرب مكاناً للتجمّع فيه، احتلالاً صليبيّاً لأرض الإسلام، وحنة لبقاء جيوش الغرب في المنطقة<sup>(4)</sup>، وما ضخامة عدد قوات التحالف الغربيّ والتي قدر عددها بمليون جنديّ إلاّ تأكيد لرأي المجاهدين.

عقب هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول 2001 على الولايات المتّحدة الأميركيّة، والتي اتهم بتنفيذها تنظيم «القاعدة» بقيادة أسامة بن لادن، شنّت الولايات المتحدة حرباً على الإرهاب بدأت فيها بالحرب على أفغانستان منذ العام 2001

(1) جامعة الشرق الأوسط، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور سعد فيصل السعد وإعداد الطالب علي دعسان الهقيش، بعنوان السياسة الخارجيّة الأميركيّة تجاه حركات الإسلام السياسيّ في العالم العربيّ 2001-2011، ص 83.

(2) شفيق شقير، الجذور الأيديولوجيّة لتنظيم الدولة الإسلاميّة، مركز الجزيرة للدراسات، 23 نوفمبر 2014، الرابط [net.aljazeera.studies//:https](https://net.aljazeera.studies)

(3) محمود محمد علي: المخطّط الأمريكيّ لاحتلال العراق، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الإسكندريّة، 2018، ص 14.

(4) عبد الله بن محمد: المذكرة الإستراتيجيّة، مؤسسة المأسدة الإعلاميّة (صوت شبكة شموخ الإسلام)، 1432 هـ 2011 م، ص 51، ورافد فاضل علي، القاعدة في بلاد الرافدين، مركز الجزيرة للدراسات، 19 سبتمبر 2010، الرابط [net.aljazeera.studies//:https](https://net.aljazeera.studies)

للقضاء على حركة «طالبان» الأفغانية التي حلت مكان تنظيم «القاعدة» هناك. انتقل على إثرها أبو مصعب الزرقاوي وغيره من الجهاديين ليستقروا في العراق، وأسس هناك جماعة «التوحيد والجهاد» بزعامته عام 2004، تلى ذلك مبايعته لزعيم تنظيم «القاعدة» أسامة بن لادن ليصبح اسم الجماعة «تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين»<sup>(1)</sup>، امتازت مجموعة الزرقاوي بامتلاكها إطاراً فكرياً مثلته العقيدة السلفية الجهادية. وبسبب انتشار جوّ الفوضى في العراق عقب السقوط السريع للنظام البعثي، وهو ما أتاح الفرصة لمجموعة الزرقاوي لأن تنشط في عملياتها ضدّ قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأميركية، وضدّ الأحزاب والشخصيات العراقية التي برزت في العراق بعد سقوط الرئيس صدام حسين.

نشطت مجموعة الزرقاوي على طول المحافظات التي تسكنها غالبية سنية وخصوصاً محافظة الأنبار غربي العراق، والتي أضحت معقلاً للزرقاوي وتنظيمه<sup>(2)</sup>. وقدمت «القاعدة» نفسها في العراق كمدافع عن أهل السنة فيه<sup>(3)</sup>، وكان خطابها موجهاً للعشائر السنية. كانت الهجمات بالسيارات المفخخة من أبرز أساليب تنظيم الزرقاوي، ووجهها ضدّ التحالف الغربي والشيعة فيه، وتميّزت ضربات تنظيمه بالدقة، فحصلت على تغطية إعلامية واسعة لأهميّة الأهداف التي نال منها والحجم الكبير للضحايا<sup>(4)</sup>، إلى أن أصبح واحداً من أقوى التنظيمات في الساحة العراقية، لكنّ الهجمات على المساجد والأسواق الشعبية، وعمليات القتل العنيفة، واستهداف الشيعة في العراق، لم ترق لابن لادن زعيم «القاعدة»، وأخذ التباين بين التنظيمين يظهر على الملأ، لكن جاء اغتيال الزرقاوي عام 2006، فانتقل فكره إلى تابعيه.

بعد أشهر ظهر تنظيمٌ أطلق على نفسه اسم «تنظيم الدولة الإسلامية في العراق» انضوى تحت لوائه فرع تنظيم «القاعدة» إلى جانب غيره من الفصائل المسلحة. على الرّغم من أنّ الأميركيين زادوا من عدد قواتهم، وعملوا على استمالة العشائر السنية بعد حصول أهل السنة في العراق على وعد بالحصول على وظائف والسيطرة على أمنهم، ممّا شكّل بينهم حالة رفض «لتنظيم الدولة» في العام 2010. قتل زعيم

(1) النهار ، وكالات 2014-01-17 من هي داعش؟ على الرابط <https://www.annahar.com>

(2) رافد فاضل علي: القاعدة في بلاد الرافدين، مركز الجزيرة للدراسات، 10 سبتمبر 2010 على الرابط <https://net.aljazeera.studies>

(3) براين مايكل جنكيز: تحالف عسكري بقيادة السعودية لمكافحة الإرهاب، مؤسسة رند، 2016، ص 2.

(4) سعد كنانة: تنظيم القاعدة والحركات الجهادية في العراق، دار أمانة للنشر والتوزيع، الأردن، 2011، ص 20.

«تنظيم الدولة الإسلامية في العراق»، وانكفاً على إثرها «التنظيم» إلى مناطق نائية، وتوارى أتباعه عن الأنظار، وخلفه في ذلك الوقت إبراهيم عواد البدري، وكنيته أبو بكر البغدادي.

خلال الأعوام 2011 و2013 شهدت بغداد وعدد من المدن الشماليّة والغربيّة احتجاجات شعبيةً لتعديل المسار الحكومي، والذهاب لتعزيز الهوية الوطنيّة للدولة، بدلاً من أسلمتها، إلا أنّ حكومة المالكي واجهتها بالقمع والقوة المفرطة. إذ كان التأثير الإيراني في عملية صنع القرار العراقيّ طاغياً، بالتزامن مع إرسال فصائل عراقية للقتال في سوريا<sup>(1)</sup>. وعلى الرغم من تأسيس مجالس الصحوات من قبل العشائر السنّة عام 2006 وصل عدد مقاتليها إلى ما يقارب 80 ألف مقاتل، ساعد في طرد «تنظيم القاعدة» من مناطق عديدة في العراق، أسرعت الحكومة العراقية إلى تفكيك مجالس الصحوات عام 2011، دون مبرر، وهو ما أسهم في ظهور تنظيم «داعش» في العراق فيما بعد. في خضمّ هذه الظروف المضطربة لاحت في الأفق الاستراتيجي بعض الأمور الخطيرة، تمسّ مستقبل العراق وسوريا، خاصة بعد التحوّلات التي شهدتها «تنظيم القاعدة» بعد مقتل الزرقاوي.

شهدت دمشق في العام 2011، وإثر اندلاع ثورات «الربيع العربي» في عدد من البلدان العربيّة ومنها سوريا، عدّة انفجارات بسيّارات مفخخة، تبين أنّ منفذها هو «جبهة النصرة» بزعامة أبي محمّد الجولاني، الذي أرسله البغدادي إلى سورية كجزء من التنظيم الناشط في العراق، وإعلانه في أبريل/ نيسان 2013 إقامة تنظيم «الدولة الإسلاميّة في العراق والشام» أو ما عرف إعلامياً بـ «داعش»، لكن في اليوم التالي أعلن الجولاني مبايعته تنظيم «القاعدة» أيمن الظواهري ورفض قرار البغدادي<sup>(2)</sup>. ولمّا بدأ تنظيم «جبهة النصرة» يتقلّب من تحت زعامة البغدادي سارع البغدادي إلى إعلان أنّ «النصرة» تحت قيادته تابعة لتنظيم «داعش» لكن قبيل نهاية العام اشتعل الخلاف والقتال بين «تنظيم الدولة الإسلاميّة» و«جبهة النصرة» وقتل المئات في الصدامات العنيفة بينهما. تمكّنت «جبهة النصرة» وحلفاؤها من إخراج «داعش» من شمال غرب سورية. لكنّ «داعش» استطاع السيطرة على مدينة الرقة السوريّة

(1) محمد العزاوي: العراق مرحلة جديدة من محاربة داعش. تريندز 13 أكتوبر 2021 ، الرابط <https://trendsre-//:https://org.searchc>

(2) وكالة الأناضول 2017-2-24 قصة داعش من الظهور إلى الضمور. الرابط <https://www.aa.com.tr>

وجعلها عاصمة له. ومع إعلان قيام «داعش» لوحظ حدوث تحوّل في استراتيجية العمليات العسكرية التي اتّبعها «التنظيم» في اتجاه السيطرة على أراض حيوية في دول مهمّة استراتيجية كالعراق وسورية، والسعي إلى استقطاب الكثير من الأجانب، عبر وسائل التواصل والمواقع الإلكترونية، ما دفع إلى التساؤل حول الطريقة التي تمّت بها الحملة، والترتيبات اللوجستية المنظمة في إيصال المقاتلين الأجانب إلى العراق وسوريا في أغسطس/ آب، 2014، ويذكر بأنّ عدد مقاتلي التنظيم في سوريا قد بلغ حينها 50000 مقاتل في سوريا و30000 مقاتل في العراق، وقد انضمّ للتنظيم أكثر من 40 ألف مقاتل أجنبيّ من 110 دول سافروا للانضمام إلى الصراع في سوريا والعراق، على إثر هذا التحوّل في استراتيجية «تنظيم الدولة الإسلامية» تمكّن من الاستيلاء على مساحة 100,000 كيلو متر مربع، يقطنها أكثر من 11 مليون نسمة، تقع غالبية هذه الأراضي في العراق وسوريا. وضمن هذه الاستراتيجية تمكّن «التنظيم» في الحادي عشر من يوليو/ تموز 2014 من السيطرة على مدينة الموصل ثاني أكبر المدن العراقية من حيث التعداد السكانيّ، بعد الانهيار السريع للجيش العراقيّ أمام مقاتلي «داعش»، فيما تابع تقدّم «التنظيم» جنوباً نحو بغداد والمناطق المحيطة.

وفي بداية 2014، تبرز «تنظيم القاعدة» من «تنظيم الدولة الإسلامية». وهكذا بعد نحو عشر سنوات من بداية نشأته خرج «تنظيم الدولة الإسلامية» من عباءة «تنظيم القاعدة»، بل وأصبح منافساً شرساً له.

بالنسبة إلى الوضع في العراق، شكّل العام 2014 فرصة سانحة لمّد سيطرة «تنظيم الدولة الإسلامية» فيه، بعد تغيّر السياسة الأميركية في المنطقة، جاء رحيل الأميركيين من العراق في نهاية عام 2011، ليدفع بالسياسات الطائفية لرئيس الوزراء العراقيّ نوري المالكي ويذكي نار الثورة في المناطق السنية، بعد إحساسهم بأنهم مهمشون ومضطهدون<sup>(1)</sup>. فقرّر حينها زعيم «تنظيم الدولة» التحرك واجتياح المناطق السنية بسرعة فائقة في يونيو/ حزيران 2014 مقدّماً نفسه كمدافع عن أهل السنة<sup>(2)</sup>، وخرجت من مخابئها الخلايا النائمة للسلفيين والمسليّين، وبعد الاستيلاء

(1) لينا الخطيب: استراتيجية تنظيم الدولة الإسلامية: باقية وتتمدد، مركز كارنيغي للشرق الأوسط، حزيران/ يونيو، 2015، بيروت، ص 15.

(2) حسن منيمنة: فيما يتعدّى القومية والدين من مظلومية السنة إلى الأمة السنية، منتدى فكرة، الرابط <https://www.org.washingtoninstitute>



الأطلسي والاتحاد الأوروبي<sup>(1)</sup>) لمحاربة «تنظيم الدولة الإسلامية»، وفي أكتوبر/ تشرين الأول 2016 انطلقت عمليات تحرير المحافظات من «داعش»، وشارك فيها الجيش العراقي والشرطة الاتحادية، وجهاز مكافحة الإرهاب، والحشد الشعبي، استطاع العراق في ديسمبر/ كانون الأول من عام 2017 من تحرير كامل أراضيه، وعلى الرغم من إعلان العراق عام 2017 بسط سيطرته على كامل أراضيه، فإن التنظيم استطاع العودة ولكن وفق استراتيجية مختلفة. منها استخدامه للخلايا النائمة داخل الأراضي العراقية، أو من خلال حرب العصابات، أو اختراق الحدود المشتركة بين القوات العراقية، وحرس حدود كردستان، وكذلك المناطق المشتركة بين الحشد الشعبي والجيش والشرطة.

في الأراضي السورية تمكنت قوات «سوريا الديمقراطية» من طرد «داعش» من الرقة في أكتوبر/ تشرين الأول، واستعادت الحكومة السورية في 2018 بعض جيوب «داعش» في مخيم اليرموك جنوبي دمشق، وبعض المناطق على الحدود مع هضبة الجولان، إلى أن تمكنت قوات «سوريا الديمقراطية» في 23 مارس/ آذار 2019 من السيطرة على قرية الباغوز آخر جيب لـ «داعش» في سوريا<sup>(2)</sup>.

### الاستراتيجية التي اعتمدها «تنظيم الدولة الإسلامية» والتي شكّلت عوامل نموه

شكّل إعلان الخلافة لتنظيم الدولة نقطة جذب لقطاعات مهمة من السكان في المشرق العربي ومن خارج المنطقة لا سيما من أوروبا. وتميّز التنظيم بأنه لا يعمل بعقلية التنظيمات الأخرى التي تخوض القتال والمعارك، بل يدير مختلف شؤون مناحي حياة مقاتليه والمواطنين الذين يعيشون في المناطق التي تخضع له، فعمل مبكراً على تطوير مؤسسات بيروقراطية، وأجهزة سياسية وعسكرية مترابطة، وبات يعمل كدولة مركزية مترابطة ذات توجهات دينية شمولية تهدف إلى التوسع العالمي، فللتنظيم هيكل هرمي يرأسه زعيم التنظيم، إضافة إلى أمراء وولاة للمناطق وما تسمى بـ «مجالس الشورى»، ناهيك عن وجود قيادات ميدانية، على أنّ هذا التدرج في الأمور التنظيمية يكتنفه سرية تامة. وقدّم «التنظيم» نفسه على أنّه ممثّل الإسلام

(1) Ministère de L'Europe Et Des Affaires Etrangé هل هزم تنظيم داعش؟ الرابط <https://www.ar/fr.gouv.diplomatie>

(2) العين الإخبارية، السبت 23/3/2019، من التأسيس إلى الانحيار 15 عاماً دموية لتنظيم داعش الإرهابي الرابط <https://al-ain.com>

السنيّ يتعرّض لخطر التمدّد الشيعيّ في المنطقة، إضافة إلى أنّه يقدّم نفسه أيضاً متصدياً للإمبرياليّة والديكتاتوريّة، على الرغم من إظهار نفسه كحركة سنيّة سلفيّة جهاديّة تسعى لإعادة حكم الدّين على طريق منهاج النبوة<sup>(1)</sup> وتسعى إلى إعادة الدّين كحاكم للمجتمع والدولة، وتطهيره من كافّة البدع والمحدثات التي لحقت به عبر الزمن، فهو متلبّس بالحدّثة التّقنيّة والآليّة ويستلهم الأطر التنظيميّة البيروقراطيّة في تكوينه وجهازه<sup>(2)</sup>. بعد شهور من إعلان الخلافة، انضمّ إلى صفوفها جماعة من المسلّحين في ليبيا أعلنت البيعة والولاء للبغداديّ. ولم يمرّ عام حتّى أصبح للتنظيم أفرع في إحدى عشرة دولة، على الرغم من أنّ الأراضي التي يسيطر عليها لا توجد إلّا في خمسة بلدان فقط، بما فيها العراق وسورية.

كان الهاجس الاقتصاديّ وتأمين الموارد الماليّة هي الهدف الرئيسيّ للتنظيم<sup>(3)</sup>، في بداية نشأته اعتمد على التمويل الخارجيّ بواسطة قنوات خاصّة سرّيّة عبر تحويل الأموال خوفاً من العقوبات الدوليّة، إلّا أنّه في مرحلة لاحقة بدأ الاعتماد على موارد ذاتيّة بعد سيطرته على حقول وآبار النفط والغاز في كلّ من سورية والعراق، وقيامه ببيع كمّيات عن طريق مهزّبين، إضافة إلى التجارة بالآثار والاحتياطات النقدية التي كانت في البنوك التي وضع يده عليها، وبيع القمح والمياه، وطلب الفدية مقابل إطلاق الرهائن الأجانب، وفرض المكوس والضرائب على السكّان المحليّين<sup>(4)</sup>. وبسبب غياب خطوط المجابهة مع النظام السوريّ، وقرّ لهذا التنظيم القدرة على الإمساك ببعض الأراضي، وتجنيد المقاتلين المحليّين والأجانب في الأراضي السوريّة. وأفاد «داعش» في الرقّة إفادة عظيمة من سياسة النظام السوريّ الخاصّة بسماع وصول خدمات الدولة الأساسيّة إلى السكّان المحليّين<sup>(5)</sup>، وبدفع رواتب الموظّفين الرسميين.

أمّا استراتيجيّة «داعش» البعيدة المدى لضمان إحكام قبضته على المناطق التي

(1) أبو بكر ناجي: إدارة التوحّش، لا تاريخ، ص 4.

(2) مجموعة مؤلّفين معنز الخطيب وآخرون: تنظيم «الدولة الإسلاميّة» النشأة، والتأثير، والمستقبل، مرجع سابق، ص 69.

(3) ياسر جاسم قاسم: داعش خبايا وأسرار، مرجع سابق، ص 9.

(4) بن كونوبال وآخرون: التغلّب على تنظيم الدولة الإسلاميّة، مصدر سابق، ص 2. الرابط <http://t/org.rang.www>

RR1562

(5) تقرير خاص لمجموعة الأزمات الدوليّة: استغلال الفوضى القاعدة وتنظيم الدولة الإسلاميّة، 15 آذار/ مارس 2016، ص 25.

سيطر عليها، فكانت استبدال المدارس بمؤسّسات دينيّة، وافتتح في الرقّة 24 مدرسة بهدف تربية جيل جديد متماشٍ مع أيديولوجيّته، وتدرس مناهج تعليميّة جديدة أقرتها الجماعة، ومنع النساء من تلقّي العلم<sup>(1)</sup>، ساعد ذلك على إظهار «تنظيم الدولة الإسلاميّة» كمنظمة تعمل على إعادة الأمن والاستقرار، الأمر الذي عزز جاذبيّته لدى السكّان المحليّين، وشكّل حالة جذب لعناصر أجنبيّة تحلم بالعيش داخل «دولة الخلافة».

أفاد «داعش» من حالة النعمة وضعف العلائق بين القبائل والعشائر، سواء في سوريّة أم في العراق مع الحكومة المركزيّة، فتودّد إلى القبائل في المناطق المهملة عبر المفاوضات والمال ليرسخ سيطرته فيها.

بيد أنّ استخدامه سلاح الإعلام كوسيلة إعلاميّة، حيث كان يبث أشرطة فيديو عن أعمال عنف كان يقوم بها، كانت وسيلته المفضّلة وتلعب دوراً مزدوجاً؛ فهي يمكن أن تكون وسيلة للتجنيد، لكنّها في الغالب تستخدم استكمالاً للجهد العسكريّ أو للتعويض عن أيّ تراجع، وكان ينشر مجلته الإلكترونيّة ويستخدم وسائل التواصل الاجتماعيّ ببراعة<sup>(2)</sup>، ساعده على ذلك أولئك الأجانب المنضوون تحت لوائه. واشتغل على الحرب النفسيّة بنشر صور مجسّدة للعنف، والتي تهدف إلى زرع الخوف في نفوس أعدائه وقاعدته على حدّ سواء. وامتلك أسلحة ثقيلة ونوعيّة تصل إلى صواريخ باليستيّة من طراز «سكود»، إضافة إلى مدافع ثقيلة ودبّابات ومصفّحات وغيرها.. ويقوم التنظيم بتصنيع بعض الأنواع من الأسلحة والذخائر وتطويرها، منها طائرات مسيّرة تحمل قنابل صغيرة لإلقائها على الأعداء.

### إعادة التموضع لـ «دولة الخلافة»

إنّ تجربة تنظيم «داعش» في العراق وسوريّة لا يمكن تكرارها في مكان آخر، بسبب ظروف الفوضى التي حلّت بالبلدين. لقد ساعدت الظروف «التنظيم» وجعلت «دولة الخلافة» ممكنة، من خلال دول عربيّة فاشلة تمتلك احتياطات نفطيّة هائلة. فمستقبل «التنظيم» لا يمكن تكراره في المنطقة، بل عبر ساحات قتال جديدة، سواء بالانضمام لحروب أهليّة قائمة، أو نشوء ملاذات آمنة، في ليبيا، وأفغانستان، وجنوب

(1) لينا الخطيب: استراتيجيّة تنظيم الدولة الإسلاميّة: باقية وتتمدّد، مرجع سابق، ص 14.

(2) آمنة فايد: تأثير الصورة كيف يستغلّ تنظيم «داعش» الإعلام المرئيّ؟ مركز الأهرام للدراسات السياسيّة والاستراتيجيّة،

يوليو 2021، ص 2. الرابط <http://eg.org.ahram.acpss/>

شرق آسيا، وأفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، أو في أي بيئة تؤمن «لداعش» الملاذ الآمن، كالتبيعة الجغرافية السهلة، وحدود يسهل اختراقها، أو ساحات قتال وحروب وفوضى.

حالياً نجد بأن الحرب الروسية الأوكرانية قد وقرت المكان المناسب لتمدّد في أوروبا الشرقية تنظيم «داعش» من خلال ظاهرة «المتطوعين» أو «المرتزقة» كوسيلة للقتال داخل أوكرانيا، واستقدام المقاتلين إلى تلك الأراضي سواء من طرف الولايات المتحدة الأميركية أم من طرف روسيا. وهكذا، سيّجّه التنظيم صوب الغرب في أوروبا، في محاولة منه لاستنزافه وتوظيف إمكاناته للبحث عن أرض جديدة يفتحها ويتمدّد بها، وسيغيّر تكتيكاته الحربية من خلال التخلّي عن نظرية قتال العدو القريب مقابل الاستفادة من الظرف الدولي واستثماره. فالتوقّف مؤقتاً عن جزء من الصراع في المشرق العربيّ مقابل التمدّد ناحية شرق أوروبا؛ وسيفيد التنظيم من الصراع بين روسيا والولايات المتحدة الأميركية. إذ أكّدت معظم التقارير الإعلامية انضمام ما يقارب 20 ألف مقاتل من 52 دولة للقتال داخل أوكرانيا<sup>(1)</sup>، أمّا أحد أهمّ انتصاراته هو تخلّي كلّ من الولايات المتحدة وروسيا عن دوريهما في مواجهة «التنظيم» في كلّ من العراق وسوريا.

إنّ عناصر تنظيم «داعش» وأتباعه ومجنّديه المحتملين ينجذبون له، لمجموعة من الأسباب تختلف بحسب الأشخاص وهروبهم من المظالم المحليّة، التي يقابلها «داعش» بحسّ الانتماء والتمكين، والإيمان بقيام «دولة الخلافة» حسب الشريعة الإسلامية من جديد. هذا الأمر يثبت استمرار قابليّة «التنظيم» على البقاء والتكيّف حسب الظروف والتعايش مع مختلف المعطيات<sup>(2)</sup>. فعناصر الجذب لا تنفذ، وبناء جيش من المجنّدين وزعماء جدد قائم من خلال قيادة عمليات محليّة فاعلة، سواء على أرض العراق أم سوريا، وفي مختلف بقاع الأرض على حدّ سواء، حيث لا تزال عمليّاته جارية في «ولاياته» النائبة. ولا يزال «التنظيم» ينعم بالتمويل الكافي، الذي يؤمّن له، إلى جانب استمرار أفكاره وأيديولوجيّته، ما يجعل خطره مستمراً ودائماً.

(1) منير أديب: مستقبل داعش بعد تنصيب الخليفة الثالث، النهار العربيّ، 2022-3-19 الرابط <https://www.com.annahar>

(2) عيدو ليفي: كيف نحول دون نهوض تنظيم «الدولة الإسلامية» في عام 2022 وما بعده، مقال منشور في المرصد السياسيّ، الرابط <https://www.washingtoninstitute.org>

## الخاتمة

على الرغم من توقّف التحالف الدولي لمحاربة تنظيم «داعش» الذي تترأسه الولايات المتحدة الأميركية، إلا أنّ إمكانية عودة «التنظيم» وبسط سيطرته على أجزاء واسعة في العراق وسوريا واستغلاله ظروف الفوضى، بات أمراً مستحيلاً. على أنّ عملياته لا تزال مستمرة في «ولاياته» البعيدة، والقيام ببعض العمليات في العراق ممكن الحدوث. لقد استخدم التنظيم تكتيكات عسكرية للتخفيف ممّا تعرّض له على الرغم من تراجعها، إلا أنّنا نعتبر ذلك انتصاراً من خلال تحكّمه في نفسه، فحافظ من خلال ذلك على نواة القوّة التي مكّنته في النهاية من الحفاظ على وجوده.

فالتنظيم ما يزال قادراً على صناعة مستقبله، وما يزال قادراً على المناورة والاستفادة من الصراعات والتناقضات الدوليّة، وبالتالي استغلال الحالة التي يعيشها المجتمع الدولي، وهنا استطاع تنظيم «داعش» توظيف الصراعات الدوليّة لمصلحته من خلال ظاهرة استقدام المقاتلين الأجانب كوسيلة للقتال داخل أوكرانيا، إذ تحدّث عن ذلك كلا الطرفين المتصارعين، أي الولايات المتحدة الأميركية ودولة روسيا، فشكّل ذلك فرصة للتمدّد نحو أوروبا الشرقية، واستنزاف الغرب مجدّداً داخل عقر داره، على أنّ ذلك لا يعني أنّه ترك مناطقه في المشرق العربي، إنّما ينتظر الفرصة المناسبة للعودة.

## قائمة المصادر والمراجع

- أبو رمان، محمد: مستقبل داعش عوامل القوّة والضعف، مؤسسة فريدريش إيبيرت، مكتب الأردن والعراق، عمان، تشرين الثاني 2020.
- الأفندي، عبد الوهاب وآخرون: الحركات الإسلامية وأثرها في الاستقرار السياسي في العالم العربي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، 2002.
- جامعة الشرق الأوسط، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور سعد فيصل السعد وإعداد الطالب علي ديسان الهقيش، بعنوان السياسة الخارجية الأميركية تجاه حركات الإسلام السياسي في العالم العربي 2011-2001.
- جنكيز، براين مايكل: تحالف عسكري بقيادة السعودية لمكافحة الإرهاب، مؤسسة رند، 2016.
- الخالد، غسان: «داعش» من خلافة الدولة إلى دولة الخلافة، دار الفرات للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 2015.
- الخطيب، لينا: استراتيجية تنظيم الدولة الإسلامية: باقية وتتمدد، مركز كارنيغي للشرق الأوسط، حزيران/ يونيو، 2015، بيروت.
- الخطيب، معتز وآخرون: تنظيم «الدولة الإسلامية» النشأة، والتأثير، والمستقبل، الدار العربية للعلوم ناشرون ومركز الجزيرة للدراسات، الطبعة الأولى، الدوحة وبيروت، 2016.
- جبران شامية: الإسلام هل يقدم للعالم نظرية الحكم، دار الأبحاث والنشر، لبنان، لا تاريخ نشر.
- علي، محمود محمد: المخطّط الأمريكي لاحتلال العراق، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الإسكندرية، 2018.
- قاسم، ياسر جاسم: داعش خبايا وأسرار، البصرة، صيف 2016.
- القحطاني، محمد بن سعيد: الولاء والبراء في الإسلام، الطبعة السادسة، دار طيبة، مكة المكرمة، 1413هـ.
- ناجي، أبي بكر: إدارة التوجّس أخطر مرحلة ستمرّ بها الأمة، لا تاريخ.
- كنانة، سعد: تنظيم القاعدة والحركات الجهادية في العراق، دار أمانة للنشر والتوزيع، الأردن، 2011.
- مجموعة مؤلفين: إشكالية الدولة والإسلام السياسي قبل وبعد ثورات الربيع العربي، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والاقتصادية والإعلامية، الطبعة الأولى، برلين، 2018.
- محمد، عبد الله بن: المذكرة الاستراتيجية، مؤسسة المأسدة الإعلامية (صوت شبكة شموخ الإسلام)، 1432 هـ 2011 م.
- أمانة فايد: تأثير الصورة كيف يستغلّ تنظيم «داعش» الإعلام المرئي؟ مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، يوليو 2021. ص 2.

## تقارير

- تقرير خاص لمجموعة الأزمات الدولية: استغلال الفوضى القاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية، 15 آذار/ مارس 2016.

## المقالات

- طارق حمو: أفكار في الإسلام السياسي، المركز الكردي للدراسات، 2018-3-3 على الرابط <http://www.nlka.net>
- جيم موير BBC News عربي، تنظيم الدولة الإسلامية: القصة الكاملة، 27 أبريل/ نيسان 2016 على الرابط <http://www.bbc.com>
- النهار، وكالات 2014-01-17 من هي داعش؟ على الرابط <https://www.annahar.com>
- رافد فاضل علي: القاعدة في بلاد الرافدين، مركز الجزيرة للدراسات، 10 سبتمبر 2010 على الرابط <https://www.aljazeera.net>

- محمد العزاوي: العراق مرحلة جديدة من محاربة داعش. تريندز 13 أكتوبر 2021 ، الرابط <https://org.trendsresearchg/>
- وكالة الأناضول 2017-2-24 قصة داعش من الظهور إلى الضمور. الرابط <https://tr.com.aa.www>
- بن كونوبال وآخرون: التغلب على تنظيم الدولة الإسلامية، مؤسسة رند، الرابط [www.rang.org](http://www.rang.org)
- [RR1562/t/org](http://RR1562/t/org)
- Ministère de L'Europe Et Des Affaires Etrangè هل هزم تنظيم داعش؟ الرابط <https://ar/fr.gouv.diplomatie.www/>
- العين الإخبارية، السبت 23/3/2019 ، من التأسيس إلى الاندحار 15 عاماً دموية لتنظيم داعش الإرهابي الرابط <https://al-ain.com>
- منير أديب: مستقبل داعش بعد تصيب الخليفة الثالث، النهار العربي، 2022-3-19 الرابط [com.annahar.www/](http://com.annahar.www/)
- شفيق شقير، الجذور الأيديولوجية لتنظيم الدولة الإسلامية، مركز الجزيرة للدراسات، 23 نوفمبر 2014، الرابط <https://net.aljazeera.studies/>
- عيدو ليفي: كيف نحول دون نهوض تنظيم «الدولة الإسلامية» في عام 2022 وما بعده، مقال منشور في المرصد السياسي، الرابط <https://org.washingtoninstitute.www/>
- حسن منبنة: فيما يتعدى القومية والدين من مظلومية السنة إلى الأمة السنّة، منتدى فكرة، الرابط <https://org.washingtoninstitute.www/>

الفاطيون في جبل عامل  
(297- 567هـ/909- 1171م)  
الدكتورة هيام عيسى

ملخص

قامت الدولة الفاطمية على أساس إدعاء إيصال نسب أصحابها إلى النبي محمد ﷺ عن طريق السيدة فاطمة والإمام علي، ويتّصف تاريخ الحركة الإسماعيلية، طوال المائة عام الأولى التي أعقبت وفاة الإمام جعفر الصادق عام 148/765، بالغموض. واعتمدت هذه الحركة على نشاط مُكثّف للدعاة السريين الذين انتشروا في أرجاء العالم الإسلاميّ يدعون إلى قُرب ظهور الإمام المهدي من آل فاطمة.

إنّ التشيع في جبل عامل لم يكن وليد القرن الرابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ أو غيره كما توهم البعض. بل قارن وجوده الأيام الأولى من الفتوحات الإسلامية، ومشاركة رجالات الشيعة الخُص فيها، كسلمان الفارسي، والمقداد وأبي أيّوب الأنصاريّ، ولا ننسى رباط أبي ذر الغفاري في قرية ميس الجبل وثرغر الصرفند، وما أحدثه تواجده المبكر في البلاد الشامية من ميل كبير للتشيع في الجيش الفاتح.

**كلمات المفاتيح** جبل عامل، الفاطميّون، التشيع، الحركة الإسماعيلية، عبيد الله ال مهدي.

L'état FĀtimide a été établi sur la base de l'affirmation selon laquelle la lignée de ses propriétaires a été transmise au prophète Mohamed par l'intermédiaire de Lady FĀṬĪMA et de l'Imam Ali.

L'histoire du mouvement Ismaili, tout au long des cent premières années qui ont suivi la mort de l'Imam Jaafar Al- Sadiq en l'an 765/148, est ambiguë, Et ce mouvement s'est appuyé sur l'activité intense des prédicateurs secrets qui se sont répandus dans tout le monde Islamique appelant à l'apparition imminente de

l'Imam Al Mahdi de la famille de FĀṬĪMA.

Le chiisme à Jabal Amel n'était pas un produit du IVe siècle H/ Xe siècle de notre ère ou autre, comme certains l'ont imaginé. Il a plutôt comparé sa présence aux premiers jours des conquêtes Islamiques et la participation d'hommes sincères à celles-ci, tels que Salman al-Farisi et al-Miqdad et Abu Ayyub al-Ansari, et nous ne devons pas oublier le ribat d'Abou Dhar al-Ghafari dans le village de Mays al-Jabal et la région de Sarafand, et que sa présence précoce dans les pays du Levant a provoqué une grande tendance au chiisme dans l'armée conquérante.

**Mots-clés** Jabal Amel, les FĀtimides, le chiisme, le mouvement Ismaili, Obaid Allah al-Mahdi.

## مدخل

قامت الدولة الفاطمية على أساس ادعاء إيصال نسب أصحابها إلى النبي محمد ﷺ عن طريق السيدة فاطمة والإمام علي، ويتَّصف تاريخ الحركة الإسماعيلية، طوال المائة عام الأولى التي أعقبت وفاة الإمام جعفر الصادق عام 148/765، بالغموض. واعتمدت هذه الحركة على نشاط مُكثَّف للدعاة السريين الذين انتشروا في أرجاء العالم الإسلامي يدعون إلى قُرب ظهور الإمام المهدي من آل فاطمة. ولكن ابتداءً من النصف الثاني للقرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، بعد دخول الإمام محمد بن الحسن العسكري آخر الأئمة الإثني عشرية في السرداب عام 255/869، أصبحت الحركة الإسماعيلية هي الجناح الثوري الأكبر أهميةً للشيعة.

وفي السنوات الأخيرة للقرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي نجحت الحركة الإسماعيلية في إقامة دولة قوية في إفريقيا هي الدولة الفاطمية التي هدّدت لفترة أكثر من مائتي سنة وضع العديد من الأسرات الحاكمة في العالم الإسلامي، كما اعتبر أئمتهم الخلفاء العبّاسيين مغتصبين لحقهم الشرعي في حكم هذا العالم<sup>(1)</sup>.

ونظرًا لأهمية الفترة التاريخية التي خضع لها جبل عامل، وهي الحقبة التي تمثل

(1) أيمن فؤاد السيد، الدولة الفاطمية في مصر، ص 10 - 11.

الوجود الفاطميّ على أرضه، وما نتج عن ذلك من مستجدات على صعيد المعتقد الديني، ولا سيّما بروز التشيع في أرضه، وهذا لا يمكن أن يحدث في سنوات قليلة لأنّ التشيع في هذه المنطقة قديم الجذور، يعود إلى الأيام الأولى من الفتح الإسلاميّ، وقد أسهم أبو ذر الغفاري وأصحاب الإمام علي على نشر مذهب الموالاة لعلّي وأبنائه من بعده<sup>(1)</sup>.

وعلى الرغم من تنوّع الكتابات التاريخيّة والدراسات في ما خصّ جبل عامل، ونظرًا لأهميّة موقعه وتنوع سكّانه، وبما أنني لم أعرّ على مؤلفات وأبحاث، سوى القليل منها، التي تناولت هذه المرحلة لما لها من أهميّة وفائدة، **مخطط جبل عامل** لمحسن الأمين، ومنطلق الحياة الثقافيّة في جبل عامل لمحمّد كاظم مكّي، والتشيع في بلاد المغرب الإسلاميّ حتى منتصف القرن الخامس الهجريّ لمحمّد بركات البيلي، وقضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخيّ لعبد الحليم عويس، والدولة الفاطميّة في مصر لأيمن فؤاد سيد، وغير ذلك. ما دفعني إلى القيام بإعداد بحث تحت عنوان **الفاطميّون في جبل عامل (297- 567 هـ / 909- 1171 م)**، بغية تعرف دور سكّان جبل عامل في قضية التشيع ومارافق ذلك من مستجدات في هذا المنحى، من خلال الإضاءة على مجموعة من التساؤلات، منها:

- هل ظهر التشيع في المنطقة العامليّة قبل مجيء الفاطميين؟
- هل أسهمت العوامل السياسيّة والدينيّة في انتشار المذهب الإمامي في منطقة جبل عامل؟
- ما صحة نسب الفاطميين إلى بيت النبوة وبالتحديد عبر فاطمة ابنة النبي محمّد ﷺ وزوجها علي؟

انطلاقًا من هذه التساؤلات سأحاول الإجابة عنها، من خلال هذا البحث، والسعي إلى إيجاد مقاربة تاريخيّة قدر المستطاع، لاسيما أنّ نسب الفاطميين قضية نراها جديرة بالبحث، إنّها قضية حقيقة هؤلاء القوم الذين شغلوا الدنيا نحو ثلاثة قرون سواء في المغرب أو في المشرق.

(1) علي داود جابر، الحلقة الضائعة من تاريخ جبل عامل، ص 154.

## أولاً- تعريف جبل عامل

### أ- نسب قبيلة عاملة

تميّزت بلاد سبأ في اليمن بسدّ مأرب الشهير، بحيث أنّ الماء كان يأتي أرضهم من أماكن متعددة، ويجتمع وراء السدّ بين جبليين عظيمين. ومن هذه المياه كانت كلّ قرية من قراها الثلاث عشرة تسقي زرعها وبساتينها، وفي القرن الثاني قبل ميلاد السيّد المسيح، أي ما بين عامي 145 و115 ق. م، انهار سدّ مأرب في اليمن، وانهارت معه بالتالي، الحضارة السبئية، ما أدّى إلى هجرة جماعية للقبايل العربيّة باتجاهات مختلفة. « وتمزّقوا في الأرض بعد انهياره»<sup>(1)</sup>. وممن تفرّق في البلاد قبيلة عاملة بن سبأ.

قبل أن تعرف البقعة التي نحن بصدد دراسة (الفاطميون) فيها، بجبل عامل، كانت تدعى بلاد الجليل.

لقد ظهر اسم الجليل للمرة الأولى في الكتب المقدسة، حيث أشارت إليه الأنجيل في أكثر من مكان. فقد كان الجليل ميداناً لدعوة السيد المسيح، و تطوّفه بين أهله، حيث آمن به الكثير منهم عندما لجأ إليهم بعد تركه السامرة<sup>(2)</sup>.

والجليل باللغة العربيّة يعني (Cercle, Circuit)، الدائرة أو الدارة. وهو يقسم إلى قسمين: الجليل الأعلى، والجليل الأدنى، ويشكّل الجليل الأعلى الجزء الأكبر والجنوبي من الجبل العاملي أو البقعة العامليّة<sup>(3)</sup>، والتي تحمل اليوم اسم الجنوب اللبناني من الناحية السياسيّة والإداريّة بينما بقي اسم جبل عامل يطلق عليها من الناحية الجغرافيّة.

وكما هو شائع، فقد أطلق اسم الجبل العاملي على هذه البقعة نسبة إلى قبيلة عاملة القحطانيّة التي حلّت فيه، فبعد سيل العرم، وانهيار سد مأرب في القرن الثاني للميلاد (تعرض السد لعدة تصدعات قبل الميلاد وبعده)<sup>(4)</sup>، هجرت جنوب الجزيرة العربيّة قبائل عديدة توجهت شمالاً، وبعضها قصد بلاد الشام كلخم وغسان وجذام

(1) أحمد شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص 127.

(2) محمّد كاظم مكي، منطلق الحياة الثقافيّة في جبل عامل، ص 42.

(3) Victor Guérin, *Description géographique historique de la Palestine*, T.III, p. 76- 77.

(4) E. Montet, *Traduction du Coran*, T.II, p. 127.

وعاملة، وهؤلاء جميعًا أبناء سبأ بن يعرب بن قحطان<sup>(1)</sup>.

وانطلاقًا من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، لا يلبث هذا الجبل أن يأخذ اسم قبيلة عاملة فيسمى بالجبل العاملي، ويحلّ هذا الاسم نهائيًا لدى الكثير من المؤرخين مكان الجليل، فيذكر ذلك الهمداني<sup>(2)</sup> (334/945) في كتابه *صفة جزيرة العرب* فقال: «وجبل عاملة مشرف على عكا من قبل البحر يليها ويطلّ على الأردن، وفي مكان آخر من الكتاب ورد، وأما عاملة فهي في جبلها مشرفة على طبرية إلى نحو البحر»<sup>(3)</sup>.

### ب- حدود موقع جبل عامل

لقد حدّد موقع جبل عامل، نفر من جغرافيين العرب ومؤرخيهم، ففي القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ذكر اليعقوبي<sup>(4)</sup> (292/905): «وجبل الجليل وأهلها قوم من عاملة»<sup>(5)</sup>.

فجبل عاملة، أو جبل عامل هو تلك المنطقة القائمة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين شمالي صيدا وجنوبي صور.

وجبل عامل في ماضيه أكثر اتساعًا منه اليوم لجهة الجنوب والشرق؛ ففيما يستفاد من تراجم الرجال، وحمل نسبة العاملي ما يسمح بأن يضاف إليه صيدا وصور في الساحل وجزين ومشغرة في الجبل، وعلى هذا يتحدد مدى البقعة العاملية حسب ما أجمع الباحثون الذين تصدوا لتحديد الأرض العاملية التي يشير إليها الخط الذي ينطلق من مصب نهر الأولي، ويعتبر هذا النهر الحد الفاصل بين جبل عامل وبلاد الشوف، ويكمل هذا الخط سيره بعد مصب الأولي حتى تومات نحا ليتجاوز روم وجزين، وينحدر بعدها إلى مشغرة حتى يصل بنهر الليطاني شمالي قرية سحمر.

(1) محمد كاظم مكي، *منطلق الحياة الثقافية*، ص 43.

(2) الهمداني: الحسن بن أحمد بن يعقوب، من بني همدان، مؤرخ، عالم بالأنساب عارف بالفلك والفلسفة والأدب، من أهل اليمن. كان يعرف بابن الحائك، وبالنشابة، ولد ونشأ بصنعاء، وأقام على مقربة منها في بلدة ريّدة وطاف البلاد واستقر بمكة زمنًا. وعاد إلى اليمن فأقام في مدينة صعدة. من تصانيفه *الإكليل*، و*سراير الحكمة*، و*صفة جزيرة العرب*. الزركلي، *الأعلام*، ج1، ص 179.

(3) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ص 129-134.

(4) اليعقوبي، أحمد بن إسحاق أبي يعقوب بن جعفر، مؤرخ جغرافي، كثير الأسفار، من أهل بغداد، رحل إلى المغرب وأقام مدة في أرمينية. ودخل الهند. وزار الأقطار العربية، وصنف كتبًا جيدة منها *تاريخ اليعقوبي* و*كتاب البلدان*. الزركلي، *الأعلام*، ج1، ص 95.

(5) اليعقوبي، *كتاب البلدان*، ص 88.

ويسلك الخط صفته الغربية، ثم ينعطف غرباً وينتهي عند مصب وادي القرن جنوباً<sup>(1)</sup>. وعلى هذا يمكن القول: إنّ الحدود العامليّة كما يلي: نهر الأولي شمالاً، ووادي القرن جنوباً، والبحر بين هذين الحدّين غرباً، ومن الشرق بحيرة الحولة ووادي التيم والبقاع.

### ج- تنوع سگان جبل عامل

كان جبل عامل، ملتقى لموجات بشريّة كثيرة وكثيفة. جاءت مهاجرة أو فاتحة. وتشكل الآثار القديمة في صيدا وصور والنبطيّة وأبل والقدس وغيرها في أعظم المدن والقرى، الدليل المادي الباقي من الموجات البشريّة التي حلّت في هذه المنطقة وما حولها في عصور تاريخيّة مختلفة. فالشعوب من الأصول السامية وغير السامية قد حلّت في سواحل لبنان وفي داخله، منذ حوالي 2500 عام ق.م. مثل الكنعانيين والآراميين والبابليين والمصريين والفرس، واليونان والرومان والعرب<sup>(2)</sup>.

وكذلك فإنّ اللغات التي كانت غالبية على التداول في المناطق اللبنانية كالآرامية والسريانيّة هي لغات سامية، مما سهّل انتشار العربيّة بسبب وحدة الأصل والتراكيب والخصائص لهذه اللغات<sup>(3)</sup>.

والراجح أن الوجود العربيّ في جبل عامل يعود إلى أعماق التاريخ، فمما لا ريب فيه أنّ هذا الوجود يعود إلى ما قبل عام 332 قبل الميلاد، أي قبل حصار الإسكندر لمدينة صور: «فالإسكندر الكبير إذ تحدّته صور وصمدت في وجهه واضطر أن يحاصرها حصاراً طويلاً، أحبّ في يوم من أيام الحصار أن يروح عن النفس برحلة صيد قصيرة. فقام من ضواحي صور ممتطيّاً جواده واتّجه شرقاً متسلّقاً جوباً وتبين، فوجد نفسه فجأة بين قوم من العرب، هكذا يقول: أربانوس أقدم من أرخ للإسكندر وأقربهم إليه زمناً<sup>(4)</sup>».

وفي سنة 69 قبل الميلاد، كان النبطيون يملكون جبل الشيخ، وهم أمة عربيّة

(1) محمّد كاظم مكي، منطلق الحياة الثقافيّة، ص 46.

(2) فيليب حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج1، ص 68؛ محمّد كاظم مكي، منطلق الحياة الثقافيّة، ص 53.

(3) محمّد كاظم مكي، منطلق الحياة الثقافيّة، ص 53.

(4) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعيّة، ج6، ص 135

الأصل، ولغتهم العربيّة في التكلّم والمحاورة بين الناس<sup>(1)</sup>.

وجدير ذكره أنّ سكّان جبل عامل تميّزوا بالذكاء واعتدال القرائح، ولعلّ هذا ناشئ عن تأثير الإقليم في الطباع واعتدال الهواء في اعتدالها. ويشهد بذلك أنّه ما حلّ العاملين في قطر من الأقطار إلّا وتعلّموا لغة أهله بأقرب وقت، وتكلّموا بلهجتهم بحيث لا يمتازون عنهم، ولا يظنهم السامع غرباء، بل يخالهم من أهل تلك البلاد<sup>(2)</sup>.

## ثانياً - المعتقد الدينيّ في جبل عامل

### • المعتقد الإمامي

المعتقد الإمامي: من الناحية اللغويّة، تعني كلمة شيعة الأنصار، وفي هذا المعنى نجدها في القرآن ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ﴾<sup>(3)</sup> ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾<sup>(4)</sup> وكتب التفسير والمعاجم<sup>(5)</sup> <sup>(6)</sup>.

وقد غلبت هذه التسمية على الذين والوا عليّاً وأهل بيته فأصبحت إسمًا مميزاً لهم، كما تثبتته المصادر عن الفرق والمذاهب، وكما تشير إليه كتب المؤرخين. لقد ذهب المؤرخون إلى القول: إنّ اسم الشيعة قد ظهر في عهد النبيّ محمد ﷺ، وقد عرفوا بانقطاعهم إلى عليّ والقول بإمامته<sup>(7)</sup> وهذا ما يؤيد القول: المتداول بأنّ الشيعة كانت أوّل حزب ظهر في الإسلام<sup>(8)</sup>.

هذا الحزب الأوّل ظهر في الإسلام ولد في الحجاز، ونما في العهد الراشدي، ثم انتقل مع الإمام عليّ إلى العراق، بعد أن نقل عليّ عاصمة الخلافة الإسلاميّة من المدينة إلى الكوفة، كما يمكن القول: إنّ استشهاد الإمام الحسين بن عليّ (61/680) والنتائج المترتبة على هذا الاستشهاد في صفوف أنصاره، أسهم في انتشار القضية

(1) عليّ محمد كرد، خطط الشام، ج1، ص 37.

(2) محسن الأمين، خطط جبل عامل، ص 72.

(3) سورة القصص، 28/15.

(4) سورة الصافات، 37/83.

(5) الطوسي، التبيان الجامع لعلوم القرآن، ج8، ص 136؛ ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص 23. «أم».

(6) المعاجم: مفرد معجم، ذكر ابن منظور في معجمه لسان العرب، الإمامة والأئمة: التبرعة والدين. وفي التنزيل العزيز: إنّنا وجدنا آباءنا على أمة؛ والإمامة أيضاً التعميم والمُلك. ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص 23. «أم».

(7) النوبختي، فرق الشيعة، ص 17-18.

(8) محمد كاظم مكي، منطلق الحياة الثقافيّة، ص 59.

الطالبية في أوساط المسلمين، وكان لها النتائج السياسية على انتهاء العصر الأموي وبداية العصر العباسي. غير أن الفكر الشيعي والوجود الإمامي السياسي قد انتشر بفعل الانشقاق والتمزق الذي جرى في الدولة العباسية بالذات، مما سمح بظهور دويلات يتعاطف غالبها مع الفكر الإمامي<sup>(1)</sup>.

إلا أن الشيعة وإن التقوا حول القول بحق علي وأولاده من بعده بإمامة المسلمين، فإنهم لم يظلوا موحدتي الاتجاه، فقد انقسموا إلى فرق عديدة. بسبب خلافاتهم حول شخصية الإمام، وصفاته، والشروط الواجب توافرها فيه، مما استدعى استمرار الانقسامات الداخلية وظهور فرق عديدة في صفوفهم بلغت في نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي نحو ثلاث عشرة فرقة، وبالتحديد فإن فرق الشيعة قد نشأت في الفترة الممتدة بين استشهاد الإمام الحسين حتى غيبة الإمام المهدي الكبرى (329/940)، فظهرت الكيسانية<sup>(2)</sup> والزيدية<sup>(3)</sup> والإسماعيلية<sup>(4)</sup> والإثنا عشرية<sup>(5)</sup>.

غير أن الفرقة الشيعية التي عرفها جبل عامل، هي الفرقة الإثنا عشرية الإمامية<sup>(6)</sup>، فكيف انتشرت؟

## ب - نشأة التشيع في جبل عامل

إن التشيع نشأ في أحضان الإسلام وانتشر بانتشاره، وقد أسهمت عوامل سياسية ودينية في انتشار المذهب الإمامي في جبل عامل، فمنذ الفتح الإسلامي لبلاد الشام عام 14/636، كان في صفوف الجند المشاركين بالفتح نفر من قبيلة خزاعة المعروفة

(1) محمد كاظم مكي، منطلق الحياة الثقافية، ص 59.

(2) الكيسانية: وجدت هذه الفرقة بعد استشهاد الحسين في كربلاء، وكان كيسان هذا من الذين أغروا المختار بن أبي عبيد الثقفي بالطلب بدم الحسين وبها بيتدىء تعدد فرق الشيعة، حيث قالت بإمامة علي والحسن والحسين ثم محمد بن الحنفية. لأن محمد بن الحنفية كان صاحب راية أبيه يوم البصرة دون أخويه. يحي الأمين، معجم الفرق الإسلامية، ص 202.

(3) الزيدية: هم القائلون بإمامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب في وقته وإمامة ابنه يحيى بن زيد بعده. يحيى الأمين، معجم الفرق الإسلامية، ص 127.

(4) الإسماعيلية: فرقة من الإمامية. قالوا: بإمامة الستة وأن السابع هو إسماعيل بن جعفر الصادق وليس الإمام موسى الكاظم كما يقول غيرهم من الإمامية. يحيى الأمين، معجم الفرق الإسلامية، ص 30.

(5) الإثنا عشرية: هم القائلون بإمامة الأئمة الإثني عشر: وهم علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلي الرضا ومحمد الجواد وعلي الهادي والحسن العسكري والمهدي المنتظر. وهم أكثر فرق الشيعة عدداً بل إن لفظ الشيعة الإمامية يطلق اليوم عليهم، وهم على المذهب الجعفري. يحيى الأمين، معجم الفرق الإسلامية، ص 19.

(6) محمد بركات البيلي، التشيع في بلاد المغرب الإسلامي، ص 13؛ محمد كاظم مكي، منطلق الحياة الثقافية، ص 60؛ يحيى الأمين، معجم الفرق الإسلامية، ص 151.

بولائها للإمام عليّ، ويقال: إنَّ نفرًا من هؤلاء ظلوا بعد الفتح في دمشق وبعلب<sup>(1)</sup> فالشاعر دعبل الخزاعي (246/861) وهو من أبناء القبيلة معروف بتشيعة.

وخلال النصف الأول من القرن الهجريّ الأوّل/السابع الميلاديّ، تتلاحق زيارات الموالين لعليّ إلى بلاد الشام مثل سلمان الفارسيّ، وعمار بن ياسر، وأبي ذر الغفاري، وقد أصبح من بديهيات الكلام ما يتردد في هذا الشأن عن نفي عثمان لأبي ذر إلى بلاد الشام، إبان ولاية معاوية الذي نفاه بدوره إلى جبل عامل، وكان من عادة معاوية أن يحبس في موضع من هذا الجبل من يظفر به ممن يُنبز بقتل عثمان بن عفّا<sup>(2)</sup>، وفي هذا الجبل، كما تنقل الروايات نشر أبو ذر التشيع، وله مقامان واحد في الصرْفند والآخر في ميس الجبل<sup>(3)</sup>، كما زار سلمان الفارسي (35/656) بيروت ليلتقي صديقه أبا الدرداء (32/653) المرابط فيها<sup>(4)</sup>. ويبدو أنّ استمرار آثار أبي ذر في بلاد الشام وفي جبل عامل بالذات يفسر حديثاً مرسلًا للإمام جعفر الصادق (148/765) ذكره الحر العامليّ<sup>(5)</sup> في كتابه أمل الأمل جاء فيه: أعمال الشقيف وأرنون، بيوت وربوع، تعرف بسواحل البحار، وأوطئة الجبال، هؤلاء شيعتنا<sup>(6)</sup>.

لا ريب أنّ العاملين كانوا على اتصال منذ عصر صدر الإسلام بالأئمة الأبرار من آل بيت النبي ﷺ، وعنهم أخذوا أصول مذهبهم وفروعه وأنواع الفرائض والعبادات.

ويتردد صدق التشيع في أنحاء بلاد الشام وجبل عامل منها، فتكون هجرات من العراق إلى حلب للتجارة وللدعوة لآل البيت، وكان آل أبي شعبة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلاديّ ممثلين لهذه الهجرات الإماميّة، ومن بينهم من عاصر الإمام الصادق وكان مُصدّقًا وموثّقًا من هذا الإمام، مثل الفقيه المفسّر أبو جعفر الكوفي محمّد بن عليّ بن أبي شعبة الحلبي، كان يتاجر هو وإخوته إلى حلب، فغلب عليهم النسبة إلى حلب، ومنهم من عاصر الإمام الرضا (303/818) والتقاء مثل

(1) محمّد كاظم مكي، منطلق الحياة الثقافية، ص 60.

(2) ياقوت، معجم البلدان، ج 2، ص 158.

(3) الحر العاملي، أمل الأمل، ج 1، ص 13.

(4) علي داود جابر، الحلقة الضائعة من تاريخ جبل عامل، ص 64.

(5) الخُر العاملي (1104/1692): محمّد بن الحسن بن علي العاملي، الملقب بالحر، فقيه إمامي، مؤرخ. ولد في قرية مشغرة من جبل عامل ببلدان وانتقل إلى جباع ومنها إلى العراق، وانتهى إلى طوس بخراسان فأقام وتوفي فيها. له تصانيف منها، أمل الأمل في ذكر علماء جبل عامل القسم الأوّل منه، ولا يزال الثاني وسماه تنكرة المتبحرين في ترجمة سائر العلماء المتأخرين مخطوطاً والجواهر السنّية في الأحاديث القدسية. الزركلي، الأعلام، ج 6، ص 90.

(6) الحر العاملي، أمل الأمل، ج 1، ص 13.

أحمد بن عمر بن أبي شعبة الحلبي وهو ثقة وأصله عراقي كان يتاجر إلى حلب فنسب إليها<sup>(1)</sup>.

وفي القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ذكر ابن خرداذبه<sup>(2)</sup>، جبل عامل في كتابه المسالك والممالك قائلاً: وكان موزعاً بين جندي دمشق والأردن ففي حديثه عن جند دمشق يعدّ صيدا من كورها.

ويعدّ طبرية قسبة لجند الأردن، ويعدّ من كورها: «كورة جدر، كورة آبل، كورة سوسية، كورة صفورية، كورة عكا، كورة قدس، ، كورة صور».

وعن سير الطريق في جبال عامله يقول: «الطريق إلى الساحل ثم إلى بيروت، ثم إلى صيدا، ثم إلى صور، ثم إلى قدس»<sup>(3)</sup>.

### ثالثاً - جبل عامل يخضع للفاطميين

#### • نسب الفاطميين

إنّ جميع المدن والقرى العامليّة خضعت للحكم الفاطميّ عام 363/973 إلا أنّ هفتكين الشرايبي التركي حاكم دمشق حاول إعادتها وغيرها من بلاد الشام لسلطته، وكانت صيدا وصور ومنطقتيها ولايتين مستقلّتين عن جندي الأردن ودمشق. وكان والي صيدا يومذاك عبيد الله بن الشيخ، أبو الفتح وهو الحفيد الثالث لعيسى بن الشيخ مؤسس هذه الأسرة في صيدا وصور وجميع الجبل العاملي وفلسطين في العصر العباسي. ويبدو أنّ أبا الفتح قدّم ولاءه للدولة الفاطميّة، فأقرّه الخليفة المعزّ في ولايته وأصبح يعرف بأنّه صاحب صيدا، وكان من أمراء جبل صيدا الشمالي الأمير تميم الأرسلاني، وتربطه بابن الشيخ علاقة مميّزة<sup>(4)</sup>.

تُعدّ الدّولة الفاطميّة أو العبيديّة نسبة إلى مؤسسها عبيد الله بن الحسين المهدي، دولة من دول الخلافة الإسلاميّة التي قامت في شمال إفريقيا، اتخذت هذه الدّولة المذهب الشيعي الإسماعيلي مذهباً رسمياً لها، فقامت بتجميع الناس ودعوتهم إلى

(1) الطوسي، فهرست كتب الشيعة، ص 136، 160، 220.

(2) ابن خرداذبة (280/893): عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه أبو القاسم مؤرخ جغرافي، فارسي الأصل من أهل بغداد. كان جده مجوسياً أسلم على يد البرامكة. واتصل عبيدالله بالمعتمد العباسي، فولاه البريد والخبر بنواحي الجبل، وجعله من ندمائه. له تصانيف منها المسالك والممالك، وجمهرة أنساب الفرس. الزركلي، الأعلام، ج4، ص 190.

(3) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص 74 - 75، 89، 103.

(4) علي داود جابر، الحلقة الضائعة من تاريخ جبل عامل، ص 149.

القتال باسم المهدي المنتظر، وقد نشط الدعاة الإسماعيليون في المغرب العربي بعد مطاردة العباسيين لهم في المشرق العربي، فاستقطبوا الناس من القبائل البربرية التي تسكن المغرب العربي وخاصة قبيلة كتامة، ومن ثم أعلنوا قيام الخلافة الفاطمية<sup>(1)</sup>.

وجدير ذكره أن الأسرة الفاطمية هي علوية بانتسابها إلى الإمام علي بن أبي طالب، وفاطمة بانتسابها إلى فاطمة الزهراء ابنة النبي محمد ﷺ، وهذا الانتساب الأخير غلب عليها وميزها عن علويين آخرين ينتسبون إلى علي بن أبي طالب، ولكنهم من أمهات غير فاطمة الزهراء<sup>(2)</sup>.

وكاد الرأي القائل بأن الفاطميين من نسل فاطمة بنت النبي محمد ﷺ ينتصر، وكادت الآراء التي روجت لهم تغلب غيرها، لشهرة قائلها، ولأن مخالفيهم إنما هم خصوم للفاطميين.

ولم لا ؟ وقد اعتبر التشكيك في نسبهم بعض مظاهر التوهّم في التاريخ<sup>(3)</sup>.

هذه شهادة أشهر المؤرخين والعلماء، وأعني شهادة القاضي المالكي، ابن خلدون، في كتابه مقدمة ابن خلدون، والذي جزم فيه بصحة النسب الفاطمي العلوي الهاشمي للخلفاء الفاطميين.

ولكن هناك بعض المؤرخين الذين يعادون الفاطميين، وعلى الأخص ابن الجوزي، والدّهني، وابن كثير، أو بعض العلماء المشتغلين بالتاريخ ولا يعترفون بشرعية الخلافة الفاطمية. وقد أشار المقرئ إلى ذلك فقال: «إن الأخبار الشنيعة، لاسيما التي فيها إخراجهم من ملة الإسلام، لا تكاد تجدها إلا في كتب المشاركة من البغداديين والشاميين كالمنتظم لابن الجوزي وتاريخ العماد لابن كثير، أما كتب المصريين الذين اعتنوا بتدوين أخبار الخلافة الفاطمية فلا نجد في شي منها ذلك البتة»<sup>(4)</sup>.

هذه شهادة من عدلي، تولى منصب القضاء، وهو من أهل السنة، عاش في عصر سلاطين المماليك، المعروف بعدائهم الشديد للشريعة والتشيع.

ولو اطلع المؤرخون على ما أورده القاضي والمؤرخ المعاصر للدولة الفاطمية ( أبو

(1) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 12.

(2) L. Veccia Vaglieri, «FĀṬĪMA», *EI2*, Vol. II, P. 866.

(3) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 12.

(4) المقرئ، إعطاء الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج 3، ص 346.

عبد الله محمد بن علي بن حماد الصُّنْهَاجِي (628/1231) في مخطوطه الموسوم باسم أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لضموه إلى جملة الآراء التي يستشهدون بها دليلاً على صحة رأيهم. إنَّ هذا المؤرخ القريب العهد بالفاطميين يقول: « في الصفحة السادسة من مخطوطه وهو بصدد الحديث عن عبيد الله المهدي: » لقد اختلف الناس في نسبه إلى الحسين بن علي، فمن مسلمين ما ادعاه، ومقرين بما حكاه، ومن دافعين ومانعين ما انتله، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم الله، فالَّذِي ادعاه هو أنَّه عبيد الله بن محمد بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب، والَّذِي ادعاه الناس لا برهان عليه فلا حاجة لي إليه». هذا ما قاله أبو عبيد الله بن حماد، فضلاً عن تأييد جمهرة مؤرخي الشيعة لصحة هذا النسب<sup>(1)</sup>.

ومن المرجح أنَّ قضية النسب الفاطمي التي شغلت العلماء والمؤرخين حيزاً من الزمن، قد أصاب البعض في صحة نسبهم كابن حماد، وابن خلدون، والمقريزي، واختلف معهم البعض كالذهبي، وابن كثير، ولعل ذلك يعود إلى المشاحنات السياسيَّة وبت التفرقة في صفوف المسلمين، مما أدَّى إلى انقسامهم إلى عدَّة فرق خاصَّة الشيعة.

لقد ظلَّت الأسرة الفاطميَّة قبل ظهورها على المسرح السياسيِّ محافظة على تسلسلها الأمامي حتى عهد الإمام الخامس جعفر بن محمد الصادق، ففي عهد هذا الأخير وقع الانقسام في المجموعة الشيعيَّة الكبرى، وذلك بعد وفاة ولده الأكبر إسماعيل الذي تؤكد المصادر أنَّه مات في حياة والده. فقالت الإسماعيليَّة بأنَّ الإمامة لإسماعيل، مادام أنَّ ولاية العهد كانت ممنوحة له في عهد والده، ومادام الأمر على هذا المنوال فإنَّ الإمامة يجب أن تؤول إلى ولده محمد من بعده، بينما رأت الإثني عشرية بأنَّ الإمامة بعد إسماعيل يجب أن تنتقل إلى أخيه الأصغر موسى الكاظم وهكذا وقع الانقسام الكبير بين المجموعة الشيعيَّة<sup>(2)</sup>.

لم يكن التشيع يوماً فرقة واحدة وإنما تعرض لسلسلة من الانقسامات المتتابعة التي قسمت التشيع إلى فرق كثيرة كان بينها من دواعي الفرقة والخلاف أكثر مما يمكن أن يجمع بينها من دواعي التقارب والاتفاق<sup>(3)</sup>.

(1) عبد الحلیم عویس، قضية نسب الفاطميين، ص 4.

(2) عارف تامر، المعز لدين الله الفاطمي، ص 8.

(3) محمد بركات البيلي، التشيع في بلاد المغرب الإسلامي، ص 13.

## ب - فاجعة كربلاء والانقسام المذهبي

لقد كانت فاجعة كربلاء نقطة تحول هامة في التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ التشيع خاصة، إذ أدت إلى تحول التشيع بعد قتل الحسين إلى عقيدة راسخة في نفوس الشيعة<sup>(1)</sup> ومنها كانت الانطلاقة الحقيقية للتشيع المذهبي، غير أنها كانت أيضًا فيما يبدو مثار الخلاف بين أشياع البيت العلوي الذي انقسم على نفسه إلى ثلاثة فروع رئيسية: الفرع الحسني والفرع الحسيني، ثم فرع محمد ابن الحنفية، وقد تفاوتت مسارات الفروع الثلاثة تفاوتًا ظاهرًا وملحوظًا، لقد غلب على الحسينيين الميل إلى المعارضة الظاهرة والثورات العلنية مما عرضهم للانتقام الأمويين والعباسيين من بعدهم، بينما تنازل أتباع محمد بن الحنفية المعروفون باسم الكيسانية عن دعوى استحقاق الإمامة للعباسيين على حد زعم الرواية العباسية<sup>(2)</sup>.

أما الفرع الحسيني فقد اهتز بعنف نتيجة فاجعة كربلاء التي فقد فيها أساطينه<sup>(3)</sup> (ثقات يعتمد عليهم) وكاد أن ينقطع نسله لولا نجاة علي زين العابدين بن الحسين من تلك المذبحة الشنيعة التي أوقعها الأمويون بالحسين ومن معه، فركن علي زين العابدين إلى الدعة والسكون<sup>(4)</sup>، وعكف طيلة حياته على النسك والعبادة، وسار على نهجه من بعده ولده محمد الباقر، لا سيما بعد أن رأى فشل الثورة التي أشعلها أخوه زيد بن علي على الحكم الأموي، وقد أطلق زيد على من انفص عنه من الشيعة اسم الرافضة<sup>(5)</sup> بينما يعرف أتباعه باسم الزيدية.

وجدير ذكره بعد وفاة علي زين العابدين أن الفرع الحسيني انقسم إلى فرقتين رئيسيتين هما: الزيدية، أتباع زيد بن علي زين العابدين<sup>(6)</sup>، والإمامية وهم الذين قالوا: بانتقال الإمامة من علي زين العابدين إلى ولده محمد الباقر، ومنه إلى ولده جعفر الصادق<sup>(7)</sup>، لكن الإمامية ما لبثوا أن انقسموا على أنفسهم بعد وفاة جعفر

(1) محمد بركات البيلي، التشيع في بلاد المغرب الإسلامي، ص 13.

(2) عارف تامر، عبيد الله المهدي، ص 118؛ محمد بركات البيلي، التشيع في بلاد المغرب الإسلامي، ص 14.

(3) محمد السعيد جمال الدين، دولة الإسماعيلية في إيران، ص 18.

(4) برنارد لويس، أصول الإسماعيلية، ص 94. برنارد لويس، أصول الإسماعيلية، ص 94.

(5) محمد بركات البيلي، التشيع في بلاد المغرب الإسلامي، ص 14.

(6) الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، ص 165.

(7) الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، ص 165.

الصادق عام 765 / 148 إلى أكثر من فرقة<sup>(1)</sup>. كان أبعدها صيتًا وأكثرها أهميّة فرقتا الإسماعيليّة والإثنا عشريّة، وهما يتفقان على الأئمة الأوائل من علي بن أبي طالب حتى جعفر الصادق، لكنهما على حد قول الشهرستاني<sup>(2)</sup>: «مختلفون في المنصوص عليه بعد الصادق من أولاده»، فتقول الإثنا عشريّة: «بإمامة موسى الكاظم بن جعفر دون سائر ولده<sup>(3)</sup>»، ثم تسوق الإسماعيليّة الإمامة في بني إسماعيل على حد زعمها من بعده وفقًا لمعايير خاصّة بها.

تجدد الإشارة إلى أنّ إسماعيل بن جعفر باجماع كافة المصادر كان قد توفي في حياة أبيه الذي حرص على التأكيد على خیر وفاة ولده واشهاد الناس عليه.

وإذا كانت المصادر قد اختلفت في تبريرها لتأكيد الإمام جعفر واشهاده الناس على وفاة ولده، كذلك المصادر الإسماعيليّة قد وجدت نفسها في مأزق بسبب تلك الوفاة التي تهدد بانقطاع تسلسل الأئمة كما يراه الإسماعيليّة. وقالوا: لم يتزوج الإمام الصادق على أم إسماعيل، بواحدة من النساء ولا اشترى جارية، كسنة رسول الله ﷺ في حق خديجة، وكسنة عليّ في حق فاطمة<sup>(4)</sup>.

أمّا محمّد بن إسماعيل الذي يعتبر الإمام السابع من الوجهة الإسماعيليّة، فقد كان عليه أن يغادر المدينة المنوّرة وينجو بنفسه من شبح الموت الذي كان يلاحقه، ويسد عليه المنافذ. فخرج متخفيًا تحت جنح الظلام، وجاء إلى بلاد الفرس حيث أتباعه، ولكنّه تعرّض إلى مضايقات ومطاردة عباسيّة عنيفة، اضطرته أخيرًا إلى الخروج والذهاب إلى ناحية نائية تخفيه عن أنظار العباسيين، فحطّ الرحال في بلدة تدمر السوريّة، وأقام فيها تحت اسم القدّاح أي طبيب العيون فعرف في تلك الديار باسم القدّاح الفارسيّ<sup>(5)</sup>.

وبعد موته انتقل ولده عبد الله إلى بلدة سلمية السوريّة، وأخذ يعمل قي التجارة

(1) الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص 165

(2) الشهرستاني (548/ 1153): محمّد بن عبد الكريم بن أحمد، أبو الفتح الشهرستاني، من فلاسفة الإسلام. كان إمامًا في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة. يلقب بالأفضل. ولد في شهرستان (بين نيسابور وخوارزم) وانتقل إلى بغداد عام 510/1116. فأقام ثلاثة أعوام، وعاد إلى بلده. وتوفي بها. من كتبه الملل والنحل. الزركلي، الأعلام، ج6، ص 215.

(3) الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص 167.

(4) L. Veccia Vaglieri, «FĀṬĪMA», EI2, Vol. II, P. 868

(5) عارف تامر، المعزّ لدين الله، ص 8؛ هاشم عثمان، الإسماعيليّة بين الحقائق والأباطيل، ص 181.

والزراعة تحت اسم ميمون القدّاح، وبعده تسلّم الإمامة ولده أحمد ثم الحسين وأخيراً علي، وعلي هذا مات في سن مبكرة تاركاً ولده وولي عهده القائم في عهده ابن عمه سعيد الخير أو عبيد الله المهدي الذي احتضنه وكفله وقام بالوصاية عليه تحت شعار الإمامة الاستيداعية المعترف عليها في التعاليم الإمامية الفاطمية<sup>(1)</sup>.

ومن ثم انتقل عبيد الله المهدي من سلمية إلى المغرب، وأسّس الدولة الفاطمية وقبل وفاته سلّم إلى القائم بأمر الله شؤون الخلافة والإمامة باعتباره صاحبها الأصيل، وبعد القائم تسلّمها المنصور، ثم المعز لدين الله<sup>(2)</sup>.

والراجح أنّ كل ما ذكر في كتب التاريخ القديم والحديث خلاف هذا عن هذه الأسرة يعتبر مزاعم لا أساس لها من الصحة.

### ج - الرحالة والعلماء في جبل عامل زمن الفاطميين

حظي جبل عامل باهتمام الرحالة وعنايتهم في العهد الفاطمي، خاصة عندما مرّ المقدسي<sup>(3)</sup> في جبل عامل ما بين عامي 375/985 و378/988، فذكر بأنّ مذهب أهل هذا الإقليم وما جاوره هو التشيع قائلاً: «واليوم أكثر العمل على المذهب الفاطمي<sup>(4)</sup>». ثم يتحدث عن جبل عامل قائلاً: «وجبل عاملة ذو قرى نفيسة وأغاب وأثمار وزيتون وعيون، المطر يسقي زروعهم، يطل على البحر ويتصل بجبل لبنان»<sup>(5)</sup>.

وعن جبل صديقا ذكر المقدسي: «وجبل صديقا بين صور وقدس وبانياس وصيدا، ثم قبر صديقا، عنده مسجد له موسم يوم النصف من شهر شعبان، يجتمع إليه خلق كثير من هذه المدن، ويحضره خليفة السلطان، واتفق وقت كوني بهذه الناحية يوم الجمعة من النصف من شهر شعبان، فأتاني القاضي أبو القاسم بن العباس، حتى خطبت بهم فبعتهم في الخطبة على عمارة ذلك المسجد، ففعلوا وبنوا منبراً»<sup>(6)</sup>.

(1) عارف تامر، المعز لدين الله، ص 9؛ محمّد بركات البيلي، التشيع في بلاد المغرب الإسلامي، ص 9؛ هاينز هالم، الفاطميون وتقاليدهم في التعليم، ص 24.

(2) أيمن فؤاد سيّد، الدولة الفاطمية، ص 49؛ L. Veccia Vaglieri, « FĀṬĪMA », *EI2*, Vol. II, P. 870.

(3) المقدسي (380/990): محمّد بن أحمد بن أبي بكر البناء، ويقال له: المقدسي البشاري، شمس الدين، أبو عبد الله رحالة جغرافي. ولد في القدس. وتعلّم التجارة، فتجسّم أسفاراً هيأت له المعرفة بغوامض أحوال البلاد، ثم انقطع إلى تتبع ذلك، فطاف أكثر بلاد الإسلام، وصنف كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. الزركلي، الأعلام، ج5، ص 312.

(4) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 153-154.

(5) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 154.

(6) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 162.

من خلال هذا النص تظهر التقاليد الشيعية في جبل عامل، فالاحتفال في النصف من شهر شعبان، وحتى اسم القاضي يدلّان على خلفيّة عقائديّة شيعيّة. ولكن أين هو قبر صديقاً؟ ومن هو هذا النبيّ؟

يقول محسن الأمين: «صديق... قرية خربة قرب تبنين من شرقيها على رأس جبل فيها قبر عليه قبة يُعرف صاحبه بصديق، وبه سميت القرية وفيها مسجد خراب ومحرابه باق»<sup>(1)</sup>.

فموقع جبل صديقاً بين صيدا وصور وقدس وبانياس كما يقول المقدسي وهذا يعني أنّه في وسط جبل عامل، وهو قرية صديق قرب تبنين التي ذكرها محسن الأمين، والمنبر والمسجد فيها يعود تاريخ بناءهما إلى فترة كتابة المقدسي لكتابه أي بين عام 375/985 وعام 380/990.

أمّا في القرن الرابع الهجريّ/العاشر الميلاديّ فقد عرف التشيع في بلاد الشام انتشاراً واسعاً، وكان سگان طبرية، ونابلس، وقدس، وغالب عمان من الشيعة<sup>(2)</sup>.

وحظي جبل عامل أيضاً باهتمام الفيلسوف ناصر خسرو القبادياني المروزي العلوي المتّصل نسبه بالإمام الرضا وصاحب كتاب سفرنامه، وقد زار ناصر خسرو جبل عامل ويتبين من رحلته التي قام بها إلى بلاد الشام عام 438/1047، بأنّ مدينة صور معظم سگانها شيعة وكذلك فإنّ سگان طرابلس كلهم شيعة، وقد شيّد الشيعة مساجد جميلة في كل البلاد<sup>(3)</sup>.

والراجح أنّ مشاهدات ناصر خسرو القصيرة للمدن الساحلية في لبنان التي دونها في كتابه سفرنامه حظيت باهتمام وقبول من معظم الباحثين في تاريخ هذه المدن في العهد الفاطمي، وذلك بسبب وضوحها من جهة، وفرادتها من جهة ثانية. فقد كان الداعية الفاطمي، ذو الأصول الفارسية، حريصاً على تسجيل المعطيات المثيرة والغنيّة في دلالاتها، ناهيك عن أنّ توقيت هذه المشاهدات، في سنة 438/1047، عمل فريد لم يشاركه فيه على ما يبدو، أحد من الرحالة أو الجغرافيين.

هذا ومن زوار مدينة صور في العهد الفاطمي، الأمير والأديب والمؤرّخ الشيعي

(1) محسن الأمين، خطط جبل عامل، ص 302.

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 179.

(3) ناصر خسرو، سفرنامه، ص 48-49.

أسامة بن منقذ الذي زار المدينة سنة 482/1089، ودخل دار بني أبي عقيل، فرآها بعد أن تهدمت وتغيّرت زخارفها.

ومن الشعراء الذين زاروا مدينة صور سنة 484/1091 ابن الخياط الدمشقي، ووفد على واليها منير الدولة الجيوشي، ومدحه بقصيدة أنشده إياها بصور.

ومن علماء القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي محمد بن علي بن الحسن الصوري، الذي ولد في مدينة صور سنة 417/1026، وعاش ردحاً من الزمن في طرابلس داعياً للفاطميين وللمذهب الشيعي الإسماعيلي، ثم زار القاهرة بعهد المستنصر بالله الفاطمي. وصنّف قصائد كثيرة ورسائل عديدة أشهرها: **التحفة الزاهرة**، و**نفحات الأئمة**، و**القصيدة الصورية**، مات على الأرجح حوالي سنة 487/1094.

وتعدّ القصيدة الصورية من أقدم المصادر عن الإسماعيلية، ومن أهمّ الرسائل التي تمثل عقائدها أصدق تمثيل، ومن أحسن المراجع الإسماعيلية في تاريخ قصص الأنبياء، وعدد أئمتهم من الإمام علي حتى المستنصر بالله الفاطمي، لذلك حافظ الدعاة على سريتها وعدم تسريبها<sup>(1)</sup>.

هكذا كانت منطقة جبل عامل عندما خضعت للحكم الفاطمي، حيث ساهم العلماء، والأدباء، والرحالة في الإضاءة على جوانب هامة من حقبة تاريخية، شغلت طائفة كبيرة من المؤرخين، رغم تعدّد الآراء في ما بينهم حولة مسألة ما فالاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.

## خاتمة

تعدّ الدولة الفاطمية نموذجاً منفرداً في التاريخ الإسلامي لم يتكرّر على الإطلاق. فقد كانت دولة ذات طابع ديني فلسفي وحضارة متميزة أرادت بسط نفوذها على كل العالم الإسلامي. وجاء فتحهم لمصر عام 358/969 ممثلاً المرحلة قبل الأخيرة في سبيل تحقيق هدفهم البعيد وهو الإحلال محل الخلافة العباسية كحكام وحيدين للعالم الإسلامي.

أما جبل عامل فكان ملتقى السلالات البشرية المختلفة، فقد استقبل موجات بشرية

(1) علي داود جابر، الحلقة الضائعة من تاريخ جبل عامل، ص 230 - 231.

كثيرة جاءت مهاجرة أو فاتحة مثل: الكنعانيين والآراميين والبابليين والمصريين والفرس واليونان والرومان والأنباط وغيرهم، وظل العنصر السامي هو المهيمن فيه ما سهل انتشار اللغة العربيّة عند هجرة قبيلة عاملة ودخولها إلى جبل عامل، ويعود السبب لوحدة الأصل والتراكيب والخصائص بين الساميّة والعربيّة.

وعندما فتحت بلاد الشام على أيدي المسلمين عام 13/635 استقبلت هجرات عربيّة على مستوى القبائل والجماعات والعائلات والأفراد، امتزجت بسكانها القدامى، وأصبحت اللغة العربيّة للبلاد العامليّة ساحلاً وجبلاً على حدّ سواء، بعد أن كانت اللغة الروميّة اللغة المحكيّة في صيدا وصور، وحلّ العرب مكان الرومان الخارجين مع دولتهم المنهزمة، هذا المزيج البشري، كون المجتمع والإنسان العامليّ الذي استطاع أن يحافظ على وجوده وتراثه وتأثيره في محيطه العربيّ والإسلاميّ.

إنّ التشيع في جبل عامل لم يكن وليد القرن الرابع الهجريّ/العاشر الميلاديّ أو غيره كما توهم البعض. بل قارن وجوده الأيام الأولى من الفتوحات الإسلاميّة، ومشاركة رجالات الشيعة الخُصّ فيها، كسلمان الفارسي والمقداد وأبي أيّوب الأنصاريّ، ولا ننسى رباط أبي ذر الغفاري في قرية ميس الجبل وثرغ صرفند، وما أحدثه تواجده المبكر في البلاد الشاميّة من ميل كبير للتشيع في الجيش الفاتح.

ومن المؤرخين الذين ذكروا التشيع محسن الأمين قائلاً: «ومن المشهور أنّ تشيع جبل عامل كان على يد أبي ذر الغفاري، وأنه لما نفي إلى الشام، وكان يقول في دمشق ما يقول، أخرجه معاوية إلى قرى الشام، فجعل ينشر فيها فضائل أهل البيت فتشيع أهل تلك الجبال على يده. فلما علم معاوية، أعاده إلى دمشق، ثم نفي إلى المدينة»<sup>(1)</sup>.

(1) محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج4، ص 238.

## قائمة المصادر والمراجع

- ابن خردادبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (280/893)، المسالك والممالك؛ تحقيق محمّد مخزوم، الطبعة الأولى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1408/1988.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمّد بن خلدون الحضرمي (808/1406)، مَقَدِّمَةُ ابْنِ خَلْدُونِ، الطبعة الرابعة، بيروت، دار القلم، 1981.
- ابن منظور، جمال الدين محمّد بن مكرم (711/1311)، لسان العرب، الطبعة الثالثة، بيروت، دار صادر، 1414/1994، خمسة عشرة مجلدًا.
- الأمين، حسن، دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعيّة، الطبعة الخامسة، بيروت، دار التعارف، 1418/1997، خمسة وعشرون مجلدًا.
- الأمين، محسن بن عبد الكريم (1372/1952)، أعيان الشيعة؛ تحقيق حسن الأمين، الطبعة الخامسة، بيروت، دار التعارف، 1406/1986، عشرة مجلدات.
- \* **خطّ جبل عامل؛ تحقيق حسن الأمين، لا طبعة، بيروت، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، 1403/1983.**
- الأمين، يحيى، معجم الفرق الإسلاميّة، الطبعة الأولى، بيروت، دار الأضواء، 1406/1986.
- البيلي، محمّد بركات، التشيع في بلاد المغرب الإسلاميّ حتى منتصف القرن الخامس الهجريّ، لا طبعة، القاهرة، دار النهضة العربيّة، 1993.
- تامر، عارف، عُبيد الله المهدي، الطبعة الأولى، بيروت، دار المسيرة، 1410/1990.
- \* **المعزّدين الله لفاطميّ، الطبعة الأولى، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1402/1982.**
- جابر، عليّ داود، الحلقة الضائعة من تاريخ جبل عامل من الفتح الإسلاميّ حتى السيطرة العثمانيّة، الطبعة الأولى، بيروت، دار الهادي، 1426/2005.
- جمال الدين، محمّد السعيد، دولة الإسماعيليّة في إيران، لا طبعة، القاهرة، 1975.
- الحرّ العامليّ، محمّد بن الحسن بن علي (1692/1104)، أمل الآمل في علماء جبل عامل؛ تحقيق أحمد الحسيني، لا طبعة، النجف، مطبعة الآداب، 1385 هجريّة، الجزء الأول.
- خسرو، ناصر (481/1088)، سفر نامه؛ تحقيق يحيى الخشاب، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتاب الجديد، 1970م.
- الرصاص، أحمد بن الحسن بن محمّد (584/1188)، مصباح العلوم في معرفة الحي القيوم؛ تحقيق محمّد عبد السلام كفاقي، الطبعة الأولى، بيروت، جامعة بيروت العربيّة، 1971.
- الزركلي، خيرالدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة الخامسة عشرة، بيروت، دار العلم للملايين، 2002، ثمانية أجزاء.
- سيّد، أيمن فؤاد، الدّولة الفاطميّة في مصر، الطبعة الأولى، القاهرة، الدار المصريّة اللبنانيّة، 1413/1992.
- شرف الدين، أحمد، اليمن عبر التاريخ، الطبعة الثانية، مطبعة السنة المحمّدية، 1384/1964.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمّد بن عبد الكريم (548/1153)، الملل والنحل؛ تحقيق عبد العزيز محمّد الوكيل، لا طبعة، القاهرة، 1968، ثلاثة أجزاء.
- الطوسي، أبو جعفر محمّد بن الحسن (460/106)، التبيان الجامع لعلوم القرآن، لا طبعة، النجف، مطبعة الأمين، 1382/1963، عشرة أجزاء.
- \* **فهرست كتب الشيعة وأصولهم وأسماء المصنّفين وأصحاب الأصول، الطبعة الثالثة، بيروت، مؤسسة الوفاء، 1403/1983.**

- عثمان، هاشم، **الإسماعيلية بين الحقائق والأباطيل**، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1419/1998.
- عويس، عبد الحلیم، **قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخي**، لا طبعة، القاهرة، دار الصحوة، 1985.
- فيليب، حثي، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين؛ ترجمة كمال اليازجي؛ راجعه جبرائيل جبور**، لا طبعة، بيروت، دار الثقافة، 1958-1959، جزءان.
- كرد، علي محمد، **خطط الشام**، الطبعة الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، 1389/1969، ستة أجزاء.
- لويس، برنارد، **أصول الإسماعيلية؛ ترجمة خليل جلو؛ هاشم الرجب**، لا طبعة، القاهرة، 1947.
- المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء (380/990)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم؛ تحقيق محمد مخزوم**، لا طبعة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1408/1987.
- المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (845/1441)، **إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء؛ تحقيق جمال الدين الشّيال**، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1967-1973، ثلاثة أجزاء.
- مكي، محمد كاظم، **منطلق الحياة الثقافية في جبل عامل**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الزهراء، 1411/1991.
- النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى (310/922)، **فرق الشيعة**، الطبعة الثانية، بيروت، دار الأضواء، 1404/1984.
- هالم، هاينز، **الفاطميون وتقاليدهم في التعلم؛ تعريب سيف الدين القصير؛ مراجعة مجيد الراضي**، الطبعة الأولى، دمشق، المدى، 1999.
- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (945/334)، **صفة جزيرة العرب**، لا طبعة، مصر، مطبعة السعادة، 1373/1953.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (626/1229)، **معجم البلدان**، لا طبعة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1399/1979، خمسة أجزاء.
- اليعقوبي، أحمد بن إسحاق أبي يعقوب (905/292)، **كتاب البلدان**، الطبعة الأولى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1408/1989.

- Canard, M., «FĀTIMIDES», Encyclopédie de l'Islam (nouvelle édition), Leyde – Paris, Brill– Maisonneuve et Larose, 1965, Vol. II, P. 870-875.
- Guérin, Victor, Description géographique historique de la Palestine, La Galilée Imprimerie nationale, Paris, 1880.
- Montet, E, Traduction du Coran, Paris, 1958.
- Muir, W.N., The Caliphate, Edinburgh, 1924.
- Vaglieri, L. Vecchia, «FĀṬĪMA», Encyclopédie de l'Islam (nouvelle édition), Leyde– Paris, Brill– Maisonneuve et Larose, 1965, Vol. II. P. 866 – 870.

دور مشاريع خدمة المجتمع في اكتساب مبادئ المواطنة لدى المتعلمين في المرحلة الثانوية: دراسة حالات - ثلاث ثانويات رسمية في محافظة النبطية - جنوب لبنان.

الباحث 1: زينب أحمد محمد

الباحث 2: د. ريتا نصرالله

جهة التعليم: جامعة القديس يوسف - بيروت / كلية العلوم التربوية

الإيميل: zainab.mohammad@net.usj.edu.lb

rita.nasrallah2@usj.edu.lb

الملخص بالعربية:

هدفت هذه الدراسة إلى اكتشاف دور مشاريع خدمة المجتمع في اكتساب المتعلمين في المرحلة الثانوية مبادئ المواطنة - دراسة حالات في ثلاث ثانويات رسمية في جنوب لبنان، ولهذه الغاية استخدمنا المنهج النوعي تحديداً لدراسة ثلاث حالات متشابهة للإجابة عن أسئلة البحث. جمعت البيانات باستخدام المقابلات الفردية شبه المقننة والمقابلات الجماعية شبه المقننة أيضاً مع 30 متعلماً ومتعلمة، إضافة إلى تحليل الوثائق؛ وذلك خلال العام الدراسي 2020-2021. وبعد تحليل البيانات النوعية وفقاً للطريقة الاستقرائية، أشارت النتائج إلى وضوح أهداف مشاريع خدمة المجتمع لدى المتعلمين، وتلاؤمها مع دليل تنفيذ المشاريع الصادر من المركز التربوي للبحوث والإنماء، وإلى اقتصار المشاريع على المجالات الاجتماعية - الاقتصادية في الدرجة الأولى، والمجالات البيئية والثقافية في الدرجة الثانية، والمجالات السياحية والتراثية في الدرجة الثالثة، مع غياب أي مشروع ينتمي إلى المجالات الأخرى. كما توصلت الدراسة إلى التزام المتعلمين آلية تنفيذ المشاريع، ولعل أهمها الحوار والمناقشة. وقد اكتسب المتعلمون عدداً من المهارات الحياتية والعملية خلال تنفيذهم المشاريع التي أثرت تأثيراً إيجابياً في شخصياتهم وتصرفاتهم، وساعدتهم في اكتساب مبادئ المواطنة اكتساباً متفاوتاً بينهم؛ ولعل من أهم تلك المبادئ: الاعتزاز بالوطن، والمشاركة المجتمعية، والانفتاح على الآخر. ومن أهم الأمور التي اقترحتها الباحثة ضرورة توسيع نطاق الأعمال الخدمائية إلى خارج المجتمع المحلي، والتعاون بين

التأنيّات في تنفيذ مشاريع خدمة المجتمع، وتصميم برامج خاصّة تعنى بتعميق مفهوم خدمة المجتمع ومجالاته وآليّة العمل به.

الكلمات المفتاحيّة: مشاريع خدمة المجتمع، العمل التطوّعيّ، المواطنة، المشاركة المجتمعيّة، المتعلّمون في المرحلة التّأنيّة.  
الملخص بالأجنبيّة

**Title: the role of the community service high–school projects in aiding students to acquire the principles of citizenship: a case study– Three high schools in Nabatieh– South Lebanon.**

The aim of this study was to explore the role of the community service high–school projects in aiding students to acquire the principles of citizenship. For this purpose, a qualitative multiple case study was conducted in three public high schools in South Lebanon–Nabatieh. The cases were a theoretical replication of similar contexts. The purposive sample consisted of 30 high– school students from grades 11 and 12 who have already participated in such projects, and the data collection tools were semi–structured interviews and focus groups with students. The third tool consisted of analyzing students’ community service projects. The data was collected during the 2020–2021 academic year. After inductively analyzing the data, the results showed that the goals of these projects were achieved, and the students abided in their work by the guide that was set by the Center for Educational Research and Development (CERD); however, these projects mainly concentrated on socio–economic endeavors. A few other projects targeted environmental and cultural goals, and minor projects tackled touristic and heritage–oriented projects,

while neglecting other areas like health issues. All in all, students benefitted from this experience to enhance their ability to communicate and reach out to the different other. Also, the projects boosted their sense of belonging to their country and their enthusiasm to serve. Hence, the projects positively influenced participants' personalities and behaviors. As a recommendation, it is good to expand the scope of such projects beyond the immediate school community, and it would be useful for schools to collaborate together on such projects, and finally the Lebanese society would greatly benefit from programs that promote a broader and more systematic scope of community service.

Keywords: community service projects- volunteer work- citizenship- social participation-high-school students

## مقدمة

يشهد العالم المعاصر ثورة معرفية وتطوراً ملحوظاً في مقاربات التعليم واستراتيجياته؛ إذ لم تعد تقتصر العملية التعليمية - التعلمية في عصرنا الحالي على تلقين المتعلم المعلومات والكفايات فحسب، بل تعدته إلى بناء شخصيته، من خلال نقل قيم تساعد في تهيئته للانخراط في الحياة الاجتماعية والعملية لاحقاً (زين الدين، 2019). فطالما اقترن مصطلح التعليم بالتربية، بل إن التربية قد فاقت التعليم أهمية، وسبقته في الأولوية؛ إذ اعتدنا على قول «التربية والتعليم» وليس «التعليم والتربية». وتهدف التربية إلى إعداد جيل مثقف وواع، يعرف حقوقه وواجباته، ويتكيف مع المجتمع الذي يعيش فيه (رحوي، 2010)، كما تساهم في تنمية قيم المواطنة، وتعزيز إدراك الفرد مسؤولياته تجاه وطنه ومجتمعه (البليسي، 2012). إلا أن تحقيق هذه الأهداف وتمكين المتعلم من هذه المبادئ لا يرتبطان حصراً بالمنهج الدراسي، بل إن مجموعة هذه القيم والمبادئ لا يمكن أن تُكتسب فعلياً إلا من طريق الأفعال والممارسات ذات الطابع الوطني أو المجتمعي أو الإنساني. وهنا، تبرز أهمية «العمل التطوعي والخدمة المجتمعية» في حياة المتعلمين ولا سيما الشباب منهم (الشقران، 2016).

كان العمل التطوعي في المؤسسات التعليمية سابقاً يعني مبادرات فردية من لدن متعلمين ومعلمين فحسب، تُنجز تبعاً لبعض الدروس في مختلف المواد التي تتناول موضوعات وطنية أو إنسانية أو بيئية... بيد أن تلك النشاطات افتقدت المنهجية والتخطيط العملي؛ فقد كانت تُنفذ عشوائياً، ومن غير أن تُعمم على باقي الثانويات أو على المجتمع المحلي، ولم تكن موجودة فعلياً في البرنامج المدرسي (شحاتة، 2004). لكنّ النظرة إلى المناهج قد تغيرت بمرور الزمن، فالتفت التربويون إلى أهمية إدخال الخبرات وتعزيز الجانب الاجتماعي في العملية التربوية، ولم تعد النشاطات مجرد إضافة إلى المنهج، بل صارت في صلب المنهج كما حصل في روسيا وفي الولايات المتحدة الأميركية؛ وقد تضمنت تلك النشاطات أموراً تساعد المتعلم في انخراطه في مجتمعه، وفي اكتسابه القيم كالمواطنة والديمقراطية والقيادة (شحاتة، 2004). لذلك، قرّرت وزارة التربية والتعليم العالي في لبنان إضافة «العمل الاجتماعي» إلى جوهر التعليم الثانوي، وذلك من طريق ما أسمته «مشاريع خدمة المجتمع» في الثانويات اللبنانية الرسمية والخاصة وفقاً للمرسوم 8924 المتعلق بتطبيق «مشروع» خدمة المجتمع في مرحلة التعليم الثانوي، ثمّ ألحقته بالقرار 207/م/2016 القاضي بتحديد آليات تطبيق مشروع خدمة المجتمع في الثانويات الرسمية والخاصة.

إنّ تنفيذ مشاريع الخدمة الاجتماعية، وفقاً لدليل المشاريع وتأثير ذلك في سلوك المتعلم المواطني في المرحلة الثانوية، لم يكن إلى حدّ اليوم حقلاً للدراسات التربوية أو الاجتماعية؛ وذلك نظراً إلى حداثة إدخال هذه المشاريع ضمن سيرورة التعليم في الحلقة الثانوية في لبنان. بناءً على ذلك، تناولت هذه الدراسة دور مشاريع خدمة المجتمع في اكتساب مبادئ المواطنة لدى المتعلمين في ثلاث ثانويات ضمن محافظة النبطية - جنوب لبنان.

### مشكلة وأسئلة الدراسة

تعدّ المواطنة ركيزة أساسية من ركائز بناء شخصية الفرد وتنمية مهاراته الاجتماعية وقيمه الوطنية، وفي هذا الصدد ركّز الكثير من الدراسات على أهمية المدرسة في تعزيز مبادئ المواطنة لدى المتعلم، وفي تهيئته جسدياً ونفسياً لمواجهة تطورات الحياة على أساس قيمٍ ومبادئٍ؛ غير أنّ هذه الدراسات تطرقت مثلاً إلى «دور معلمي المدارس الثانوية بمحافظات غزّة في تعزيز مبادئ المواطنة الصالحة لدى

طلبتهم وسبل تفعيلها، وتوصّلت الدّراسة إلى تأكيد دور المعلم في تعزيز مبادئ المواطنة الصّالحة في أشكالها الأربعة (المواطنة الاجتماعيّة، المواطنة السياسيّة، المواطنة الاقتصاديّة والمواطنة التّربويّة) لدى متعلّمي الحلقة الثّانويّة، كما بيّنت عدم وجود علاقة بين نوع المعلم ومؤهّلاته العلميّة وحقل اختصاصه وسنوات خبرته بتعزيز المواطنة في ما عدا مجال «المواطنة التّربويّة»؛ إذ وجدت فروقات تُعزى إلى متغيّر الجندر (الفروق لصالح الذّكور) وسنوات الخبرة (لصالح أصحاب الخدمة فوق 10 سنوات) (البليسي، 2012).

وثمة دراسات أخرى في هذا السّياق، ومنها دراسة الشّقران (2016) بعنوان: إسهام برامج الأنشطة الطّلابيّة في تعزيز مفاهيم المواطنة لدى جامعة أمّ القرى في المملكة العربيّة السّعوديّة، حيث توصّلت إلى أنّ الأنشطة الطّلابيّة تساهم بمستوى «متوسّط» في تعزيز الانتماء الوطنيّ لدى الطّلاب. ودراسة الكندريّ (2016) بعنوان: ثقافة العمل التّطوّعيّ لدى طلبة كنيّة التّربية الأساسيّة في دولة الكويت، ولقد تمثّلت أهمّ نتائج الدّراسة في توفير عبارات ثقافة العمل التّطوّعيّ بدرجة كبيرة لدى طّلاب كنيّة التّربية، ووجود فروق تُعزى إلى متغيّر الجنس لصالح الإناث، كما بيّنت استجابة عينة الدّراسة للمشاركة في الأعمال التّطوّعيّة في مختلف المجالات.

أمّا الدّراسات الأخرى فستعالجها الباحثة لاحقاً، لكنّها ستستنتج - من خلال الاطّلاع على بعض نتائج الأبحاث في هذا المجال - أنّ معظمها ركّز على دور المعلمين والمنهج الدّراسيّ في غرس قيم المواطنة لدى المتعلّمين. أمّا الدّراسات التي تناولت الأنشطة الطّلابيّة والعمل الاجتماعيّ وعلاقتها بالتّربية على المواطنة، فقد عالجت تأثير هذه النشاطات الخدماتيّة في فئة الشّباب الجامعيّ، باستثناء دراسة (الكورايّ ووائل، 2011) التي تطرّقت إلى علاقة النّشاط الاجتماعيّ بالمواطنة في المرحلة المتوسّطة، بينما لم يُسلط أيّ من تلك الدّراسات الضّوء على دور الأنشطة الطّلابيّة ذات الطّابع الخدماتيّ - التّطوّعيّ في تعزيز مبادئ المواطنة لدى متعلّمي المرحلة الثّانويّة. ونضيف إلى ما سبق أنّ الدّراسات التي عالجت دور الأنشطة الطّلابيّة في تنمية المواطنة قصّدت بذلك الأنشطة التّربويّة المدرسيّة، وليست تلك المخصّصة حصريّاً للخدمة المجتمعيّة؛ لذلك، نلاحظ أنّ بعض الباحثين اقترح تخصيص مشروعات لخدمة المجتمع، أو إنشاء «وحدة العمل التّطوّعيّ» في المؤسّسة التّعليميّة،

وتصميم برامج خاصة بالأنشطة الطلابية تهدف تحديداً إلى تعزيز مفهوم المواطنة وقيمتها، وإلى عدم الاكتفاء بالأنشطة الصفية أو اللاصفية المعتادة فحسب (فريجات وواده، 2018)؛ (الكندي، 2016).

أما في لبنان فقد بدأ تنفيذ مشاريع خدمة المجتمع في الثانويات الرسمية والخاصة منذ العام 2013، وأصبح في صلب التعليم الثانوي. في المقابل، نلاحظ ندرة الأبحاث التي تناولت مدى فعالية هذه المشاريع في ترسيخ قيم المواطنة لدى المتعلمين في المرحلة الثانوية ولا سيما من حيث تطبيق الخطوات الموجودة في دليل المشاريع، ومن حيث انخراط المتعلمين في تنفيذ كل المراحل التي نص عليها هذا الدليل، ومعرفتهم مفهوم المشاريع المنقذة وأهدافها. ولعل الدراسة الوحيدة التي تناولت أهمية الخدمة المجتمعية تعلقت تحديداً بدور الإدارة في تفعيل هذه المشاريع بتعزيز المواطنة، وفي التوجيه المهني للمتعلمين (محسن، 2018). مع العلم أن التربية على المواطنة تعدّ من أهم أهداف هذه المشاريع:

وفي الإطار المدرسي، تعدّ خدمة المجتمع عاملاً أساسياً في التربية على المواطنة، حيث يجري إعداد المتعلم - المواطن للمشاركة في الحياة العامة. وتُمكن الخبرة المتعلم من إدراك دوره الفاعل في بناء المجتمع، ومن المشاركة في إدارة الشأن العام في بلده، والعمل على تطويره... (الخوري وآخرون، 2016، ص 11).

لذلك، تأتي هذه الدراسة محاولةً تعرف دور مشاريع خدمة المجتمع في ترسيخ مبادئ المواطنة لدى متعلمي الحلقة الثانوية، ثمّ تقديم المقترحات التي تفيد في تطوير هذا المجال. وعليه، يمكن تلخيص إشكالية الدراسة في السؤال الآتي: «هل تساهم مشاريع خدمة المجتمع المعتمدة في التعليم ما قبل الجامعي في لبنان في إكساب المتعلمين في الثانويات الرسمية في جنوب لبنان قيم ومبادئ المواطنة؟».

لمعالجة الإشكالية حاولنا في هذه الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

ما مدى وضوح أهداف مشاريع الخدمة الاجتماعية لدى المتعلمين؟

1. هل تتنوع مجالات مشاريع خدمة المجتمع لتشمل كل مبادئ المواطنة والمشاركة المجتمعية؟

2. ما مدى التزام المتعلمين آلية المشاريع وإجراءاتها الموجودة في دليل مشاريع

### خدمة المجتمع؟

3. كيف يؤثر تنفيذ هذه المشاريع في المتعلمين ضمن حياتهم اليومية؟

#### أهداف الدراسة:

1. اكتشاف مدى وضوح أهداف مشاريع خدمة المجتمع لدى المتعلمين، وعلاقة ذلك باكتساب مبادئ المواطنة.
2. التّحقّق من تنويع مشاريع خدمة المجتمع من أجل اكتساب المتعلمين كلّ قيم المواطنة ومبادئها.
3. تعرّف مدى التزام المتعلمين آليّة المشاريع وإجراءاتها الموجودة في دليل مشاريع خدمة المجتمع.
4. وصف تأثير مشاريع خدمة المجتمع في حياة المتعلمين اليومية.
5. تقديم المقترحات المناسبة لموضوع الدّراسة في ضوء ما تسفر عنه نتائجها.

#### حدود الدّراسة:

1. الحدّ المكاني: اقتصرت الدّراسة الحاليّة على ثلاث حالات من ثانويّات محافظة النبطيّة في جنوب لبنان.
2. الحدّ الموضوعي: اقتصرت الدّراسة الحاليّة في حدّها الموضوعي على مشاريع خدمة المجتمع المعتمدة في التّعليم ما قبل الجامعي في لبنان.
3. الحدّ البشري: اقتصرت الدّراسة الحاليّة على عيّنة قصديّة من متعلّمي الصّفين الثّاني والثّالث من المرحلة الثّانويّة، لكونهم قد شاركوا مسبقاً في مشاريع خدمة مجتمع، وعددهم (30) متعلّماً ومتعلّمةً. أمّا الحدّ الآخر فقد يتأتّى من تحييز الباحث غير المقصود في حال ورد، لكون البحث مرتبطاً بتحليل الباحث النوعي.
4. الحدّ الزّمني: العام الدّراسي 2020-2021.

#### مصطلحات الدّراسة:

#### خدمة المجتمع:

يُعرّف العاملون في المجال التربويّ مفهوم «خدمة المجتمع» بـ«الخدمات التي

يؤديها فرد أو مجموعة من الأشخاص من أجل المصلحة العامة» (الخوري وآخرون، 2016، ص 7). وفي سياق المواطنة الفاعلة والحاضنة للتنوع تعرّف مؤسسة أديان مشاريع خدمة المجتمع بـ«الأنشطة التي يؤديها فرد أو جماعة، من أجل المصلحة العامة، فيستفيد منها المجتمع ككله، أفراداً وهيئاته ومؤسساته، ويكتسب من يؤديها المهارات اللازمة للمشاركة في الحياة العامة والتّحلي بروح المسؤولية الاجتماعية» (كما استشهدت بهم خوري وآخرون، 2016، ص 10).

### المواطنة:

يعرّف أبو المجد (2010) المواطنة بأنّها «علاقة بين الفرد والدولة يُحددها الدستور والقوانين المنبثقة عنه، والتي تتطلّب بالضرورة المساواة في الواجبات والحقوق بين المواطنين» (ص 13). وفي الاصطلاح، تعني المواطنة «أن يعرف الفرد حقوقه ويؤدّي واجباته من طريق التربية الوطنية، وتتميّز المواطنة بنوع خاص من ولاء المواطن لوطنه وخدمته في أوقات السّلم والحرب، والتّعاون مع المواطنين الآخرين من طريق العمل المؤسّساتي والفردّي الرّسمي والتّطوعيّ في تحقيق الأهداف التي يصبو لها الجميع، وتوحّد من أجلها الجهود، وترسم الخطط وتوضع الموازنات» (بدوي، 1982، ص 62). ويرى مكروم (2004) أنّ المواطنة هي مجموعة من المبادئ التي تحكم العلاقات بين الأفراد ضمن نظام ديمقراطيّ، والتي تعمل على تكوين الحسّ الوطنيّ وروح المبادرة لدى المواطنين لكي يشعروا بالمسؤوليّة تجاه وطنهم ومستقبله (ص 16).

### تلاميذ الصفوف الثّانويّة:

يتميّز متعلّمو المرحلة الثّانويّة بنموّ الذّكاء العامّ، وزيادة القدرة على القيام بكثير من العمليات العقلية كالنّفكير والتّدكّر القائم على الفهم، والاستنتاج والتّعلّم والتّخيّل. كما يتميّزون بنموّ القدرات العقلية الخاصّة، كالقدرة الرّياضية والقدرة اللّغوية والقدرة الميكانيكية والفنيّة. وتتنوّح الابتكارات في هذه المرحلة بوصفها نتاجاً للنّشاطات العقلية. وفيها تنمو بعض المفاهيم المجرّدة كالحقّ والعدالة والفضيلة ومفهوم الزّمن، ويتّجه التّخيّل المحسوس إلى المجرّد. كما تنمو أيضاً الميول والاهتمامات والاتّجاهات القائمة على الاستدلال العقليّ، ويظهر اهتمام المراهق بمستقبله الدّراسيّ والمهنيّ؛ إذ يميل المراهق إلى التّفكير النّقديّ فيطالب بالدليل على حقائق الأمور، ولا يقبلها قبولاً

أعمى مسلماً به (الإدارة العامة للتدريب والابتعاث، 2014).

## محتوى الدراسة النظري

### مفهوم مشاريع خدمة المجتمع

نشأ «مفهوم خدمة المجتمع» بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية اللتين سببتا الكثير من المشكلات والتحديات المجتمعية في معظم الدول المشاركة. وقد عجزت الحكومات عن مواجهة هذه التحديات، وعن تلبية جميع الحاجات. لذا، ظهرت مبادرات التطوع الفردي والظرفي لمساعدة الناس بعضهم بعضاً، فبات التطوع بديلاً فعّالاً من الطرائق البدائية (الثلقين) لتعليم المواطنة، وأصبح المواطنون ولا سيما المتعلمون يكتسبون مبادئ المواطنة والمشاركة المجتمعية من خلال الانخراط في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لبلدهم، هادفين إلى تحسين مجتمعهم على الصعد كافةً (الخوري وآخرون، 2016، ص 10).

وفي المجال التربوي، لقد أعطيت هذه المشاريع الكثير من الأهمية نظراً إلى مساهمتها في تنمية العديد من المهارات والقيم، ولا سيما ما يرتبط منها بالمواطنة؛ فقد حُصص لها فرع في التعليم الجامعي في سلطنة عمان والكويت والسعودية والأردن. وقد أدخلتها بعض الدول الغربية في التعليم ما قبل الجامعي كالدانمارك مثلاً، وأدخلت ضمن الأندية المدرسية في بعض المدارس الأميركية، في حين أنها تُعد شرطاً من شروط الحصول على البكالوريا الفرنسية (الخوري وآخرون، 2016، ص 14).

ولقد عُرّف هذا المفهوم في «دليل مشروع خدمة المجتمع في التعليم ما قبل الجامعي في لبنان» بالنشاطات التي ينفذها فرد أو جماعة من الأفراد من أجل اكتساب المهارات والكفايات التي تؤدي إلى المشاركة الاجتماعية، ومن أجل الإفادة على الصاعدين الفردي والجماعي (الخوري وآخرون، 2016، ص 10).

### أهمية الخدمة الاجتماعية لدى المتعلمين

تكمّن أهمية الخدمة الاجتماعية في علاقتها بالتنمية الاجتماعية لدى الأفراد، وفي إحداث تطور إيجابي في شخصياتهم تطوراً يدفعهم إلى المشاركة في بناء مجتمعهم وتطويره. وقد أشارت أحمد (2018) إلى الأهمية الكبيرة للخدمة الاجتماعية في تطوير قدرات الشباب؛ إذ إنهم، من خلال مشاركتهم في مشاريع الخدمة الاجتماعية

وفي العمل التطوعي، يكتسبون الكثير من القيم الاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية والاقتصادية. وأكدت الكاتبة أيضًا أن الشباب هم من أكثر الفئات تأثرًا وتأثيرًا في العمل التطوعي، حيث يُعدّون قوى بشرية متجددة العطاء تستطيع المساهمة بفعالية في تنمية مجتمعهم من ناحية، ومن ناحية ثانية فإنّ مشاريع الخدمة الاجتماعية تساعدهم في تقوية روابطهم مع الآخرين، وفي تعزيز قيم الانتماء والمواطنة. ويتفق الأميري (2013) مع ما ذكر آنفًا، إذ إنّه يرى أنّ للعمل التطوعي لدى الشباب أهمية كبرى في سلوكهم المواطني والاجتماعي؛ لأنّه يركز على بناء المجتمع ويساهم في غرس منظومة قيمية، منها الانتماء والانضباط والمواطنة. ويصبح بإمكان المتعلمين التعبير بحريّة عن آرائهم في كلّ القضايا والمشكلات التي تهمّ المجتمع والوطن. ويشير أيضًا إلى أنّ الانفتاح والوعي وتحمل المسؤولية كلّها قيم ومبادئ يكتسبها الشباب من طريق انخراطهم الفعّال في العمل التطوعي وخدمة المجتمع.

#### أهداف مشاريع خدمة المجتمع في التربية

لقد حدّد المرسوم 8924 بتاريخ 21-9-2012 أهداف مشاريع خدمة المجتمع في لبنان وفق الآتي:

- إكساب المتعلّم اللبناني قيمة التّواصل والعلاقات مع الآخرين ومع الوطن نفسه.
- بناء شخصيّة متكاملة للمتعلم وتعزيز الوعي وتحمل المسؤولية تجاه المجتمع.
- تحفيز التفكير الناقد ومهارة حلّ المشكلات، والتّعاون الإنسانيّ من أجل الوصول إلى إيجاد الحلول المتلائمة معها.
- اكتساب مفاهيم التّضامن والتّعاون الاجتماعيّ وخدمة المجتمع المحيط ومجالاته وظروفه.
- تشجيع المتعلّم على التّطوّع في سبيل الشّأن العامّ من خلال المشاركة الاجتماعية من دون أيّ مردود في المقابل.
- تنمية القدرة على تحمّل المسؤولية والاعتماد على النّفس.
- تعزيز القدرة على مساعدة الآخرين واحترام حقوقهم وخصوصيّاتهم.
- تقوية المواطنة التّشاركيّة في الحياة الخاصّة والعامّة.

- الحدّ من السلوك السلبّي المكتسب لدى الناشئة الذي بات يُهدّد تماسك المجتمع اللبنانيّ.
- تحويل انتماء الشباب الوطنيّ إلى ممارساتٍ حيويّتها من شأنها أن تُعزّز الانصهار الوطنيّ، وتُخفّف من الانقسامات.
- محاكاة ما هو معمول به في البلدان المتقدّمة، حيث خدمة المجتمع ضرورة للقبول في الجامعات (الخوري وآخرون، 2016، ص 16).

### مجالات تنفيذ مشاريع خدمة المجتمع

- المجال الاجتماعيّ - الاقتصاديّ: وهو يهدف إلى تحسين فئة مهمّشة من النسيج الاجتماعيّ كتقديم خدمات إلى دار العجزة أو لذوي الحاجات الخاصّة، وكالتخفيف من وطأة الفقر. أمّا ما يتعلّق بالشقّ الاقتصاديّ، فيمكن المتعلّمين من مساعدة أبناء بلدتهم أو أبناء المحيط في أعمالهم (جمع المحاصيل الزراعيّة، قطاف الزيتون...).
- المجال المدنيّ - الحقوقيّ: ويهدف إلى التوعية بالحقوق العامّة، وكيفيّة المطالبة بها مثل حقوق الطّفّل والإنسان، وحقوق المرأة...
- المجال البيئيّ: ويهدف إلى حماية البيئة والمساهمة في الوعي حول سبل المحافظة عليها، وإلى إجراء مشاريع ومبادرات محليّة من أجل تعزيز الثقافة البيئيّة من قبيل حملات نظافة، وتشجير، وتنظيف الطّرق، وفرز النفايات وإعادة تدويرها، والقيام بحملات توعية حول ضرورة المحافظة على البيئة.
- المجال الصحيّ: وهو يهدف إلى نشر المعارف والمفاهيم الصحيّة، وإلى زيادة الوعي حول ضرورة المحافظة على الصّحة الفرديّة والعامّة كحملات توعية حول مضارّ التدخين، ومخاطر المخدّرات، وزيادة الوعي حول بعض الأمراض الخطيرة وآخرها مثلاً مرض كورونا المستجدّ...
- المجال التربويّ: ويهدف إلى الدّعم التربويّ من قبيل ترتيب تجهيزات المكتبة المدرسيّة والتطوّع في المكتبات العامّة...
- المجال الثقافيّ والتراثيّ: ويهدف إلى نشر تراث الوطن الثقافيّ، وتعريف الإرث

- الوطني والمحافظه عليه: نشاطات ثقافية، أفلام وثائقية قصيرة وأرشفة...
- المجال الفني: ويهدف إلى المساهمة في نشر الفنون، وإبراز أهميتها التاريخية المعاصرة في المجتمع على حقيقتها من خلال تنظيم المعارض والمناسبات الفنية...
  - المجال السياحي: ويهدف إلى إبراز المعالم السياحية وتطويرها من خلال المطويات السياحية والمسير السياحي...
  - المجال الرياضي: ويهدف إلى تنظيم النشاطات الرياضية من خلال تحفيز الشباب على الاختلاط وتمتين العلاقات والصلات عبر أنشطة رياضية وترفيهية (ص -21 22).

### متطلبات خدمة المجتمع لدى المتعلمين

عددت أحمد (2018) العوامل المطلوبة في العمل التطوعي وفق الآتي:

- عدم تلقّي أيّ أجرٍ ماديّ، والاستناد إلى الأجر المعنويّ فحسب.
  - ارتباط المشروع بأهدافه الإنسانية والاجتماعية.
  - اكساب المتطوع المهارات والخبرات الاجتماعية.
  - تعزيز مفهوم الخدمة والمشاركة الاجتماعيين لدى المتطوع.
  - غرس قيم المشاركة والتعاون.
- ولا يتحقق تنفيذ مشاريع خدمة المجتمع بطريقة عشوائية أو فردية، بل ثمة آلية عمل وخطوات محددة تمكّن المتعلمين من العمل ضمن فريق، ووفقاً لخطة عملٍ ممنهجة.

### مقاربات التربية على المواطنة

يحدّد فريحة (2012) مجالات التربية على المواطنة التي تبدأ بالمجال المعرفي، أي المعارف المتنوّعة التي يقدّمها المنهاج الدراسي، والبناء عليه من أجل التربية على المواطنة؛ فهذه المبادئ والقيم بحاجة إلى شقّ معرفيّ تستند إليه من أجل الوصول إلى اكتسابها. ومن هذه المعارف: تاريخ الوطن وتراثه، ومؤسّسات الوطن ودورها، والمجتمع وتركيبته، وجغرافيا البلدان الأخرى وتاريخها وعلاقتها بالوطن...

أمّا المجال المهاريّ، فهو أن يعرف المتعلّم كيفية استخدام معرفته بالطريق الصحيح، ومن أجل التطبيق السليم يجب ربط المهارات بالقيم. ومن هذه المهارات: المهارات الجسديّة وعلاقتها بالتراث، والمهارات السيكو - حركيّة وعلاقتها بقدرة المتعلّم على الاستنتاج وعلى الاعتماد على النفس وعلى اتّخاذ قرارات وطنيّة. بينما يبرز في المجال القيميّ دور القيم والاتّجاهات التي تغرسها المدرسة وما تتضمنه من أنشطة صقيّة وغير صقيّة في اكتساب ثقافة تتوارثها الأجيال، ويُعدّ ذلك من أساسيات التربية على المواطنة. ومن هذه القيم: الصدق، والأمانة، والتسامح، وحبّ الوطن والوفاء له، واحترام الآخر والتعاون معه، واحترام الكفاءة والسلام... أمّا المجال الوطنيّ، فيتضمّن مزيجًا من المعارف والمهارات والقيم المشتركة، ويُعدّ من الركائز الأساسيّة للتربية على المواطنة؛ وتتكوّن أهم عناصره من: الانتماء إلى الوطن، والافتخار بالهويّة، والدفاع عن الوطن واستقلاله، والحفاظ على وحدة الشعب وممارسة الحقوق... ويتكوّن مجال المشاركة من العمل والتطبيق، فما حصّله المتعلّم من مهارات ومعارف يجب تطبيقه في المجتمع المحليّ أو الوطنيّ من قبيل المشاركة في حلّ المشكلات، وفي تحسين البيئة، وفي التوعية الصحيّة، وفي الدفاع عن الوطن، وفي المشاركة في المناسبات الوطنيّة... (ص 213-223).

ومن المقاربات الجديدة للتربية على المواطنة تبرز مشاريع خدمة المجتمع، حيث صدر دليل خدمة المجتمع للتعليم ما قبل الجامعيّ بالتعاون بين مؤسسة أديان والمركز التربويّ للبحوث والإنماء في لبنان؛ إذ يشكّل هذا الدليل وسيلة تربويّة مهمّة، وأداة مرجعيّة غنيّة بالمنطلقات والأفكار لتوضيح التطوُّع والإقبال على الخدمة العامّة التي يتزامن تنفيذها مع اكتساب المتعلّم الأهداف والمعارف والمهارات والمواهب (خليفة، 2014).

### الدراسات السابقة

تناولت دراسة Smist (2006) العلاقة بين المشاركة الممنهجة في خدمة المجتمع ومواطنة الطّلاب في جامعة ماريلاند في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. وقد دُرست المشاركة في خدمة المجتمع من خلال أربعة مستويات: خدمة المجتمع في الجامعة، وخدمة المجتمع مع المنظّمة الطّلابيّة، وخدمة المجتمع في العمل، وخدمة المجتمع بوصفه مصطلحًا بحدّ ذاته. وارتكزت هذه الدّراسة على البحث الكميّ والمنهج الوصفيّ

التحليلي، وجرى جمع بيانات من 1205 طلاب جامعيين في جامعة ماريلاند في ربيع 2006. وقد تكونت أداة الدراسة من استبانة تتمثل في نسخة منقحة من مقياس القيادة المسؤولة اجتماعياً (معهد بحوث التعليم العالي، 1996). وقد اختلفت النتائج اختلافاً كبيراً بين مشاركة الطلاب في خدمة المجتمع في أثناء الكليّة، وخدمة المجتمع من خلال المنظمات الطّلابيّة في أثناء العمل، وقد توصّلت الباحثة إلى أنّ التجارب المتعدّدة في خدمة المجتمع قد تكون مؤشراً مهمّاً للمواطنة الذاتيّة.

واهتمّت دراسة Fillion (2015) باستكشاف العمل على التربية على المواطنة في المدرسة الابتدائيّة. إذ اعتمدت الباحثة البحث النوعي ومنهج دراسة الحالة من خلال إجراء البحث على مدرسة حكوميّة في الكيبك في كندا، واستخدمت تقنيّة التثليث حيث أجرت مقابلات فرديّة مع ممثلي الصفوف في المرحلة الابتدائيّة وعددهم 6 متعلّمين، كما استخدمت المقابلة الجماعية مع مجموعة من المشاركين في الصفّ الخامس الابتدائيّ وعددهم 8 متعلّمين. كما لجأت إلى دراسة الوثائق من خلال تحليل «جريدة الصفّ اليوميّة». وبيّنت هذه الدّراسة تأثير التربية على المواطنة في المتعلّمين في المرحلة الابتدائيّة، واكتشفت الباحثة أنّ أخذ المعلّمين بآراء المتعلّمين والحوار معهم ومناقشتهم حول قراراتهم عوامل تُساعد في تميّة المواطنة، يُعاضدهم في تعزيز ذلك استخدامهم تقنيّة «الإنصات الفعّال» إلى التلاميذ والاستماع بانتباه إلى آرائهم.

وقد أجرى الباحثان الكواريّ ووائل (2011) دراسة تهدف إلى تبيان العلاقة بين قيم المواطنة والنشاط الاجتماعيّ المدرسيّ، فاستخدما المنهج الوصفيّ الارتباطيّ الذي يبيّن العلاقة بين متغيّرين أو أكثر، وتكوّن مجتمع البحث في دراستهما من طلاب المرحلة المتوسطة في المدارس الدوليّة والخاصّة في مدينة الدوحة في قطر، إذ بلغ عدد المدراس 136 مدرسة، وبلغ عدد طلابها 11808 طلاب. وقد اختاروا عدداً من المدارس القريبة من مجتمع البحث، فاخترت عيّنة عشوائية بلغت 5% باستخدام المعادلات الإحصائيّة التي تحدّد الحدّ الأدنى المناسب لحجم العيّنة؛ وعليه، فقد بلغ عدد العيّنة 590 طالباً. واستخدما أداةً للدراسة استبانةً توضح الارتباط بين قيم المواطنة والنشاط الاجتماعيّ داخل المدرسة. وتوصّلت الدّراسة إلى تبيان نجاح النظام التربويّ في تلك المدارس في غرس قيم المواطنة في نفوس الطّلاب الشباب

ضمن المرحلة المتوسطة، وإلى تبيان وجود ارتفاع في نسبة انخراط طلاب هذه المرحلة في النشاط الاجتماعي، كما لاحظ الباحثان التوافق والتماثل ما بين قيم المواطنة والنشاط الاجتماعي.

أما دراسة البليبيسي (2012)، فقد هدفت إلى تعرّف دور معلمي المدارس الثانوية في محافظات غزة - فلسطين في تعزيز مبادئ المواطنة الصالحة لدى طلبتهم وسبل تفعيلها. واعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي من أجل وصف الظاهرة وتحليل بياناتها، وتكوّن مجتمع البحث من جميع المعلمين والمعلمات في المرحلة الثانوية بمحافظات غزة - فلسطين، وبلغ عددهم 4120 معلمًا ومعلمة. واستخدم الباحث الاستبانة أداة للدراسة من أجل تقصي دور المعلمين في تعزيز مبادئ المواطنة لدى المتعلمين. وتوصلت الدراسة إلى تأكيد دور المعلم في تعزيز مبادئ المواطنة الصالحة في أشكالها الأربعة (المواطنة الاجتماعية، المواطنة السياسية، المواطنة الاقتصادية، والمواطنة التربوية) لدى متعلمي الحلقة الثانوية، كما بينت ضعف تأثير نوع المعلم ومؤهلاته العلمية وحقل اختصاصه وسنوات خبرته في تعزيز المواطنة، ما عدا مجال «المواطنة التربوية»؛ إذ وجدت فروقات تُعزى إلى متغير الجندر (الفروق لصالح الذكور) وسنوات الخبرة (لصالح أصحاب الخدمة فوق 10 سنوات).

وتمثّل هدف دراسة فريجات وواده (2018) في تعرّف مفهوم العمل التطوعي لدى الشباب الجزائريّ وقيم المواطنة لديهم، وتعرّف واقع المتطوعين الجزائريين ومعرفة خصائصهم الاجتماعية والديمقراطية ومفهوم التطوع لديهم أيضًا. واتبعت الدراسة منهج المسح الاجتماعيّ بالعينة، إذ حُدّدت عينة الدراسة بالطريقة القصدية من الشباب المتطوعين الذين بلغ عددهم 80 متطوعًا ومتطوعةً. وتمثّلت أداة الدراسة في استبانة تشتمل على مجموعة أسئلة وعبارات حول البيانات الشخصية للمتطوعين والواقع التطوعيّ وقيم المواطنة. ومن أبرز نتائج الدراسة تبيان وجود قيم المواطنة لدى المتطوعين الشباب، وتفقّد عدد المتطوعين الذكور على الإناث، وانتشار ثقافة التطوع في أوساط الشباب الجزائريّ، وبروز دور للجمعيات الثقافية والخيرية في غرس سلوك التطوع وترسيخ قيم المواطنة.

#### التعقيب على الدراسات:

أكّدت الدراساتُ معظمها دورَ المدرسة بجميع مكوناتها ودور النشاط الاجتماعيّ في

تعزيز قيم المواطنة لدى المتعلمين، وتناولت قيم المواطنة وأبعادها وكيفية تحقيقها. وتتلاقى دراستنا مع الدراسات السابقة في تناولها أهميّة التربية على المواطنة وسبل تفعيلها، وفي تسليط الضوء على أهميّة الخدمة الاجتماعيّة في تعزيز قيم المواطنة، إلا أنّ معظمها ركّز على دور المعلمين والمنهج الدّراسيّ في غرس قيم المواطنة لدى المتعلمين. أمّا الدّراسات التي تناولت الأنشطة الطّلابيّة والعمل الاجتماعيّ وعلاقتها بالتربية على المواطنة، فقد عالجت تأثير هذه النشاطات الخدمائيّة في فئة الشباب الجامعيّ، بينما لم تركز الدراسات معظمها على علاقة محتوى النشاط الاجتماعيّ ومجالاته ومفهومه وطرائق العمل فيه باكتساب المواطنين مبادئ المواطنة. إضافة الى ما سبق، نستنتج أنّ أكثر الدراسات اعتمدت المنهج الكميّ في جمع البيانات وتحليلها، ما عدا دراسة واحدة هي دراسة Fillion التي اعتمدت البحث النوعيّ في جمع البيانات والمعلومات وفي تحليلها، وهذا يدل على أنّنا بحاجة إلى أن نبلور المعلومات، وندخل في العمق أكثر في آراء المبحوثين وأفكارهم من أجل الوصول إلى نتائج واضحة وعميقة.

### منهجية البحث وتقنياته

ارتكزت هذه الدّراسة على البحث النوعيّ - الباراديم التّفسييريّ - وبالتّحديد على دراسة الحالة من خلال دراسة ثلاث حالات متشابهة (ثلاث ثانويّات رسميّة في محافظة النّبطيّة - جنوب لبنان). وتعني دراسة الحالة استقصاءً إمبيريقياً معمّقا حول ظاهرة معاصرة في سياقها الطّبيعيّ، وقد تكون الحالة فرداً أو مجموعة من الأفراد، أو حدثاً أو قراراً أو مؤسسة أو سياسة عامّة أو غيرها من الأنظمة التي تُدرّس دراسةً شاملةً بطريقة واحدة أو أكثر (Yin, 2003). وقد اخترنا هذه المنهجية لأنّ موضوع البحث يستند تحديداً إلى خبرات المتعلمين وآرائهم ومعلوماتهم حول مشاريع خدمة المجتمع. لذلك، نرى أنّ المنهجية الفضلى هي منهجية البحث النوعي لكونها تساعدنا في وصف ما قد عاشه المتعلمون، وفي اكتشاف أفكارهم، وفي الحصول على تفصيلات دقيقة تثرى البحث وتزيد من أهميته.

### مجتمع البحث وعيّنته

يضمّ مجتمع البحث تلاميذ المرحلة الثّانويّة في الصّفّين الثّانويين الثّاني والثّالث في محافظة النّبطيّة في جنوب لبنان؛ لأنّهم قد شاركوا في مشاريع خدمة المجتمع.

أما عينة البحث القصديّة (المشاركون بالبحث) فتضمّ عددًا من تلاميذ الحالات الثلاث. لذلك أُجريت الدّراسة على عينة من طلاب الثّاني والثّالث الثّانويّين. بلغ عدد المتعلّمين في الصّف الثّاني والثّالث الثّانويّين في الثّانويّات الثّلاث حوالي 340 تلميذًا وتلميذة، ولقد أخذنا عينة مؤلّفة من (10) متعلّمين في كل ثانويّة ليصبح عدد العينة القصديّة (30) متعلّمًا ينتمون إلى الثّانويّات الثّلاث.

### أدوات الدّراسة:

تملّت أدوات الدّراسة الراهنة في مقابلات فرديّة شبه مفتوحة أُجريت مع المتعلّمين لمعرفة واقع الخدمة الاجتماعيّة في الحالات المختارة في الجنوب، وبحسب (1978) Ghiglione and Matalon يُحدّد الباحث في المقابلة شبه المقتنّة محاور البحث الأساسيّة من خلال أسئلة مفتوحة. ما يسمح للباحث بالاستطراد والخروج عن الأسئلة الموضوعية مسبقًا للتّوسّع في الأفكار انطلاقًا من إجابات المبحوث. إذ تساعدنا المقابلة شبه المفتوحة في الدّخول إلى العمق في آراء المتعلّمين المتعلّقين بأسئلة البحث.

وقد استخدمنا أيضًا مقابلات جماعيّة مع المتعلّمين قوامها التّفاعل بين الأفراد لجمع البيانات، وهي مقابلات لها قواعدها الخاصّة؛ ولهذا تكون الأسئلة شبه مقتنّة أيضًا (Ghiglione and Matalon 1978). تساعدنا المقابلات الجماعيّة في استكشاف آليّة عمل هذه المشاريع، ومدى التزام المتعلّمين إيّاها، بالإضافة إلى التّحقّق من مدى تأثير هذه المشاريع في حياة المتعلّمين بما يخصّ المواطنة.

علاوة على ما سبق، اعتمدت الباحثة أيضًا تحليل الوثائق أداةً للدّراسة، وهذا التّحليل هو نوع من وسائل البحث النوعي، حيث يُفسّر الباحث الوثائق لإعطاء صوت ومعنى حول موضوع البحث (Bowen, 2009). وقد قدّمنا توصيفًا لمشاريع عديدة نُفذت في الثّانويّات الثّلاث، وربطنا ذلك بغايات مشاريع خدمة المجتمع وأهدافها بحسب دليل المركز التربويّ للبحوث والإنماء.

### تحليل البيانات:

لقد حلّلنا البيانات وفقًا للآليّة الأكثر شيوعًا في البحث النوعيّ ألا وهي الطّريقة الاستقرائيّة من خلال استخراج الرّموز من المقابلات، ومن ثمّ انقلنا إلى الفئات،

ومنها إلى المواضيع. أما تحليل توصيف المشاريع فجرى استنادًا إلى «التّيمات» (الموضوعات) التي استنتجناها من خلال البيانات (Saldana, 2016).

## الصدق والثبات

من الاستراتيجيات التي اتبعتها الباحثة للتحقق من صدق البحث:

- التّثليث: من أجل التحقق من صحّة المعلومات، اعتمدنا طريقة التّثليث، أي السعي إلى التقارب والتأييد من خلال استخدام مصادر وطرائق مختلفة للبيانات. فمن طريق البيانات المتأثثة، يحاول الباحث تقديم «مجموعة من الأدلة التي تولّد المصدقية» ، (Eisner, 1991)، ص 110
- تحليل الحالة السلبية عند بعض المشاركين، حيث إنّ الإبلاغ عن الحالات السلبية يوفّر واقعية لتحليل ظاهرة الدّراسة حتى لو كانت لا تتناسب مع التحليل.
- توضيح تحيّر الباحث منذ البداية من أجل أن يفهم القارئ موقفه وتحيّزه. وفي هذا التوضيح يضع الباحث تعليقاته على التجارب السابقة وتحيّزاته وتوجهاته التي من المحتمل أن تكون قد شكّلت تفسير الدّراسة ونهجها.
- فحص معاني آراء المشاركين من أجل التحقق من مصداقية النتائج وتفسيرها.
- الوصف الغنيّ والمسهب الذي يسمح للقراء باتّخاذ القرارات حول إمكانية الاعتراف بالمعلومات، وعدّها مصدرًا موثوقًا (Patton 1990).

أمّا عن الثبات، ففي البحث النوعي غالبًا ما نستمدّ الثبات من خلال مراجعة الرموز والتوافق عليها من باحثين أو أكثر، بالإضافة إلى تقييم الدّراسة من حيث إذا كانت أسئلة البحث تدفع عملية جمع البيانات وليس العكس. وثانيًا، يجري فحص مدى تطبيق تقنيات جمع البيانات وتحليلها وملاءمتها لموضوع الدّراسة. وثالثًا، العمل على التأكّد من وضوح أهداف الدّراسة ومن وضوح موقف الباحث أيضًا. ورابعًا، الوقوف على هدف الدّراسة ودرجة قوّتها وتناسقها واستخدامها لتفسيرات مبنية على النظريّات، ومدى مناقشة هذه التفسيرات في ضوء النظريّات. وخامسًا، يجب أن تكون الدّراسة ذات قيمة وتحترم أخلاقيّات البحث وسريّته (Patton, 1990).

## نتائج الدراسة ومناقشتها

لقد تشابهت المواضيع في الحالات الثلاث وتشابهت اجوبة المبحوثين وكانت نقاط الاختلاف قليلة اجمالاً. لذا سيتم التذكير بالحالات الثلاث من حيث السياق بالاضافة الى استعراض ابرز النتائج التي وردت تحت كل موضوع من المواضيع.

### سياق الحالات الثلاث

الحالات الثلاث هي عبارة عن مدارس رسمية متوسطة إلى صغيرة الحجم حيث يبلغ عدد طلابها بين 300 إلى 600 تلميذاً. تقع الثانويات الثلاث في محافظة النبطية في جنوب لبنان. والجنوب اللبناني هو مساحة جغرافية في لبنان تشمل محافظتي الجنوب والنبطية، يحده من الغرب الساحل اللبناني الذي يمتد من مدينة صيدا شمالاً حتى مدينة الناقورة جنوباً، ويحده من الشرق مثلث الحدود بين لبنان وسوريا وفلسطين المحتلة. على الصعيد الامني، عانى الجنوب اللبناني من الاحتلال الاسرائيلي لفترة طويلة قبل تحريره في العام 2000، وما زالت الصراعات والمناوشات الإقليمية قائمة حتى اليوم.

ينتمي متعلمو الجنوب في الثانويات الرسمية إلى الطبقة الاجتماعية المتوسطة اجمالاً مع وجود بعض الحالات الفقيرة التي تنال مساعدات اجتماعية لتحصيل رسوم التسجيل والكتب والقرطاسية، فيما يتجه المتعلمون ذو الوضع الاقتصادي المرتفع للتسجيل في المدارس الخاصة، إلا أنّ الثانويات لا تخلو من عدد قليل من هؤلاء التلاميذ.

### أهم النتائج

#### وضوح اهداف مشاريع خدمة المجتمع لدى المتعلمين

لقد تبين من خلال المقابلات الفردية وتوصيفات المشاريع، بأنّ المتعلمين مدركين وواعين بالاهداف الاساسية لمشاريع خدمة المجتمع فقد اكدوا بأنّ هذه المشاريع تعنى بتعزيز قيم المواطنة وبمساعدة ابناء المجتمع بمختلف اوضاعهم وفئاتهم وبالتخفيف من المشاكل الاجتماعية التي يعاني منها الوطن بالاضافة إلى مساهمة هذه المشاريع بتطوير شخصياتهم وباكتسابهم للعديد من المهارات الاجتماعية والعملية. وهذا ما أكده المبحوثين: «هذه المشاركة بالتأكيد بعيدة من الطائفية والمذهبية، هذه المشاريع

تجعلنا نعمل من أجل الوطن، يعني نعمل من أجل المواطنة والوطن يدًا بيد». وتتفق هذه النتيجة مع دراسة فريجات واده (2018)، حيث أثبتت النتائج اطلاع الطلاب الجزائريين على واقع العمل التطوعي ومفهومه وأهدافه، إذ إنَّ العمل الاجتماعي بالنسبة إلى عينة الدراسة مجالًا لمساعدة الآخرين وللتعارف وتنمية العلاقات، وهو وسيلة لتنمية المجتمع وتطويره وترابطه ولتطوير الذات. وتتفق هذه النتيجة أيضًا مع دراسة الكندري (2016) التي أوضحت مدى إدراك عينة الدراسة أهمية المشاركة في الأعمال التطوعية، وما يعود منها بالفائدة على المتعلم من حيث تنمية الشخصية وإكسابه صفات اجتماعية وقيادية عديدة تؤهله إلى حياة المستقبل. وهذا ما عبرت عنه «قمر» (2008)، حيث أكدت أن للنشاط الاجتماعي وظيفة تعليمية من خلالها يكتشف المتعلمون مهاراتهم وميولهم ويتزودون أيضًا بالمعلومات، ويفهمون حقيقتها، ويكتسبون المهارات المطلوبة.

### معوّقات تنفيذ مشاريع خدمة مجتمع

عدد المتعلمون الأسباب التي تعيق تنفيذ مشاريع خدمة المجتمع واهمها كثافة الدروس وعبء الامتحانات وغياب الدعم المادي والمعنوي أحيانًا من قبل الإدارة، وفق ما أشاروا في المقابلة «ليس هنالك دائمًا الوقت الكافي، البرنامج ضيق جدًا، وهناك الكثير من الدروس يعني أننا نهتمّ بالدروس أكثر من المشاريع»؛ «نعم، هناك دروس كثيرة تمنعنا من القيام بالمشاريع كما نحبّ. علينا القيام بواجبات كثيرة». وتتفق هذه النتيجة مع دراسة عبدالله (2006) الذي يرى أن من أبرز العوامل التي تُعيق انخراط الشباب في الخدمة الاجتماعية هو الانشغال الكبير بالأمر الحياتية وبتأمين العيش، والأتكال على الحكومات في المساعدة الاجتماعية. وتتفق هذه النتيجة أيضًا مع دراسة الكندري (2016)، حيث اتضح أن «الانشغال بالدراسة ومتطلباتها» قد جاء في المرتبة الأولى بالنسبة إلى ترتيب عبارات محور معوّقات العمل الاجتماعي من وجهة نظر أفراد عينة الدراسة. ولعلّ ذلك يدعو إلى التركيز على الأنشطة اللاصفية في المنهج الدراسي، بل جعلها أيضًا من ضمن برنامج المتعلمين السنوي والأسبوعي، وبذلك تخرج المشاريع الخدمتية من دائرة كونها مجرد نشاطات إضافية إلى المنهج، بل تصبح في صلبه وفي صلب البرامج الدراسية ليتيح ذلك للمتعلمين العمل بها وتنفيذها براحة أكبر على صعيد الوقت، وفي ظلّ دعم إداري أكبر.

## تطابق الاهداف مع دليل تنفيذ مشروع خدمة مجتمع

لقد تبين بأن المتعلمين متمكنون من المشاريع الذين قاموا بتنفيذها، بل وانهم واعون ومدركون بأهدافها وأهميتها. حيث تناسبت الأهداف الموضوعية بالتوصيف مع الأهداف والمفاهيم الموجودة في دليل مشاريع خدمة المجتمع. ، نذكر على سبيل المثال وليس الحصر:

- تحسين واقع فئة مهمشة من النسيج الاجتماعي.
- تعميم الثقافة البيئية.
- نشر النشاطات الثقافية.
- تعريف الإرث الوطني.
- إبراز معالم الوطن السياحية والتاريخية.

وتتفق هذه النتيجة مع ما قد جاء في دراسة الكواري ووائل (2015)، فقد أشار الباحثان إلى أهمية هذه الأنشطة في إكساب المتعلمين مهارات حلّ المشكلات والتواصل وتحمل المسؤولية من جهة، وإلى إعطائهم مهارات قيادية وتنمية الثقافة لديهم من خلال نشاطات بيئية ومناقشات ثقافية من جهة ثانية. غير أنّ مهارة حلّ المشكلات كانت شبه غائبة في إجابات المتعلمين؛ إذ لم نلاحظ أنهم أوردوا في المقابلات أنّ مشاريع خدمة المجتمع عززت لديهم مهارة حلّ المشكلات، وهذا ما يدلّ على وجوب التركيز على هذه المهارة خلال تنفيذ المشاريع من طريق الأنشطة المتنوعة. وركّز الباحثان على الأهداف الإنسانية أيضًا، حيث عدّا أنّ نوعًا كهذا من النشاطات إنّما يهدف إلى أن يكون طريقًا لتنمية القيم الاجتماعية والإنسانية لديهم، ولتعزيز العمل التطوعي، وهي أيضًا فرصة لتفعيل العلاقات الاجتماعية بين المتعلمين أنفسهم. بيد أنّ التفكير الناقد لم يظهر كثيرًا في أجوبة المتعلمين، حيث أُشير إليه عند الحديث عن التقييم الذاتي الذي يُجره المتعلمون بعد تنفيذ المشاريع فحسب. لذلك، يمكننا القول إنّ مدى التطابق في موضوع التفكير الناقد أتى بصورة خجولة بالمقارنة مع الأهداف الأخرى.

## مجالات مشاريع خدمة المجتمع وتنوع المشاريع

تتوعدت مشاريع خدمة المجتمع في الثانويات الثلاث بين مشاريع اجتماعية تعنى بمساعدة الفقراء والمحتاجين والعجزة وذوي الاحتياجات الخاصة، أي الفئات المهمة اجتماعياً، فيما تضمنت المشاريع البيئية حملات توعية وتشجير وتنظيف وفرز نفايات. أما المشاريع التي تنتمي إلى مجالات أخرى فكانت قليلة عموماً، واقتصرت على بعض الموضوعات الثقافية والسياحية والتراثية، وهذا ما يدل على عدم وصول كافة أهداف مشاريع خدمة المجتمع إلى المتعلمين، فقد افتقرت المشاريع إلى مجالات أخرى كالمجال الصحي والحقوقى والفني والرياضي، وتجدر الإشارة إلى أن جميع الثانويات ركزت على المشاريع الاجتماعية في العمل الاجتماعي. وتعود أسباب عدم التطرق إلى هذه المجالات إلى أمور كثيرة؛ فربما هناك غياب لتواصل الأساتذة والطلاب مع المرشد الصحي في المدارس الثلاث؛ إذ يقتصر دور هذا الأخير على بعض الأمور الإدارية واللوجستية المطلوب إليه القيام بها من لدن وزارة الصحة. فلو كان هناك وجود للتعاون مع الإرشاد الصحي في المدرسة تعاوناً فعالاً، ولا سيما في ظل الظروف الاستثنائية التي نمر بها، لكان بالإمكان تنفيذ مشاريع صحية وتوعوية مهمة في هذا المجال، وخاصة أن المتعلمين أظهروا أكثر من مرة خلال المقابلات رغبتهم بالمساعدة في المجال الصحي، ولا سيما في هذه الظروف العصيبة صحياً، ولكنهم لم يجدوا المساعدة المطلوبة.

أما ما يخص المجال الفني، فالسياق المجتمعي والديني في مدارس الجنوب يمنع إلى حد ما تنظيم المهرجانات والاحتفالات الفنية، لذلك يُتقضى هذا المجال في معظم ثانويات الجنوب.

يُضاف إلى ذلك أن المجالين الرياضي والحقوقى يتطلبان تعاوناً مع مدرسي مادة الرياضة البدنية والتربية الوطنية، وهذا بدوره يتطلب تدخلاً من الإدارة من أجل إلقاء الضوء على أهمية التنسيق والتعاون لتنفيذ نوع من المشاريع كهذه.

ولا يقتصر تنفيذ مشاريع خدمة المجتمع على حدود المدرسة ذاتها، بل بالإمكان الانفتاح على مدارس أخرى، والتعاون بينها وبين الجمعيات المحلية أيضاً تعاوناً حقيقياً يعزز ثقافة الانفتاح وتمتين الصلات بين أبناء الوطن أجمع، ويُغني الاستفادة من تجارب الغير وتبادل الخبرات، وهذا ما له تأثير إيجابي في ثقافة المتعلم، وفي

بناء شخصيته (الخوري وآخرون، 2016، ص 22). وهذا ما يختلف مع نتائج الدراسة، حيث كانت أكثر المشاريع منقّدة في نطاق المدرسة ذاتها، من دون التعاون والانفتاح على مدارس أخرى.

### شروط اختيار مشروع خدمة مجتمع، والخطوات وأسس خطة العمل

لقد التزم المتعلّمون بآلية تنفيذ مشاريع خدمة المجتمع، الموجودة في دليل تنفيذ المشاريع الصادر عن المركز التربويّ للبحوث والإنماء، فكان المتعلّمون أنفسهم منخرطين انخراطاً تاماً في اختيار الموضوع، وفي وضع الخطوات الإجرائية للمشروع، وصولاً إلى التقييم والتوثيق. لقد نفّذ المتعلّمون خطوة «التحليل الرباعيّ» من دون تسميتها، فقد حدّدوا بأنهم يقومون بوضع الإيجابيات والسلبيات قبل الشروع بالتنفيذ، ولم يقوموا أيضاً بخطوة التقييم كما هي موجودة في الدليل، فكان التقييم عبارة فقط عن انتظار ردود الفعل الإيجابية أو السلبية للمجتمع المحيط. وهذا ما يدلّ على أهميّة اطلاع المتعلمين على الخطوات، وتنفيذها كما هي موجودة في الدليل، من أجل مشاريع أكثر تنظيماً ومنهجية. أجمع المتعلّمون بأنهم يقومون بتوزيع المهامّ والأدوار وبعملية الحوار والنقاش قبل التنفيذ، وبأنهم يعلمون بأهميّة التوثيق وبدوره الفعّال بعد تنفيذ المشروع؛ حيث يقدّم صورة جيّدة عن المدرسة، ويعطي مثالا يحتذى به لباقي الطلاب وللمجتمع. وهذا ما أشار إليه المبحوثين: «نتفق من طريق التعاون، كلّ واحد منّا يطرح فكرة باستطاعتنا المساعدة فيها، وإلى ماذا يحتاج المجتمع، وناقش الأفكار حتى نختار الفكرة الأفضل».

وفي الرسم التوضيحيّ الآتي، سنوضح خطوات تنفيذ المشروع، وتسلسلها حسب المتعلمين:



### رسم توضيحي.1: خطوات تنفيذ مشاريع خدمة المجتمع

نستنتج، إذًا، أنّ المتعلّمين لا ينفذون خطوات المشروع الموجودة في الدليل بحذافيرها؛ لأنّهم يجهلون بعض الخطوات. لذا، يبرز دور المعلّم المشرف الذي من واجبه إطلاع المتعلّمين على كلّ خطوات المشروع؛ لأنّ تنفيذها يجعل المتعلّم متمرسًا في تنفيذ مشاريع خدمانية تنفيذًا يزيد من خبرته وقدرته على التفكير الناقد، وعلى التخطيط. ومن الممكن أن يعود السبب إلى عدم التزام المعلّم المشرف دليل تنفيذ مشاريع خدمة المجتمع بسبب نقص ما، ومن ثمّ تبرز أهميّة أن تعمد وزارة التّربية والتّعليم العالي في لبنان إلى تدريب المتعلّمين على خطوات تنفيذ المشاريع الخدمانيّة، أو أن تعمد جهات مختصّة بالعمل الاجتماعيّ إلى ذلك.

وبالنسبة إلى التوثيق، يرى المبحوثون أنّ أعمال التوثيق تشجّع غيرهم من المتعلّمين

على اتخاذ المبادرة من أجل القيام بمشاريع خدمة المجتمع، وإعطاء المجتمع المحيط وجميع طلاب الثانوية مثالاً عملياً حياً عن أهمية مشاريع كهذه، وهو ما يدفع الآخرين إلى الاحتذاء بالمثل؛ وهذا ما يتناسب مع نظرية التعلّم الاجتماعيّ التي اقترحها (باندورا)، حيث يتطلّب التعليم بالملاحظة توافر التفاعل مع المحيط ضمن الحياة اليومية الواقعيّة، من طريق ملاحظة نماذج بيئية حيّة (الزغول، 2006). وبذلك، وفي إطار مشاريع خدمة المجتمع، يلاحظ المتعلّمون العمل الاجتماعيّ ونتائجهُ على المجتمع المحيط، وهو ما يساعدهم في بناء شخصياتهم ومعارفهم من خلال تقليد نماذج اجتماعيّة فعّالة تكسبهم القيم الاجتماعيّة والوطنية المختلفة. إذ إنّ تنفيذ مشاريع الخدمة المجتمعيّة وملاحظة نواتجها يؤثّر في المتعلّمين، ويحثّهم على التقليد، ويزيد من دافعيتهم من أجل الشروع بقيام مشاريع تفيد بيئتهم ومجتمعهم. ومن خلال التوثيق يعطي المتعلّمون المجتمع المحيط مثالاً حول أهمية الخدمة الاجتماعيّة ودورها الفعّال، ومن خلاله أيضاً يبرز دوره التّشجيعيّ في تحفيز المتعلّمين الآخرين على القيام بمثل تلك المشاريع، وفي طرح مشاريع مشابهة لخدمة المجتمع.

### طرق التقييم

لم يلتزم المتعلّمون بطريقة التقييم الموجودة في الدليل، بل كانوا يقيّمون المشروع بناءً على ردود الفعل الإيجابية أو السلبية من المحيط، فكانوا يطوّرون الإيجابيات ويستفيدون من السلبيات من أجل تغايرها في الأعمال اللاحقة. إنّ غياب خطة للتقييم تدلّ على وجوب اطلاع المتعلّمين على الخطوات بالتفصيل، كما هي موجودة في الدليل، من أجل مشاريع أكثر تنظيماً ومنهجية، وهذا ما عبّر عنه المبحوثون بالقول: «نحدّد السلبيات والإيجابيات، ونقيّم المشروع فنصبح واعين ومشاركين في مجتمعنا، ونتعوّد فكرة النقاش وتقبّل الآراء».

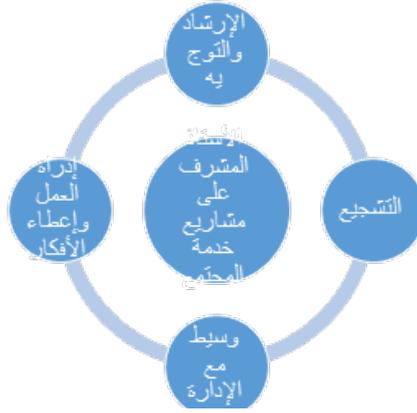
### مهام الأستاذ المشرف على المشروع

أكد المتعلّمون بأنّ دور الأستاذة المشرفّة كان توجيهياً وتشجيعياً بالدرجة الأولى، وبأنّه لم يكن يفرض عليهم الموضوع والخطوات، بل تركهم يتحمّلون المسؤولية، وجعلهم يخطّطون وينفّذون تحت إدارته، وكانت الخطة الموضوعة ممنهجة ومنظمة وليست عشوائية، وفقاً لأجوبة المتعلّمين:

- «تعطينا أفكاراً عن مشاريع لناقشها».
- «تدير العمل الذي نقوم به، وتوجّهه، وتحدّد لنا أين الصواب وأين الخطأ».

- «تشجّعنا كثيراً وتجعلنا نحبّ ما نقوم به».
- «تتواصل مع الإدارة من أجلنا».
- «لا تفرض علينا شيئاً».

ويبيّن الرسم التوضيحيّ الآتي المهامّ المنوطة بالمعلّم المشرف على مشاريع خدمة المجتمع:



## رسم توضيحي 2: المهامّ المنوطة بالمعلّم المشرفاة

وتتفق هذه النتيجة مع إحدى نتائج دراسة فريجات واده (2018)، حيث توصلّ البحث إلى أنّ الشباب يحتاجون إلى التوجيه والتشجيع وشحن الهمم وتنمية قدراتهم خلال قيامهم بالعمل الاجتماعيّ. في حين أنّ هذه النتيجة تختلف عن دراسة يوسف (2014) التي توصلت إلى تهميش دور المتعلّمين، وعدم إتاحة الفرص الكافية لهم للمشاركة الجادة في تنمية المجتمع المصريّ. ولعلّ هذا التباين في النتائج يبيّن أنّ مشاريع خدمة المجتمع أتاحت للمتعلّمين الفرصة لتحملّ المسؤولية، والتخطيط والتنفيذ لخدمة مجتمعهم في ظلّ تشجيع ودعم من الكادر التعليميّ، ضمن إطار الحالات الثلاث في جنوب لبنان.

### طرق تطوير مشاريع خدمة المجتمع

يرى المتعلّمون أنّ ساعات العمل الاجتماعيّ في المدرسة غير كافية، فيطالبون بوقت أكبر يُخصّص لخدمة المجتمع. كما يرغبون بالخروج من النطاق الضيّق للبلدة أو المحيط، وبالانطلاق نحو القيام بمشاريع على صعيد الوطن، فيتساءل بعضهم

«ماذا لو أُتيحت لنا الفرصة لمساعدة المتضرّرين من انفجار مرفأ بيروت؟». يرغب المتعلّمون، إذًا، بأن تكون المدرسة وسيطًا بينهم وبين الجمعيات غير الحكوميّة والمؤسسات التطوّعيّة لكي يساعدوا وطنهم ومجتمعهم في كلّ الأوقات، وليس خلال الفصول الدراسيّة فحسب، وقد كشفوا أيضًا عن رغبتهم في التعاون مع البلديات من أجل مساعدة المجتمع المحليّ، والمشاركة في الاحتفالات الوطنيّة «أن نساعد البلديات في خدمة المحرومين والفقراء، ونساعدهم في الاحتفالات الوطنيّة». وعلى صعيد آخر، يرى المتعلّمون أنّه من الضروري تنويع مشاريع خدمة المجتمع، وألا تقتصر على المجال الاجتماعيّ مثلاً، وأعلنوا جميعًا عن رغبتهم بالمشاركة في حملات التوعية ضدّ وباء كورونا، وبحملات التعقيم، ولكنهم لا يعرفون الطريقة، وليس لديهم أيّ تواصل مع المؤسسات التطوّعيّة، وحاليًا ليس بإمكانهم القيام بمشاريع؛ فقد توقّفت مشاريع خدمة المجتمع بسبب جائحة كورونا والانتقال إلى التعلّم من بعد، وهذا الأمر يتضمّن المجال الصحيّ الذي تكلم المتعلّمون على أهمّيّته خاصّة في الظروف الحاليّة: «مثلاً، الآن في جائحة كورونا، كان بإمكاننا القيام بمشروع توعية أو المساعدة في أعمال التعقيم». وبالإمكان اختصار النقاط التي طرحها المتعلّمون من أجل تطوير المشاريع وفق الآتي:

- زيادة ساعات العمل الاجتماعيّ.
- تنفيذ مشاريع على صعيد الوطن.
- التطوّع في مؤسسات العمل التطوّعيّ من خلال المدرسة.
- التعاون مع البلديات ضمن المحيط.
- تنويع مشاريع خدمة المجتمع لتشمل مجالات أخرى كالمجال الصحيّ مثلاً.

#### المهارات المكتسبة والتأثيرات الإيجابية للمشاريع

لقد أجمع المتعلّمون بأنّ المشاريع تساعدهم على تنمية الإحساس بالآخر، وعلى مساعدته في تعزيز حبّ الوطن، وفي اكتساب مهارات التفكير والتخطيط وتحمل المسؤولية، وفي تعزيز الطاقات والإبداعات، والأمر ذاته في ما يخصّ فوائد مشاريع خدمة المجتمع وتأثيراتها الإيجابية على شخصيّة المتعلّمين وعلى المجتمع، حيث عزّزت المشاريع المواطنة والانتماء الوطنيّ لديهم، ونمّت فكرة تقبّل الآخر والمساندة والتضامن الاجتماعيّين، وعزّفتهم على أهميّة العمل الفريقيّ أو الجماعيّ في أيّ مشروع كان. طوّرت مشاريع خدمة المجتمع لديهم الكثير من المهارات العمليّة

والإنسانية التي يمكن تلخيصها في الجدول الآتي:

ومن أقوال المبحوثين بالنسبة إلى المهارات:

«لقد جعلتنا نحرك الفكر، ونخطط ونفكر بالآخرين، وتعزز لدينا حبّ الوطن، أصبحنا نفكر بالوطن وبالظروف التي نعيشها». «أصبح لديّ مهارة التفكير بأن نبدع... بأن نقوم بأشياء جديدة نساعد بها مجتمعنا، ومهارة النقاش لكي نأخذ قراراً». «تحملنا المسؤولية، وأصبحنا نضع أفكاراً ونحاول تحسينها، وننميّ في ذاتنا مهارات كالخطيط والتقييم، أي التقييم الذاتي. وعلى صعيد آخر أصبحنا نقبل الآخر، ونلغي التعصّب للرأي، ونتناقش لكي نصل إلى الأفضل».

وتتفق هذه النتيجة مع دراسات عديدة، لعلّ أبرزها دراسة الكندريّ (2016) الذي يرى أنّ الخدمة الاجتماعية تتيح للإنسان المشاركة والتعاون ومساعدة الغير، واكتساب مهارات اجتماعية ونفسية متعدّدة، وإقامة علاقات اجتماعية مع الآخرين، ومعرفة الفرد مشكلات مجتمعه والمساهمة في حلّها، ومساعدة الشاب في تحمل المسؤولية، واتخاذ القرار، وملء أوقات الفراغ، وتعديل السلوك الإنسانيّ نحو الأفضل (ص 172). ويؤكد أيضاً الكواريّ ووائل (2015) أنّ الخدمة المجتمعية من «أهم الوسائل التربوية التي تسهم في تربية الأبناء في جميع مراحل التعليم، تربية متوازنة متكاملة فكرياً وجسماً وعقلاً، لتنتشئ الأجيال الصاعدة أقوياء أصحاء، مزودين بأسس اللياقة البدنية والنفسية والصحية والعقلية والاجتماعية ليكونوا لبنات قوية في تحقيق تقدّم المجتمع ونهضته» (ص 20). وقد تناولت الخوري وآخرون (2016) أهمية مشاريع خدمة المجتمع، وبيّنت فوائدها الكثيرة، ومن أهمّها مبادئ الانفتاح، وتنمية العلاقات البناءة مع الآخرين تنميةً قد تساهم في الوقاية من الانحراف والسلوك السيئ.

### مخرجات مشاريع خدمة المجتمع

لقد حدّد لنا المبحوثون من خلال أجوبتهم المخرجات الأساسية لمشاريع خدمة المجتمع، وتبيّن لنا أنّنا يمكننا توزيع هذه المخرجات بين أصعدة عديدة:

على الصعيد الوطنيّ: ساهمت هذه المشاريع بتعرّف أهمية الوطن وقيّمته، وعززت حبه والتمسك به والتضحية في سبيله والدفاع عنه، كما دفعت المتعلّمين إلى اكتشاف أهمّ مشكلات الوطن وأزماته، وإلى المساعدة في إيجاد حلول على قدر الإمكان؛ وهذا ما أكّده أجوبة المبحوثين: «أصبح لدينا تمسك بالوطن أكثر... نُضحّي بكلّ شيء لنقوم بوطن أفضل ولننميّ المجتمع»، «أصبحنا نعرف قيمة الوطن أكثر، ونعزز

أيضًا دور الوطن».

على الصعيد البيئي: تكوّنت لدى المتعلّمين مبادئ وإعياً متعلّقة بالبيئة، فقد فهموا أهمّية المحافظة عليها، والاهتمام بها، والتركيز على المشكلات البيئية والمساهمة في إيجاد حلول لها؛ وهذا ما أشار إليه المبحوثون بالقول:

«أصبحنا نعرف أهمّية المحافظة على البيئة، وأهمّية الأشجار والزراعة التي تنقي الهواء...» «أنا نحافظ على البيئة، ولا نهملها...» «حاولنا أن نرى المشاكل البيئية التي تنتشر في المجتمع مثل التلوّث والنفايات، وحاولنا التحسين للحصول على بيئة أفضل».

على الصعيد الاجتماعي: لقد لاحظنا أنّ المشاركة الاجتماعية ومساعدة الآخرين هما من أكثر المخرجات حضوراً في أجوبة المبحوثين، حيث عبّر المتعلّمون عن أهمّية مساعدة المحتاجين والفقراء، وعن الشعور الذي تولّده المساعدة والمشاركة المجتمعية لديهم، حيث عزّزت مشاريع خدمة المجتمع لديهم حبّ المساعدة والإحساس بالآخر، والرغبة بتأمين احتياجاتهم، ومساندتهم في ظروفهم الصعبة، كما نشأت علاقة ودّية بينهم وبين أبناء بلدتهم، وقد أكّد المبحوثون الأثر الإيجابي لهذه المساعدة في نفوسهم:

«عندما أشاهد النظرة في عيون الناس الذين أساعدهم... وهي نظرة جميلة جدّاً، أصبحت أحبّ أن أعيدها وأن أكرّرها مرّات عديدة» «أصبحت أحبّ القيام بنشاطات تهدف خاصّة إلى مساعدة المحتاجين، وأحبّ أن أساعدهم أكثر» «أصبحت علاقتنا بالمحيط أفضل، فعرفنا حلاوة أن يساعد الإنسان غيره، وأن يشعر بغيره، وأن يرى نفسه يعيش ضمن ظروف غيره...» «أصبحنا جزءاً واحداً مع كل إنسان متضرّر، نريد أن نساعد كلّ إنسانٍ فقيرٍ، ونؤمّن له احتياجاته، وأصبحنا كعائلة كبيرة في المجتمع».

على الصعيد الشخصي: تمكّن المتعلّمون من خلال مشاريع خدمة المجتمع من تنمية الكثير من المهارات والقدرات الشخصية، حيث أصبحوا أكثر قابليّة لتقبّل الآخر والاستماع إلى أفكاره وآرائه، كما نمت لديهم مهارات النقاش والوعي، وأشاروا أيضاً إلى أنّ مشاريع خدمة المجتمع كانت وسيلة لإطلاق الطاقات والمهارات المكبوتة بسبب العائلة أو المجتمع؛ فكانت هذه المشاريع بداية لإظهار الإبداعات والمواهب: «من خلال هذه المشاريع، نُظهر مهارتنا، وأصبحنا نشعر بالآخرين، ونتقبّل الجميع،

ونسلم للأفراد وناقش ونخطط. أصبح لدينا وعي».

### دور مشاريع خدمة المجتمع في اكتساب المواطنة

تشابهت أجوبة المبحوثين في الحالات الثلاث في ما يخص دور مشاريع خدمة المجتمع في اكتساب المواطنة، وكانت نقاط الاختلاف شبه غائبة. وتدل النتائج على مساهمة مشاريع خدمة المجتمع في اكتساب قيم ومبادئ المواطنة لدى المتعلمين؛ وأهمها: الاعتزاز بالوطن والمشاركة المجتمعية والانفتاح على الآخر. حسب ما عبّروا عنهم في إجاباتهم:

«شعرنا بأنّ الوطن يعتمد علينا لمساعدته ونهوضه». «هذه المشاريع تجعلنا نتمسك بالوطن، ونحبّه على الرغم من كلّ شيء». «أصبحنا نفكر بالفقراء وبالمحتاجين». «تساعدنا أيضا في مساعدة المجتمع، وفي أن نكون جزءا منه، وفي أن نشعر بأهمية الوطن». «أقبل أصدقائي أكثر وأناقشهم بكلّ الأمور (...)، وأتحمل المسؤولية تجاه وطني».

نستنتج مما سبق أنّ أجوبة المتعلمين وتحليل الوثائق قد أجابت عن سؤال البحث الرئيس، وعن الأسئلة المتفرّعة منه، حيث إنّ أهداف المشاريع كانت واضحة إجمالا لدى المتعلمين، في ظلّ التركيز على المجال الاجتماعيّ أكثر من غيره من المجالات، مع غياب التنوع بين المشاريع. وقد التزم المتعلمون آليّة تنفيذ المشاريع الخدماتيّة مع غياب بعض الخطوات، أو مع اختلاف طرائق تنفيذها من خلال الطرائق المطروحة في دليل تنفيذ المشاريع، في حين أظهرت النتائج اكتساب المتعلمين المشاركين مبادئ المواطنة وقيمها والمهارات الاجتماعية والذاتية خلال العمل الاجتماعيّ بشكل جيد.

### المقترحات والتوصيات

في ضوء ما جاء به الأدب النظريّ والدراسات السابقة حول الخدمة الاجتماعية، وما أسفرت عنه من نتائج الدّراسة الميدانيّة، بالإمكان اقتراح بعض الأمور من أجل تفعيل ثقافة العمل الاجتماعيّ في المدارس، ومن أبرزها:

- العمل على زيادة فرص العمل الاجتماعيّ في المدارس.
- دعم كلّ ما يساهم في تعزيز المواطنة والاهتمام بتقدير الأعمال التطوّعية.
- استغلال وسائل التواصل الحديثة في تعزيز العمل الاجتماعيّ والتثقيف حوله.

- نشر مطبوعات ونشرات للتوعية بمفهوم الخدمة الاجتماعية ومجالاتها وآليات تفعيلها.
- دعوة رجال الأعمال والقادرين إلى توفير دعم ماليّ يخصّص للقيام بالخدمة الاجتماعية.
- الاهتمام بالدور الإعلاميّ في تعريف مشاريع خدمة المجتمع وتبيان حاجة المجتمع إليها.
- توسيع نطاق الأعمال الخدمائيّة إلى خارج المجتمع المحليّ، والتعاون بين الثانويّات في تنفيذ مشاريع خدمة المجتمع.
- تصميم برامج خاصّة تعنى بتعميق مفهوم خدمة المجتمع ومجالاته وآلية العمل به.
- جعل مشاريع خدمة المجتمع من الأنشطة المكملّة للأنشطة الدراسيّة والعملية الأساسيّة.
- تنفيذ مشروع تدريب للكادر التعليميّ قبل العمل على المشاريع، وفي أثنائها، للتمكّن من تدريب المتعلّمين على آلية تنفيذ مشاريع خدمة المجتمع، ولا سيّما ما يتعلّق منها بتتويج المشاريع وتقييمها.
- إطلاع المتعلّمين على جميع خطوات مشاريع خدمة المجتمع، وحثّهم على تنفيذها، حسب ما جاء في دليل تنفيذ المشاريع الصادر من المركز التربويّ للبحوث والإنماء.
- التعاون بين الجمعيات الخدمائيّة والثانويّات في تنفيذ المشاريع.
- التعاون مع البلديّات من أجل تفعيل مشاريع خدمة المجتمع في المناطق المختلفة.
- تقدير المتعلّمين وتشجيعهم على الأعمال الاجتماعيّة من خلال شهادات تقدير أو احتفالات تنظّمها إدارات الثانويّات و/أو وزارة التربية والتّعليم العالي في لبنان.

## قائمة المراجع

### المراجع بالعربيّة:

- أبو المجد، عبد الجليل. (2010). مفهوم المواطنة في الفكر العربي الإسلامي. المغرب: أفريقيا الشرق للنشر.
- أحمد، علا. (2018، أكتوبر). العمل التطوعيّ وتعزيز قيم المواطنة والمشاركة، المعهد

- المصريّ للدراسات.22-1. استرجعت من موقع [/https://eipss-eg.org](https://eipss-eg.org)
- الإدارة العامة للتدريب والابتعاث. (2014). خصائص النمو وتطبيقاتها التربوية. المملكة العربية السعودية: وزارة التربية والتعليم.
  - الأميري، أمين. (2013، يناير). العمل التطوعي مفتاح الانتماء وبوابة المواطنة الصالحة. البيان. استرجع من موقع: <https://www.albayan.ae/science-today/open-debate/2013-01-13-1.1802185>
  - البلبيسي، وائل. (2012). دور معلمي المدارس الثانوية بمحافظات غزة في تعزيز مبادئ المواطنة الصالحة لدى طلبتهم وسبل تفعيله (رسالة ماجستير). غزة: الجامعة الإسلامية، كلية التربية، قسم أصول التربية.
  - بدوي، أحمد. (1982). معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. بيروت: مكتبة لبنان.
  - خليفة، علي. (2014). ما هي المواطنة وكيف نرتب عليها؟، لبنان: دار بلال للطباعة والنشر.
  - الخوري، ودیعة، أبي عساف، بلانش، غصيبة، إيفا، الأحمدية، سمر، صعيبي، منى، يمّين، بولين، مسالخي،
  - نوال، القاضي، وفاء. (2016). دليل مشروع خدمة المجتمع في التعليم ما قبل الجامعي. لبنان:
- 
- المركز التربوي للبحوث والإنماء.
  - رحوي، عائشة. (2010). المدرسة والمواطنة، الطور المتوسط ببعض متوسّطات مدينة تلسمان نموذجًا،
  - (رسالة ماجستير). الجزائر: المدرسة الدكتورالية للعلوم الاجتماعية والإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية، قسم العلوم الاجتماعية.
- 
- الزغلول، عماد. (2006). نظريات التعلّم. الأردن: دار الشروق.
  - زين الدين، محمّد. (2019، تشرين الأول). المسرح المدرسيّ والدور التربويّ، الأمن، (333)، 84-85.
  - شحاتة، محمد. (2004). النشاط المدرسيّ: مفهومه ووظائفه مجالات تطبيقه (ط 1). مصر: الدار المصريّة اللبنانية.
  - الشقران، رامي. (2016). إسهام برامج الأنشطة الطلابية في تعزيز مفاهيم المواطنة لدى طلاب جامعة أمّ القرى. العلوم التربوية، (2)، -519 477.
  - عبد الله، نمر. (2009). حقوق الإنسان كآلية لتدعيم قيم المواطنة لدى الشباب، مجلة دراسات في الخدمة الاجتماعية والعلوم الاجتماعية، 5 (27)، 2229-2257.
  - فريجات، عبد الكامل، وواده فتحي. (2018، سبتمبر). العمل التطوعيّ وقيم المواطنة لدى الشباب الجزائريّ، دراسة ميدانية مطبقة على عينة من المتطوعين بولاية الوادي. كلية السراج في التربية وقضايا المجتمع، (7)، 246-265 .

- فريحة، نمر. (2012). من المواطنة إلى التربية المواطنة: سيرورة وتحديات. لبنان: بيبيلوس.
- قمر، عصام. (2008). الأنشطة التربوية في مواجهة المشكلات السلوكية للطلاب، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.
- الكندري، جاسم. (2016، يناير). ثقافة العمل التطوعي لدى طلبة كلية التربية الأساسية بدولة الكويت. العلوم التربوية، (1)، 159-187.
- الكواري، سعد ووائل، عمرو. (2015). قيم المواطنة ودور النشاط المدرسي في تنميتها، تحقيق الرؤية قطر (مشروع 2020)، قطر.
- مكروم، عبد الودود. (2004). المواطنة والعولمة. مصر: دار الكتاب.
- يوسف، نجلاء. (2014). تنمية قيم المواطنة لطلاب التعليم الثانوي في ضوء التحوّلات السياسية المعاصرة للمجتمع المصري (رسالة ماجستير). مصر: جامعة بور سعيد، كلية التربية، قسم العلوم التربوية.

#### المراجع بالأجنبية:

- Bowen, G. (2009). Document analysis as a qualitative research method. Qualitative Research Journal. 9(2), 27-40. <http://dx.doi.org/10.3316/QRJ0902027>.
- Eisner, E. (1991). The enlightened eye: Qualitative inquiry and the enhancement of educational practice. New York: Macmillan.
- Fillion, P. (2015). L'éducation à la citoyenneté à l'école primaire : Etude des représentations professionnelles d'enseignants de Québec (Mémoire de Master), Université de Québec à Trois-Rivières, Faculté de l'Éducation, Québec.
- Ghigliione, R & Matalon, B. (1978). Les enquêtes sociologiques. France: Armand Colin.
- Patton, M. (1990). Qualitative evaluation and research methods (2nd ed.). USA: Sage Publications.
- Smist, J. (2006). Developing citizenship through community service: Examining the relationship between community service involvement and self-perceived citizenship among under graduation (PHD thesis), University of Maryland, The Graduate School, Maryland.
- Yin, R. (2003). Case study research. London: Sage Publications.

## الاتفاق النووي وانعكاساته على مستقبل العلاقات بين إيران وأمريكا

الدكتور محمد إبراهيم قانصو<sup>(1)</sup>

### ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى تعرّف أسباب إعادة إحياء الملف النووي الإيراني عام 2015، في محادثات فيينا، وتحليل تداعيات البرنامج النووي الإيراني، على المستوى الإقليمي والدولي وانعكاساته على مستقبل العلاقة بين إيران وأمريكا، وتداعيات ذلك على منطقة الشرق الأوسط، وتتبع نشأة المشروع النووي الإيراني والمراحل التي مرّ بها منذ عهد الشاه وحتى عام 2015، وتسليط الضوء على أسباب الصراع بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية وصولاً إلى محادثات فيينا. وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي، وذلك من خلال دراسة بنود الاتفاق النووي والقواعد التي تحكم العلاقات الدولية. وأستخدم المنهج الوصفي الذي يهتم بدراسة الظواهر ووصفها لذا فالمنهج الذي اعتمد مزج بين الوصف والتاريخ والتحليل وصولاً إلى خاتمة وعدة استنتاجات.

الكلمات المفاتيح: الملف النووي الإيراني، محادثات فيينا، السلاح النووي، عملية التخصيب، المجتمع الدولي.

### Abstract:

This study aims to identify the reasons for the revival of the Iranian nuclear file in 2015 in the Vienna talks, analyze the repercussions of the Iranian nuclear program at the regional and international level and its repercussions on the future of the relationship between Iran and America and its repercussions on the Middle East, and trace the emergence of the Iranian nuclear project and the stages it has gone through since The era of the Shah until 2015, highlighting the causes of the conflict between Iran and the United States of America, leading to the Vienna talks. In this study, he relied on the historical-analytical method by study-

(1) أستاذ محاضر في الجامعة الإسلامية - الاختصاص: علوم سياسية وعلاقات دولية [M-Kanso@hotmail.com](mailto:M-Kanso@hotmail.com)

ing the terms of the nuclear agreement and the rules governing international relations. We used the descriptive approach, which is concerned with studying and describing phenomena, so the approach that was adopted was a mixture of description, history, and analysis, leading to a conclusion and several conclusions.

Key words: the Iranian nuclear file, the Vienna talks, nuclear weapons, the enrichment process, the international community.

### المقدمة

إن للعلاقات الأمريكية-الإيرانية أهمية خاصة في الإطارين؛ السياسي والاستراتيجي، وتكتب هذه العلاقات أهمية، عند صناع القرار ولدى الدوائر والمختصين والباحثين، ولقد أظهرت دراسة تاريخ العلاقات الإيرانية الأمريكية، وتحليل العلاقات المعاصرة بينهما، أنه وبعد الثورة الإسلامية في إيران 1979، هناك اتجاهان متنافسان يقودان إلى المنافسة والحوار في الوقت نفسه، ومن الممكن أن تتحول المنافسات والنزاعات والصراعات السياسية والمصالح بينهما إلى مسار تصادمي، لأن السياسة الأمريكية تعدّ نفسها المراقب الأول والأوحد في السياسات الدولية.

وكان انتصار الثورة الإسلامية في إيران قد شكّل انعطافاً كبيراً وأساسياً في مجرى الوضع السياسي العالمي، في وجه عصر الاحتكار السياسي من الدول الكبرى لصناعة القرارات والأحداث، الأمر الذي أجبر هذه الدول وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية، على إعادة النظر في مخططاتها تجاه العالم الإسلامي، فحاولت بكل الوسائل السياسية والعسكرية والإعلامية المختلفة أن تطوّق نتائج هذه الثورة لدى بقية الشعوب الإسلامية، وحرّكت خيوطها في المنطقة ليكثر الحديث عن الحاجة إلى الدعم العسكري الأمريكي، وعن الاستعداد لتقديم التسهيلات العسكرية اللازمة للقوات الأمريكية للسيطرة على المنطقة. وكانت أزمة الرهائن التي نجمت عن احتلال الطلبة المسلمين لتكشف الأوراق وتؤكد إعطاء الأولوية لمحاربة الاستعمار الأمريكي المهيمن على المنطقة. وانطلقت الدعوات إلى مقاطعة البضائع والمنتجات الأمريكية، وهنا حاولت أمريكا تحريك مشاعر النجزة القومية والإقليمية وتغذيتها لإحكام السيطرة على مقدرات البلاد. وقد استطاعت من خلال بث أفكارها السياسية، وهي تشهر سلاح

الشعارات والأفكار القوميّة والإقليميّة التي تخدم مصالحه وتخدم بقاء نفوذه. وقد حاول الاستعمار ترويح فكرة أنّ العمل السياسيّ هو حكر على فئة معينة من الناس، وبأنّ أيّ تبديل في الجهاز الحاكم لا يتم إلاّ بالأسلوب الفوقيّ أيّ بالانقلابات العسكريّة وما شابهه ومن دون أيّ دور للقاعدة الشعبيّة.

ومن المعروف أنّ مشكلة الشعبيّة هي مشكلة المستضعفين والبلدان المقهورة في كل مكان، وتحديدًا منذ عام 1945، أي منذ برزت إلى الوجود قوتان عظيمتان شكّلتا مركز استقطاب على الصّعد والمستويات كافة، هما الولايات المتّحدة الأمريكيّة والاتحاد السوفياتي، هذا النّظام الذي جعل العالم مناطق نفوذ وهيمنة مقسمة بين هذين المركزين. ومع هذا التّقسيم وازدياد حدة التّنافس والصّراع الدّوليّ على مناطق النفوذ «الاستراتيجية» أخذت تبرز مشكلة التّبعيّة كإحدى المشكلات الرّئيسة.

لقد أدرك الإمام الخميني بعمق خطر استمرار الشّعور بالتّعبئة تحت وطأتها لذا كان أول شعار مركزي للثورة الإيرانيّة هو شعار: «لا شرقية ولا غربية» وقد استخدمت الولايات المتّحدة ببراعة بعض أجنحة اليسار المتطرف واليمين المتطرف لخلق جو من التّحريض والتأمر. ولكن إيران تمكنت من جرف المخططات الأمريكيّة، لكن أمريكا لم تنسحب حتى الآن عن المسرح، سواء بأعمالها الاجراميّة أو الإعداد لها في السّر والعلن مباشرة أو عبر وكلائها والعملاء في المنطقة والداخل، والتي تستهدف إبقاء سيطرتها على العالم من خلال إثارة النعرات والمخاوف الطائفية والمذهبية. ومن خلال التّعظيم الإعلامي على إنجازات الثورة الإسلاميّة.

ومنذ اللحظة الأولى لتأسيس الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران تدهورت العلاقات بين الدّولتين. وكانت محفوفة بعدم الثقة والعداء والتّهديدات وأحيانًا وصلت إلى مرحلة العداء. وهذه الاعمال العدائيّة تجاوزت حالات التّفاوض والتّعاون الضمني ذي المنفعة والمصالح المشتركة والمتبادلة التي حدثت منذ عام 1979. ولم تحسم أبسط المسائل التي تتعلّق بالعلاقات الإيرانيّة الأمريكيّة، إلى أن قامت أمريكا بطرح خيار التّفاوض حول القيود النوويّة الذي أسفر عن خطة عمل شاملة في ما يسمى «بالاتفاق النوويّ لعام 2015» إلا أنّ هذه الخطة لم تحرز سوى تقدم ضئيل في تقديم بعض التنازلات الإيرانيّة.

وهذا الموضوع هو الذي سيعالج في هذا البحث، للوقوف على آخر المستجدات المتعلقة بالاتفاق النووي والتعرف إلى انعكاساته على مستقبل العلاقة بين إيران وأمريكا.

## أولاً: أوضاع الدولتين بعد الحرب العالمية الثانية

### 1 - الوضع في إيران

عندما وقعت الحرب العالمية الثانية، أعلن رضا بهلوي أن إيران بلد محايد في هذه الحرب، وقد أظهر تعاوناً كبيراً مع قوات المحور، وبخاصة القوات الألمانية، وعلى الرغم من ذلك الحياد، إلا أن القوات البريطانية والسوفييتية خلعتة عن العرش ونصبت ابنه محمد رضا بهلوي خلفاً له، بعد أن احتلت كامل الأراضي الإيرانية.

ومع سقوط أول عامل بهلوي بدأ عهد جديد في تاريخ إيران المعاصر، وقد خلق هذا الجو العديد من الظواهر السلبية «فقد تدهورت الأوضاع الاقتصادية وانتشرت الفوضى في أنحاء مختلفة من إيران وعانت البلاد من التمزق والضعف بسبب كثرة طلبات الحلفاء، وسعيهم للحصول على المواد الغذائية على حساب الإيرانيين. (خلف البكاء، هند طاهر، العلاقات الإيرانية - السوفيتية 1941 - 1951، 2005، ص 30).

قد استخدمت القوات المحتلة كل الطرق ووسائل النقل المتاحة للوصول إلى الموانئ الإيرانية على الخليج العربي، وإلى الحدود السوفيتية لنقل المؤن والتجهيزات العسكرية، ما زاد من استياء الإيرانيين وسخطهم على قوات الاحتلال. (هند طاهر، البكاء، مصدر سابق ص 36).

في مثل هذه الظروف شهدت الحياة السياسية الداخلية في إيران نشاطاً كبيراً كان من أبرز مظاهره تأليف أحزاب وجمعيات عديدة (المصدر نفسه، ص 36).

وفي سنة 1941 ارتقى (محمد رضا شاه) العرش وكانت إيران ما تزال تحت وطأة الاحتلال، وعبر عن سياسته الخارجية وضرورة تعاون حكومته مع الحكومتين الروسية والبريطانية اللتين ترتبط معهما إيران بمصالح وثيقة. (مذكرات شاه إيران المخلوع، 1980، ص 32).

وبعد أن تسلّم محمد رضا شاه السلطة عقد معاهدة جديدة مع الحكومة السوفيتية والبريطانية تعهدت خلالها الحكومتان على احترام وحدة الأراضي الإيرانية وسيادتها

واستقلالها السياسي وكذلك تعهدت بسحب قواتها خلال ستة أشهر من انتهاء الحرب وبالمقابل حصل الحلفاء على حق استخدام كل المنشآت النفطية الإيرانية لأغراضهم العسكرية، مع ضمان وصول الإمدادات إلى الاتحاد السوفيتي عبر الأراضي الإيرانية. (كمال مظهر أحمد، سياسة إيران الخارجية في عهد رضا شاه، 1988، ص 267).

وبعدما انتهت الحرب العالمية الثانية طمع كل من الروس والإنكليز بالبقاء في إيران وتقسيمها بينهما، لكن الحكومة الإيرانية تغلبت على المصاعب، بمساعدة مجلس الأمن، وفي 2 آذار 1946، رحل الإنكليز والأمريكيون عن إيران في حين اضطرت القوات الروسية إلى الرحيل بعد ذلك في أيار 1946 (نافع طارق حمداني، العلاقات الإيرانية التركية 2003 ص 28).

وبعد توقيع آخر دولة من دول المحور، وهي اليابان، على وثيقة استسلامها في 2 أيلول 1945 حتى وقعت اضطرابات خطيرة معادية للحكومة في ولاية أذربيجان الخاضعة للنفوذ السوفياتي، إذ أعلن استقلالها، لكن رئيس الوزراء الإيراني أحمد قوام أرسل الجيش الإيراني إلى أذربيجان بحجة تنظيم الانتخابات فتم القضاء على الأذربيجان في 12 كانون الأول 1946 وانتهى وجود تلك الجمهورية... وعام 1947 رفض البرلمان الإيراني، وبتشجيع أمريكي، المصادقة على اتفاقية النفط الإيرانية السوفياتية. وقد أسفر ذلك عن التوتر المستمر بين روسيا وإيران (إدوار سابليية، إيران مستودع البارود، 1983، ص 137-138).

تدهورت الأوضاع الاقتصادية في إيران، وتعرض الشاه محمد رضا بهلوي إلى محاولة اغتيال على يد أحد أتباع توده الشيوعي الإيراني (حزب الجماهير) في جامعة طهران، فوجد الشاه ذلك مسوغاً لضرب الحركة الوطنية والتكثيف بها، وصدرت الأوامر الشاهانية بحل حزب توده، لكنه استمر في نشاطه السري، وبرز دوره في مجلس الشورى الإيراني المشروع كما أقره مجلس الشيوخ في العام نفسه وصار قانوناً. وقد عهد الشاه إلى مصدق لتشكيل الوزارة مشكلها عام 1951 وقرر مجلس الوزراء رفع يد بريطانيا عن النفط. وما لبث الشاه والمخابرات الأمريكية والبريطانية، بالتعاون مع بعض رجال الشاه أن قاموا بانقلاب ضد مصدق فأسقطوا حكومته وأعدموا كثيراً من رجالها، وشكل الوزارة الجديدة الجنرال «زاهدي» الذي أعاد شركات النفط الغربية إلى وضعها السابق (جون ليمرت، إيران حرب مع التاريخ 1992) ص 117

## 2 - الوضع في الولايات الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، سعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الهيمنة على العالم، لذلك سخّرت كلّ طاقتها وتفوقها المطلق في كلّ القطاعات للتدخل في الشؤون الداخليّة للدول الأخرى، كما فرضت هيبتها على الكثير من الدول ونهبت خيراتها ومواردها وسيطرت عليها تحت شعار «الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان».

واتّبعَت الإدارات المتعاقبة استراتيجيات الهيمنة، ابتداء من مبدأ ترومان المعروف أيضاً باسم - سياسة الاحتواء، مروراً بالسياسات الخارجية للإدارات الأمريكية الحديثة، بما في ذلك استراتيجية باراك أوباما المعروفة باسم «القوة الذكية»، وسياسة «أمريكا أولاً» التي أعلنها دونالد ترامب، وخطة «إعادة البناء بشكل أفضل» التي وضعها جو بايدن، فإن الهدف دائماً هو تأمين الهيمنة الأمريكية.

وعملت الولايات المتحدة الأمريكية على تأجيج التوترات والنّعرات في معظم دول العالم، كما عملت على إثارة المواجهات والإطاحة بالحكومات من خلال شن الحروب، وإشعال الفوضى والفتن والاضطرابات في ما تبقى من بلدان العالم، وذلك من خلال استخدام معايير مزدوجة وعدم مراعاة الأنظمة والقوانين الدوليّة وقواعدها، هدفها حماية مصالحها وإن كانت على حساب الحروب، وكانت بسبب شجعها وراء اندلاع الأزمة المالية العالميّة. وكثيراً ما حاولت التلاعب بالرأي العام العالميّ لتصدير قيمها إلى الدول الأخرى من خلال شنّ غزوات ثقافية وإعلامية يعاونها حلفاؤها في داخل بلدانهم. إذ أتى ذلك إلى عدم الاستقرار في العالم، فهي دولة محاربة بامتياز ومنذ استقلالها عام 1776 وعلى مدى تاريخها كانت دائماً في حالة حرب، ففي سنة 2018 أشار «داكوتا وود» إلى أنه «كل 15 عاماً أو نحو ذلك تدخل الولايات المتحدة في صراع. (مقالة خاصة الولايات المتحدة أكبر مخرب للسلام العالمي بعد الحرب العالمية الثانية).

وللحفاظ على هيمنتها، تلجأ الولايات المتحدة إلى جميع الوسائل للتغطية على «التطورات السلمية» والتحريض على الثورات الملونة، حتى التخريب المباشر لحكومات الدول الأخرى. فالولايات المتحدة لديها إيمان على التدخل في الشؤون الداخليّة للدول الأخرى. وفي هذا المجال قال الكاتب الأمريكيّ ويليام بلوم في كتابه: «الديمقراطية أشد الصادات الأمريكية فتكاً» إنّه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية،

سعت الولايات المتحدة إلى الإطاحة بأكثر من 50 حكومة أجنبية، معظمها منتخبة ديمقراطيًا، وتدخلت بشكل صارخ في انتخابات ديمقراطية لـ 30 دولة على الأقل، وحاولت اغتيال أكثر من 50 من القادة الأجانب. (مقالة خاصة مرجع سابق).

وبعد نهاية الحرب الباردة، راحت الولايات المتحدة تروج للتدخل في أحيان كثيرة في الشؤون الداخلية لبعض البلدان وصدرت «الثورات الملونة» وقد استغلت هيمنة الدولار بعد الحرب العالمية الثانية، لتحقيق المكاسب من ثروات العالم، ولزيادة المخاطر المالية ومحاولة الحصول على مصادر الطاقة والمياه والنقل في العالم. وبالاعتماد على هيمنة الدولار أصبحت الولايات المتحدة تتمتع بامتياز طباعة النقود دون قيود تقريبًا.

وخلال السنوات الماضية استغلت أمريكا العقوبات الاقتصادية لاحتواء أعدائها، وسنت قانون مكافحة أعداء أمريكا من خلال العقوبات ومنها العقوبات على إيران، إذ وفقا لقوانينها المحلية التي تسمح لها بحق الوصول إلى بيانات المستخدمين واتهام بعض الشركات «بالفساد» أو انتهاك الحظر الأمريكي للتجارة مع عدة دول ومنها إيران ودول أخرى واستمرت أمريكا في فرض العقوبات، الأمر الذي أدى إلى زيادة الوضع سوءا وهذا دفع بالرئيس الإيراني حسن روحاني إلى القول في سنة 2020 إن: الأمريكيين ألحقوا أضرارا بالشعب الإيراني تقدر بـ 150 مليار دولار بسبب العقوبات غير القانونية وغير الإنسانية (المرجع السابق).

### 3 - الاتفاق النووي الإيراني

لقد تم التوصل إلى اتفاق بشأن برنامج إيران النووي مع مجموعة الدول 5+1 على أساس تقليص البرنامج مقابل رفع العقوبات عن طهران. غير أن الرئيس الأمريكي السابق ترامب انسحب من الاتفاق.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها حكومة فرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة وإيران، ولا يزال مستقبل خطة العمل الشاملة المشتركة غير مستقر. من الضروري حماية العلاقات الاقتصادية ما بين الاتحاد الأوروبي وإيران لإنقاذ الاتفاق. ولا يمكن للاتحاد الأوروبي تحقيق هذه المهمة إلا عبر بذل جهود سياسية وقانونية حثيثة قد تقنع بدورها طهران بالبقاء في الاتفاق.

لقد أعلن عن الاتفاق النووي الإيراني في 14 تموز 2015 بعد خلافات حادة استمرت أكثر من عشر سنوات بين إيران والدول الكبرى متمثلة بالدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن إضافة إلى ألمانيا المعروفة بمجموعة 1+5. ويشمل الاتفاق تقليص النشاطات النووية الإيرانية مقابل رفع العقوبات الاقتصادية المفروضة على طهران بشكل تدريجي. إلا أن الرئيس ترامب انسحب من الاتفاق بشكل أحادي الجانب وفرض عقوبات قاسية ضد إيران.

هذا الموقف للرئيس الأمريكي لا يروق للأطراف الأخرى الموقعة على الاتفاق - روسيا والصين وفرنسا وبريطانيا وألمانيا - وخاصة حلفاءه الأوروبيون الذين يرون أن الخروج منه يعطي إيران ذريعة للتخلي عن تعهداتها واستئناف برنامجها.

أما الرد الإيراني فكان حازماً، رأت طهران أنها قدمت تنازلات عديدة وأكثر من اللازم في هذا الصدد وليس في نيتها الدخول في جولات جديدة من المفاوضات الشاقة مع الولايات المتحدة.

ويبقى السؤال الأساس، لماذا انسحب ترامب من الاتفاق النووي؟

- كان ترامب يرى أن الاتفاق النووي مع إيران «سيئ للغاية». وأن المفاوضات الأمريكية لم يكونوا على مستوى المسؤولية الوطنية في الدفاع عن مصالح الولايات المتحدة. ومما قاله عن إستراتيجيته تجاه إيران: «إن العقلية التي كانت وراء هذا الاتفاق هي نفس العقلية المسؤولة عن توقيع الكثير من الاتفاقات التجارية في الأعوام الماضية التي ضحت بمصالح الولايات المتحدة التجارية وغلبت مصالح دول أخرى، وأضاعت ملايين فرص العمل على أبناء وطننا... ونحن بحاجة لمفاوضين يدافعون بقوة عن مصالح الولايات المتحدة». (حسين عمارة فرانس 24).

وصرح ترامب أكثر من مرة أن هذا الاتفاق وقّر أموالاً طائلة لإيران فاقت المئة مليار دولار، وأن طهران «استخدمتها في تمويل الإرهاب» في إشارة إلى الأموال الإيرانية المجمدة في البنوك الأمريكية والأوروبية منذ عقود.

ومن جملة أسباب انسحاب ترامب من الاتفاق النووي ما يلي:

- أن الاتفاق لا يحمل بعداً إقليمياً ولا ينطوي على أية نقاط تكبح الطموح الإيراني

للهيمنة على منطقة الشرق الأوسط، ورغم توقيع الاتفاق -منذ ثلاث سنوات -استمر النظام الإيراني في تغذية الصراعات والإرهاب في الشرق الأوسط.

- أن إيران لا تحترم روح الاتفاق، فما زالت تطور برنامجها للصواريخ الباليستية الموجهة طويلة الأمد وهو ما يهدد حلفاء الولايات المتحدة في المنطقة (السعودية وبقية دول الخليج وإسرائيل)، كما أن التدخل الإيراني في سوريا لصالح نظام بشار الأسد يعد أمراً غير مقبول بالنسبة للولايات المتحدة. (المرجع السابق نفسه). أما بعد انتخاب بايدن فالأمر مختلف.

ويقول المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية إن إحياء الاتفاق النووي في عهد الرئيس الأمريكي المنتخب جو بايدن، سيطلب إبرام اتفاق جديد يحدد كيفية تراجع طهران عما قامت به من انتهاكات لبنوده.

وكانت إيران قد خرقت العديد من قيود الاتفاق رداً على انسحاب ترامب منه، ومعاودته فرض العقوبات الأمريكية على طهران التي رفعت بموجب الاتفاق، وتقول طهران إنها تستطيع التراجع سريعاً عن انتهاكاتها في حال رفع العقوبات الأمريكية. وتؤكد طهران ضرورة احترام بنود الاتفاق وأن تكون أكثر وضوحاً، وأنها تريد التحقق من إمكان عودتها لمواصلة نشاطها ضمن الاقتصاد العالمي، بما يتيح للشركات الاستثمار فيها والتعاون مع مصارفها، من دون أن تواجه خطر عقوبات أميركية.

العودة إلى الاتفاق النووي مع جو بايدن:

لقد أبدى الرئيس الأميركي جو بايدن عزمه على إعادة بلاده إلى الاتفاق مقابل عودة إيران لاحترام التزاماتها، ولكن إيران تخشى أن تعتمد إدارة أميركية مقبلة... للانسحاب مجدداً من الاتفاق. وهذا ما أكدّه وزير الخارجية الإيراني -حسين أمير عبد اللهيان - أن بلاده ترغب في نيل «إعلان سياسي من الكونغرس الأميركي تتعهد فيه الولايات المتحدة العودة إلى الاتفاق النووي وتطبيقه. إذ لا يمكن للرأي العام في إيران قبول تصريح رئيس دولة كضمانة، لا سيما من رئيس الولايات المتحدة التي انسحبت من الاتفاق النووي“.

لذلك فقد طلب من المفاوضين الإيرانيين أن يقترحوا على الأطراف الغربية «أن تعتمد برلماناتها أو رؤسائها على الأقل بما يشمل الكونغرس الأميركي إلى إعلان التزامها

حيال الاتفاق والعودة إلى تطبيقه على شكل إعلان سياسي». (حسين عمارة مرجع سابق).

#### 4 - محادثات فينا بشأن الاتفاق النووي الإيراني

استؤنفت المحادثات النووية حول الاتفاق النووي الإيراني الموقع عام 2015 بين كل من إيران والقوى الدولية الكبرى (4+1) بمشاركة أمريكية غير مباشرة، في العاصمة النمساوية فيينا (في 29 نوفمبر 2021) وهذه الخطوة تعد مرحلة جديدة من إدارة الصراع حول إيران. وهذا يعني الربط بين الاتفاق النووي الإيراني كعنوان للمشروع النووي الإيراني وبين مجمل القدرات الإيرانية ومن بينها «المشروع الإقليمي لإيران». وهذا الأمر يتطلب التعرف إلى المشروع الإيراني وبيئته الإقليمية لأنه من الصعب الفصل بين المشروع الإقليمي لإيران وبين نظام الجمهورية الإسلامية لإيران، الذي يعتبر أن من حقه الاستفادة من الطاقة النووية، ومن حق جميع شعوب العالم أن تستفيد من الطاقة النووية السليمة، ولا يحق لأحد أن يمنع شعبا من هذا الحق الطبيعي، كما أن «الوكالة الدولية للطاقة الذرية» التابعة للأمم المتحدة قد وضعت نظاما يحدد آليات الاستفادة وحدودها لجميع الدول.

وقد رضيت إيران بأن يكون نظام الوكالة هو القياس، وأن تنظم إليه، فإيران ترى إن امتلاك التقنية النووية يعزز جبهة. ويطور القدرات العلمية، ومما قاله الإمام الخامنئي في هذا المجال: «إن امتعاض جبهة الاستكبار من هذه المسألة مؤشر أيضًا على أن امتلاك إيران لتقنية إنتاج الطاقة النووية كان خطوة مؤشرة في تعزيز جبهة الحق في الاصطفاف العالمي». كما وأكد على أن الغرب يعلم جيدًا بأن إيران ليست بصدر امتلاك القنبلة النووية، لكن سبب سخطه هذا يعود إلى أن هذا البلد توصل إلى هذه التقنية دون إذنهم.

فالشعب الإيراني لن يتخلى عن حقوقه، ولن يخضع للإملاءات الأمريكية، ولن يرضخ للتهديدات والعقوبات فهو يريد أن يكون حرًا مستقلًا. ويرى المسؤولون في النظام الإيراني أن نشاطات إيران للاستفادة من الطاقة النووية لا تمت بصله إطلاقًا إلى السلاح النووي، والشعب الإيراني لن يتخلى عن حقوقه في الاستفادة من التقنية النووية بهذه الضغوط، ولن يخضع للإملاءات الجائرة الأمريكية وغير الأمريكية (خطاب الخامنئي بتاريخ 21/10/2005).

وتجدر الإشارة إلى أن الجمهورية الإسلامية في إيران في صدام مع الولايات المتحدة الأمريكية منذ ولادتها، إذ رفعت شعار العداء للأمريكيين (الموت لأمريكا) وأطلقت عليها اسم: الشيطان الأكبر، لكن الحصار وسياسة الاحتواء الأمريكية تحول إلى مواجهة وتهديد عسكري أمريكي وإسرائيلي بسبب مشروع إيران النووي، وبسبب المشروع الإيراني المناهض لمشروع السلام الإسرائيلي - الأمريكي والدور الإيراني المناهض للأمريكيين في العراق عام 2003.

ومهما يكن من أمر فقد بدأ الصّراع بين الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة والولايات المتحدة الأمريكيّة منذ انتصار الثورة في إيران فطرحنا معادلة جديدة منافسة تقوم على المنهج الإلهي الإسلامي في الحكم والحياة. وهذا المنهج الجديد في الحكم استنقر الغرب المادي والشرق لمواجهة الجمهوريّة الإسلاميّة، رفضاً لمنهجها الإسلامي وانعكاساته في الاستقلال والدور والقُدوة. فقد غيّر الإسلام موقع إيران من شرطيّ للخليج بإدارة أمريكا لخدمة وحماية الكيان الإسرائيلي الغاصب إلى بلد يقود المقاومة لتحرير من التبعية والاحتلال والتخلف، من بلد يتحكم فيه الطواغيت، إلى بلد عزيز وحيوي سيّد حرّ ومستقل.

ولذا كان الصّراع على هذا النّظام، الذي لا يشبه سائر الأنظمة إذ ما من نظام في العالم اليوم تُشنّ ضده هذه الهجمات الإعلامية والسياسيّة والاقتصادية، وتقرض عليه أنواع الحظر. بما في ذلك الحرب النّاعمة التي تستخدمها أمريكا مع إيران لبث الفرقة والخلافات بين أبناء الشعب الواحد... وتعميق الخلافات السياسيّة وتحويل نقاط القوة والفرص إلى نقاط ضعف وتهديدات وقلب حقائق البلاد.

هذا من جهة ومن جهة ثانية فقد جاء التوقيع على الاتفاق النوويّ مع إيران من جانب «مجموعة دول 5+1». عام 2015 ليقام شعور بعض الدّول العربيّة بالخوف من إيران، ووضعها البعض بأنّها أكبر دولة راعية للإرهاب في العالم. وعدّ البعض أنّ التّحدي في منطقة الشرق الأوسط مصدره إيران.

وجاء التّدخل العسكريّ الإيرانيّ في الأزمة السوريّة لدعم النظام السوري ليقام من أزمة إيران مع الجوار ومع إسرائيل ومع الولايات المتحدة الأمريكيّة.

ويبقى التساؤل الأساس والكبير «لماذا ذهبت إيران إلى فيينا على الرّغم من كل العقبات؟

ترى إيران أنّ التواصل والتعاون مع الوكالة الدوليّة للطاقة الذرية عمل معقول وصحيح. فهي ترى بحسب نظامها، وعلى قاعدة حقها في التخصيب على أراضيها. كما يقول الإمام الخامنئي: «نحن مصمّمون على توفير متطلبات البلاد من الطاقة النوويّة، ولهذا السبب تعتبر موضوع التخصيب بأنه موضوع جاد. ويوجد تصميم وإصدار على تطوير قدرة إيران النوويّة السليمة، وعلى صعيد الطاقة النوويّة فإن القوى الدوليّة كانت تصر على عدم حيازة إيران لهذه التقنية المتطورة، لكن الشعب الإيراني المتضامن أصرّ بأكمله على حقه، وبالتالي وصل إلى مرحلة متقدمة جدا... بل سيحصل الشعب الإيراني على تطور أكبر في هذا المجال. ولن تستطيع أمريكا منع الشعب الإيراني من حقه.

لقد ذهبت إيران إلى مؤتمر فيينا بكل صلابة وتماسك سياسي واجتماعي اقتصادي وهي لا تخشى أعتى الضغوط والعقوبات الأمريكيّة والتقدم اللافت في القدرات النوويّة في أشهر معدودة منذ أن قررت أن تردّ نوويا على الانسحاب الأمريكي من الاتفاق النوويّ بالتخفيف خطوة - خطوة بدرجات محسوبة ودقيقة من التزاماتها الواردة في ذلك الاتفاق. (د. محمد السعيد إدريس، 2022) يقول الإمام الخامنئي: «المحافل السياسيّة والاعلام العالمي يتشدق بخطر إيران النوويّة، وأن إيران النوويّة هي خطر! وأنا أقول: إن هؤلاء يكذبون ويخادعون. إنّ ما يخشونه، وينبغي أن يخشوه، ليس إيران النوويّة، بل إيران الإسلاميّة. إنّ إيران الإسلاميّة هي التي زلزلت أركان القدرة الاستكباريّة. (خطاب الولي 2012)

ويقول د. محمد السعيد إدريس: إنّ إيران حصدت انتصارًا معنويًا وأمنيًا ونفسيًا عندما استطاعت الصمود أمام أعنف حصار وعقوبات فرضتها الولايات المتّحدة وألزمت بها أغلب المجتمع الدوليّ، ومنها الدّول الأوروبيّة الثلاث الشريكة في التوقيع على اتفاق 2015 النوويّ، (فرنسا -ألمانيا وبريطانيا) إذ لم تستطع هذه الدّول الانتصار لتوقيعها على الاتفاق بل انصاعت للضغوط الأمريكيّة خشية التعرض لخسائر اقتصادية أو التعرض لعقوبات أمريكية. فقد أعطى ما يمكن اعتباره انتصارا إيرانيا في معركة الصمود والتصدي وخاصة في مواجهة «سياسة تصفير صادرات النفط الإيرانيّة» المورد الرئيسي للدخل القومي، دعما معنويا للشعب النوويّ، وتحسين ترسانتها العسكريّة في مجال الصواريخ الباليستية والقوة الجوية - الفضائية. ناهيك

عن القدرات البحرية المميزة والطائرات المسيرة «الدرونز» التي باتت من أهم الأسلحة الهجومية الإيرانية.

هذا الصمود أدى فيه الصينيون والروس دورًا محوريًا، فالاتفاقية الاستراتيجية الإيرانية مع الصين وفرت لإيران القدرة على تحدي حظر تصدير النفط والحصول على مساعدات مهمة، وكذلك فعل الروس في تقوية الصمود الإيراني سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا.

هكذا نستطيع أن نقول: إن الإيرانيين ذهبوا إلى فيينا وهم أقوىاء غير منكسرين وغير مضطرين، خصوصاً أنهم نجحوا في تحقيق تقدم كبير في قدراتهم النووية جعلت الأطراف الأخرى أكثر حرصاً على جذب إيران إلى التفاوض خشية أن تصل إيران في الوقت الفاصل بين توقف المحادثات في يونيو 2021 إلى حين استئنافها مرة أخرى بعد انتهاء الانتخابات الرئاسية الإيرانية. (إدريس، مرجع سابق).

فضلاً عن هذه الأوراق فإن إيران حسب إدريس تمتلك أوراق قوة وهي جبهة الحلفاء الإقليميين، سواء أكان اسمها جبهة الممانعة أو جبهة المقاومة، أو «الوكلاء الإقليميين» وتضم الحلفاء في العراق إلى جانب سوريا وحزب الله في لبنان وحركة أنصار الله الحوثية في اليمن، إضافة إلى منظمات المقاومة الإسلامية في غزة «الجهاد الإسلامي» وحركة «حماس» كل هؤلاء استطاعت إيران أن تجعلهم طرفاً مباشراً في أي حرب قد تقع بينها وبين إسرائيل.

وثالث هذه الأوراق قوة، هو الجبهة الدولية أو الظهير الدولي الداعم، الذي أخذ البعض يعطيه اسم التحالف الصيني-الروسي-الإيراني. فقد ذهبت إيران إلى فيينا وهي على قناعة بأنها مسنودة بظهير دولي روسي-صيني لن يسمح بخروجها خاسرة من تلك المفاوضات، وقد كشفت جولات المحادثات الست التي سبقت العودة مجدداً إلى فيينا يوم 29 نوفمبر 2021 قدرًا كبيراً من الدعم والمساندة الروسية والصينية للمفاوضين الإيرانيين، وتؤكد ذلك في جولة التفاوض السابعة التي اختتمت في 17 ديسمبر 2021. هذا الدعم يستند أولاً إلى علاقات ثنائية تربط إيران بكل من روسيا والصين تحولت إلى شراكة استراتيجية بين إيران والصين التي تحمل اسم «وثيقة الخطة الاستراتيجية» التي تمتد إلى 25 عاماً وجرى توقيعها في مارس 2021، وتتطلع إيران إلى توقيع شراكة مماثلة مع روسيا حسب توضيحات «سعيد

خطيب زاده» المتحدث باسم الخارجية الإيرانية الذي أعلن أنّ بلاده خطت خطوة جديدة في سبيل التوجّه شرقاً، معلنة اقترابها من إبرام اتفاق شراكة استراتيجية مع روسيا.

## 5 - مستقبل العلاقات بين إيران والولايات المتحدة الأميركية

لقد كثرت التوقعات بقرب إحياء الاتفاق النوويّ بين إيران والغرب، وكثرت التساؤلات حول مستقبل العلاقة بين البلدين؛ إيران والولايات المتحدة، وعلى الرغم من كون العلاقة بين البلدين تتسم بالعدائية منذ تأسيس النظام الإسلاميّ الإيراني، إلا أن الطرفين تمكنوا في بعض الفترات من التعاون في الملفات التي مثلت مساحة تلاقت فيها مصالحهما. وهل أن الإعلان عن إحياء الاتفاق النوويّ يعني بدء مرحلة جديدة من العلاقات بينهما خلال إدارة جو بايدن؟

إنّ الإجابة على هذا التساؤل وعن مستقبل العلاقات بين البلدين يتطلّب التعرف إلى أهداف السياسة الخارجيّة لكل منهما من جهة ورؤية كل منهما للآخر.

ويبدو أنّ إدارة بايدن حصرت مصادر تهديد الأمن الأميركي في الصعود الصيني وروسيا، و«مع الانسحاب المفاجئ وغير محسوب النتائج من أفغانستان، نجد أن الشرق الأوسط لم يعد أولوية للسياسة الأميركية، وهو ما فهمته إيران أخيراً، وقد برهن ذلك من خلال تخلي بايدن عن التزامه بدفع إيران نحو اتفاق أشمل وأقوى من اتفاق عام 2015، بما يعنى تضمين أي مباحثات معها الملفات الإقليمية ومنظومة الصواريخ الباليستية.

وبالوقوف على تطورات محادثات فيينا منذ بدئها حتى الآن، نجد أنّ الاتفاق الأشمل والأقوى في النوايا الأميركية، أصبح صورة مختزلة من اتفاق عام 2015 الأصلي.

باختصار تعامل بايدن مع الشرق الأوسط باعتباره إيران، وتعامل مع إيران باعتبارها قضية نووية، وتعي إيران أنّها لم تعد على رأس قائمة الأولويات لهذه الإدارة، فإدارة بايدن تسعى إلى إدارة أزمة على درجة من الإلحاح في ما يتعلق بالمسألة النوويّة، ولكن بطريقة تهدف إلى الحد من انتشار الأسلحة النوويّة، ومنع إيران من إحداث نوع من الاختراق النوويّ، حتى الوقت الراهن، لا يبدو أن لدى إدارة بايدن نهجاً شاملاً تجاه إيران، فقط القضية النوويّة لها الأسبقية، لكن الاعترافات الإقليمية ومخاوف حقوق

الإنسان في ما يتعلق بإيران، ليست ملحة تماما من حيث الضغط على حلها، على الرغم من كونها حاسمة بالنسبة للمصالح الأميركية ومصالح حلفائها في المنطقة.

وطالما أن أمريكا لم تتفاوض مع إيران حول سلوكها الإقليمي، ربما يتوجب عليها بناء إطار عمل مع شركائها وحلفائها حول المخاوف المتبقية في ما يتعلق بإيران حتى بعد إحياء الاتفاق النووي، على أن يكون الحوار مع الأطراف العربية والشرق أوسطية والأوروبيين حول كيفية الاستجابة وإدارة بعض التحديات الأخرى التي تطرحها إيران تجاه المنطقة. (هدى رؤوف 2022).

أما عن موقف إيران وعلاقتها مع واشنطن بعد إعادة الاتفاق، فمن المعروف أن المرشد الإيراني والنظام في طهران قائم برمته على العداء تجاه الولايات المتحدة بما يُعدّ جزءاً من هوية إيران، وهي لن تتراجع عن حقها وترى إيران ان تراجعها يؤدي إلى هزيمتها، وعليها أن تبقى في الميدان، والمواجهة، فالاستكبار لن يغيّر سياسته الظالمة قال الإمام الخامنئي «إن التراجع خطوة واحدة أمام المستكبرين هو بمثابة تقدم هؤلاء خطوة واحدة إلى الأمام، والتصور بأن التراجع والعدول عن المواقف والمواقف الصحيحة سيؤدي الي تغيير سياسة الاستكبار تصور خاطئ ولا أساس له. (خطاب الخامنئي 2007).

وبناء على ما تقدم فإنه من غير المتصور أن إحياء الاتفاق سيحسن العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران، إجمالاً إن إحياء الاتفاق لن يغير مواقف إيران الإقليمية... والأهم من ذلك أن موقف إسرائيل من إيران لن يتغير نتيجة إحياء الاتفاق النووي، بل على العكس من ذلك ربما ستكون هناك أوقات ستحتاج فيها واشنطن إلى مواجهة إيران.

أي أنه لن يحدث تغيير جوهري في العلاقات بين البلدين، ولذا قال السيد إبراهيم رئيسي: أن أوليات سياسته الخارجية هي التحول نحو آسيا ودول الجوار الإيراني وليس التواصل مع الغرب، والمرجح أن الاتفاق يعمق علاقات إيران المالية والأمنية مع موسكو وبكين، وذلك من خلال مبيعات الأسلحة، وإن أي اتفاق نووي يبرمه بايدن مع النظام الإيراني سوف يجلب منافع كبيرة لمن يحكمون إيران.

وهناك ترجيحات بنجاح المحادثات في فيينا ومن نتائجه المتوقعة.

- إنهاء العقوبات على إيران، وهذا سيمكنها من استعادة قدراتها الاقتصادية والمالية، والإنفاق على دورها الإقليمي ومشروعها السياسي.
- هذا الانفاق، لن يمس الثوابت الإيرانية الثلاث: لا مساس بالقدرات الصاروخية الباليستية. لا مساس بالسياسة الإقليمية، ولا دخول لأطراف جديدة في الاتفاق سواء كانت إسرائيل أم دول خليجية.
- أنه سيحفظ لإيران منشآتها النووية سليمة، وأنه سيمنع إسرائيل من أي تهديد لهذه المنشآت، لأن التوقيع الأمريكي مجدداً على الاتفاق سيكون رادعاً قوياً لإسرائيل، خصوصاً وأن الاتفاق يقوم على ثنائية مبادلة إلغاء العقوبات الأمريكية المفروضة على إيران مقابل عدول إيران عن تجاوزاتها النووية والعودة مجدداً إلى الالتزام بأصل اتفاق عام 2015.
- هناك احتمال بحدوث تحسن إيجابي في العلاقات الإيرانية - الخليجية وخاصة السعودية، التي على ما يبدو تتقرب نتائج المحادثات إن كانت نجاحاً سيكون الانفتاح السعودي على إيران وإن كانت فشلاً سيكون التصعيد السعودي ضد إيران.
- وختاماً تجدر الإشارة في حال فشل المفاوضات، فإن إيران ستكون في حلٍّ من التوقف عن تطوير قدراتها النووية وستعمل بجد للوصول سريعاً إلى وضع «حافة نووية».
- إذ هناك إجماع أنّ المفاوضات قد حققت تقدماً كبيراً في اتجاه إحياء اتفاق عام 2015 الذي يقوم على مبدأ رفع العقوبات مقابل فرض قيود على البرنامج النووي الإيراني، وهناك إشارة أنّ منظمة أوبك ستعمل على ضم إيران إلى اتفاق الحد من إمدادات النفط إذا تم التوصل إلى تسوية لإحياء اتفاقها النووي مع القوى العالمية، وهذا مؤشر على أن فرض التوصل لاتفاق حول النووي الإيراني باتت ترسم في الأفق وأصبحت مرئية حتى بالنسبة للفاعلين في سوق النفط العالمية.
- ومهما يكن من أمر فإن تطور الأحداث في أوكرانيا لا يمنع من الاهتمام بملف آخر، لا يقل أهمية بمؤشرات اتفاق نووي وشيك بين القوى الدولية وإيران. ومهما كانت عليه نتائج الاتفاق ستكون لها تداعيات على مستقبل العلاقات بين إيران

وأمریکا وتكلفة على المستويين الإقليمي والدولي.

### المصادر والمراجع

1. عبد الحسين، عبد الله سامي، إيران في المرحلة الأولى من الحرب العالمية الثانية -1939  
1941، رسالة بكالوريوس في التاريخ، جامعة القادسية، كلية التربية، قسم التاريخ -1439  
2018.
2. خلف البكاء، هند طاهر، العلاقات الإيرانية السوفيتية 1941 - 1951، رسالة ماجستير،  
جامعة بغداد-كلية التربية، 2005.
3. مذكرات شاه إيران المخلوع، محمد رضا شاه، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، 1980.
4. عبد الرحمن، محمد كامل، مراجعة محمد كمال مظهر أحمد، سياسة إيران في عهد رضا شاه  
1941-1921. مركز الدراسات الإيرانية، جامعة البصرة 1988م.
5. الحمداني، نافع طارق، العلاقات الإيرانية التركية حتى الوقت الحاضر، أوراق تركية معاصرة،  
مركز الدراسات الإقليمية، العدد 19 الموصل 2003.
6. سابلية إدوار، إيران مستودع البارود، ترجمة عز الدين محمود السراج، دار الحرية للطباعة،  
بغداد 1983.
7. ليمرت جون، إيران حرب مع التاريخ، ترجمة حسين عبد الزهرة مجيد، مطبعة دار الحكمة،  
البصرة، 1992.
8. موقع Arabic.news.com, 25/3/2022
5. مقابلة خاصة الولايات المتحدة أكبر مخرب للسلام العالمي بعد الحرب العالمية الثانية.
9. إدريس، د. محمد السعيد، محادثات فيينا النووية وتحديات المشروع، مركز الأهرام للدراسات  
السياسية والاستراتيجيات، 2022.
10. رؤوف، هدى، شكل العلاقات الإيرانية - الأمريكية بعد إحياء الاتفاق في عهد بايدن.

## تهافت المصطلحات النحويّة (باب المرفوعات نموذجاً) د. أمينة محمد حسن قصص

### 1. تمهيد

إنّ العودة إلى المصطلح النحويّ في هذا العصر، تعني العودة إلى مرحلة مهمّة من مراحل تطوّره واستقراره، فالدرس النحويّ العربيّ الذي نشأ في القرن الأوّل الهجريّ، وظهر بصورة متكاملة في القرن الثّاني الهجريّ بظهور كتاب سيبويه (180هـ/ 796م) - وهو أوّل كتاب في النحو العربيّ وفد إلينا - رافقته نشأة المصطلح النحويّ. وإذا كان من الصعب تحديد البداية الحقيقيّة للتفكير النحويّ عند العرب، فإنّ التّاريخ لنشأة المصطلح لا تقلّ صعوبة عنها، وربّما يكون تتبّع المصطلحات النحويّة ودراستها خير عون على دراسة النحو العربيّ وتطوّره؛ لأنّ مفاتيح العلوم مصطلحاتها.

ولعلّ من البدهاهة القول: إنّ المصطلحات النحويّة لم تنشأ كلّها دفعة واحدة وفي زمن واحد، ولم يضعها عالم واحد من علماء العربيّة، ولا جيل واحد.

وإذا كان المصطلح النحويّ في مرحلة نشأة النحو قد ظهر في أغلب الأحيان على شكل تعبيرات اصطلاحية، هي أقرب ما تكون إلى وصف المفاهيم منها إلى المصطلح، فإنّ المصطلح النحويّ بدأ يأخذ حظّه من النضج والاستقرار في القرنين: الثالث والرابع الهجريّين، ولم يتوقّف تطوّره عند هذين القرنين، وذلك لأنّ النشاط الفكريّ النحويّ كان لا يزال فاعلاً، وتطوّر المصطلح لا يتوقّف إلّا حين يتوقّف هذا النشاط العلميّ. وهذا لا يكون إلّا باكتمال العلم وبلوغ الغاية منه.

وعليه، جيئت ببحثي هذا مقيّمةً المصطلحات النحويّة في باب المرفوعات، آملة أن أستكمّله، أو يستكمّله غيري ببحوث أخرى تتناول سائر المصطلحات النحويّة، علّنا نسهم في تيسير النحو وتبسيطه للناشئة اليوم.

### 2. تعريف المصطلح:

المصطلح، أو الاصطلاح، هو «العُرف الخاصّ الذي تتواطأ عليه جماعة بعينها، ككلمة «الفاعل» عند النحاة، و«الجابيّة» لدى الطبيعيين». ج: اصطلاحات. ويسمّى

أيضاً: «حقيقة عرفية»<sup>(1)</sup>. وقيل: «هو اتفاق القوم على وضع الشيء»<sup>(2)</sup>. وقيل: «إخراج الشيء عن المعنى اللغويّ إلى معنى آخر، لبيان المراد»<sup>(3)</sup>، أو «إخراج اللفظ من معنًى لغويّ إلى آخر لمناسبة بينهما»<sup>(4)</sup>، أو «اتفاق قوم على تسمية شيء باسم، بعد نقله عن موضعه الأول، لمناسبة بينهما كالعموم والخصوص، أو لمشاركتهما في أمر، أو مشابهتهما في وصف، أو غير ذلك»<sup>(5)</sup>، أو «لفظ منقول من معناه اللغويّ، إلى معنًى آخر متفق عليه بين طائفة مخصوصة»<sup>(6)</sup>، أو «لفظ يصطلح عليه أهل العلم المتخصّصون للتفاهم والتواصل فيما بينهم»<sup>(7)</sup>.

ويُستنتج من هذه التعريفات أنّه لا بدّ من توافر أربعة أمور أساسية في المصطلح:

- أولها انتقال اللفظ من معناه اللغويّ الأصليّ، إلى معناه الاصطلاحيّ الجديد.
- ثانيها: أنّ هذا الانتقال أوجبتّه ضرورة علمية.
- ثالثها: اتفاق طائفة من العلماء على استخدام اللفظ بمعناه الاصطلاحيّ الجديد.
- رابعها: توافر وشائج بين معنى اللفظ اللغويّ القديم ومعناه الاصطلاحيّ الجديد، كالمناسبة بين المعنيين، أو المشاركة، أو المشابهة<sup>(8)</sup>.

### 3. أهمية المصطلح:

المصطلح جزء مهمّ من العلم، إذ تتوقّف صعوبة العلم أو سهولته على دقّة المصطلح في الدلالة على معناه، وعلى كثرته أو قلّته، ومعايير تسميته، وعدم ورود الاشتراك اللفظيّ<sup>(9)</sup> والترادف<sup>(10)</sup> فيه، ومدى اقترابه أو بعده من معناه اللغويّ. قال الدكتور إبراهيم مذكور (1416هـ/ 1995م)، الأمين العام لمجمع اللّغة العربيّة

(1) - المرجع، مادّة (اصطلاح).

(2) - الكنّيات 1/ 201 .

(3) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) - التعريفات، ص 22.

(5) - كشّاف اصطلاحات الفنون 3/ 23.

(6) - علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات العربيّة، ص 14.

(7) - مجلة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، المجلد 75، ج4، ص 1038.

(8) - موسوعة المصطلح النحويّ 1/ 13.

(9) - الاشتراك اللفظيّ هو ورود كلمة لها عدّة معانٍ حقيقيّة غير مجازيّة، كلفظة «العين» التي تعني أداة النظر، وينبوع الماء، والجاوسوس، والسيد، وشريف القوم...

(10) - الترادف هو إطلاق عدّة ألفاظ على مسمًى واحد، نحو: بيت، مسكن، دار، منزل، وكلّها تعني مسمًى واحداً.

في القاهرة: «المصطلح جزء هامّ من المنهج العلمي. ولا يستقيم منهج إلا إذا قام على مصطلحات دقيقة تؤدّي الحقائق العلميّة أداءً صادقاً. وقديماً قالوا: العلم لغة أحكم وضعها»<sup>(1)</sup>؛ ذلك لأنّ المصطلحات تستحضر المعنى بأيسر وسيلة تُقرّبه إلى الأذهان، وتعين على التعلّم، وتربط العلماء بعضهم ببعض. وكلّما كان المصطلح دقيقاً، ضاقت مسافة الخلف بينهم. وقد لاحظ ليبنيتز Leibniz (1646-1713م) بحق أنّ الخلافات العلميّة ترجع، في قدر كبير منها، إلى خلاف على معنى الألفاظ ودلالاتها<sup>(2)</sup>.

#### 4. معايير الحكم على المصطلحات:

نظرًا إلى أهميّة المصطلح، لا بدّ للمصطلحات في أيّ علم من العلوم أن تخضع للشروط الآتية:

- أ- وجود معنى مشترك بين اللّغويّ الأصيل، والمعنى الاصطلاحيّ الجديد.
- ب- عدم انتشار ظاهرة الاشتراك اللفظيّ والترادف فيها.
- ج- اتفاق العلماء عليها.
- د- دقّتها في الدلالة على معناها الاصطلاحيّ.
- هـ- أن تكون مفيدة لا يمكن الاستغناء عنها.
- و- أن تكون واضحة الدلالة لا غموض ولا لبس فيها.
- ز- ألا تكون كثيرة يصعب حفظها.
- ح- أن تكون جزلة غير متنافرة الحروف، يسهل النطق بها، كما يسهل حفظها.

وإذا أخضعنا مصطلحات النحو العربيّ لهذه المعايير، نجد أنّها لا تتوافق معها في عدّة أمور: أولها كثرتها، فهي تُعدّ بالآلاف. وثانيها شيوخ الترادف والاشتراك اللفظي فيها، بحيث قلّما تجد مصطلحاً إلاّ وله أكثر من دلالة، وأكثر من مرادف. وثالثها اختلاف استخدام النّحاة لها. ورابعها غموض الكثير منها. وخامسها عدم فائدة بعضها<sup>(3)</sup>.

(1) - مجمع اللّغة العربيّة في ثلاثين عامًا، ص 51.

(2) - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) - للتوسّع انظر: يا مجمع اللّغة العربيّة أنقذنا من هذا النحو، ص 71-95.

وسأتناول بالنقد مصطلحات أبواب المرفوعات (المبتدأ، والخبر، وأسماء النواسخ وأخبارها، والفاعل، ونائب الفاعل) مُقتصرةً، نظرًا إلى حجم المقالة العلميّة، على المصطلحات العشرة الآتية: الرّفْع، العامل، المبتدأ، الفاعل السادّ مسدّ الخبر، نائب الفاعل السادّ مسدّ الخبر، الابتداء، النواسخ وأسماءها وأخبارها، الفاعل، نائب الفاعل، المفرد.

## 5. الرّفْع:

الرّفْع، في اللّغة، مصدر رَفَع، ولهذا الفعل معانٍ كثيرة، منها: رفع البرقّ ونحوه: سطع. ورفع القومُ: أصدعوا في البلاد. ورفع في سيره: أسرع. ورفع العجيبُ: علا واختمر، واستحقّ أن يُخبز. ورفع الخبر: أذاعه. ورفع الشّيء: أعلاه، أو صانه. ورفع البناء: طوّله. ورفع فلانًا: ضدّ وضعه. ورفع بَكَرَه: نوّه به. ورفع الحديث: أوصله بسنده إلى قائله. ورفع نسب فلان: أوصله إلى أصله. ورفع يده عن الشّيء: كفّها... إلخ<sup>(1)</sup>.

ورَفَع الكلمة، في النحو: «استحقاقها لفظًا أو تقديرًا علامة الرّفْع الأصليّة أو ما ينوب عنها؛ لشغلها وظيفة تركيبية في موقع إعرابيّ يقتضي الرّفْع»<sup>(2)</sup>.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما العلاقة المعنويّة التي يجب أن تكون بين المعنى اللغويّ للرفع ومعناه الاصطلاحيّ؟

لم أقع على سبب تسمية الرّفْع بهذا الاسم في كتب النّحاة، على كثرة ما قرأته منها، إلّا ما روي أنّ الزجاجيّ (337هـ/ 949م) قال: إنّ النّحاة نسبوا الرّفْع إلى حركة الرّفْع؛ لأنّ المتكلم بالكلمة المضمومة يرفع حنكه الأسفل إلى الأعلى، ويجمع بين شفتيه<sup>(3)</sup>.

ويرى النّحاة، من ناحية، أنّ الإعراب «أشرف» من البناء، وأنّ «أشرف» الإعراب هو الرّفْع<sup>(4)</sup>. ويرون، من ناحية ثانية، أنّ المرفوعات «أشرف» من المنصوبات، والمجرورات<sup>(5)</sup>، لأنّها عمُد في الكلام، لا يُستغنى عنها، ويُستند عليها غيرها، فهي

(1) - المعجم الكبير، مادّة (رفع).

(2) - المصدر نفسه، المادّة نفسها.

(3) - الخليل، مادّة (الرّفْع)، ص 329.

(4) - شرح كافية ابن الحاجب 3/ 307.

(5) - البيهجة المرضية في شروح الألفيّة، ص 21.

كساق الشجرة، وغيرها كالفروع عليها.

وسواء كان الرفع، بمعناه الاصطلاحي النحوي، مأخوذاً من الرفع الذي هو الإعلاء والسّموّ، ومنه الرفع التي هي الشرف والسّموّ والعزة، أو من رفع الحنك الأسفل إلى الأعلى عند النطق بالكلمة المضمومة، فإن المصطلحات: المرفوعات، والرفع، والمرفوع، وكلّ المشتقات من المصدر (الرفع) غامضة بالنسبة إلى المتعلمين والمعلمين معاً، يتلقونها، فيحفظونها، ثم ينقلونها نقلاً ببغائياً، دون الاستفسار عن معانيها وسبب تسميتها.

## 6. العامل:

العامل، في اللغة، اسم فاعل من عملَ عملاً: فعلَ فعلاً، ومَهَنَ وصنَعَ. وعمل في الشيء: أحدث فيه أثراً<sup>(1)</sup>.

والعامل، في النحو: «ما يقتضي أثراً إعرابياً في الكلم»<sup>(2)</sup>، أو «ما يحدث الرفع، أو النصب، أو الجزم، أو الخفض فيما يليه»<sup>(3)</sup>، أو «المؤثر في رفع الكلمة، أو نصبها، أو جزؤها، أو جزمها»<sup>(4)</sup>. ج: عوامل.

ويعود قول النحاة بنظرية العامل إلى شدة اهتمامهم بالإعراب (تغيير أواخر الكلم)، حتى قصرُوا بحث النحو على الحرف الأخير من الكلمة، فحدّوه بأنه «علم يُعرف به أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً»<sup>(5)</sup>.

ورأى النحاة أنّ الإعراب عَرَضُ حَادِثٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ، وَأَثَرٌ لَا بَدَّ لَهُ مِنْ مُؤَثِّرٍ. ولم يقبلوا أن يكون المتكلم هو مُحْدِثُ هَذَا الْأَثَرِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ حُرّاً فِيهِ يُحْدِثُهُ مَتَى شَاءَ.

وهكذا رأوا أن كلّ علامة من علامات الإعراب، وفي مختلف مكان الكلمة في الجملة ووظيفتها، أثر لعامل، إن لم يكن منكوراً ملفوظاً، فهو مقدّر. واشتدّ خلافهم في تعيين العوامل، حتى إنّ الباحث لا يقع على مرفوع، أو منصوب، أو مجرور، أو مجزوم، إلاّ وقد اختلفت النحاة في تعيين عامل الرفع، أو النصب، أو الجرّ، أو الجزم فيه؛ ولا يقع على رأي في عامل من العوامل اللفظية أو المعنوية الكثيرة، إلاّ ويستطيع الاطمئنان إلى أنّ هناك آراء

(1) - المعجم الوسيط، مادة (عمل).

(2) - المرجع نفسه، المادة نفسها.

(3) - جامع الدروس العربية 3 / 275.

(4) - الخليل، ص 267.

(5) - شرح التصريح على التوضيح 1 / 11-12.

تخالف هذا الرأي.

ولو ألغينا القول بنظرية العامل، وعدنا إلى الحقيقة اللغوية، وهي أنّ المتكلم هو الذي يحدث حركات الإعراب كما يحدث الجملة بكل ما فيها من كلمات، وحروف، وحركات بنويّة أو إعرابية؛ أقول: إذا ألغينا القول بها، لاستغنينا عن عشرات المصطلحات النحويّة التي أفرزتها، واسترحنا من اختلافات النحاة فيها، ومن بعض الأبواب النحويّة (الاشتغال، التنازع، عطف البيان...)، والكثير من صعوبات النحو<sup>(1)</sup>.

## 7. المبتدأ:

المبتدأ، صرفياً، اسم مفعول، واسم مكان، واسم زمان، ومصدر ميميّ من «ابتدأ». و«ابتدأ الشيء»: بدأ. وابتدأ بالشيء: بدأ به. وابتدأ الشيء: بدأه<sup>(2)</sup>. فالمبتدأ ما يُبدأ به، أو مكان البدء بشيء، أو زمانه، أو هو الابتداء نفسه.

أمّا في الاصطلاح، فقد عرّفه السيوطي (911هـ/1505م) بأنّه «الاسم المجرد من عامل لفظي غير المزيد، ونحوه، مخبراً عنه، أو وصفاً سابقاً رافعاً لمنفصل كافٍ»<sup>(3)</sup>. وعرّفه أبو البقاء الكفوي (1094هـ/1683م) بأنّه «كلّ اسم ابتدأته، وعرّيته من العوامل اللفظيّة»<sup>(4)</sup>، وعرّفه عباس حسن (1398هـ/1978م) بأنّه «اسم مرفوع في أول جملة، مجرد من العوامل اللفظيّة الأصيلية، محكوم عليه بأمر. وقد يكون وصفاً مُستغنياً بمرفوعه في الإفادة وإتمام الجملة»<sup>(5)</sup>.

ومن هذه التعريفات نعرف أنّه ليس كلّ اسم ابتدئ به هو مبتدأ، وليس كلّ اسم تأخّر في جملة ليس مبتدأ. وقد حدّد النحاة مواضع تقدّم المبتدأ وتأخّره وجوباً وجوازاً<sup>(6)</sup>.

وعندما يتأخّر المبتدأ، نكون أمام «المبتدأ المؤخّر»، أي: أمام ثنائيّة ضديّة بين

(1) - للتوسّع انظر: نظرية العامل وأثرها في تعقيد النحو العربيّ وتبعيده، نظيرة عمر عمر، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها، المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة اللبنانية، بيروت، العام الجامعي 2016 - 2017.

(2) - المعجم الكبير 1/ 119، مادة (بدأ).

(3) - همع الهوامع 2/ 5.

(4) - الكلّيات 4/ 189.

(5) - النحو الوافي 1/ 401.

(6) - انظر: أوضاع المسالك 2/ 210 - 211؛ وجامع الدروس العربيّة 2/ 270؛ والنحو الوافي 1/ 452.

المبتدأ بمعناه اللغوي (الاسم المبتدأ به)، والمعنى اللغوي للفظة «مؤخر»، أي كالقول: «ميت حي»، أو «أبيض أسود»، أو «حار بارد»، مما يُثير الاستغراب.

وسبب تسمية المبتدأ بهذا الاسم، مجيئه في ابتداء جملته، فمعيار التسمية إذن مكانية؛ أما الخبر، قرين المبتدأ في الدرس النحوي، إذ لا بُدَّ لكل مبتدأ من خبر، ولكل خبر من مبتدأ، فقد سُمِّي خبراً، لأنه يخبر عن المبتدأ، فمعيار تسميته، إذن، معنوية، أي: تعود إلى معناه، أو وظيفته في الجملة، وليس إلى موقعه فيها. وهكذا اختلف منهج النحاة في منهاج تسمية قطبي الثنائية (المبتدأ والخبر) <sup>(1)</sup>.

## 8. الفاعل الساد مسد الخبر:

هو، عند النحاة، فاعل الوصف <sup>(2)</sup> الذي يدل على الخبر، ويُغني عنه ؛ وذلك إذا كان

الوصف مبتدأ مخالفاً لما بعده تثنيةً وجمعاً <sup>(3)</sup>، معتمداً على نفي أو استقهام <sup>(4)</sup>، نحو: «هل عائد المسافران؟» <sup>(5)</sup> و«هل عائد المسافرون؟» <sup>(6)</sup>. والذي قال به النحاة، هنا، يُحدث حَرْفًا كبيراً لقاعدة الإسناد، فكل من المبتدأ والفاعل مسند إليه، ولا مسند لأي منهما في المتأين المتقدمين. زد على ذلك أن المبتدأ والخبر متلازمان، فليس ثمة مبتدأ دون خبر، ولا خبر دون مبتدأ، والشواهد الأربعة التي استند إليها النحاة لقولهم هذا <sup>(7)</sup> مجهولة القائل. وعليه، رأى مجمع اللغة العربية في القاهرة إلغاء ما قاله النحاة بـ«الفاعل الساد مسد الخبر» <sup>(8)</sup>.

(1) - يا مجمع اللغة العربية أنقذنا من هذا النحو، ص 94.

(2) - المقصود بالوصف، هنا، اسم الفاعل، وصيغ المبالغة، والصفة المشبهة باسم الفاعل، واسم التفضيل، والاسم المنسوب، أي: باستثناء اسم المفعول الذي يُعرب النحاة الاسم المرفوع بعده، غير المطابق لما بعده تثنية وجمعاً، نائب فاعل، كما سيأتي في الفقرة التالية.

(3) - أما إذا طابقه إفراداً، أو تثنيةً، أو جمعاً، نحو: «هل عائد المسافر؟» و«هل عائدان المسافران؟» و«هل عائدون المسافرون؟»، جاز إعراب الوصف (عائد، عائدان، عائدون) خبراً مقدماً، والاسم بعده (المسافر، المسافران، المسافرون) مبتدأ مؤخرًا، وجاز إعراب الوصف مبتدأ، وما بعده فاعلاً سد مسد الخبر.

(4) - الخليل، ص 302.

(5) - «عائد»: مبتدأ. «المسافران»: فاعل «عائد» سد مسد الخبر.

(6) - «عائد»: مبتدأ. «المسافرون»: فاعل «عائد» سد مسد الخبر. (انظر: همع الهوامع 2/ 5-6؛ وجامع الدروس العربية 2/ 273-274؛ والنحو الوافي 1/ 403-404.

(7) - انظر هذه الشواهد في كتاب «في أصول اللغة» 4/329.

(8) - في أصول اللغة 4/324.

## 9. نائب الفاعل الساد مسدّ الخبر:

هو نائب الفاعل لاسم المفعول الذي يدلّ على الخبر، ويُغني عنه؛ وذلك إذا كان اسم المفعول مبتدأ مخالفاً ما بعده تنثيةً وجمعاً<sup>(1)</sup>، معتمداً على نفي أو استفهام<sup>(2)</sup>، نحو: «هل مَعذُور المَخْطُئان؟»<sup>(3)</sup> و«هل مَعذُور المَخْطُئون؟»<sup>(4)</sup>. والقول في هذا المصطلح كالقول في سابقه (الفاعل السادّ مسدّ الخبر).

## 10. الابتداء:

الابتداء، في اللّغة، مصدر «ابتدأ»، أي: هو البَدْء، والإحداث أو الجعل أولاً<sup>(5)</sup>. والابتداء، في النحو، اختلف النّحاة في تعريفه، فقد قيل: إنّه «التعري عن العوامل اللفظية»<sup>(6)</sup>، وقيل: هو «التعري من العوامل اللفظية، وإسناد الخبر إليه»<sup>(7)</sup>، وقيل: هو «اهتمامك بالاسم، وجعلك إياه أولاً لثانٍ كان خبراً عنه»<sup>(8)</sup>، و«جعل الاسم أولاً، ليخبر عنه»<sup>(9)</sup>.

والابتداء، عند الكثير من النّحاة، عامل معنوي يرفع:

أ- المبتدأ، عند سيبويه (180هـ/ 796م) وجمهور البصريين<sup>(10)</sup>.

ب- المبتدأ والخبر معاً، عند الأخفش (215هـ/ 830م)، وابن السراج (316هـ/ 929م)، والرماني (384هـ/ 994م)، والزمخشري (538هـ/ 1144م)<sup>(11)</sup>.

(1) - إذا وافقه إفراداً، أو تنثيةً، أو جمعاً، جاز فيه ما جاز في الوصف (غير اسم المفعول، وغير المطابق لما بعده تنثيةً وجمعاً)، أي: إعراب اسم المفعول خبراً مقدّماً، وما بعده مبتدأ مؤخراً، أو مبتدأ وما بعده نائب فاعل ساداً مسدّ الخبر.

(2) - الخليل، ص 246.

(3) - «مَعذُور»: مبتدأ. «المَخْطُئان»: نائب فاعل «مَعذُور» سدّ مسدّ الخبر.

(4) - «مَعذُور»: مبتدأ. «المَخْطُئون»: نائب فاعل «مَعذُور» سدّ مسدّ الخبر. (همع الهوامع 2/ 5-6؛ وجامع الدروس العربية 2/ 273-274؛ والنحو الوافي 1/ 403-404.

(5) - المعجم الكبير، مادة (بدأ).

(6) - شرح المفصل 1/ 221، 222، 223؛ وحاشية الصبّان على شرح الأشموني 1/ 193.

(7) - شرح المفصل 1/ 223.

(8) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(9) - المعجم الكبير، مادة (بدأ).

(10) - الإنصاف في مسائل الخلاف 1/ 49؛ وشرح المفصل 1/ 223؛ وهمع الهوامع 2/ 8.

(11) - همع الهوامع 2/ 8؛ وشرح المفصل 1/ 222 - 223.

- ج- الخبر، وهو يرفعه مع المبتدأ، عند كثير من البصريين<sup>(1)</sup>.
- د- الخبر بواسطة المبتدأ، عند ابن الأنباري (577هـ / 1181م)<sup>(2)</sup>.
- هـ- الخبر بلا واسطة المبتدأ، عند بعض النحاة<sup>(3)</sup>.
- و- الاسم المرفوع بعد «لولا»، نحو: «لولا زيد لأكرمئك»، وذلك عند البصريين<sup>(4)</sup>.
- ز- الاسم المرفوع الواقع بعد الظرف والجارّ والمجرور، نحو: «أمامك زيد»، وذلك عند البصريين<sup>(5)</sup>.
- وهكذا نرى أنّ الابتداء وليد نظرية العامل، وهو، وإن اختلف القائلون به في مرفوعه، فإنّ هؤلاء مُجمعون على أنّه عامل معنويّ يرفع الاسم الذي لم يتقدّمه عامل لفظي يرفعه.

ومن طريف ممّا روي من المناظرات بين النحاة في مسألة العامل، أنّه اجتمع أبو عمرو الجرمي (225هـ / 840م)، وهو أحد علماء البصرة، بيحيى بن زياد الفراء (207هـ / 822م)، وهو رأس مدرسة الكوفة، فقال له: أخبرني عن قولهم: «زيد مُنطلق»: بم رفعوا «زيداً»؟

- فقال الجرمي: بالابتداء.
- فقال الفراء: ما معنى الابتداء؟
- قال: تعريته من العوامل.
- قال الفراء: فأظْهره.
- قال الجرمي: هذا معنى لا يظهر.
- قال الفراء: فمثّله إذاً.
- قال الجرمي: لا يتمثل.

(1) - الإنصاف في مسائل الخلاف 1/ 50- 51؛ وجمع الهوامع 2/8.

(2) - الإنصاف في مسائل الخلاف 1/ 51.

(3) - المصدر نفسه 1/ 49.

(4) - أمّا الكوفيون فقالوا: إنّهُ مرفوع بـ«لولا» نفسها (الإنصاف في مسائل الخلاف 1/74).

(5) - أمّا الكوفيون فيرون أنّه مرفوع بالظرف (المصدر السابق 1/ 55).

- قال الفراء: ما رأيت كالיום عاملاً لا يظهر، ولا يتمثل<sup>(1)</sup>.

## 11. النواسخ وأسماؤها وأخبارها:

النواسخ، في اللغة، جمع ناسخ: اسم فاعل من نسخ الشيء: أزاله<sup>(2)</sup>. وفي التنزيل ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾<sup>(3)</sup>، الآية الثانية ناسخة، والأولى منسوخة. قال الفراء (207هـ / 822م): «النسخ أن تعمل بالآية، ثم تنزل آية أخرى، فيعمل بها، وتترك الأولى»<sup>(4)</sup>.

والنواسخ، في النحو، هي «الأدوات التي تدخل على المبتدأ والخبر، فتتسخ حكم الابتداء»<sup>(5)</sup> أو هي «الكلمات التي تدخل على المبتدأ والخبر فتغير اسميهما، وحركة إعرابهما، ومكان المبتدأ»<sup>(6)</sup>.

وهي تتضمن ست مجموعات:

أ- «كان» وأخواتها (أصبح، أضحى، أمسى، ظلّ، بات، ليس، دام، زال، برح، فتى، انفكّ، صار).

ب- «كاد» وأخواتها (كرب، أوْشَكَ، عسى، اخلوِّق، حرى، أنشأ، طَفِقَ، جعل، علق، أخذ).

ج- أخوات «ليس» (ما، لا، إن، لات).

د- «إن» وأخواتها (أنّ، كأنّ، لكنّ، ليت، لعل).

هـ- «لا» النافسة للجنس.

و- «ظنّ» وأخواتها (علم، رأى (القليّة)، وجدّ، درى، ألقى، جعل، تعلم (بمعنى: اعلم)، خال، حسب، رعم، عدّ، حجا، جعل، هب، (بمعنى: ظنّ)، صير، اتخذ، تحذ، ترك، رد، وهب)<sup>(7)</sup>.

(1) - المصدر نفسه 1/ 53.

(2) - الخليل، ص 462.

(3) - البقرة 2: 106.

(4) - لسان العرب 3/ 61، مادة (نسخ).

(5) - همع الهوامع 2/ 63.

(6) - الخليل، ص 462.

(7) - الخليل، ص 462؛ وهمع الهوامع 2/ 63.

والمجموعات الثلاث الأولى ترفع المبتدأ، فيسمى اسمها، وتتصب الخبر، فيسمى خبرها؛ أما «إنَّ» وأخواتها، و«لا» النافية للجنس فتتصب المبتدأ، ويسمى اسمها، وترفع الخبر، ويسمى خبرها. أما «ظَنَّ» وأخواتها، فتحوّل المبتدأ والخبر إلى مفعولين بهما.

وأساس تسمية النواسخ بهذا الاسم نظرية العامل، فهي، بحسب هذه النظرية، تُحدث نسخاً، أي: تغييراً في الجملة الاسمية إعراباً وتسميةً، فإذا أبطلنا هذه النظرية، أبطلت التسمية.

أما تسمية المبتدأ بعدها اسماً لها، والخبر خبراً لها، فهي تسمية نحوية صناعية لا علاقة لها بالمعنى أو الوظيفة اللغوية. يقول الصبّان (1206هـ / 1792م): «إنَّ تسمية المرفوع «اسم كان»، والمنصوب خبرها، تسمية اصطلاحية خالية عن المناسبة؛ لأنَّ «زيداً» في مثل: «كان زيد قائماً» هو اسم للذات لا لـ«كان»، والأفعال لا يُخبر عنها»<sup>(1)</sup>.

وهذه التسمية تؤدي إلى اللبس في الاستخدام بين اسمها (بمعنى: التسمية)، واسمها (بمعنى: الاسم الجديد للمبتدأ بعدها)، وانظر إلى عنوان هذه الفقرة التي نحن بصددنا «النواسخ أسماؤها وأخبارها»، فما المقصود بـ«أسماؤها»: أهو تسمياتها، أم أسماء المبتدأ بعدها؟ وما المقصود بـ«أخبارها»: الأحاديث عنها، أم إعراب الخبر بعدها؟

ثمّ أليس كذباً وتشويهاً للحقيقة أن نُعرب اسم الذات الإلهية (الله) في الآية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيحًا بَصِيرًا﴾<sup>(2)</sup> اسماً لـ«كان»، وكلاً من «سميحاً» و«خبيراً» خبراً لها؟ أليس «الله» هو اسم للذات الإلهية، و«سميح» و«خبير» هما خبران له؟

## 12. الفاعل:

الفاعل، في اللغة، اسم فاعل من «فَعَلَ»، وفَعَلَ الشيءَ: عمله، أو أوجده<sup>(3)</sup>. وتخصّص عند بعض العرب، فأطلقوه على النجار<sup>(4)</sup>. وجاء بمعنى «قادر» في

(1) - حاشية الصبّان على شرح الأشموني 1/ 185.

(2) - النساء 4: 134.

(3) - لسان العرب 11/ 528، مادة (فعل).

(4) - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الآية: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾<sup>(1)</sup>. وقال الزجاج (311هـ/ 923م): إنّه بمعنى «المؤتي» في الآية: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكَاتِ فَاعِلُونَ﴾<sup>(2)</sup>، وقيل: معنى الآية الأخيرة: الذين هم للعمل الصالح فاعلون<sup>(3)</sup>.

والفاعل، في النحو، هو «كلّ اسم تقدّمه فعل غير مُغَيَّر عن بنيته، وأسندت ونسبت ذلك الفعل إلى ذلك الاسم»<sup>(4)</sup>، أو هو «اسم أو ما في تأويله، أسند إليه فعل أو ما في تأويله، مقدّم، أصليّ المحلّ والصيغة»<sup>(5)</sup>، أو هو «اسم صريح ظاهر أو مضمر بارز أو مستتر، أو ما في تأويله، أسند إليه فعل تامّ متصرّف أو جامد، أو ما في تأويله، مقدّم أصليّ المحلّ في التقديم، وأصليّ الصيغة»<sup>(6)</sup>.

والفاعل، في النحو العربي:

- يفعل الفعل، نحو: «درس محمّد».

- لا يشاركه غيره في الفاعليّة، فإذا قلت: «بنى محمّد ووالده مصنعهما»، فإنّ فاعل «بنى» هو «محمّد» وحده؛ أمّا «والده»، فهو اسم معطوف على «محمّد»، ولا يصحّ إعرابه فاعلاً.

- يقع عليه الفعل، نحو: «مات زيد». وكلّ فاعل فعله يدلّ على المطاوعة يقع عليه الفعل، كفاعل الفعل الذي على وزن «تفعل»، نحو: «تكسّر»، و«تفاعل»، نحو: «تفاهم»، و«انفعل»، نحو: «انكسر»، و«تفعلل»، نحو: «تبعثّر».

- يفعل الفعل، ويقع عليه الفعل في الوقت نفسه، وذلك إذا كان الفعل يدلّ على المشاركة التي هي من معاني «فاعل»، نحو: «شارك زيد وزياد في بناء المصنع»، و«أفتعل»، نحو: «أختصم زيد وزياد»، و«تفاعل»، نحو: «تعاون زيد وزياد».

- يفعل الفعل في المستقبل، نحو: «سيدرس زيد درسه».

- يؤمر بأن يفعل الفعل، نحو: «ادرس، يا زيد، درسك».

(1) - الأنبياء 21: 79.

(2) - المؤمنون 23: 4.

(3) - تاج العروس 30/ 186، مادة (فعل).

(4) - شرح المفصل 1/ 200.

(5) - أوضح المسالك 2/ 83.

(6) - شرح التصريح على التوضيح 1/ 267 - 268.

- يُنهي عن القيام بالفعل، نحو: «لا تسرق».
- يُرجى أن يفعل الفعل، نحو: «لعلّ زيدًا يقوم بواجبه».
- يُتوقّع منه فعل الفاعل، نحو: «لعلّ زيدًا يتزوَّج».
- يُتمنّى أن يفعل الفعل، نحو: «ليت زيدًا يصبح ملكًا».
- يفعل فعلًا يتوقّف تحقّقه على تحقّق فعل آخر، كفاعل جواب الشرط في نحو: «إن تزرني أكرّمك».

- لا يفعل إلاّ فعلًا واحدًا، ففي نحو: «أكل وشرب ونام زيد»، يُعرّب «زيد» فاعلاً للفعل «أكل» عند البصريين، فيكون فاعل كلّ من «شرب» و«نام» ضميرًا مستترًا، أو يُعرّب فاعلاً للفعل «نام» عند الكوفيين، فيكون فاعل كلّ من «أكل» و«شرب» ضميرًا مستترًا، على ما هو مفصّل في باب التنازع في الكتب النحويّة<sup>(1)</sup>.

والفاعل اللغويّ يأتي في النحو:

- فاعلاً، نحو: «بنى زيد بيته».
- مبتدأ، نحو «زيدٌ نجح».
- اسمًا للنواسخ، نحو: «كان زيد يمارس الرياضة»، و«إن زيدًا يدرس درسه».
- مستثنى: نحو: «ما نجح الطلاب إلاّ زيدًا».
- مضافًا إليه، نحو: «ما نجح سوى زيد».
- تأكيدًا، نحو: «نجح زيدٌ زيدٌ»<sup>(2)</sup>.
- بدلًا، نحو: «حصّر المعلمُ زيد».
- عطف بيان، نحو: «حضر أبو محمّد زيد».
- اسمًا معطوفًا، نحو: «نجح زياد وزيد».

وهذه الفروق العديدة بين «الفاعل اللغويّ» و«الفاعل النحويّ» دفعت ابن يعيش (643هـ/1245م) إلى القول: «الفاعل، في عرف أهل هذه الصنعة [أي: في

(1) - انظر المسألة الثالثة عشرة في كتاب «الإصناف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين».

(2) - «زيد» الثّاني اسم معطوف مرفوع بالضمّة.

عرف النَّحاة] أمر لفظي. يدلّ على ذلك تسميتهم إياه في الصُّور المختلفة من النفي، والإيجاب، والمستقبل، والاستفهام، ما دام مقدّمًا عليه، وذلك نحو: «قام زيد»، و«سيقوم زيد»، و«هل يقوم زيد؟». و«زيد» في جميع هذه الصُّور فاعل من حيث إنّ الفعل مُسند إليه، ومقدّم عليه، سواء فعل أو لم يفعل. ويؤيد إعراضهم عن المعنى عندك وضوحًا أنّك لو قدّمت الفاعل، فقلت: «زيد قام»، لم يبق عندك فاعلاً، وإنّما يكون مبتدأ وخبرًا معرّضًا للعوامل اللفظية»<sup>(1)</sup>.

### 13. نائب الفاعل:

هو، في اللّغة، ما ينوب عن الفاعل في القيام بالفعل عند غيابه. وهو، في النحو، «المُسند إليه بعد الفعل المجهول أو شبهه»<sup>(2)</sup>، أو «اسم يحلّ محلّ الفاعل المحذوف، ويأخذ أحكامه، ويصير عُمدة لا يصحّ الاستغناء عنه»<sup>(3)</sup>، أو «اسم مرفوع قُدّم عليه فعل مجهول أو شبهه، وأسند إليه»<sup>(4)</sup>.

وعليه، فنائب الفاعل، في النحو، ليس الذي يفعل الفعل في حال غياب الفاعل، وإنّما هو الذي يأخذ حكم الفاعل في الإعراب عند حذفه، فتسميته إذن مبنية على حكم نحويّ لفظيّ مُستند إلى نظرية العامل، استناد الفاعل نفسه في تسمية النَّحاة له. وتسميته تسمية نحوية صناعية بعيدة كلّ البعد عن معناها اللغويّ.

واستخدام هذا المصطلح يدعو إلى السخرية والتندرُّ أحيانًا، كما في إعراب «الخروف» في قولك: «ذُبِح الخروف» نائب فاعل، فهل ناب الخروف عن القصاب في ذبح نفسه؟ كما يقترب من الكفر أحيانًا أخرى، كما في إعراب «الإنسان» في الآية: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾<sup>(5)</sup> نائب فاعل.

### 14. المفرد:

المفرد، في اللّغة، هو المنفرد، والبسيط غير المركّب، والذي يشغله شخص واحد، والمخصّص لشخص واحد. والعدد المفرد هو غير المزدوج كالواحد والثلاثة

(1) - شرح المفصل 1/ 201.

(2) - جامع الدروس العربية 2/ 250.

(3) - التطبيق النحويّ، ص 189.

(4) - الخليل، ص 446.

(5) - الأنبياء 21: 37.

والخمسة<sup>(1)</sup>.

والمفرد، في باب «لا» النافية للجنس، وفي عبارة «العَلَم المفرد»: العلم المؤلف من كلمة واحدة، أي: غير المركب تركيباً إضافياً، أو مزجياً، أو غيرهما<sup>(2)</sup>. وهو يعني في عبارة «اسمها المفرد» غير المتنى وغير الجمع، كما يعني ما ليس مضافاً، ولا شبيهاً بالمضاف<sup>(3)</sup>.

وقد اخترتُ هذا المصطلح، ليكون نموذجاً من المصطلحات النحويّة التي تنضوي في دائرة المشترك اللفظي، وهي كثرة كاثرة اضطرّ حيالها مؤلفو «الخليل»، وهو معجم مصطلحات النحو العربي، أن يضعوا بعد تعريف العديد من المصطلحات فقرة «تسميات أخرى» يذكرون فيها تسميات المصطلح المختلفة<sup>(4)</sup>.

## 15. خلاصة البحث:

كشف البحث أنّ مصطلحات أبواب المرفوعات في النحو العربي قائمة في تسمياتها وتعريفاتها على نظريّة العامل التي قال بها النحاة، وقعدوا النحو العربي على أساسها، فعقدوه.

وهي مصطلحات غامضة في بعضها، وصناعيّة بعيدة عن معانيها اللغويّة في بعضها الآخر، وتشوّه الحقيقة الإخباريّة أو الحقيقة العلميّة في بعض ثالث منها. ولعلّ النحاة لم يوفّقوا في تسمياتها إلا في تسمية الخبر خبراً، وفي تسمية «لا» النافية للجنس بهذا الاسم.

وهذه المصطلحات التي تناولتها بالدرس نموذج عن المصطلحات في أبواب المنصوبات، كما في غيرها، ممّا يدعو إلى إعادة درس النحو، وتقعيده على أسس وصفيّة جديدة بعيدة عن الأحكام المنطقيّة والفلسفيّة التي طبّقها النحاة عليه.

وقد شهد العصر الحديث دعوات كثيرة لإصلاح النحو، تناولت أبوابه، ومصطلحاته،

(1) - المنجد في اللّغة العربيّة المعاصرة، مادّة (فرد).

(2) - النحو الوافي 1/ 628.

(3) - أوضح المسالك 2/8؛ وهمع الهوامع 2/ 199؛ وجامع الدروس العربيّة 2/ 336؛ والنحو الوافي 1/ 628، 633.

(4) - انظر مثلاً الصفحات: 187، 188، 189، 191، 192، 193، 195، 200، 202، 204، 205 من هذا الكتاب المعجم.

وأحكامه<sup>(1)</sup>. وما يتعلّق بمَبْحَثنا دعوة إبراهيم مصطفى (1382هـ/ 1962م) إلى إلغاء نظرية العامل، وجمع المصطلحات المبتدأ، والفاعل، ونائب الفاعل بكلّ تسمياته<sup>(2)</sup>، في مصطلح واحد هو «المسند إليه». وهو اصطلاح آثره من قبل علماء البيان، واستعملوه في كتبهم، وجعلوا الأنواع الثلاثة نوعًا واحدًا في العنوان، وفيما أجروا من الأحكام... وإذا تتبّعنا أحكام هذه الأبواب، لم نرَ ما يدعو إلى تفريقها، ورأينا في أحكامها من الاتفاق والتماثل ما يوجب أن تكون بابًا واحدًا يُعفينا من تشقيق الكلام، وتكثير الأقسام.

فأمّا نائب الفاعل، فإنّ النّحاة أنفسهم لا يفرّقون بينه وبين الفاعل في الأحكام. ومنهم من يرسم لهما بابًا واحدًا. وما الفرق بين «كُسِرَ الإناء»، و«انكسر الإناء» إلّا ما نرى بين صيغتي «كُسِرَ» و«انكسر»، وما لكلّ صيغة من خاصّة في تصوير المعنى، أمّا لفظ «الإناء»، فإنّه في المثالين مسند إليه، وإن اختلف المسند.

وأما الفاعل والمبتدأ، فإنّ النّحاة يجعلون بينهما فوارق ماثلة ظاهرة، ويجعلون لكلّ باب أحكامًا خاصّة، ولكنّ شيئًا من الإمعان في درسها ينتهي إلى توحيد البابين، واتفاقهما في الأحكام، وإلى أنّ هذا التفريق قد يكون مُنْجَمًا مع صناعة النّحاة في الإعراب، ولكنّه مُبْعَد عن فهم الأساليب العربيّة<sup>(3)</sup>.

وجمّع هذه المصطلحات الثلاثة مع أسماء النواسخ في مصطلح «المسند إليه» يستتبع تلقائيًا جمع مصطلح الخبر، وأخبار النواسخ في مصطلح واحد هو «المُسند». وبهذين المصطلحين أعني «المُسند» و«المُسند إليه» نستغني عن عشرات المصطلحات النحويّة البعيدة عن مدلولاتها اللغويّة، والتي تُعَسِّر النحو بدل أن تيسّره. وبهذا نُسَهِّم في توحيد مصطلحات النحو وعلم البيان.

أمّا بشأن مصطلح المفرد الذي له ثلاثة معانٍ، كما تقدّم في باب «لا» النافية للجنس، فترى الباحثة إخراج هذا المصطلح من دائرة المشترك اللفظي، واستخدامه مقابلًا للمنتهى والجمع، أي: ما دلّ على واحد من الناس، أو الحيوانات، أو الأشياء، واستخدام عبارة «غير المركّب»، وعبارة «ليس مضافًا، ولا شبيهًا بالمضاف» في المعنيين الآخرين.

(1) - انظر: آراء أنيس فريحة في تبسيط اللغة العربيّة وأساليب تدريسها، ص 10-17.

(2) - من تسميات نائب الفاعل: المفعول، والمفعول الذي لم يُسمَ فاعله، والمفعول الذي لم يُسمَ من فعل به، والمفعول الذي جعل الفعل حديثًا عنه، والمفعول النائب عن الفاعل، وما لم يُسمَ فاعله، والنائب عن المفعول، والنائب عن الفاعل، والنائب الفاعل، والنائب مناب الفاعل، والقائم مقام الفاعل. (بين النحو العلمي والنحو التعليمي، ص 208 - 210).

(3) - إحياء النحو، ص 54-56.

## فهرس المصادر والمراجع

- 1 - القرآن الكريم.
- 2 - إحياء النحو، إبراهيم مصطفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1959م.
- 3 - آراء أنيس فريحة في تبسيط اللّغة العربيّة وأساليب تدريسيها، إميل بديع يعقوب، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1980م.
- 4 - الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويّين البصريّين والكوفيّين، ابن الأنباري، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه حسن حمد، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1998.
- 5 - أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك، ابن هشام (عبد الله جمال الدين بن يوسف)، ومعه كتاب عدّة المسالك إلى تحقيق أوضح المسالك، تأليف محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1979م.
- 6 - الدهجة المرضيّة في شرح الألفيّة، السيوطي، مؤسّسة إسماعيليان، قم، ط1، 1417م.
- 7 - تاج العروس من جواهر القاموس، السيّد محمّد مرتضى الزبيدي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج وغيره، مطبعة حكومة الكويت، ط1، 1965 - 2001م.
- 8 - التطبيق النحويّ، عبده الراجحي، دار النهضة العربيّة، بيروت، لاط، لات.
- 9 - التعريفات، علي بن محمّد الجرجاني، دار الشؤون الثقافيّة العامة، بغداد، ط1، 2002م.
- 10 - جامع الدروس العربيّة، مصطفى الغلاييني، المطبعة العصريّة للطباعة والنشر، صيدا (لبنان)، ط13، 1978م.
- 11 - حاشية الصبّان على شرح الأشموني، محمّد بن علي الصبّان، دار الفكر، بيروت، لاط، لات.
- 12 - الخليل معجم مصطلحات النحو العربيّ، جورج متري عبد المسيح وهاني جورج تابري، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1990م.
- 13 - شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الأزهرّي، وبهامشه حاشية يس بن زين العابدين، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، لاط، لات.
- 14 - شرح كافية ابن الحاجب، رضي الدين الأسترابادي، تحقيق أحمد السيد أحمد، المكتبة التوفيقيّة، مصر، لاط، لات.
- 15 - شرح المفصل، ابن يعيش (يعيش بن علي)، قدّم له ووضع حواشيه وفهارسه إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2001م.
- 16 - علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربيّة، ممدوح محمّد خسارة، دار الفكر، دمشق، ط1، 2008م.
- 17 - في أصول اللّغة، تقديم ومراجعة أحمد مختار عمر، مجمع اللّغة العربيّة، القاهرة، ط1، 2003م.
- 18 - كشاف اصطلاحات الفنون، محمّد بن علي التهانوي، أحمد محمّد بسج، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط2، 2006م.
- 19 - الكلّيّات، أبو البقاء الكفويّ، تحقيق عدنان درويش، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط1، 1992م.
- 20 - لسان العرب، ابن منظور (محمّد بن مكرم)، دار صادر، بيروت، لاط، لات.
- 21 - مجمع اللّغة العربيّة في ثلاثين عامًا، إبراهيم مذكور، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، القاهرة، ط1، 1964م.
- 22 - المرجع، عبد الله العلايلي، دار المعجم العربيّ، بيروت، ط1، 1963م.

- 23 - المعجم الكبير، مجمع اللّغة العربيّة، القاهرة، ط1، 1981 - 2015.
- 24 - المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق حمدي عبد الحميد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط1، 1983م.
- 25 - المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وغيره، مجمع اللّغة العربيّة بمصر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميريّة، القاهرة، ط2، 1973م.
- 26 - المنجد في اللّغة العربيّة المعاصرة، انطوان نعمة وغيره، دار المشرق، بيروت، ط1، 2000م.
- 27 - موسوعة المصطلح النحويّ من النشأة إلى الاستقرار، يوحنا مرتا الخامس، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 2012م.
- 28 - النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف بمصر، 1968م.
- 29 - نظريّة العامل وأثرها في تععيد النحو العربيّ وتعيده، نظيرة عمر عمر، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللّغة العربيّة وآدابها، المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانيّة، الجامعة اللبنانيّة، بيروت، العام الجامعي 2016 - 2017.
- 30 - همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربيّة، السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر)، تحقيق عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلميّة، الكويت، لاط، 1980م.
- 31 - يا مجمع اللّغة العربيّة أنقذنا من هذا النحو، إميل بديع يعقوب، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس (لبنان)، ط1، 2017م.

## مفردة النَّحو في الشعر العربي في القرن الرابع للهجرة

م.د. سجاد عباس حمزة<sup>(1)</sup>

## ملخص

النَّحو كلمة ذات أهمية بالغة لأنها أطلقت على رأس علوم العربيَّة، ومقاس صحتِّها، ومصدر الحفاظ عليها: علم النَّحو ذلك العلم الذي صار غير الفصيح به فصيحاً فصلحت الألسنة، وجادت العبارة، وحافظ على الاستعمال العربيَّ الأصيل، وقد سبق لي أن بحثت هذه الكلمة في الشعر العربيَّ حتى نهاية القرن الثالث للهجرة، وقررت الكثير من استعمالاتها عند شعراء تلك القرون، وهنا أردت أن أكمل المشوار، فأرى شعراء القرن الرابع للهجرة اللاحق لتلك القرون كيف استعملوها؟ وكيف كان صداها عندهم؟ وكيف أثرت فيهم؟ وأنا أقصد بالقرن الشعراء الذين توفوا في هذا القرن، وليس وقت قول ذلك الشعر لأنه مجهول في الغالب، وقد تنوعت الموضوعات التي طرقها الشعراء، وهم يذكرون مفردة النَّحو الاصطلاحية في هذا القرن، فمنها هجاء، ومنها مدح، ومنها رثاء، ومنها غزل، ومنها شعر تعليم، وأكثر الشعر الذي وردت فيه المفردة في الهجاء هجاء لنحوي، أو دارس نحو، أو للنحو نفسه، وهذه الظاهرة تتم إما عن تنافس بين العلماء، أو كره لدرس النَّحو لما فيه من صعوبة، أو كره للعلل النَّحوية وتعسفها، ومن هذا الشعر شعر تعليمي، ومن هذا الشعر ما مزج بين الغزل، وهجاء النَّحو، ومنه ما فيه مزاح، وفكاهة.

## summary

Grammar is a word of great importance because it was given to the head of Arabic sciences, the measure of their validity, and the source of their preservation: the science of grammar, that science with which the non-learned has become eloquent, and the tongues were corrected, and the original Arabic usage was preserved, and I have previously discussed this word in The Arab poetry until the end of the third century of migration, and decided many of its uses among the poets of those centuries, and here I

(1) وزارة التربية/ الكلية التربوية المفتوحة النجف الأشرف/العراق sajjadalmusrij@gmail

wanted to complete the journey, so I see the poets of the fourth century of migration following those centuries, how did they use it? How did it resonate with them? How did it affect them? the century: I mean the poets who died in this century, and not the time to say that poetry because it is mostly unknown, and the topics that the poets addressed varied, and they mention the idiomatic expression in this century, some of them are satire, including praise, including lament, including spinning, and including poetry Education, and most of the poetry in which the vocabulary is mentioned in satire is a satire to a grammarian, a grammar student, or to the grammar itself, and this phenomenon either indicates a competition between scholars, or a dislike of studying grammar because of its difficulty, or a hatred for grammatical defects and their arbitrariness, and this poetry is educational poetry. , and from this poetry what mixed between flirtation, satire and grammar, and some of it was joking and humor.

## مقدمة

مفردة النَّحو في اللغة تعني الاتجاه والقصد لكنها ذات أهمية بالغة، لأنها أطلقت اصطلاحاً على سيد العلوم اللغوية ومفتاحها ومعيار اللغة ومنهاجها الذي حفظ اللغة وقومها وسددها وأسعدها النَّحو الذي سن الفصاحة للعربي في عصور الاختلاط بأقيسته وقواعده وضوابطه وإرشاداته، فصح لفظه، وتقوم لسانه، وتحرى الصحيح بتلك الحدود، فصلحت الألسنة، وجادت العبارة، وحافظ على الاستعمال العربيّ الأصيل، وأهمل المخالف لتلك الأقيسة والقواعد، وأنا أركز على هذه الكلمة التي غيرت مسار العربيّة، وصانته عن التشبث والفساد والضعف والانتقاد لتلك العلل، وتلك الأهمية البالغة، وهذا البحث متمم لبحثي السابق عن الكلمة في الشعر العربيّ حتى نهاية القرن الثالث للهجرة، الذي بينت به الكثير من استعمالاتها عند الشعراء في تلك القرون، وهنا أبين استعمال الكلمة، عند شعراء القرن الرابع للهجرة كيف كان

صداها عندهم؟ وكيف أثرت فيهم؟ وأنا أقصد بالقرن الشعراء الذين كانت وفاتهم في هذا القرن، وليس الوقت الذي قيل فيه ذلك الشعر، إذ قد يكون الشعر قيل في القرن السابق لأن بعض الشعراء عاشوا زمنا فيه.

### محمد بن عبد الملك التاريخي<sup>(1)</sup> (ت 320-311هـ)

قال يرثي ثعلبًا (ت 291هـ) النحوي المعروف<sup>(2)</sup>: (من الكامل)

وَإِذَا الْعَرِيبُ تَفَرَّعَتْ أَصْنَافُهُ      وَتَفَرَّقَتْ فَكَأَنَّهُ بَدْوِي

وَإِذَا عُلُومُ النَّحْوِ قَيْسَتْ فَهُوَ مِنْ      جَمْعَا لَهُ الْكُوفِي وَالْبَصْرِي

قيل عن هذا الشعر بأنه «شعر ساقط غث»<sup>(3)</sup>، وعلى الرغم من أنه نحوي، فقد قال: (جمعا له الكوفي والبصري) كأنه أتى بها على لغة أكلوني البراغيث، وهي لغة شاذة، فيظهر هنا فاعلان: ألف الاثنين في (جمعا) و(الكوفي)، ولكنه يعرف أنها جائزة على جعل (الكوفي) بدلا من الألف، أو على جعله مبتدأ مؤخرًا خبره الجملة قبله.

### ابن دريد<sup>(4)</sup> (ت 321هـ)

قال في الأعضاء التي تؤنث ولا تذكر<sup>(5)</sup>: (من البسيط)

السَّاقُ وَالْأَذُنُ وَالْفَخِذَانِ وَالْكَبِدُ      وَالْقَتَبُ وَالصِّلْعُ الْعَوْجَاءُ وَالْعَضُدُ

وَالرَّجْلُ وَالْكَفُّ وَالْعَجْرُ الَّتِي عُرِفَتْ      وَالْعَيْنُ وَالْعَقَبُ الْمَجْدُولَةُ الْأَحْدُ

وَالسِّنُّ وَالْكَرْشُ وَالْفَرْثِيُّ إِلَى قَدَمِ      مِنْ بَعْدِهَا وَرِكَ مَعْرُوفَةٌ وَيَدُ

ثُمَّ الشِّمَالُ وَيُمْنَاهَا وَإِصْبَعُهَا      ثُمَّ الْكِرَاعُ وَمِنْهَا يَكْمُلُ الْعَدَدُ

إِحْدَى وَعِشْرِينَ لَا تَذَكِيرَ يَدْخُلُهَا      طُرًّا وَتَأْنِيثُهَا فِي النَّحْوِ يُعْتَقَدُ

(1) «محمد بن عبد الملك التاريخي البغدادي، أبو بكر السَّراج. [الوفاة: 311 - 320 هـ].. ولقب بالتاريخي لاعتنائه التام بالتواريخ. قال الخطيب: كَانَ فَاضِلًا أَدِيبًا حَسَنَ الْأَخْبَارِ». تاريخ الإسلام ت بشار (7/ 397)

(2) الوافي بالوفيات 4/ 35، ط: تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب، جلال الدين السيوطي 1/ 217-

(3) الوافي بالوفيات 4/ 35

(4) «هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دُرَيْد.. كان أعلم الناس في زمانه باللغة والشعر وأيام العرب وأنسائها.. لا يُمَسِّكُ شَيْئًا، وَيُنْفِقُ كُلَّ شَيْءٍ يَقعُ بيده وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ» طبقات النحويين واللغويين 184

(5) ديوان ابن دريد 152 و153

هذا من الشعر التعليمي، وهو في موضوع صرفي بحت موضوع تأنيث أعضاء الجسم، فذكر واحدًا وعشرين عضوًا مؤنثًا، ونفى عنها التذكير، وبين أن هذا مقرر في النحو، وهو ما يعتقد النحاة، فذكر كلمة النحو الاصطلاحي، وهو استعمال طبيعي لأنه يخوض في موضوع نحوي بالمعنى الأعم إذ الصّرف كان من فروع النحو، ولم يفصل سيبويه في كتابه بينهما حتى جاء بعده من فصل بينهما، وجعل الصّرف مستقلا عن النحو مثل المازني (ت249هـ) في التصريف وأبي على الفارسي (ت377هـ) في التكملة.

وقال يهجو نبطويه (ت323هـ) النحوي<sup>(1)</sup>: (من السريع)

أَفِ عَلَى النُّحُوِّ وَأَرْبَابِهِ      قَدْ صَارَ مِنْ أَرْبَابِهِ نَفْطَوِيهِ  
أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِنِصْفِ إِسْمِهِ      وَصَيَّرَ الْبَاقِيَ ضَرَاخًا عَلَيْهِ

قيل: إن ابن دريد أشعر العلماء<sup>(2)</sup>، وهو هنا يهجو نبطويه النحوي المعروف ربما للمزاح لأنه يروى أن نبطويه هجاه أيضا فقال<sup>(3)</sup>: (من مجزوء الرجز)

ابنُ دُرَيْدٍ بَقَرَهُ      وَفِيهِ لُؤْمٌ وَشَرٌّ  
وَيَدَّعِي بِجَهْلِهِ      وَضَعَ كِتَابَ الْجَمْهَرَةِ  
وَهُوَ كِتَابُ الْعَيْدِ      بِنِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ غَيَّرَهُ

وقيل: «كان بينهما منافرة عظيمة»<sup>(4)</sup>، وهذا الهجاء من هذا الباب، ولكن هذا الشعر نسب لغير ابن دريد أيضا<sup>(5)</sup>.

الصَّنَوْبَرِي<sup>(6)</sup> (ت334هـ)

(1) ديوان ابن دريد 84

(2) ظ: تاريخ الطبري 11 / 279

(3) الدر الفريد وبيت القصيد 2 / 190

(4) المزهر في علوم اللغة وأنواعها 1 / 72

(5) قيل هذا الشعر لمحمد بن زيد الواسطي ظ: الفهرست 211.

(6) «(الصنوبري) أحمد بن محمد بن الحسن.. أبو بكر الصَّبِيّ الحَلْبِيّ المَعْرُوفُ بالصنوبري الشَّاعِرُ كَانَ جَدَّهُ الْحَسَنُ صَاحِبَ بَيْتِ حِكْمَةٍ مِنْ بَيُوتِ حُكْمِ الْمَأْمُونِ فَتَكَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَعْجَبَهُ شَكْلُهُ وَمَزَاحُهُ فَقَالَ إِنَّكَ لَصَنْوَبَرِي الشَّكْلُ». الوافي

بالوفيات 7 / 248

قال يهجو<sup>(1)</sup> (من الكامل)

في مَدِّ كَفِّكَ للكؤوسِ وقصرِها      مندوحةً عما يُمدُّ ويُقصر  
دَعُ رَفَعِ زَيْدٍ في الكلامِ ونصبه      ما النَّحوُ عندك أنت مما يُدكَّرُ  
فاخضِبْ يديكَ فاللخضابِ بلاغةً      إذ ليس يَمْلُحُ في يديك الدفتر

الشعراء في هذا العصر مطلعون على علوم العربية، ومنها النحو ولا سيما في بلاط سيف الدولة الحمداني حيث مجتمع الشعراء، والعلماء كالمتبني وابن جني وغيرهم، فهو هنا يقول للمهجو الذي يبدو أنه يتعاطى النحو لا تتشغل بالمدود والمقصور، وهما من أبواب الصِّرف، ويرى له أن ينشغل بأن يكون ساقياً للخمر، فتمد يده لتقديمه للجالسين، وسحب الكؤوس الفارغة منهم، أو ربما شاربا له، فتمد يده، وتقصر أيضا، فاستعمل الجنس في اللفظين، واستعمل الطباق بين مدِّ اليد وقصرها، ثم ذهب يدعوه إلى ترك النحو، وترك الرفع والنصب، و(زيد) هو مثال النحويين الملازم لكتب النحو، ثم دعاه إلى الخضاب، وعده أبلغ لديه من الاشتغال بالبلاغة، وعد خضاب يديه أجمل له من حمل الدفتر، والاشتغال بالعلم.

وقال يهجو أيضا<sup>(2)</sup> (من الخفيف)

في أبي جعفرٍ وفي وسواسه      عبرةً للبيبٍ من جُلاسِه  
لاحنٌ في اسمه على ما ادَّعى في      عللِ النحو من لطيفِ قياسِه  
عارفٌ عند نفسه وهو لايع      رفٌ يا قومُ رجله من رأسِه

هنا ينعت المهجو بأنه موسوس يعرفه جلاسه، وهو يلحن في اسمه، فكيف له أن يمارس القياس النحوي، ويشغل بعلل النحو؟ والمهجو جاهل مركب يظن في نفسه العلم، وهو لا يعرف الواضحات والبديهيات، وهذا هجاء قاس.

(1) ديوان الصنوبري 114

(2) ديوان الصنوبري 183

## أبو الفرج الأصبهاني<sup>(1)</sup> (ت356هـ)

قال أبو الفرج يهجو أبا سعيد السيرافي<sup>(2)</sup>: (من الخفيف)

لست صدرا ولا قرأت على صدر  
ولا علمك البكيّ بشاف  
لعن الله كلّ شعر ونحو  
وعروض يجيء من سيراف

التهجاء بين العلماء ظاهرة في هذه النماذج الشعرية التي يذكر فيها النحو، فأبو الفرج صاحب كتاب الأغاني يهجو السيرافي النحوي المعروف السيرافي، ويصفه بأنه ليس من كبار العلماء الذين يتصدرون حلقات الدرس، وتنتهي لهم الوسادة، ولم يقرأ العلم على عالم بهذه الصفات، ثم بعد الذم يأتي اللعن، فيلعن الشعر، والنحو ليس مطلقا بل ما جاء من سيراف، وهو لعن للسيرافي نفسه.

## كشاجم<sup>(3)</sup> (ت360هـ)

قال يهجو بعض من يزعم بأنه من أهل النحو<sup>(4)</sup>:

(من المتقارب)

تَشَبَّهَ فِي النَّحْوِ بِالْأَخْفَشِينَ      فَجَاءَ بِأَعْجُوبَةٍ مُطْرَفَهُ  
وَلَمْ يَسْمَعْ النَّحْوَ لَكِنَّهُ      قَرَأَ مِنْهُ شَيْئًا وَقَدْ صَحَّفَهُ  
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَخْفَشَ النَّاطِرِينَ      فَإِنَّ الْفَتَى أَخْفَشَ الْمَعْرِفَهُ

كشاجم درس على الأخفش الأصغر علي بن سليمان النحوي (ت315هـ)، والخفش: «صِعْرٌ فِي الْعَيْنِ، وَضَعْفٌ فِي الْبَصْرِ خِلْقَةٌ»<sup>(5)</sup>، وقد مدح أستاذه، وصرح بأنه خريجه قال:

ومن أولى بتقريظي      ممن كنت خريجه

(1) «أبو الفرج الأصبهاني علي بن الحسين الأموي الأصبهاني الأصل البغدادي المنشأ وكان من أعيان أدبائها وأفراد مصنفها وله شعر يجمع إتقان العلماء وإحسان طرفاء الشعراء والذي رأيته من كتبه كتاب القيان وكتاب الأغاني...» بيتمة الدهر (3/ 127)

(2) بيتمة الدهر 3/ 132

(3) كشاجم أبو نصر محمود بن حسين شاعر زمانه، يُذَكَّرُ مَعَ الْمُتَنَبِّيِّ.. كان كاتباً شاعراً سكن صيدا ط: سير أعلام النبلاء - ط الرسالة 16/ 285

(4) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء 1/ 63

(5) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 3/ 1005

وهنا يهجو رجلا قرأ النحو، ولم يسمعه من شيخ إذ كان شرطاً أساسياً في من يطلب العلم أن يكون له شيخ معروف، ثم لم يكتف بهذا بل ادعى أنه من أهل الاجتهاد والاستنباط، وتشبه بالتحويين الشهيرين الأخفشين، فجاء بأشياء جديدة عجيبة طريفة لأنها ليست من العلم في شيء، ثم وصفه بأنه أخفش مثلها لكنه أخفش بصيرة، ومعرفة لا أخفش بصر مثلها.

وقال في المدح: (من البسيط)

فَطِبُّ بُقْرَاطَ لَحْنِ الْمُوصِلِيِّ وَفِي نَحْوِ الْمُبْرِدِ أَشْعَارُ الطَّرْمَاحِ

يصف رهبانا في دير يشرب معهم الخمر بأنهم أهل تسامح، ثم هم أهل علم وفلسفة ومعرفة، ثم بالغ في وصفهم بأنهم في الطب كبقراط<sup>(1)</sup>، وفي النحو كالمبرد، وفي الشعر مثل الطرماح<sup>(2)</sup>.

أبو الحسين المظني<sup>(3)</sup> (ت 377هـ)

قال<sup>(4)</sup>: (من الطويل)

فهذان من أهل الحجاز كلاهما وشيخ النهى والعلم والحجر والتقى  
وبعدهما البصريّ ذاك أبو عمرو  
وذو خبرة بالنحو واللفظ والشعر

من قصيدة ذكر فيها أحكام التجويد، وبدأ بذكر القراء السبعة المعروفين، ومنهم أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ) الذي أشاد به هنا، وذكر كل هذه الصفات التي يتمتع بها هذا المقرئ البصري العاقل العالم التقي النحوي خبير اللغة وغريبها، والشعر والشعراء كما قال، وأكد على العقل مرتين، فقال: (وشيخ النهى.. والحجر) وكلاهما يعنيان العقل<sup>(5)</sup>، وأبو عمرو شيخ النحاة كما هو معروف.

(1) بقراط فيلسوف حكيم يوناني واضع الطب الذي قال بفضله الأوائل والأواخر ظ: الملل والنحل 2 / 167  
(2) «الطرماح بن حكيم بن الحكم، من طيبي: شاعر إسلامي فحل. ولد ونشأ في الشام، وانتقل إلى الكوفة» (ت 125هـ) الأعلام للزركلي 3 / 225  
(3) المقرئ: محمد بن أحمد بن عبد الرحمن، أبو الحسين المظني العسقلاني كثير العلم، كثير التصنيف في الفقه، وكان يتفقه للشافعي، وكان يقول الشعر ويسره ويعجب به لم أعثر له على شعر إلا هذه القصيدة من 59 بيتاً. ظ: الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة (2 / 1936)  
(4) أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار أئمة الخمسة الأخيار 13.  
(5) مقاييس اللغة 2 / 138 و 5/359

ابن جنك<sup>(1)</sup> (ت378هـ)

قال<sup>(2)</sup>: (من الطويل)

سأجعل لي النعمان في الفقه قدوة      وسفيان في نقل الأحاديث سيدا

...

...

وأجعل درسي من قراءة عاصم      وحمزة بالتحقيق درساً مؤكداً

وأجعل في النحو الكسائي قدوة      ومن بعده الفراء ما عشت سرمداً

وإن عدت للحج المبارك مرة      جعلت لنفسي كوفة الخير مشهداً

استعرض الشاعر معتقداته، ومن يلتزم بأرائه من العلماء في شتى الفنون والعلوم، فذكر قدوته، وأئتمته في الفقه والحديث والعقائد والقراءة، ثم ذكر النحو، فجعل الكسائي إمامه ومن بعده الفراء، والشاعر كما هو مذكور في القصيدة كوفي الوطن، وهو كوفي الرأي في النحو لاختياره منهج الكسائي والفراء، وهذا شعر يخلو من الصور الشعرية شعر تعليمي تلقيني لبيان أقواله لا أكثر.

المأموني<sup>(3)</sup> (ت383هـ)

قال<sup>(4)</sup>: (من السريع)

سأترك النحو لأصحابه      وأصرف الهمة للصيّد

إن ذوي النحو لهم همة      مُرسلة بالمكر والكيد

يضرب عبد الله زيداً وما      يريد عبد الله من زيد

هذا الشعر في هجاء النحويين أيضاً، ولكن فيه شيء من الفكاهة، فهو يقول بأنه سيترك النحو ويصرف همته للصيد، وترك العلم والاتجاه إلى الصيد سواء للتكسب،

(1) الخليل بن أحمد بن محمد بن الخليل، أبو سعيد البجلي، المعروف بابن جنك (ت378هـ): قاض حنفي واعظ، من الشعراء. كان شيخ أهل الرأي في عصره. ظ: الأعلام للزركلي (2/314)

(2) تاريخ دمشق لابن عساكر 17/34 شعره قليل ولم أعثر له على ديوان.

(3) «عبد السلام بن الحسين، أبو غالب المأموني. (ت383هـ) شاعر محسن مفلح، بديع القول، بغدادي، من ذرية المأمون العباسي. مدح الصاحب بن عباد، ورؤساء نيسابور وبخارى، وكان يسمو بهمته إلى الخلافة. أخذ عنه الثعالبي وفقّمه وأرخه. ظ: تاريخ الإسلام - ت بشار 8/546

(4) أدب المجالسة وحمد اللسان 64

أو اللهو مؤشر على صعوبة النحو، ولكنه ذكر علة أخرى، وهي كون النحاة من أصحاب المكر والكيد إشارة منه إلى علل النحو وتأويلات النحاة البعيدة، لكنه مزج الجد بالهزل، فعرج على أمثلة النحو في كتب النحاة، وكثرة استعمالهم (الضرب) ومشتقاته كقولهم: (يضرب عبد الله زيداً)، فاستفهم متهماً: (وما يريد عبد الله من زيد؟).

### ابن وكيع (1) (ت 393هـ)

قال (2): (من الخفيف)

يَحْسُنُ النَّحْوَ فِي الْخَطَابَةِ وَالشَّعْرِ      رَ وَفِي لَفْظِ سُورَةٍ وَكِتَابٍ  
فَإِذَا مَا تَجَاوَزَ النَّحْوَ هَذَا      فَهُوَ شَيْءٌ مِنَ الْمَسَامِحِ نَابٍ

هنا هو يذكر المواطن التي يستعمل فيها النحو، فينفع، ويقبله هو، فذكر الخطابة والشعر والقرآن الكريم، وعد استعماله في غير هذا ألفاظ نابية لا يقبلها سامع، ويمجها الذوق، وهو يشير هنا إلى الأقيسة البعيدة، والتأويلات المتعسفة.

وقال (3) في نحوي أراد أن يكون شاعراً: (من البسيط)

عَلَيْكَ بِالنَّحْوِ لَا تَعْرِضْ لِصَنْعَتِنَا      فَإِنَّ شِعْرَكَ عِنْدِي أَشْهَرُ الشُّهُرِ  
لَوْ كَانَ بِالنَّحْوِ قَوْلُ الشَّعْرِ مُكْتَسَبًا      كَانَ الْخَلِيلُ بِهِ أَحْظَى مِنَ الْبَشْرِ

ذكر المفردة هنا مرتين، وهو يرد على هذا النحوي الذي قال الشعر، وزعم أنه شاعر لكن ابن وكيع رفض شعر هذا النحوي، وعده فضيحة على قائله، وعد الشعر من صنعه هو، وعلى هذا النحوي أن يجتنب هذا الميدان لأنه ليس من اختصاصه، فالشعر ملكة خاصة لا تكتسب بتعلم النحو، فلو كان النحو معياراً للشعر لكان الخليل أشعر الشعراء لأنه إمام النحو، وهذين البيتين ذكرهما ابن وكيع في كتابه (المنصف للसारق والمسروق منه) وأشارنا إليه.

(1) وفيات الأعيان (2/ 104) ابن وكيع التنيسي: أبو محمد الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن خلف بن حبان بن صدقة بن زياد الضبي المعروف بابن وكيع التنيسي الشاعر المشهور؛ أصله من بغداد ومولده بتنيس « شاعر بارع، وعالم جامع، وله ديوان شعر جيد، وله كتاب بين فيه سرقات أبي الطيب المتنبي سماه « المنصف ».

(2) ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر 39، جمع شعره وحققه د. حسين نصار، كلية الآداب جامعة القاهرة، دار مصر للطباعة. مكتبة مصر. ط: يتيمة الدهر 5/ 40

(3) ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر 65، ط: المنصف للसारق والمسروق منه 490،

## أحمد بن فارس (1) (ت395هـ)

قال (2): (من السريع)

مَرَّتْ بِنَا هَيْفَاءُ مَقْدُودَةٌ      تُرْكِيَّةٌ تُعْزَى لثُرْكِيٍّ  
ترنو بطَرْفِ فاتنٍ فاترٍ      أضعف من حُجَّةِ نَحْوِيٍّ

ابن فارس صاحب المقاييس والمجمل صاحب الآراء الجليلة في الدلالة ينظر إلى حجج النحاة بأنها في غاية الضعف، ولقد أحسن في التغزل بطرف هذه الفاتنة الفاتر، ومثل هذا الفتور بأنه أضعف من حجة نحوي، فأحسن في التغزل والتشبيه، وأحسن في هجاء النحاة وحججهم، فأيهما أراد فقد أصاب وأحسن لكن شعره هذا ذاع صيته في توهين حجج النحاة، وذم عليهم لنفور الناس من صعوبة هذا الدرس زادته هذه العلل صعوبة وعسرا.

## أبو هلال العسكري (3) (ت بعد 395هـ)

قال أبو هلال العسكري في تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة (4): (من الخفيف)

وليال أطلن مدة درسي      مثلما قد مددن في عمر لهوي  
مَرَّ لي بَعْضُهَا بِفِقْهِ وَبَعْضُ      بَيْنَ شِعْرِ أَخَذْتُ فِيهِ وَنَحْوِ  
وحديث كأنه عقد ريا      بتَّ أرويه للرجال وتروي

هنا يصف ليالي الشتاء الطوال كيف يطول معها الدرس، وتعم الفائدة، وذكر العلوم التي يدرسها لطلابيه، فذكر الفقه والنحو، ثم الحديث، وكأنه قسم الليالي بين هذه العلوم انظر إلى لذة العلماء بالدرس والتدريس، وانظر إلى مكانة النحو كيف يذكر

(1) ابن فارس (ت395هـ) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب له قرأ عليه البديع الهمداني والصاحب ابن عباد معجم المؤلفين لغوي، مشارك في علوم شتى. توفي بالري. من تصانيفه: المجمل في اللغة، حلية الفقهاء، فقه اللغة المسمى بالصاحبي، مقاييس اللغة. ظ: الأعلام للزركلي (1/193).

(2) المدخل إلى تقويم اللسان ص 517، 2، ظ: وفيات الأعيان 1/119 وفي بئمة الدهر 3/469 «تركبة تنمي إليّ التُّرك»

(3) الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران العسكري، أبو هلال: عالم بالأدب، له شعر. نسبته إلى (عسكر مكرم) من كور الأهواز. من كتبه (التلخيص) في اللغة، و(جمهرة الأمثال) و(كتاب الصنائع) و (شرح الحماسة) و(الفروق) في اللغة، و(ديوان المعاني). وهو ابن أخت أبي أحمد (الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري) وتلميذه، وجد في آخر كتابه الأوائل أنه أكمله في سنة 395هـ ولم تعرف تاريخ وفاته. ظ: الأعلام للزركلي 2/196.

(4) معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب 2/921

مع كل علم وفن.

ابن الزمكدم<sup>(1)</sup> (ت398هـ)

قال<sup>(2)</sup>: (من الخفيف)

فوجدنا فتاة بيتك أنحى من ك والنحو مؤثر مستحب

في أبيات فيها سخف لا داعي لذكرها، ولكنه في هذا البيت ذكر النحو، وفضل الجارية على سيدها فيه، وهو هجاء لهذا الرجل.

أبو الفتح البستي<sup>(3)</sup> (ت400هـ)

قال متغزلاً<sup>(4)</sup>: (من البسيط)

أفدي الغزال الذي في النحو كلمني

مناظراً فاجتنيث الشهد من شفتيه

وأورد الحجج المقبول شاهدها

محققاً ليريني فضل معرفته

غزل جميل يستعذبه المشتغلون بالنحو، فالحبيب يناظر الشاعر في النحو، ويورد الحجج والشواهد النحوية، ويحقق في المسائل ليبين للشاعر معرفته بالنحو وخفاياه، وعلمه بدقائقه، ونعرض عن بقية الشعر لأن فيه معاني لا يحسن ذكرها.

وقال<sup>(5)</sup>: (من المتقارب)

مكِّبٌ على النحو ينحو به

ليسلم في قوله من خطل

يقول أقوم زيع اللسان

فهلأ يقوم زيع العمل

يهجو شخصاً يدرس النحو مكبا على درسه ملتصماً دقائقه، وتفاصيله متجها بنفسه إلى سلامة لسانه من الخطل، والمنطق الفاسد ليقوم لسانه عن الزيغ لكنه لا يقوم

(1) تاريخ الإسلام ت بشار (8/ 787) سُلَيْمَانُ بْنُ الْفَتْحِ، أَبُو عَلِيٍّ ابْنُ الزَّمَكْدُمِ السَّرَاجِيُّ الْمَوْصِلِيُّ. [المتوفى: 398 هـ] من كبار الشعراء، ديوانه مجلد، والغالب عليه الهجو والسُّخْفُ والمجون، وله مكاتبات إلى الخالدين والهائم والبيغاء والبيدهي.

(2) معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب 4/ 1601

(3) هو علي بن محمد البستي الكاتب، كان أصله فارسياً، ولد في بست بسجستان، درس الحديث، والفقاه الشافعي، والأدب، وتقلد الكتابة لبييتوز، أمير مسقط رأسه، ثم التحق من بعد بخدمة الغزنويين، توفي بأوزجند، بالقرب من بخارى، في سنة 400هـ. كان معروفاً بأنه ناثر بليغ، وشاعر صاحب تجنيس. تاريخ التراث العربي لسزكين - الشعر 4/ 254

(4) أحسن ما سمعت 68

(5) الدر الفريد وبيت القصيد 9/ 297

نفسه عن العمل الباطل، فقد عاب عليه اهتمامه بالنحو، وبذله الجهد في تحصيله، وإهماله نفسه يقع في الموبقات، والأعمال السيئة، وقوله: (النحو ينحو به) الأولى بمعناه الاصطلاحي، والثانية بمعناه اللغوي أي يتجه ويقصد به.

## الخاتمة

- تنوعت الموضوعات التي طرقها الشعراء، وهم يذكرون مفردة النحو الاصطلاحية في هذا القرن، فمنها هجاء، ومنها مدح، ومنها رثاء، ومنها غزل، ومنها شعر تعليم.

- أكثر الشعر الذي وردت فيه المفردة في الهجاء هجاء لنحوي، أو دارس نحو، أو للنحو نفسه، فقد هجي نبطويه، والسيرافي، وغيرهم، وهذه الظاهرة تنم إما عن تنافس بين العلماء، أو كره لدرس النحو لما فيه من صعوبة، أو كره للعلل النحوية وتعسفها.

- من هذا الشعر شعر تعليمي لبيان قواعد نحوية، أو صرفية كما فعل ابن دريد.

- من هذا الشعر ما مزج بين الغزل، وهجاء النحو كما فعل ابن فارس.

- من هذا الشعر ما فيه مزاح، وفكاهة.

- من الشعراء الذين ذكروا المفردة علماء في النحو واللغة كابن دريد وأبي الفرج وأبي هلال وأحمد بن فارس.

- ومنهم فقهاء كالمطلي ومنهم قضاة كابن جنك.

- من الذين ذكروا المفردة شعراء بارزون غلب عليهم الشعر والأدب منهم الصنوبري وكشاجم والمأموني وابن وكيع وابن الزمكدم وأبو الفتح البستي.

المصادر

1. ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر / المؤلف ابن وكيع التنيسي - / جمع شعره وحققه د. حسين نصار، كلية الآداب جامعة القاهرة -. - القاهرة : دار مصر للطباعة، مكتبة مصر ..
2. أحاسن الأخبار في محاسن السبعة الأخيار أئمة الخمسة الأخيار / المؤلف القاضي امين الدين أبو محمد عبد الوهاب احمد بن وهبان المزني الحنفي (ت768هـ) - / المحقق: ابي عمرو الحسيني بن عمر بن عبد الرحيم -. - بيروت. : منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، 2004. - ط 1.
3. أحسن ما سمعت / المؤلف عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (ت429هـ) - / وضع حواشيه: خليل عمران المنصور -. - بيروت : دار الكتب العلمية، 2000م. - ط 1.
4. أخبار النحويين البصريين، / المؤلف الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، أبو سعيد (ت368هـ) - / المحقق: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي -. - الناشر: مصطفى البابي الحلبي، 1373 هـ - 1966..
5. أدب المجالسة وحمد اللسان وفضل البيان وندم العي وتعليم الإعراب / المؤلف أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت463)، - / المحقق: سمير حلبي -. - طنطا : دار الصحابة للتراث، 1989. - ط 1.
6. الأعلام / المؤلف خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت1396هـ) -. - بيروت : دار العلم للملايين، مايو 2002 م. - ط 15.
7. الدر الفريد وبيت القصيد / المؤلف محمد بن أيذمر (ت610 هـ) المستعصي - / المحقق: الدكتور كامل سلمان الجبوري -. - بيروت : دار الكتب العلمية، 2015م. - ط 1.
8. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية / المؤلف أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت393هـ) الفارابي - / المحقق: أحمد عبد الغفور عطار -. - بيروت : دار العلم للملايين، 1987م. - ط 4.
9. الفهرست / المؤلف أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي (ت438هـ) ابن النديم - / إبراهيم رمضان -. - بيروت : دار المعرفة بيروت، 1997م. - ط 2.
10. المدخل إلى تقويم اللسان / المؤلف ابن هشام (ت577 هـ) اللخمي - / المحقق: الأستاذ الدكتور حاتم صالح الضامن -. - بيروت : دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، 2003م. - ط 1.
11. المزهر في علوم اللغة وأنواعها / المؤلف عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت911هـ) السيوطي - / المحقق: فؤاد علي منصور -. - بيروت : دار الكتب العلمية، 1998م. - ط 1.
12. الملل والنحل / المؤلف أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت548هـ) الشهرستاني -. - القاهرة : مؤسسة الحلبي.
13. المنصف للسارق والمسروق منه / المؤلف الحسن بن علي الضبي التنيسي أبو محمد، (ت393هـ) المعروف بابن وكيع - / حقهه وقدم له: عمر خليفة بن ادريس -. - جامعة قار يونس، بنغازي، 1994م. - ط 1.
14. الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة «من القرن الأول إلى المعاصرين مع دراسة لعقائدهم وشيء من طرائفهم» / المؤلف جمع وإعداد: وليد بن أحمد الحسين الزبيري، وآخرون -. - مانشستر - بريطانيا : مجلة الحكمة، 2003ن. - ط 1.

15. الوافي بالوفيات / المؤلف صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت 764هـ) الصفدي - / أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى . - بيروت : دار إحياء التراث، 2000م.
16. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام / المؤلف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قأئماز (ت 748هـ) الذهبي - / المحقق: د. بشار عواد معروف. - بيروت : دار الغرب الإسلامي، 2003م. - ط 1.
17. تاريخ التراث العربي لسزكين - الشعر / المؤلف الدكتور فؤاد سزكين - / المترجمون د محمود فهمي حجازي. - الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1991م.
18. تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، / المؤلف محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر (ت 310هـ) الطبري . - بيروت : دار التراث، 1387 هـ. - ط 2.
19. تاريخ دمشق / المؤلف أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت 571هـ) المعروف بابن عساكر - / المحقق: عمرو بن غرامة العمروي . - بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م.
20. تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب / المؤلف جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ) السيوطي - / المحقق: د. حسن المخ، د، سهى نعجة . - عمان : عالم الكتب الحديث، 2008. - ط 2.
21. ديوان ابن دريد / المؤلف ابن دريد - / المحقق: عمر سالم . - دبي : مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، 2012م. - ط 1.
22. ديوان الصنوبري / المؤلف أحمد محمد بن الحسن الضبي الصنوبري - / المحقق: د. احسان عباس . - بيروت : دار صادر، 1998. - ط 1.
23. سير أعلام النبلاء / المؤلف شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ) الذهبي - / المحقق: الشيخ شعيب الارناؤوط وآخرون . - بيروت : مؤسسة الرسالة، 1985م.
24. طبقات النحويين واللغويين / المؤلف محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر (ت 379هـ) الزبيدي - / المحقق: محمد أبو الفضل ابراهيم . - دار المعارف. - ط 2.
25. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء / المؤلف أبو القاسم الحسين بن محمد (ت 502هـ) المعروف بالراغب الاصفهاني - بيروت : شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، 1420هـ. - ط 1.
26. معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب / المؤلف شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626هـ) الحموي - / المحقق: إحسان عباس . - بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1993م. - ط 1.
27. معجم مقاييس اللغة / المؤلف أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت 395هـ) ابن فارس - / المحقق: عبد السلام محمد هارون . - بيروت : دار الفكر، 1979م.
28. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / المؤلف أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت 681هـ) ابن خلكان البرمكي الاربلي - / المحقق: إحسان عباس . - بيروت : دار صادر، 1900. - ط 0.
29. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر / المؤلف عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (ت 429هـ) الثعالبي - / المحقق: د. مفيد محمد قمحية . - بيروت : دار الكتب العلمية، 1983م.

الرتاء عند عمر شبلي  
قصيدة «إلى شيرين أبو عاقلة» أنموذجاً  
رئيفه محمد الرزوق

المقدمة

يعدّ الرّثاء من أصدق الأغراض الشعريّة التي تناولها الشعراء على مدار الأزمنة والعصور المختلفة؛ فالموت دائرة من دوائر الحياة وسر من أسرارها. وإلى اليوم، لم يتمكّن العقل من كشف نظام الرّوح وعالمها رغم أنّه تخطّى كشف العادي من الأشياء، وبسط أمام الناس بعض أسرار الأفلاك والنجوم. وعليه، بقيت النفس في حضورها وغيابها سرّاً لا يفقه كنهه إلا الله باريها، مما يبرز عجز الإنسان عن معرفة المصير.

وصورة الموت في الأدب العربيّ والعالميّ من المكوّنات المهمّة للنّظام العلاميّ، فما زالت صورته تقنن القارئ وتغريه لاستكشاف مخزونها المعرفي وأنساقها الثقافية المضمرّة، المرتبطة بموضوعات الحزن والفقد والغياب والعذاب، وغيرها من الدلالات والأبعاد التي اكتنفها البحر في متن النّصّ.

وما لفت انتباهي إلى هذه الصّورة أنّه فضاء للتأمّلات الشعريّة والسردية الباحثة عن معنى الوطن من خلال جدليّة الفناء والحياة؛ وقدرة الشّاعر على توظيف الموت تعبيراً عن لحظات الألم والأمل، وتقلّبات الذوات بين اليأس والرجاء، وتقريب الفرج. وسأدرس في هذا البحث صورة الموت عند شاعر العروبة المفقودة، عمر شبلي، باعتبار هذه الصّورة تشكّل ظاهرة رمزيّة ومستوى أيقونيّاً، لكونها أصبحت نموذجاً لمجموعة من التّمثيلات الموضوعاتيّة المرتبطة بقضايا الوطن.

سأتبع في هذا البحث المنهج السيميولوجي، كونه وسيلة لإضاءة المناطق المعتمة داخل النّصّ في التّصوّر السيميائيّ مفتوحاً وغير مكتف بذاته، ويستمدّ معانيه من الإيماءات التّأويليّة.

## أولاً- الرثاء بين اللغة والاصطلاح

### أ- الرثاء لغة

رثا بالألف المنقلبة عن واو يرثو من الرثو، فأما قولهم رجل مرثو، أي: ضعيف العقل، فمن الرثية، ورثوت الرجل لغة في رثائه ورثت المرأة بعلمها ترثيه وترثوه رثاية». أما رثى «بالألف المنقلبة عن ياء يرثي رثياً ومرثيةً ورثيةً، يقول ابن فارس: «الراء والثاء والحرف المعتدل، أصيل يدلّ على رقّة وإشفاق، يُقال: رثيت لفلان: رقت، ومن باب قولهم رثي الميت بشعر».

يقول ابن منظور: «رثى فلانٌ فلاناً يرثيه رثياً ومرثيةً: إذا بكاه بعد موته، قال فإن مدحه بعد موته» قال ابن منظور: قيل رثاه يرثيه ترثيةً، ورثيت الميت رثياً ورثاء ومرثاةً ومرثيةً، ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيته». ورثوت الميت أيضاً إذا بكيته وعددت محاسنة، وكذلك إذا نظمت فيه شعراً».

### ب- الرثاء اصطلاحاً

الرثاء من أهم أغراض الشعر الغنائي، وذلك لارتباطه بالعاطفة والوجدان، فيبدو فيه الحزن والتعبير على مشاعر الأسي وهو الجانب المهمّ فيه، فقد يستقيم الرثاء دون عدّ المحاسن ولكنّه لا يستقيم دون عواطف الحزن والألم، ولذلك يقول ابن رشيق: «وعلى الجزع يبني الرثاء».

والرثاء كما هو شائع يعبر فيه الشاعر عن تجربة الخوف والأسى والتفجع لفقدان ما هو عزيز ومحبّب على النفس، والرثاء ألوان شتى منها النّدب، وهو بكاء الأهل والأقارب والأصحاب، حيث يعصف بهم الموت، وبعبارة أخرى: «هو النّواح والبكاء على الميت، بالعبارات المشجبة والألفاظ المحزنة، التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة»، ذاك أن الرثاء يبني على الخوف والبكاء. كما يمكن تعريف الرثاء على أنّه «التّفجع على الميت، وبكاء فضائله، وتصوير مشاعر الوجدان حيال حادثة الموت، وهذا اللون من العاطفة، قد ارتقى خلال الأعصر، وعبر الأجيال الإنسانية، حتى استوى فناً من الفنون الغنائية». فالرثاء يدور حول الإنسان ذاته، فالشاعر إن لم يرث نفسه فهو يرثي إنساناً فقده، ابناً كان أو أخاً أو زوجاً أو شقيقاً إلخ.

يمكن أن نقول إنَّ الرثاء هو مزيج بين صدق العاطفة وريقة المشاعر، وبين سعة الخيال وحقيقة الواقع المؤلم، فهو مزيج من القيم الفطرية في الإنسان، تتفاعل في أعماقه فتضطرب من شدة المعاناة عند فقدته لحبيب أو عزيز لديه، تهتز حينها النفوس، وتتفطر القلوب وتحترق الأفئدة، فيجهش بالبكاء، ويُعدّد حسنات الفقيد.

### ثانياً - الموت في القصيدة

تصبّ قصيدة «إلى شيرين أبو عاقلة» في مجرى أدب الرثاء، وفق تجربة فنيّة واعية، أساسها الصدق بنوعيه: الفنيّ والتّصويريّ. ويتجلّى الموت في الصّور التي تترجمها الرموز اللّغويّة في القصيدة.

كثيراً ما يوصلنا كُتاب أدب الرثاء إلى الوقوف على حافة إحساس هجين، فمسألة الموت تعدّ قاهرة للشعراء والكائنات جميعاً؛ وقد شكّلت ثيمة أساسيّة في قصيدة عمر شبلي، فتعدّدت نظرته إلى الموت، وأطلقها صرخات احتجاج على واقع مرير، ووطن صريع.

يجمع الموت في طيّات القصيدة بين الدلالة ونقيضها، فالبنى العميقة متعدّدة ومختلفة من سياق إلى آخر. ويتجلّى هذا الإحساس الهجين عند عمر شبلي، حيث يتلّون الموت بدلالات متباينة بوصفه نسيجاً لغويّاً دلاليّاً، ساكناً تارة (يحمل دلالة سلبية قوامها الفقد والحزن والانهازم)، ومتحرّكاً تارة أخرى (يحمل دلالة إيجابيّة قوامها التمسك بالثورة على العرب الخانعين من جهة وعلى العدو الإسرائيليّ من جهة أخرى)، متراوحاً بين الذهنّي المجرد والحسيّ الشّعوريّ، فاللغة «كيان مستقلّ من العلاقات الباطنيّة التي يتوقّف بعضها على البعض الآخر»:

«شيرين»

لا بدّ من أن يقفَ الموتُ أمامَ نعشِكَ الملفوفِ

بالوطن.

والشهداء سوف يحضرون،

ويخجلُ الأحياءُ من حضورهم

لأنّهم جاؤوا بلا كفن.

لا بدّ أن تبدأ من نعشِك، يا شيرين»

## خارطة الوطن

يمكن القول، إنّ صورة الموت لا تغيب عن طيات القصيدة، وحضوره يتحوّل إلى مساءلة داخلية، وإطلاق ما تخبئه النفس من صرخات موجعة، فما عادت الحياة تليق بالأحياء، إذا بقي الجُبْن رداءهم؛ فالشهداء الذين ارتضوا لأنفسهم الحياة على حاقّة الموت كلّ يوم هم من يبنون سياج الوطن، وحدهم يليق بهم الخلود. وهكذا تشكّلت الرّسالة الدلالية لشبلي، فمنظومة اللّغة الرّامزة تتوسّع في نسج حقولها من الموت، لتستحضر رموزاً إضافية تشترك في بناء الصّورة الكلّية، ف «الرّسالة البصريّة تتشكّل باللّغة، لا من الخارج فحسب، وإنّما من الدّاخل أيضاً». وتترافق هذه الرّموز بلغة عذبة لتشبع الصّورة بالأبعاد النّفسيّة، ففيها كلّ شيء ملتبس بالفقد والقلق والانتفاض، وشموليّة صورة الموت على كلّ المشهد تعزّز هذه الأبعاد التي منها يصوغ شبلي عبراته الباحثة عن عزّ عروبة مفقود.

## ثالثاً - سيميائية الموت في القصيدة

يقن شبلي أنّ كلّ ما في الوجود مصيره الرّوال والفناء والتّغيير، فالحياة سيصرعها الموت، والرّمان محدودة مُنْتَه، والكون يطفح بالعدم، والإنسان ليس إلّا قطرة في محيط، والموت يتربّص به أينما ذهب. لكنّ الموت عند شبلي يتخلّى عن بعض سماته اللّازمة: (فراق الأحبة)، (البكاء والعيول)، ليكتسب سمات جديدة مستعارة من الثّورة على هذا الواقع المرير، الذي أودى بشيرين إلى حتفها؛ إذ حمل الشّاعر موت شيرين صفات إضافية، وجعله كوّة انفتاح على مواقع وآلام الأمّة بأكملها. فتبدو العلاقة بين شبلي والموت معقّدة وجدليّة، تقوم على معادل موضوعي لصورة تقوم على جدل الموت والحياة، ليصير نافذة مفتوحة على الأمل بتغيير الواقع.

وهكذا تحوّلت صورة الموت إلى خطاب يتفاعل مع الدّات والواقع، ليصبح محور الدّلالات، ووسيلة لاكتشاف عالم الدّات، ففي القصيدة نجد أنّه من اللّاتماثل الحاصل ما بين الدّات والعالم، يتأكّد الشّعور بالاعتراب؛ ويزداد النّفور بين العالمين، العالم الدّاخلي (الدّات) والعالم الخارجيّ، وتصبح العلاقة بين الدّاخل والخارج صعبة وغامضة. ويغدو الموت مجالاً مفتوحاً لعذاب الدّات وانسداد الأفق أمامها، فتظلّ حبيسة لدى الماضي، لا تستطيع تجاوزه إلّا في ضفّة الوطن الجديد المأمول:

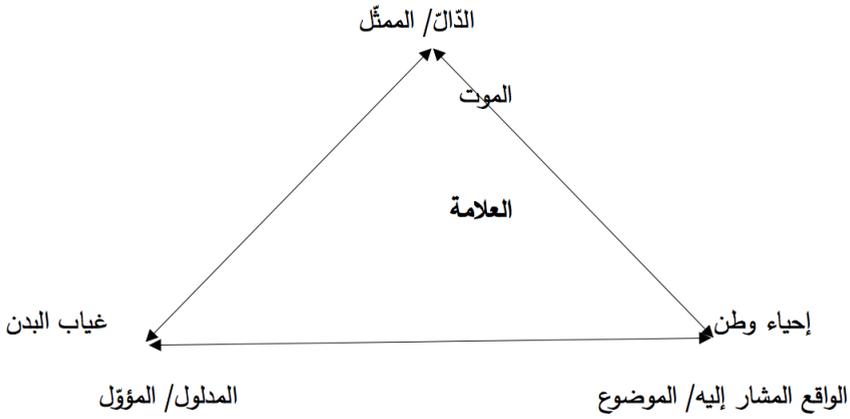
أَجَلٌ مِنْ صَوْتِكَ، يَا «شِيرِينَ»،  
 مِنْ رِبْعِ قَرْنٍ يُرْسِلُ الصَّرَاخَ.  
 تَسْمَعُهُ الدُّنْيَا، وَلَا يَسْمَعُهُ الْعَرَبُ

\*\*\*\*\*

نَحْنُ خَيْوَلٌ، إِنَّمَا يَا أُخْتُ، لَا يَنْقُضُنَا اللِّجَامُ  
 خَيْوَلُنَا سَرِيعَةُ الْعَدُوِّ إِلَى الْوَرَاءِ  
 سَيُوفُنَا مَعْلَقَاتُ سَبْعِ  
 «مَلَأْنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَمَاءُ الْبَحْرِ نَمْلُؤُهُ سَفِينَا»  
 لِأَنَّ لَا نَعْرِفُ أَنَّ الْأَمْسَ مَاتَ،  
 وَالنَّهْرَ لَا يَكْفُ مَدُّ كَانَ عَنِ الْمَسِيرِ.

انطلاقاً الذات هنا، تدور في حلقة مفرغة، كل شيء غامض اختلط فيه الواقع بالوهم، إذ يهرب من آلامه جراء الواقع الانهزامي والسكوت على الظلم واغتيال شيرين، إلى أبواب الشعر، ليزيل الستار عن الزيف الذي يتخفى وراءه العربي القابع خلف أسوار الماضي.

ويرى بيرس أن الدليل «عبارة عن شيء ما يعوّض شيئاً معيناً بالنسبة لشخص معين وفق علاقة معينة أو صفة معينة، إن الدليل موجه إلى شخص معين؛ أي أنه يخلق في ذهن هذا الشخص دليلاً معادلاً أو دليلاً أكثر يسميه بيرس مؤؤلاً (Inter-prétant) للدليل الأول. ويعوّض هذا الدليل شيئاً معيناً هو ما يسميه بيرس بموضوع (Objet) الدليل». وانطلاقاً من «مثلث بيرس السيميائي»: الدال، المدلول والموضوع، نحصل على ما يلي:



يُحاط الموت بهالة كبيرة من الشّعور بالغضب، وهو الشّعور الطّبيعيّ إزاء اغتيال صوت إعلاميّ على مرأى النّاس أجمع. لذا نراه في القصيدة، لم يكتفِ أن يكون دالّاً مدلوله الغياب والفقدان، فكان له مدلولات فرعيّة كثيرة:

• الموت رمز الخوف:

يؤمن شبلي أنّ صوت شيرين الحرّ كان يبيّث في نفوس الإسرائيليّين الخوف والرّعب، لأنّها من خلال تغطيتها الإعلامية لإجرامهم تهدّد استقرارهم، وتعريضهم أمام نواتهم:

قائيل، يا «شيرين» حتى الآن

يخاف من «هابيل»

لأنّ في العدوان ما يناقض الإيمان،

والبندقيّة،

عندما يطلقها العُدوان

تخاف من سيّكين.

ب- الموت رمز للظلم:

يرمز الموت إلى الظلم الذي يحيط بالعالم العربيّ من كلّ جانب، بسبب فساد السّياسيين فيه، وطغيانهم على الشّعب الدّليل من جهة، واستغلال إسرائيل للصّمت

العربي، وقتلها لكل من يُعاديها أو يقف في وجه مخطّطها الصهيوني الغاشم. وقد وصل العدو في ظلمه وجبروته، إلى اعتبار آلة التصوير التي تكشف الحقائق، سلاح دمار؛ فعمد شبلي إلى تصوير شيرين، كما يراها المحتلّ، صورة للإرهاب والإجرام، وما هذه الصورة إلا انعكاس للخبت الإسرائيلي وظلمه، إذ يحوّل الضحية إلى الجلاد، ليلبس رداء الطهر والبراءة:

دمك يا «شيرين»،

قد صار فوق نعشك الإكليل،

كان على الحضارة الساقطة الدليل

«شيرين» أنت مجرمة،

وآلة التصوير في يدك من أسلحة الدمار

وصوتك الأبعد من أوهامهم

تُهمته الإجرام.

هـ - الموت: رمز للقوة والثورة

إنّ موت شيرين أشعل في الشاعر ثورة عارمة على كلّ الأنظمة العربيّة الفاسدة، وعلى الشعب العربيّ الخاضع والسّاكت عن الحقّ، فبسببهما تجرّأ العدوان على الاستهزاء بالعرب، واستباح أرضهم ودمهم بلا رقيب أو حسيب:

يُؤسفني يا أختي، أنّي عربي،

لسأته أطول من سلاحه،

سلاحه الصراخ والخُطب

وليس في جعبته إلاّ كلام يشبه

الرصاص في حلقنا.

«شيرين»، لا تستصرخي العرب،

سوف يجيئون، وفي أيديهم قميصك المشقوق،

وفوقه دمٌ كذب.

أخجلٌ من جرحك، يا «شيرين»

وهو ينزفُ العرب

عاش شاعرنا البعد والأسر والحنين وعاش الحزن والألم، ومثل هذه الظروف تجعل من صاحبنا يخوض في مختلف الاتجاهات الشعريّة والانفعالات الوجدانيّة حتّى يكون في الصورة الرّاهنة لكلّ فترة من الفترات التي مرّ بها هو والشّعب العربيّ؛ كان حاضراً دائماً في كلّ لحظة من لحظات القضايا العربيّة، كلّها لبست وجوده الذي أصاب مجتمعه، وعاش الحرّيّة المقيدة التي لا تسمح للعربيّ نفض غبار الذلّ عن كاهليه. فيسعى شبلي إلى رسم نهاية مرحلة الخضوع، وبداية مرحلة جديدة يسيطر عليها رفض الواقع، تخطّت بآلامها ومعاناتها حدود الزمن، وكادت أن تكون مرحلة اللّاتراجع أو استحالة العودة إلى المرحلة الأولى، ممّا أكسبه القدرة على التسلّح بالشّجاعة والمكابدة الصّابرة، فبات ثائراً، يحمل رايات القوّة والنّصر في مقلتيه:

«شيرين» لن نخاف من سلاحهم

إنّ الذي يخاف من عدوّه هو القتيل

إنّ الذي يخاف من آلة تصويرٍ هو القتيل،

نامي بقلب شعبيّ الواسع يا «شيرين»

فالموتُ لن ينام، والرصاصُ في بنادقِ العدوِّ لن ينام.

لكنّما الأحقادُ في الصدورِ لن تنام

لكنّنا نؤمُّنُ يا «شيرين» أنّ الجرح،

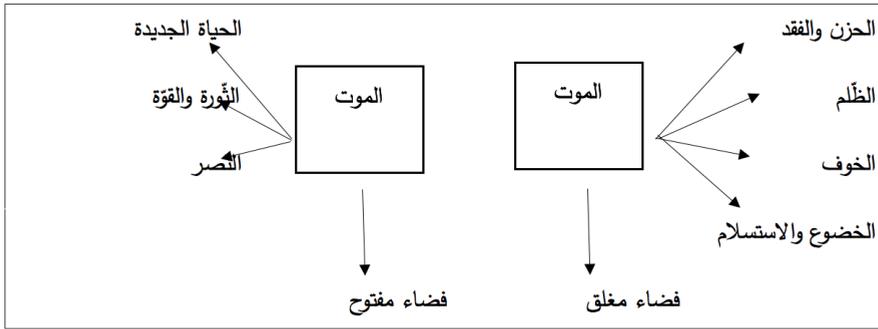
مهما غاصّ في أعماقنا

تُبرئُهُ إرادَةُ انتقام.

كان الموت مساحة يوطّرها الإحساس الغامض والشّعور بالألم، والخضوع... لكن، استطاع الشّاعر أن يستنهض الهمم، ليخوض، من جديد، معركة أخرى مع الموت، جعل العربيّ فيها هو الأقوى، المجابه العنيد الذي يعشق الشّهادة في سبيل الوطن

والحرية. فأصبح الموت محرراً ومنقداً للإنسان، وهي نظرة مثابرة بالفكر المسيحي والإسلامي، ففي الفكر المسيحي الموت خلاص وعفو، وفي النظرة الإسلامية نجد النظرة المطمئنة المقررة بحقيقة الموت فهو ليس ذلك المجهول الذي يبثّ الخوف والرّهبة في النفوس ولكنه قضاء الله وحكمته في أن يعيش الإنسان عمراً زائلاً في الدنيا، ثمّ يعيش عمراً خالدًا.

من هنا، يمكن أن نخلص إلى ما يلي:



وهكذا، نجد أنّ الموت تجاوز حدود النّعش والقبر، ليصبح «موضوعاً للأدب»، حيث تتفاعل بالنّظام اللفظي، وتمفصل بين مستوى التّعبير في شقيه الخطابي والشّعري ومستوى المضمون الذي يجعله منتجاً لقيم دلالية معيّنة.

## الخاتمة

مرثية «إلى شيرين أبو عاقلة» للشّاعر «عمر شبلي» استطاعت أن تقتحم عوالم عديدة، ومجاهل الحياة والنفس البشريّة؛ وبذلك، قدّم لنا معرفة عميقة بالذّات والواقع المؤلم في تنوّعاته. ويُعدّ الموت من الفضاءات الخصبة التي تمّ استثمارها في القصيدة. بل لعلّ التّلازم بين الموت والوطن، يقرب الفكرة التي يسعى شبلي إلى تطويرها، مستثمراً أهمّ الدلالات السّطحية والعميقة التي يمكن أن تجعل الموت يتشكّل في خيال الإنسان برموز عديدة، ودلالات كونية.

«عمر شبلي» رسم زاوية معينة من هذا العالم متخذاً من الموت علامة توجّه أفكارنا، فأعاد ترتيب علاقته مع الموت من الحزن والفقد والغياب إلى فضاء للبحث عن الذات في وطن ضائع؛ فحضور الموت يتخذ بُعداً رمزياً، يضيف على صورته ما استقرّ في الأذهان من أحداث تتعلّق بالوجه المظلم والمخيف والعاتي، ليصل من خلاله إلى بُعد آخر ورمز مختلف، فسوّر المعتدي الجبان السّالب للوطن والحريّة. القصيدة عكست حالاً من حالات التّماهي بين الموت والوطن، دلالةً وتأويلاً، ليعيد تشكيله فنياً وجمالياً من سجلّ الذّاكرة العربيّة الأليمة؛ فقد غرّف شاعرنا من عتماته ليتوغّل في تشكيل ذاته الإبداعية ورؤيته، ووعيه المبكّر بالعالم. وهكذا يتوجّه الموت كعلامة سيميائية من الذات إلى العناصر الأخرى (عالم الواقع/ عالم الخيال) ليصوّر إجرام العدو الإسرائيليّ وتخاذل المواطن العربيّ من جهة، ويخلّد شيرين في مرثية تليق بمسيرتها النضالية لإظهار صوت الحقّ. فكان الهمّ العربيّ الذي يسكن الشّاعر الحدث الأكثر فاعلية في القصيدة.

### قائمة المراجع

- أساليب الشّعريّة المعاصرة، صلاح فضل، دار الآداب، بيروت، ط 1، 1995م، ص 121.
- بن حماد الجوهري، معجم الصّاح، دار الحديث، القاهرة، لا تا، ص 425.
- دروس في السيميائيات، حنون مبارك، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1987م، ص 45.
- العمدة، ابن رشيق، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط 1، 2001م، ج2/ 171.
- فنون الأدب العربيّ، الرّثاء، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط1، لا تا، ص 12.
- فنون الشعر العربي، عمر فاروق الطّباع، دار القلم، بيروت، ط 1، 1412هـ - 1996م، ص 191.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط 1، 1863م، ج6، ص 99- 100.
- مشكلة البنية أو أضواء على البنيويّة، زكريّا إبراهيم، مكتبة مصر، القاهرة، لا تا، ص 77.
- مقاييس اللّغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لا ط، 1999م، 2/488.

## الرمز الصوفي في شعر عبد الوهاب البياتي<sup>(1)</sup> شخصية «الحلاج» في قصيدة «عذاب الحلاج» نموذجاً

هدى محمد الرزوق

### المقدمة

تعدّ عملية توظيف التراث في مختلف الأجناس الأدبية، الثريّة منها والشعرية، من الظواهر الفنيّة التي طغت على الكثير من الإبداعات العربيّة المعاصرة، وخاصّة في الإبداعات الشعرية، لدرجة يصعب معها أن تجد قصيدة عربيّة معاصرة خالية تماماً منها. فقد احتاج الشاعر العربيّ المعاصر إلى وسائل يعبر بها عن رفضه لواقعه، الذي رآه مهيناً فاسداً، لأسباب كثيرة، سياسيّة واجتماعيّة... ولكي يستمرّ في رسالته ويحمي نفسه من هذا الواقع، ولتكون معالجته فنيّة، ولها وقعها الخاص في النفوس، كان عليه أن يتجه في تجربته الشعرية إلى الرمز للتعبير عن رغباته وطموحاته، فوجد في التجربة الصوفية خير طريق لهذا التعبير؛ وذلك لقرب التجريبتين بعضهما من بعض. إذ يمثل الرمز الصوفيّ في الشعر العربيّ الحديث أحد أهمّ وأبرز مداخله، فكان للواقع العربيّ أثره الفعّال في توجيه الشعراء العرب إلى هذا المنحى.

والشاعر العراقيّ عبد الوهاب البياتي من الشعراء العرب المعاصرين الذين تعاملوا بجدّ ورؤية شعرية فنيّة مع الشخسيّات التراثية، وخصوصاً الصوفيّة؛ فاستعان كغيره بالرموز (شخسيّات وأساطير) للوصول إلى أفق أوسع في شعره لما فيها من شحنة دلالية على الموضوع الشعري. وقد حث الشعراء على ذلك حاجتهم الماسة إلى القفزة النوعية فوق ما اعتادوا عليه من الغنائية مثلاً. «فالأتجاه صوب المعين الرمزي والأسطوري ليس إلا جزءاً من رسالة القصيدة الحديثة في هجر الغنائية والامتلاء بالدراما واستضافة عناصر السرد الممكنة كسبيل من سبل تخفيف الغنائية والمباشرة»<sup>(2)</sup>.

واللغة الصوفيّة «هي لغة رمزيّة تجريدية تسعى إلى استيعاب معاناة الشاعر الوجدانية، لذلك فهي تكتسب خصائص تلك المعاناة، تتحول من لغة تقريرية إلى لغة

(1). عبد الوهاب بن أحمد البياتي: شاعر مجيد، من رواد شعر الحداثة في العصر الحديث. ولد في بغداد ودرس فيها ثم تخرّج من دارالمعلمين العالية في بغداد. عمل مدرّساً ومارس الصحافة، فكتب في الآداب والسياسة فأغضب سلطات الاحتلال في بلده، فغذّب واضطهد». (إميل بديع يعقوب: موسوعة الأدب والأدباء العرب في روايتهم. 560/15).

(2). حاتم الصكر: مرايا نرسييس. ص 106

كشف وتبصّر، وإضاءة لموضوعها»<sup>(1)</sup>. وهذا ما يؤكده قول الشاعر نفسه: «تصوّفي جزء من رؤاي الشعريّة وكياني الذي احترقت به وهي رؤاي في هذه المرحلة أو تلك من مراحل الشعريّة... وأنا لا أسعى إلى مملكة الله في العالم الآخر بل أسعى إلى مملكة الله والإنسان في هذه الدّنيا»<sup>(2)</sup>.

وفي هذا البحث سنتناول إحدى أبرز الشّخصيّات الصّوفيّة التي استعان بها البياتي: «الحلاج»، وتظهر هذه الشّخصيّة في شعره بصورة مكثّفة منذ بداية السّتينيّات؛ فالحلاج شخصيّة غنيّة خصبة ملهمة، تفتح أبوابًا للتّفكير، تعدّدت جوانبها واتّسعت آفاقها، واحتشدت فيها جميع الانفعالات النّفسيّة والوجدانيّة، والإلهامات الرّوحية، كما تمثّلت في وقائعها كافّة العناصر التي تصنع بطولات التّاريخ ومعجزاته. يقول البياتي: «قطرات دم الحلاج المصلوب قد تحولت إلى زيت في مصباح الإنسانية، وإلى بذرة، فشجرة فغابة، إنّ مصارع العشاق والشوار والفنانين واستشهادهم يظلّ الجسر الذي تعبّره الحضارة الإنسانية إلى ذات أكثر اكتمالا»<sup>(3)</sup>.

وسنتطرّق في هذا البحث إلى شخصيّة الحلاج عند الشاعر عبد الوهّاب البياتي في قصيدته «عذاب الحلاج»، ففيها تتداخل تجربة البياتي مع تجربة الحلاج، بلغة تتوسّل الرّمز والإشارة سبيلًا، ممّا يُضفي عليها نوعًا من الغموض الذي لا يتأتّى إدراكه إلاّ بالتزوّد من معين ثقافة الشاعر الصّوفيّة، والكشف عن العلاقات القائمة بين تجربة مرّ عليها أكثر من عشرة قرون، وتجربة معاصرة تتخذُ بُعدًا ذاتيًا.

انطلاقًا ممّا سبق، سنحاول في هذا البحث الإجابة عن التّساؤلات الآتية من خلال دراسة قصيدة «عذاب الحلاج»:

ما هي الدّواعي الدّائيّة والموضوعيّة التي جعلت الشاعر يستدعي شخصيّة الحلاج؟ وهل لهذه الشّخصيّة أثر في الشّعر البياتيّ؟

وسأتّبع في هذا البحث المنهج الوصفيّ الذي يهتمّ بدراسة الظواهر كما هي موجودة في الواقع، إضافة إلى أنّه يهتمّ بوصف الظاهرة وصفًا دقيقًا يبيّن أهمّيّتها. والمنهج الوصفيّ هو أساس لتوضيح أيّ ظاهرة، وفي هذا البحث سأقوم بوصف ظاهرة الرّواج

(1) . عبد العليم محمّد إسماعيل علي: ظاهرة الغموض في الشّعر العربيّ. ص 220.

(2) . عبد الوهّاب البياتي: كنت أشكو إلى الحجر. ص 124.

(3) . عبد الوهّاب البياتي: تجرّبي الشعريّة. ص 47.

في الرواية العربية.

## أولاً: بين الحلاج والبياتي

### 1 - نبذة عن الحلاج

الحلاج (... - 309هـ = ... 922م) هو الحسين بن منصور الحلاج، فيلسوف، «بعد تارة في كبار المتعبدين والزهاد، وتارة في زمرة الملحدين. ظهر أمره سنة 299هـ، فاتب بعض الناس طريقته في التوحيد والإيمان، ثم كان ينتقل في البلدان وينشر طريقته سرّاً، وكان يظهر مذهب الشيعة للملوك (العباسيين) ومذهب الصوفية للعامة، وهو في تضاعيف ذلك يدعي حلول الإلهية فيه. وكثرت الوشائيات به إلى المقتدر العباسي فأمر بالقبض عليه، فسُجن وعدّب وضرب وهو صابر لا يتأوه ولا يستغيث. وقطعت أطرافه الأربعة، ثم حُرّ رأسه وأحرقت جثته، ولما صارت رماداً ألقيت في دجلة ونصب الرأس على جسر بغداد»<sup>(1)</sup>؛ فهو صرّح بالمنوع، فقطعت يده ورجلاه، ودفع حياته ثمناً لذلك، ولتبرّر السلطة قتله لجأت إلى الدين، وحاكمته بسبب كشوفاته الصوفية، فكان مصيره تراجيدياً نتيجة تصريحاته وما باح به.

### 2 - الحلاج في ديوان البياتي

جعل البياتي الحلاج محوراً لثلاث قصائد طويلة، الأولى (عذاب الحلاج) التي نشرت في ديوان (سفر الفقر والثورة) الذي صدر سنة 1965، والثانية قصيدة (القربان) التي نشرت في ديوان (سيرة ذاتية لسارق النار) الذي صدر سنة 1974، أما الثالثة فعنوانها (قراءة في كتاب الطواسين للحلاج) والتي نشرت في ديوان (قمر شيراز) الصادر سنة 1975م. وهناك قصائد أخرى في دواوين مختلفة تتعرض لهذه الشخصية.

أما قصيدة (عذاب الحلاج)، موضوع بحثنا، فهي قصيدة مطوّلة تتكون من ستة مقاطع على بحر الرجز، تكتسي طابعا من الغموض الشديد، تخيم عليها سحائب روحانية صوفية، وكما يقول «رؤوبين سنير Snir Reuven»: «إنّ الحركة الجدلية في القصيدة تتراوح بين أربعة مستويات متشابكة:

(1). الزركلي: الأعلام. 2/ 260.

- المستوى التاريخي: سيرة حياة الحلاج.
- المستوى الصوفي النظري: مراحل التجربة الصوفية.
- المستوى الاجتماعي والسياسي: النضال من أجل الحرية والعدالة.
- المستوى الشعري: مراحل التجربة الشعرية<sup>(1)</sup>.

وقد لجأ عبد الوهاب البياتي في هذه القصيدة إلى الرمز الصوفي من خلال شخصية الحلاج، لأنّ الشعر والصوفية حقلان متقاربان في عالم معرفي واحد، هو عالم الروح المتخفي وراء عالم الواقع، فالتجربتان الصوفية والشعرية هما في حقيقتهما تجربة حياتية ونفسية شعورية تكشف عن واقع الحياة اليومية وما تبلور عنها من مشاعر في وجدان الشاعر، ف «هناك وشائج قري تجمع بين التصوّف والفنّ، بشكل عامّ، وبينه وبين الشعر بشكل خاصّ، هذه الوشائج تتمثل في أنّ كليهما يحيل إلى العاطفة والوجدان»<sup>(2)</sup>.

## ثانياً: شخصية الحلاج في شعر البياتي

### 1 - المقطوعة الأولى: المرید

المرید هو المتعلّم على يد شيخ صوفيّ، وهو رتبة من رتب الصوفية، يحاول البياتي فيها وصف حال المرید قبل توبته وبعد التوبة ليرتقي إلى مراتب الصوفية، يقول:

سَقَطَتْ فِي العِنْمَةِ والفِرَاغِ

تَلَطَّخْتُ رُوْحَكَ بِالْأَصْبَاغِ

شَرِبْتُ مِنْ آبَارِهِمْ

أَصَابَكَ الدُّوَانِ

تَلَوَّنْتُ يَدَاكَ بِالْحَبْرِ وَالْعُبَاذِ

وَهَا أَنَا أَرَاكَ عَاكِفًا عَلَى رَمَادِ هَذِي النَّارِ

صَمْنُوكَ بَيْنُ العُنْكَبُوتِ، تَأْجُكَ الصَّبَّارِ

(1) . رؤوبين سنير: ركعتان في العشق - دراسة في شعر عبد الوهاب البياتي. ص 95.

(2) . ينظر: عاطف جودة نصر: الرمز الشعري عند الصوفية. ص53.

يَا نَاحِرًا نَاقَتُهُ لِلجَازِ  
طَرَفْتُ بِأَبِي بَعْدَ أَنْ نَامَ الْمُعَنِّي  
بَعْدَ أَنْ تَحَطَّمَ الْقَيْئَازُ (1)

يربط البياتي بين الماضي: صوت الحلاج، والحاضر: صوت الشاعر، في مقابل صوت السلطة، ليجعل الشاعر من نصه بؤرة للتحويلات التاريخية عبر انصهاره مع الشخصية التراثية، لكن برؤية مختلفة وترميز مغاير، بما يجعل من الحلاج رمزاً ليعبر به عن رؤية إبداعية معاصرة، وذلك من خلال لغة إيحائية جلها من التراث الصوفي، تثير معاني مرتبطة بالواقع، تكشف عن حدث تاريخي واقعي هو نفسه الحدث الذي يتحدث عنه النص لكن بطريقة مغايرة وبطرح معاصر، فالحلاج والبياتي كلاهما كان له حظوة عند ذوي الشأن والسلطة في المرحلة الأولى من حياتهما. فيظهر الشيخ في هذه الأبيات يلوم مريده الحلاج لأنه ينهل من منابع السلطة، وقيم بعض وقته في قصور الخلافة والأمراء؛ لكن المريد لم يتوان عن إبداء تقصيره، بعدما جرفته أهواء نفسه ورغباته، وجعلته عاجزاً عن اللحاق برتبة شيخه:

مِنْ أَيْنَ لِي وَأَنْتَ فِي الْحَضْرَةِ تَسْتَجَلِي  
وَأَيْنَ أَنْتَهِي وَأَنْتَ فِي بَدَايَةِ انْتِهَاءِ (2)

ثم يستعرض البياتي في قصيدته واقعه الزاهن، وتجربته الذاتية عبر سيرة الحلاج، فكلاهما شاعر التزم نهجاً تمزدياً ثورياً رافضاً للواقع، وتشكل المواجهة مع السلطة منحى جوهرياً سلكه كل منهما، ويحاول البياتي عبر رؤاه الشعرية إحداث التوافق بين عالمه، وعالم الحلاج، فيحدث التلاحم بين الواقع والتاريخ، ويحمل أحدهما تجليات الآخر، ليضيء جوانب معينة غامضة أو محظورة لا يمكن البوح بها، فيستشرف موقفاً تاريخياً يتجسد في تأكيد الانشقاق عن الواقع والانقلاب عليه، عبر سبل متباينة؛ من هنا يبدأ البياتي في استنساخ سيرة الحلاج، ويحورها ثم يضخمها لتتاسب نصه الذي يشتغل عليه، وهذا ما نراه في باقي المقطوعات.

(1). عبد الوهاب البياتي: الأعمال الشعرية الكاملة. 9 / 2.

(2). م. ن.، 9 / 2.

## 2- المقطوعة الثانية: رحلة حول الكلمات

يدافع الشاعر عن الفقراء ويبرز معاناتهم من الظلم والاستبداد والجبروت، ويؤكد وقوفه إلى جانبهم والتضحية من أجلهم في وجه الحاكم. فالشاعر كان كريماً في مواقفه وكأنه ذبح ناقته للفقراء ليأكل جميع الصيوف منها بشكل رمزي، من دون أن يكون بخيلاً. يقول الشاعر:

مَا أَوْحَشَ اللَّيْلَ إِذَا مَا انْطَفَأَ الْمِصْبَاحُ  
وَأَكَلَتْ حُبْرَ الْحِيَاكِ كَالْحَدِيدِ زُمُرُ الدِّنَابِ  
وَصَائِدُو الدُّبَابِ  
وَحَرَبَتْ حَدِيقَةَ الصَّبَاحِ  
السُّحْبُ السُّودَاءُ، وَالْأَمْطَارُ وَالرِّيَاخُ<sup>(1)</sup>

كما نجد أنّ الشاعر ينقل الحال المزرية التي يعيشها بطله، فيصوّر الواقع المأساوي الذي يعيشه العالم العربي، فظهر لنا منطلق الاستسلام والموت لذلك يناجي الإله ويتضرع له وهنا تقاطع بين الواقع والروح الصوفية، يشبه فيه الشاعر نفسه بالحلاج كمناجاة ذاتية، رغبة في إبراز مشاركته هموم الشعب ومعاناته من الصمت والظلمة والقهر النفسي نتيجة نفيه إلى خارج العراق. لكن رغم ذلك يبقى مقاوماً من أجل البقاء، يقول الشاعر:

يَا مُسْكِرِي بِحُبِّهِ  
مُحَيِّرِي فِي قُرْبِهِ  
يَا مُغْلِقَ الْأَبْوَابِ  
الْفُقَرَاءُ مَنْحُونِي هَذِهِ الْأَسْمَالِ  
وَهَذِهِ الْأَقْوَالِ

فَمَدَّ لِي يَدَيْكَ عَبْرَ سَنَوَاتِ الْمَوْتِ وَالْحِصَارِ<sup>(2)</sup>

(1) . عبد الوهّاب البياتي: الأعمال الشعرية الكاملة. 2 / 11.

(2) . عبد الوهّاب البياتي: الأعمال الشعرية الكاملة. 2/11.

وهنا يبدو الحلاج مضحياً بنفسه من أجل الفقراء من دون أن يتخلى عن تصوّفه (يا مسكري بحبه، محيّري في قربه)، ويتوسط بين الله والضعفاء لمساعدتهم (فمدّ لي يدك). وقد اتخذ البياتي الحلاج رمزاً «لمعاناة الإنسان ومحنته في العصر الحديث ووقوعه تحت وطأة الظلم والقهر ويبشّر بحتمية الثورة باسم الفقراء والضعفاء على كلّ ذوي السلطان»<sup>(1)</sup>.

نجد أنّ البياتي يحاول أن يتوسّع في رمزية الحلاج، وآلامه، لتتحول من حالة ذاتية شخصية إلى موضوعة إنسانية عامة، عبر السياق الشعري، وهذا التوسّع والتحوير يبرر للشاعر اختراق سيرة الحلاج، وشحنها بدلالات جديدة وآفاق جمالية متنامية، لإقامة علاقات جديدة تقوم على تبادل الأدوار بين الشاعر والحلاج، وتجاوز البعد الذاتي إلى البعد الإنساني، خاصة أن البياتي وجد قواسم مشتركة بينه وبين الحلاج، فقد كان الحلاج شاعراً ومفكراً، وهكذا هو البياتي، وتعرّب الحلاج في بيئته كثيراً وحرّوب وطورد، ولم يسلم البياتي من شيء كهذا، والحلاج ثوريّ النزعة، وكان يبيّن كلماته بين الناس عن الحقّ والعدل والسلطان الجائر، وهذه صفة أخرى يلتقي فيها الشاعر المعاصر بالشاعر القديم.

### 3- المقطوعة الثالثة (فسيفساء)

هذه المقطوعة شاذة عن السابقتين إذ تخرج عن سرد حياة الحلاج لتنتقل إلى سرد وقائع العصر الحاضر، ويصبح الحلاج شاهداً على عصره وعلى العصور الأخرى، العصر الذي وصل فيه الانحطاط والفساد أعلى مستوياته؛ يقول الشاعر:

مُهَرَّجُ السُّلْطَانِ

كَانَ وَيَا مَا كَانَ

فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ

يُدَاعِبُ الْأَوْتَارَ، يَمْشِي فَوْقَ حَدِّ السَّيْفِ وَالِدُّخَانِ

يَرْقُصُ فَوْقَ الْحَبْلِ، يَأْكُلُ الرُّجَاجَ، يَنْثَنِي مُغْنِيًا سَكْرَانًا

يُقَلِّدُ السَّعْدَانَ<sup>(2)</sup>

(1). مصطفى هدارة: بحوث في الأدب العربي الحديث. ص 39.

(2). عبد الوهّاب البياتي: الأعمال الشعرية الكاملة. 2/ 13.

يشير الشاعر في هذه المقطوعة إلى وقوفه في وجه الحاكم وأتباعه واتهامه إيّاهم بالجبن نصرة للفقراء، الشيء الذي أدى إلى اعتقاله ومحاكمته محاكمة غير عادلة، بها شهود زور، وكذب وبهتان، وتلفيق للتهم. ويؤكد على أنّ الجانب الحلاجي في داخله كان سبباً في هذه المحاكمة التي قضت بإعدامه، فصار ينتظر تنفيذ الحكم بفارغ الصبر مواجهًا مصيره بشجاعة، فيما الفقراء يقفون عاجزين يحزنون عليه وعلى حاله. فـ «مأساوية مثل هذا المصير كانت حاضرة إزاء كلّ كلمة كان الصوفيون يفوهون بها، لا سيّما ما يفاه بها في حال من الجذب أو الشطح أو الاصطدام أو الذهاب أو الوجد أو السكر أو الصّعق إلى ما هنالك من أحوال تعترى الصوفيّ في إطار تجربته الروحية، فيبوح بما لا ينبغي البوح به»<sup>(1)</sup>.

التاريخ يعيد نفسه، وهنا نقول «إنّ كثرة من نظم الحكم العربيّة لم تنبثق من إرادة شعوبها، فاحتمت بالخارج وسيّدت مصالحه على مصالح ناسها. وقد اتّسعت الهوة بينها وبين الناس. ولجأت هذه النخب إلى القمع والفساد للسيطرة عليهم»<sup>(2)</sup>. فما كان يشهد عليه الحلاج في عصره من فساد للحكام، موجود في عصرنا هذا، وبطله هو (مهرج السلطان) وهذه صورة للانتهازيين والمأجورين، الذين يعيشون تحت جناح السلطان.

#### 4- المقطوعة الرابعة المحاكمة

ترى الشاعر يسعى لتحريك هذا الشعب عبر حثّه على إشعال نيران الثورة لإخماد روح الاستسلام، كي ينقلهم من حال الركون إلى حال أفضل ليعمر الوطن وتزدهر الحياة؛ وذلك من خلال تصوير الحلاج وهو يؤثر مصلحة مجتمعه على مصلحته، ويضحى بنفسه من أجل الآخرين، وينتهي به المطاف بأن يكون شهيد الكلمة، يقول البياتي<sup>(3)</sup>:

بُحْتُ بِكَلِمَتَيْنِ لِلسُّلْطَانِ

قُلْتُ لَهُ: جَبَانُ

قُلْتُ لِكَلْبِ الصَّيْدِ كَلِمَتَيْنِ

(1). حسين بن منصور الحلاج، (ت 309هـ - 922م). الطّواسين؛ تحق رضوان السّح. ص 8 - 9.

(2). ربما خلف وآخرون: الظلم في العالم العربيّ والطريق إلى العدل. ص 5.

(3). عبد الوهّاب البياتي: الأعمال الشعرية الكاملة. 2 / 15.

وَنِمْتُ لَيْلَتَيْنِ

حَلَمْتُ فِيهَا أَنِّي لَمَّا أَعُدُّ لَفْظَيْنِ

الشاعر يخاطب من خلال (الرمز/الحلاج) الله ليخبره بتحديه للسلطان/الظلم، في سبيل الفقراء والمظلومين. فعمد إلى شخصية الحلاج لأنه «يحمل روح تائر، وقلب قطب وعقل زعيم»<sup>(1)</sup>.

فتتداخل ذات الشاعر مع الشخصية الحكائية إلى درجة التوحد، إذ يتحول الحلاج المتصوف «إلى تائر مطالب بحرية الفكر في نظر الأجيال المتقهمة لعصر الديمقراطية وحدها... وكان البياتي يمارس هذه الحقيقة باعتبارها نقطة الوسط في الصراع السياسي المعاصر وحده، فهو ما يزال يعتبره ضحية الدكتاتورية الفكرية في بغداد القديمة والحديثة على السواء، وما يزال يعتبر الفقهاء والحكام في العراق رمزاً واحداً للدكتاتور الضيق الأفق»<sup>(2)</sup>.

#### 5- المقطوعة الخامسة: الصلب

يصور الشاعر الحلاج مصلوباً، وهنا نلاحظ التناص مع قصة السيد المسيح ليصور مشهد الصلب، ويدخل الشاعر في المعادلة من خلال الدور الذي يؤديه في المجتمع، فيصبح الحلاج = المسيح = الشاعر، فالحلاج «شخصية مكررة من شخصية المسيح عليه السلام، جاء ليعيد مأساة جبل الجلجلة»<sup>(3)</sup>، وليكرر فكرة الفداء، فداء البشرية من الخطيئة الأولى»<sup>(4)</sup>.

يقول الشاعر:

وَأُنْدَفَعُ الْفُضَاءَ وَالشُّهُودُ وَالسِّيَافُ

فَأَحْرَقُوا لِسَانِي

وَنَهَبُوا بُسْتَانِي

وَبَصَّفُوا فِي الْبُنْرِ، يَا مُحَيَّرِي

(1). طه عبد الباقي سرور: الحلاج شهيد التصوف الإسلامي. ص 17.

(2). الصادق النيوم: الذي يأتي ولا يأتي. ص 63.

(3). الجبل الذي قيل إن عيسى عليه السلام صلب عليه.

(4). طه عبد الباقي سرور: الحلاج شهيد التصوف الإسلامي. ص 15.

وَمُسْكِرِي

وَطَرَدُوا الْأَضْيَافَ

مِنْ أَيْنَ لِي أَنْ أَعْبُرَ الصِّقَافَ

وَالنَّارُ أَصْبَحَتْ رَمَادًا هَامِدًا

مِنْ أَيْنَ لِي؟ يَا مُغْلِقَ الْأَبْوَابِ

وَالْعُقْمِ وَالْيَبَابِ<sup>(1)</sup>

كان بإمكان كلّ من الحلاج والبياتي الاستكانة إلى الأمر الواقع، والقبول فيه كما هو، ولكنهما سعيا لأن يغيّرا حال الرّكود والموت الفكريّ والرّوحيّ التي تسيطر على المجتمع العربيّ، فهما يطمحان إلى الانتقال من مرحلة الجمود إلى مرحلة الثّورة التي تستنهض الأمة.

ولعلّ توظيف البياتي لهذه الشّخصيّة، يرتهن بتأسيس خطاب شعريّ ملتزم، ردّا على مقولة سارتر - التي يعارضها البياتي - بإخراج الشّاعر من فئة الملتزمين بقوله: «أنا أخالف رأي سارتر الذي شبّه الشّاعر بمشعل الحرائق في هشيم اللّغة، وأخرجه من فئة الملتزمين، فالشاعر غارق في أذنيه- في بلبال هذا العالم، وفي بلبال الثّورة والإنسان»<sup>(2)</sup>.

## 6- المقطوعة السادسة: رماد في الرّيح

يشير الشّاعر في قصيدته إلى معاناته من ظلم الحاكم والمسؤولين نتيجة مواقفه ودفاعه عن الفقراء، ويشبّه حاله بحال الحلاج، فهما يشتركان في الصّمود والنّبأ على المواقف. ولقد استعان الشّاعر بمجموعة من الصّور الشعريّة من بينها التشبيه والرّمز الذي زخرت به القصيدة. ونبع الشّاعر أيضًا من معجم دينيّ تصوفيّ، وتميّزت لغته بالكثافة والاختزال والطّابع الدّرامي. كما اعتمد إيقاعًا موسيقيًا توافق ونفسيّته الحزينة الأبيّة التي تعلن الصّمود رغم اغترابها وبعدها عن الوطن.

كما يصوّر الشّاعر التّكليل بجثّة الحلاج وحرقتها ورميها من فوق منارة رمادًا في الرّيح. لقد أظهر الشّاعر عذاب الحلاج وموته، ليبين لنا أنّ الأنظمة الاستبداديّة تقوم

(1) . عبد الوهاب البياتي: الأعمال الشعريّة الكاملة. 2/ 17-18.

(2) . عبد الوهاب البياتي: تجرّبي الشعريّة. ص 43.

على المبالغة في القمع وترويع الجمهور، وذلك لضمان كبت الطبقة المثقفة وكل من يفكر في رفع صوته ضدّ الظلم، وضدّ السلطة الحاكمة، فيكون خطراً على بقاء الحكم، «ولك أن تقرأ تاريخ الخلافتين الأموية والعباسية ثمّ العثمانية والدّماء التي أريقت على أرض العرب، في عنفٍ شرسٍ تحزّ فيه الرّؤوس وتُداس جثث القتلى بالحوافر وما نجم عن ذلك من توارث الحقد الذي يُفضي بالضرورة إلى الانتقام حين تَحِين الفرصة»<sup>(1)</sup>. يقول الشاعر:

عَشْرُ لَيَالٍ وَأَنَا أَكَابِدُ الْأَهْوَالِ  
وَأَعْتَلِي صَهْوَةَ هَذَا الْأَلَمِ الْفَتَّانِ  
أَوْصَالَ جِسْمِي قَطَعُوهَا  
أَحْرُقُوهَا

نَنزُرُوا رَمَادَهَا فِي الرِّيحِ<sup>(2)</sup>

ثم يختم الشاعر بصعود الحلاج إلى القمة المشرفة:

فِي غَابَةِ الرَّمَادِ

سَتَكْبُرُ الْعَابَةُ يَا مُعَانِقِي

وَعَاشِقِي

سَتَكْبُرُ الْأَشْجَارُ

سَنَلْتَقِي بَعْدَ غَدٍ فِي هَيْكَلِ الْأَنْوَارِ

فَالزَّيْتُ فِي الْمِصْبَاحِ لَنْ يَجِفَّ، وَالْمَوْعِدُ لَنْ يُفُوتَ

وَالجُرْحُ لَنْ يَبْرَأَ، وَالْبِدْرَةُ لَنْ تَمُوتَ<sup>(3)</sup>

ونلاحظ في هذه الأبيات اندماجه مع الفكر الصوفي «فخلال ممارسة التجربة الصوفية يترقى الصوفي ويتسامى بروحه وأحاسيسه في الطريق إلى الحق مبتغياً الوصول إلى الحضرة الإلهية حيث يكون الفناء في الحضرة هو الغاية والهدف»<sup>(4)</sup>.

(1) مجموعة مؤلّفين: العرب بين مآسي الحاضر وأحلام التغيير، ص 102.

(2) عبد الوهّاب البياتي: الأعمال الشعرية الكاملة. 2/ 19.

(3) م. ن.، 2/ 19 - 20.

(4) إبراهيم محمّد منصور: الشعر والتصوّف، الأثر الصوفيّ في الشعر العربيّ المعاصر (1945م - 1995م). ص 43.

## خاتمة

من خلال ما سبق، نستطيع تحديد نظرة البياتي للتصوّف والمتصوّفة، فهو يستعير منهم رفضهم للواقع الاجتماعي وتمردهم عليه ومعاناتهم من أجل تحقيق ما يصبون إليه، لذلك استحضّر شخصيات عربيّة وغربيّة ودينيّة وكان من أبرزها شخصيّة الحلاج التي تحمل خصائص ومواصفات رمزيّة وحضاريّة، وجعلها رمزاً وعبر من خلالها عن المعاناة الرّوحية والجسديّة للإنسان المعاصر.

وقد عمد إلى استخدام شخصيّة الحلاج ليظهر أنّ التّاريخ يعيد نفسه، فهو لم يرد تسليط الضّوء على حياة الحلاج وتصوّفه، بل عمد إلى تبيان حال الفساد الذي يسود العالم العربيّ، هذا الاستقرار النّاتج عن الاستسلام للواقع المرير والخضوع له، من دون السّعي نحو تبديل الأوضاع وتحسينها، فأراد الشّاعر من خلال الحلاج أن يحثّ المجتمع على التّغيير، والاستيقاظ من ركوده.

كما يمكننا القول إنّ عبد الوهاب البياتي أراد من خلال شعره التّأكيد على دور الفنان والمفكر والشاعر، إذ يقع على عاتقهم مسؤولية بث روح التّغيير في المجتمع، والقيام بدور هامّ، والتضحية ولو بالكلمة في سبيل نبذ الظلم والطغيان عن المجتمع. كما أنّ شعر البياتي «هو تطوير للشعر في دفع الحياة المعاصرة وفي خدمة قضايا هذا العصر، بحيث أصبح قلمه سلاحاً نواجه به قوى الشر والدمار وكلّ ما هو مضادّ للحياة»<sup>(1)</sup>.

(1) . عدنان حقيّ: ربيع الحياة في مملكة الله شهادات ودراسات في شعر عبد الوهاب البياتي. بغداد، مطبعة الأديب البغدادية، لا ط، 1974م، ص 25.

## المصادر والمراجع

- البياتي، عبد الوهاب: الأعمال الشعرية الكاملة. بيروت، دار عودة، لا ط، 2008م.
- البياتي، عبد الوهاب: كنت أشكو إلى الحجر. بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1993م.
- البياتي، عبد الوهاب: تجربتي الشعرية. بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1993م.
- جودة نصر، عاطف: الرمز الشعري عند الصوفية. الإسكندرية، دار الأندلس، ط1، 1983م.
- الحلاج، حسين بن منصور (ت 309هـ - 922م): الطواسين؛ تحق رضوان السح. دمشق، دار الفرقد، ط1، 2010م.
- حقي، عدنان: ربيع الحياة في مملكة الله - شهادات ودراسات في شعر عبد الوهاب البياتي. بغداد: مطبعة الأديب البغدادية، لا ط، 1974م.
- ريماء خلف وآخرون: الظلم في العالم العربي والطريق إلى العدل. القاهرة، الإسكوا، 2011م.
- الزركلي (خير الدين): الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. بيروت، دار العلم للملايين، ط7، 1986م.
- سرور، طه عبد الباقي: الحلاج شهيد التصوف الإسلامي. القاهرة، مؤسسة هنداوي، 2012م.
- سنير، رؤوبين: ركعتان في العشق - دراسة في شعر عبد الوهاب البياتي. بيروت، دار الساقية، ط1، 2002م.
- الصكر، حاتم: مرايا نرسييس. بيروت - لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، 1999م.
- علي، عبد العليم محمد إسماعيل: ظاهرة الغموض في الشعر العربي. القاهرة، دار الفكر العربي، 2012م.
- مجموعة مؤلفين. العرب بين مآسي الحاضر وأحلام التغيير: أربع سنوات من الربيع العربي. بيروت، مؤسسة الفكر العربي، 1436هـ - 2014م.
- منصور، إبراهيم محمد: الشعر والتصوف، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر (1945م - 1995م). القاهرة، دار الأمين للنشر والتوزيع، لا ط، لا تا.
- النيهوم، الصادق: الذي يأتي ولا يأتي. ليبيا - بيروت، تالة للطباعة والنشر - مؤسسة الانتشار العربي، ط1، 2002م.
- هدارة، مصطفى: بحوث في الأدب العربي الحديث. القاهرة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1994م.
- يعقوب، إميل بديع: موسوعة الأدب والأدباء العرب في روائعهم. بيروت، دار نوبليس، ط1، 2006م.

## دور التعزيز في تعديل السلوك العدوانية من وجهة نظر معلّمي الصفّ السادس الأساسي في بعض مدارس بيروت

كاتيا بركات

### أولاً: أهميّة الموضوع

يعتبر العدوان من السلوكيات التي تعرقل مسيرة التعلّم عند التلميذ، كالتحصّل والتكيّف والتوافق داخل البيئة الصفّية؛ ويُقصد بالعدوان أو السلوك العدوانية «السلوك الهجومي المنطوي على الإكراه والإيذاء»<sup>(1)</sup>، وقد يكون جسدياً كالضرب والدفع وشد الشعر، وقد يكون لفظياً كالشتم والسخرية، أو رمزيّاً كالامتناع عن النظر إلى الشخص الذي يُكنّ له العداوة<sup>(2)</sup>. ولذلك يعتبر العدوان من السلوكيات التي تستدعي التّدخل لتعديلها.

ونعني بتعديل السلوك إزالة أو إضعاف السلوك غير المرغوب فيه، أو تغييره وتطويره وتقويته إلى سلوك مرغوب فيه<sup>(3)</sup>. ومن أهمّ استراتيجيات تعديل السلوك التعزيز، «وهو عملية زيادة السلوك وتحويله إلى استجابة معيّنة عن طريق تقديم معزّز لغرض ظهور هذا السلوك أو الاستجابة»<sup>(4)</sup>. ونقصد بهذه الاستراتيجية التعزيز بنوعيه، الإيجابي حيث يتمّ تقديم كلّ المعزّزات المرغوب فيها، والتي تلي حدوث السلوك المرغوب فيه<sup>(5)</sup>، والسلبي حيث يتمّ إزالة عاقبة مزعجة أو مؤلمة بعد حدوث السلوك المرغوب فيه مباشرة<sup>(6)</sup>.

والمقصود بالسلوك غير المرغوب هو كلّ تصرف غير سويّ، ويكون له ارتدادات سلبية على المتعلّم وزملائه وبيئة الصفّ والمدرسة، لذلك يعمد المعلّم إلى تعديل السلوك غير المرغوب لتقويم تصرف التلميذ، وتفعيل العملية التعلّميّة - التعلّميّة.

وعلى الرغم من أنّ التعزيز هو أحد أهمّ أساليب تعديل السلوك، بحيث يعمل على زيادة سلوك مرغوب فيه، لأنّ السلوك الذي يُعزّز يميل الفرد إلى تكراره، إلا أنّ طبيعة

(1) خليل المعاينة، مصطفى القمش، الاضطرابات السلوكية والانفعالية، ص 202.

(2) م.ن، ص 205.

(3) عبد الواحد كاظم، السلوك الصفّي المشكل في مدارس البحرين الحكومية، ص 43.

(4) عبد الرحمن الهاشمي، طه الدليمي، استراتيجيات حديثة في فنّ التدريس، ص 3.

(5) سهيلة الفتلاوي، تعديل السلوك في التدريس، 282.

(6) سهيلة الفتلاوي، م.ن، ص 306.

التّحدّيات التي تواجه المعلّم أثناء أدائه لمهامّه، تجعل عمليّة إثابة السلوك المرغوب أصعب من أساليب أخرى كالعقاب، لأنّ الثّواب أو التّعزير كما أصبح يطلق عليه، يتطلّب مراقبة التّلميذ وملاحظة سلوكه والتّنبه له عند قيامه بالسلوك المرغوب، وتحديد المعزّز المناسب له بالإضافة إلى خطوات أخرى تتطلّب جهداً. كما أنّ النّفس البشريّة تميل دوماً إلى رؤية السلبيّات أكثر من رؤية الإيجابيّات، وهو ما يفوّت أحياناً على المعلّمين فرصة تعديل سلوك معيّن.

من هنا كانت أهميّة دراسة دور التّعزير وفعالّيته وإمكانيّة تطبيقه كاستراتيجيّة لتعديل السلوك العدوانيّ من وجهة نظر المعلّمين، ويكتسب الموضوع المطروح في هذه الدّراسة أهمّيته من عدّة نقاط أهمّها:

1 - السلوك العدوانيّ الذي تمّ اختياره كمتغيّر تابع، والذي يعتبر من أهمّ الاضطرابات السلوكيّة التي تحدث في الصّف، نظراً لتأثيره الكبير على العمليّة التربويّة وعلى التّلميذ نفسه وعلى زملائه.

2 - اختيار التّعزير كأسلوب من أساليب تعديل السلوك وهو المتغيّر المستقلّ في هذه الدّراسة، ممّا يجعل الدّراسة أكثر تحديداً.

3 - اختيار معلّمي الصّف السّادس الأساسيّ لاستطلاع آرائهم، وهي الفئة العمريّة التي يصبح معها السلوك العدوانيّ أكثر صعوبة، حيث تبدأ شخصيّاتهم بالتّبور، ويسعون إلى إثبات ذواتهم.

### ثانياً : الوضع الراهن وطرح الإشكاليّة

لم نجد، بحسب علمنا، دراسةً في لبنان تتقاطع مباشرة أو تتماثل مع دراستنا؛ غير أنّنا وجدنا بعض الدّراسات التي تتقاطع معنا في جزء من أجزاء الدّراسة، كدراسة « أساليب الثّواب والعقاب المعتمدة في الصّف الأساسي في بعض مدارس بيروت » لغادة جوني والتي أعدّتها عام 2005 م في معهد الآداب الشّرقية في جامعة القديس يوسف لنيل شهادة الماجستير في التّربية، والتي أظهرت أنّ عقاب السلوك غير المقبول يستخدم بنسبة أعلى من التّعزير مهما كانت طبيعة السلوك ومهما كان نوع التّعزير.<sup>(1)</sup> بالإضافة إلى دراسة أجرتها حوراء عبد الله أيضاً لنيل درجة الماجستير في

(1) غادة جوني، أساليب الثّواب والعقاب المعتمدة في الصّف السّابع الأساسيّ في بعض مدارس بيروت، ص 218.

التربية في معهد الآداب الشرقية، حول «دور التعزيز في رفع مستوى التحصيل في مادة اللغة الإنكليزية لتلاميذ الصف الخامس الأساسي في بعض مدارس الضاحية الجنوبية لبيروت» عام 2010 م، وقد أظهرت النتائج وجود فروق دالة إحصائياً بين متعلمي الصف الخامس الذين تلقوا تعزيزاً والذين لم يتلقوا<sup>(1)</sup>.

ولكن وقفنا خارج لبنان على دراسة بعنوان «فاعلية التعزيز الإيجابي في خفض السلوك العدوانى لدى التلاميذ ذوي الإعاقة الفكرية البسيطة»، أجراها الطالب فارس الزهراني وبإشراف الدكتور بندر العتيبي في جامعة الملك سعود في المملكة العربية السعودية، وقد كانت النتائج المستخلصة من هذه الدراسة أن هناك علاقة وظيفية بين متغيري الدراسة (التابع سلوك الشتم، والمستقل التعزيز الإيجابي)، حيث تم خفض هذا السلوك بعد عملية التدخل<sup>(2)</sup>. وأيضاً وقفنا على دراسة أخرى نشرتها مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية في عددها السادس والعشرين عام 2016 م بعنوان «تقدير معلمي التربية الخاصة لأهمية أسلوب التعزيز الرمزي في تعديل السلوك العدوانى لدى المتخلفين عقلياً»، وكان من بين النتائج التي توصلت إليها الدراسة، عدم وجود فروق دالة إحصائياً بين معلمي التربية الخاصة في تقديرهم لأهمية أسلوب التعزيز الرمزي في تعديل السلوك العدوانى للمتخلفين عقلياً (إعاقة بسيطة) تُعزى لمتغير الجنس. لذلك اعتمدنا على مصادر ومراجع عربية وأجنبية وقرت لنا المعطيات العلمية، وعمقت الإطار النظري، وسهلت إمكانية الاطلاع على نماذج لقياس السلوك. وكان أهم ما أفادتنا به هذه المراجع:

1- الاطلاع العام على السلوك الإنساني وأهداف ومبادئ تعديله، وطرق قياسه وتشكيله، واستراتيجيات تعديل السلوك.

2- التعمق في فهم السلوك غير المرغوب فيه بشكل عام، والسلوك العدوانى بشكل خاص.

3- الاطلاع على مفهوم العدوان ونظرياته واضطرابات النمو التي تسببه .

4- الاطلاع على استراتيجيات تعديل السلوك داخل الصف ودور المعلم في تعديل

(1) حوزاء عبد الله، دور التعزيز في رفع مستوى التحصيل في مادة اللغة الإنكليزية، ص 122.

(2) فارس الزهراني، فاعلية التعزيز الإيجابي في خفض السلوك العدوانى لدى التلاميذ ذوي الإعاقة الفكرية البسيطة، ص 2.

## السُّلوك.

أما الإشكالية فيمكن تلخيصها بالتعارض الحاصل بين الإقرار النظري بأهمية التعزيز في تقليل السلوك العدواني، وبين الممارسة العملية في غرفة الصف حيث يميل بعض المعلمين إلى اعتماد العقاب كحل لهذا السلوك غير المرغوب فيه. فعلى الرغم من أن التعزيز يُعتبر من الوسائل التي أكدت بعض النظريات السلوكية أهميتها ومكانتها كباعث قوي في تعديل السلوك، ومنها نظرية الإشراف الإجرائي التي أسسها عالم النفس الأميركي سكينر «(Burrhus Skinner)»<sup>(1)</sup>، إلا أن بعض المعلمين يعتبرون هذا الأسلوب نوعاً من الرشوة التي تُقدم للمتعلم، خاصة أن سوء استعمال قوة التعزيز، إذا قُدِّم قبل القيام بالسلوك المطلوب، يقلل من رغبة الطفل في القيام بالمطلوب منه، وهذا هو الفرق بين التعزيز والرشوة، حيث يجب تقديم التعزيز بعد إنجاز السلوك المستهدف. كما و يثير البعض الآخر من المعلمين تساؤلات حول نجاعة التعزيز، وأثر المعززات المقدمة ومدى ديمومتها، الأمر الذي يجعل البعض منهم يميل أكثر لاعتتماد العقاب كأسلوب للحد من السلوك العدواني ومنعه.

### ثالثاً : تساؤلات البحث

الأسئلة التي دفعتنا الإشكالية إلى طرحها منها ما أجب عنها القسم النظري وهي:

- 1 - ما هو مفهوم السلوك العدواني؟ وما هي أسبابه ونظرياته؟
  - 2 - ما هي العوامل المؤثرة في السلوك العدواني؟ وما هي أساليب تعديله؟
  - 3 - ما هو مفهوم التعزيز؟ وما هي أنواعه؟
  - 4 - ما هي أنواع المعززات المستخدمة؟
  - 5 - ما هي خطوات التعزيز؟ وما هي العوامل المؤثرة في فعاليته؟
- ومنها ما أجب عنها القسم الميداني وهي :
- 1- ما مدى اعتماد معلمي الصف السادس الأساسي في بعض مدارس بيروت التعزيز كأسلوب في تعديل السلوك العدواني؟

(1) سكينر ( 1904 - 1990): عالم نفس أميركي، درس في عدة جامعات، أكد أن السلوك الإنساني يحدده الأثر الذي يحدثه في المجتمع وهو ما سمى بالإشراف الإجرائي. المرجع: كتاب «psychologie du développement» لـ Kathleen Berger، ص 1.

2- هل هناك فروق في تعديل السلوك العدوانيّ تعزى إلى متغيّر نوع التّعزير؟

3- هل هناك فروق في نتائج تعديل السلوك العدوانيّ تعزى إلى متغيّرات الجنس والمادّة التّعليميّة ونوع المدرسة وسنوات الخبرة والدّورات التي خضع لها المعلّمون؟

#### رابعاً: فرضيّات الدّراسة

تتلخّص فرضيّات هذا البحث بالآتي:

1. هناك فروق دالّة إحصائيّاً على تقليل احتمال ظهور السلوك العدوانيّ تعزى إلى نوع التّعزير (إيجابيّ - سلبيّ)
2. هناك فروق دالّة إحصائيّاً على نوع التّعزير الذي يساهم في تقليل ظهور السلوك العدوانيّ من وجهة نظر المعلّمين تعزى إلى متغيّر الجنس .
3. هناك فروق دالّة إحصائيّاً على نوع التّعزير الذي يساهم في تقليل ظهور السلوك العدوانيّ من وجهة نظر المعلّمين تعزى إلى متغيّر مادّة التّدريس.
4. هناك فروق دالّة إحصائيّاً على نوع التّعزير الذي يساهم في تقليل ظهور السلوك العدوانيّ من وجهة نظر المعلّمين تعزى إلى متغيّر القطاع (نوع المدرسة).
5. هناك فروق دالّة إحصائيّاً على نوع التّعزير الذي يساهم في تقليل ظهور السلوك العدوانيّ من وجهة نظر المعلّمين تعزى إلى متغيّر سنوات الخبرة .
6. هناك فروق دالّة إحصائيّاً على نوع التّعزير الذي يساهم في تقليل ظهور السلوك العدوانيّ من وجهة نظر المعلّمين تعزى إلى متغيّر الدّورات التي خضع لها المعلّمون والمعلّمات.

#### خامساً: منهج الدّراسة

اعتمدنا في هذه الدّراسة المنهج الوصفيّ التّحليليّ، الذي «يستخدم لدراسة واقع أو ظاهرة ما، ويهتمّ بوصفها وصفاً دقيقاً والتّعبير عنها كيفيّاً أو كمّيّاً، والتّعبير الكيفيّ يعطينا وصفاً للظاهرة موضعاً خصائصها، في حين يعطينا التّعبير الكميّ وصفاً رقميّاً موضعاً مقدار هذه الظاهرة أو حجمها ودرجات ارتباطها مع الظواهر المختلفة الأخرى»<sup>(1)</sup>.

(1) ذوقان عبيدات وآخرون، البحث العلمي: مفهومه، أدواته، أساليبه، ص 13.

أما أداة الدراسة التي سنعتمدها لدراسة الفرضيات فهي استمارة تحتوي على ثلاثة محاور، محور البيانات الشخصية، ويمثل المتغيرات التي سيتم فحصها، بالإضافة إلى محورين يتمثل كل منهما سؤالاً حول مساهمة كلٍّ من التعزيز الإيجابي والسلبي في تقليل احتمال ظهور السلوك العدواني بأنواعه الأربعة، وقد تم توزيعها على مجتمع الدراسة، وهم معلّمو الصف السادس في بعض مدارس بيروت الرسمية والخاصة.

وقد تمّ اختبار صدق الأداة من خلال عرضها على مختصّ لتحكيمها ولإبداء رأيه حول فقرات الاستبيان، وبما أنّ حكم المختصين يُعدّ مؤشراً كافياً على الصدق، فقد تمّ الأخذ بالتعديلات والتصويبات التي جعلت الأداة أكثر قوة.

أما اختبار ثبات الأداة فتمّ عبر توزيعها كمرحلة أولى على ثلاثة عشر معلماً ومعلّمة من المستطلعين المستهدفين بالدراسة، هم من غير العينية ومن معلّمي الصف السادس الأساسي، ثمّ أعيد توزيعها عليهم كمرحلة ثانية بعد مدّة أسبوعين، وإجريت عدّة اختبارات من الترابط أو الثبات الداخلي، بالإضافة إلى التحليل العاملي، وذلك عبر استخدام اختبار كاي تربيعي لأنّ معظم الأسئلة نوعية وليست كمية. وقد كانت نسبة الثبات مرتفعة جداً، فالإجابات لم تتغير أبداً بين مرحلة الاختبار وإعادة الاختبار، لذلك تمّ وضع النتائج في جدول واحد دون المقارنة بينهما .

أما مجتمع الدراسة فقد استهدفت الدراسة معلّمي الصف السادس الأساسي في بعض مدارس بيروت، والتلاميذ في هذه المرحلة من العمر، وهي مرحلة الطفولة المتأخّرة، يتمتّعون بخصائص محدّدة كما تمّ توضيحها في القسم النظري. أمّا اختيار منطقة بيروت لإجراء الدراسة فيعود إلى سهولة التنقل فيها، خاصّة وأنّي أقطن فيها، بالإضافة إلى التنوّع الذي تقدّمه من جهة نوعية المدارس الرسمية والخاصة والمجانّية.

وقد تألّف مجتمع الدراسة من 112 مدرسة، 78 مدرسة خاصّة، أي ما نسبته 70 % من العينية، و34 مدرسة رسميّة، أي 30 % من مجموع العينية، وهي المدارس التي تتضمّن الحلقة الثّانية والتي يقع ضمنها الصفّ السادس المستهدف بالدراسة، موزّعة على ثلاث مناطق تربيويّة في بيروت حسب المركز التربوي للبحوث والإنماء.

أما العينية فقد تمّ اختيارها بشكل عشوائي، وضمت 261 معلماً من الصفّ السادس من 18 مدرسة رسمية و43 مدرسة خاصّة، أي ما نسبته حوالي الـ 55 %

من مجموع عدد المدارس.

## سادساً: مصطلحات الدراسة

1-التعزيز : عملية تقديم مثير مرغوب فيه أو إزالة مثير غير مرغوب فيه بعد القيام بالسلوك المرغوب فيه مباشرة، مما يزيد من احتمال تكرار سلوك مرغوب فيه (1)، ويسمى الحدث أو الظرف معززاً أي «المثير الذي يقوي السلوك ليزيد من تكرار حدوث الاستجابة أو يزيد من قوتها أو يزيد من قوة العلاقة بين مثير ما وما يتبعه من استجابة مناسبة»(2).

2- تعديل السلوك هو « مجموعة من الإجراءات العملية المنظمة والتي تتمثل في تحديد السلوك الحالي (المرغوب وغير المرغوب)، ومن ثمّ دعمه أو تعديله وفق عدد من الأساليب والإجراءات»(3)

3- السلوك العدوانيّ : « سلوك هجومي لفظي أو حركي أو الاثنين معاً، يقوم به الشخص عن قصد لإلحاق الأذى أو الضّرر بشخص آخر (خصم، منافس) أكان ذلك على الصعيد الجسديّ (ضرب) أو النّفسيّ (شتم وتحقير)، وقد يكون العدوان مباشراً ويتناول الضّحية بالذّات، أو غير مباشر ويتناول ممتلكاته (سرقة أو تدمير)»(4)

## سابعاً: نتائج الدراسة

1 - في ما يتعلّق بالفرضيّة الأولى « هناك فروق دالّة إحصائيّاً على تقليل احتمال ظهور السلوك العدوانيّ تعزى إلى نوع التعزيز (إيجابي - سلبي)»

(1) حسين طه المحادين، تعديل السلوك نظرياً وإرشادياً، ص 159.

(2) نايفة قطامي، يوسف قطامي، سيكولوجية التعلّم الصّفّي، ص 59.

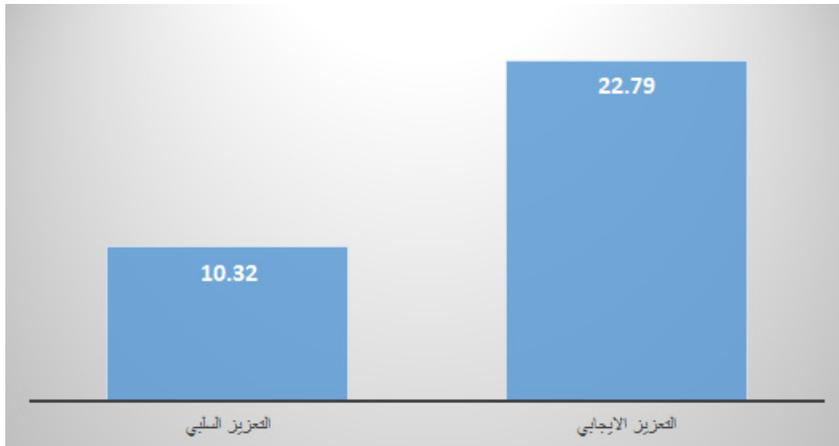
(3) سهيلة الفتلاوي، تعديل السلوك في التّدرّيس، ص 148.

(4) غسان يعقوب، ليلي دمعّة، م.س، ص 306.

جدول رقم (1): مقارنة عامة بين التعزيز الإيجابي والتعزيز السلبي وأثرهما في ضبط السلوك العدواني للتلاميذ (الاختبار التائي للعينات المتشابهة)

السلوك	نوع التعزيز	العدد	المتوسط الحسابي	المتوسط الحسابي %	الانحراف المعياري	الفارق بين المتوسطات	قيمة (ت)	مستوى الدلالة الإحصائية
السلوك الموجه ضد الذات	التعزيز الإيجابي	261	4.29	71.52%	2.08	168.59%	13.465	0.000
	التعزيز السلبي	261	1.60	26.63%	2.15			
السلوك اللفظي الموجه ضد الآخرين	التعزيز الإيجابي	261	6.76	75.10%	2.61	103.93%	11.509	0.000
	التعزيز السلبي	261	3.31	36.82%	3.52			
السلوك الجسدي الموجه ضد الآخرين	التعزيز الإيجابي	261	6.61	73.44%	3.05	110.11%	10.814	0.000
	التعزيز السلبي	261	3.15	34.95%	3.50			
السلوك الموجه ضد الممتلكات	التعزيز الإيجابي	261	5.13	73.29%	2.19	126.57%	12.316	0.000
	التعزيز السلبي	261	2.26	32.35%	2.65			

رسم بياني رقم (1): المتوسطات الحسابية لمساهمة التعزيز الإيجابي والسلبي في تقليل السلوك العدواني



أظهرت النتائج أن المعدل الوسطي لضبط السلوك عند اعتماد التعزيز الإيجابي مرتفع أكثر من المعدل الوسطي عند اعتماد التعزيز السلبي، لذا نقبل الفرضية التي

تدلّ على أنّ التعزيز الإيجابي يساهم بشكل أكبر في تعديل السلوك العدواني، وهذا ما بيّنه القسم النظريّ من الدراسة، وأكّده الدراسة الميدانيّة. وربّما يعود ذلك إلى عدّة أسباب:

1 - خلط المعلمين بين التعزيز السلبيّ والعقاب، ممّا جعلهم يحكمون على مساهمته في تقليل ظهور السلوك العدواني، من خلال نتائج العقاب الذي يؤدّي في حالة السلوك العدواني وفي مرّات عديدة إلى تعزيز هذا السلوك وزيادته.

2 - في حال عدم الخطأ، قد يكون القلق الذي يصاحب التعزيز السلبيّ عاملاً في تقليل مساهمته في تعديل السلوك العدواني، حيث إنّ التلميذ يظلّ يترقّب إزالة المثير غير المحبّب كالنوبيخ أو تخفيض الدّرجات، وقد يفقده ذلك السيطرة على تصرّفاته وعدم التّحكم بسلوكه.

3 - قد يعود ذلك إلى أساليب التّربية التي يعتمدها الأهل خاصّة، والتي لا تصبّ اهتمامها على تعليم التلاميذ مهارات في حلّ المشكلة، كالتمكّين في الخطأ ومحاولة تصحيحه.

4 - عدم الوعي بمعنى التعزيز السلبيّ كمفهوم وممارسة، ممّا يؤدّي إلى سوء اعتماده؛ كأن يتراجع المعلم عن قراره ممّا يفقد التلميذ التّقة بكلامه ووعوده.

5 - خصائص عمر التلاميذ في هذه المرحلة؛ حيث يبدأ بالبحث عن هويّته وإثبات ذاته، ممّا يشكّل وجود مثير غير محبّب كالحرمان من الفرصة أو تخفيض الدّرجات، والوعد بإزالته فرصة للتّحدي وعدم الخضوع لسلطة المعلم.

6 - التعزيز الإيجابي يقوم على تقديم مثير محبّب للتلميذ، ممّا قد يحفّزه أكثر لإظهار السلوك المرغوب وتقليل السلوك غير المرغوب.

7 - تلبية حاجة أساسيّة لا تختصّ بها هذه الفئة العمريّة فقط، وهي الحاجة إلى التقدير والشّعور بالاحترام.

8 - إشعار التلميذ بقدرته على الإنجاز؛ فكلمًا حصل التلميذ على معرّز ما مقابل ضبطه لنفسه وإظهاره السلوك المرغوب فيه، ظهر له أنّه قادر على تحقيق خطوات ثابتة باتجاه الهدف، خاصّة أنّ التعزيز الإيجابي يترافق مع إجراءات محدّدة وواضحة عبر فترات زمنيّة، ممّا يسمح للتلميذ بملاحظة التغيّر الحاصل بين فترة وفترة.

9 - خبرة المعلمين في عدم جدوى العقاب وفعالية الحوار والتحفيز والتشجيع، ووضوح مفهوم التعزيز الإيجابي وسهولة ممارسته من قبلهم.

2- في ما يتعلق بالفرضية الثانية: هناك فروق دالة إحصائية على نوع التعزيز الذي يساهم في تقليل ظهور السلوك العدواني من وجهة نظر المعلمين تعزى لمتغير الجنس.

أظهرت النتائج عدم وجود فروق دالة إحصائية بين المعلمين ذكورا وإناثا في رأيهم في مساهمة التعزيز الإيجابي في تعديل السلوك العدواني، وكذلك بالنسبة للتعزيز السلبي. وبالتالي لا تأثير لمتغير الجنس على النتائج الإحصائية لأثر التعزيز الإيجابي والتعزيز السلبي على السلوك العدواني للطلاب، حيث كانت جميع درجات الدلالة الإحصائية أكبر من هامش الخطأ، لذا تعتبر الفرضية غير مقبولة.

وقد يعود السبب في ذلك إلى التفاوت الكبير بين عدد المعلمين الإناث في العينة (92,3%)، والمعلمين الذكور حيث بلغت نسبتهم فقط (7,7%). كما يمكن أن يعود ذلك إلى أسباب أخرى وهي أن معظم المعلمين والمعلمات ذوو خبرة تفوق الإحدى عشرة سنة (63.2%)، وقد يجعل ذلك أداءهم أكثر احترافية، حيث يصبحون أكثر قدرة على التحكم بسلوكهم، وبالتالي لا يعود لخصائص الذكور أو الإناث تأثير على إدارة الصف وحل مشكلات السلوك وتعديلها، بل لطبيعة السلوك العدواني وما يصلح لتعديله. كما أن هذه النتيجة التي توصلنا إليها تنفي النظرة «التقليدية» حول المرأة التي تعتبرها أنها تخضع للعواطف وهي غير قادرة على التحكم بمشاعرها، الأمر الذي يجعلها من وجهة النظر هذه أقل قدرة على ممارسة السلوك الذي قد يتطلب حسماً مقارنة بالرجل، وبالتالي فإن المعلمة كما المعلم قادرة على ممارسة عملها بدقة وموضوعية.

3- في ما يتعلق بالفرضية الثالثة: هناك فروق دالة إحصائية على نوع التعزيز الذي يساهم في تقليل ظهور السلوك العدواني من وجهة نظر المعلمين تعزى إلى متغير مادة التدريس.

توضح النتائج أنه لا تأثير لمتغير المادة التعليمية على النتائج الإحصائية لأثر التعزيز الإيجابي والتعزيز السلبي على السلوك العدواني للتلميذ، حيث كانت جميع درجات الدلالة الإحصائية أكبر من هامش الخطأ، لذا تعتبر الفرضية غير مقبولة.

وهذا يعني أنّ المعلمين، على اختلاف المواد التي يدرّسونها، يرون أنّ التعزيز الإيجابي أكثر فعالية في تعديل السلوك العدواني، فعلى الرّغم من أنّ بعض المواد تعتبر من وجهة نظر البعض أكثر جدية من غيرها كالرياضيات والعلوم واللغات، وتضع المعلم تحت وطأة إكمال المنهج وإيصال الكفايات اللازمة خلال العام الدراسي، إلّا أنّ ذلك لا يغيّر من واقع السلوك العدواني الذي يبدو أنّ الأسلوب الأفضل لتعديله هو إثابة السلوك اللاعدواني عند حصوله بهدف تكراره، من دون أن نلغي أسلوب التعزيز السلبي الذي يمكن استخدامه كمدعم للثواب، خاصّة أنّ هذه المواد يعتبرها التلميذ عاملاً مهماً في نجاحه بسبب ارتفاع ثقلها. ممّا يجعل طلب رضا معلمي هذه المواد والنجاح فيها من الدوافع التي يمكن استعمالها كمعززات لإثابة التلميذ برفع درجاته مثلاً أو السماح له بالمشاركة في أنشطة المادّة ومختبراتها.

كما يمكن استعمال هذه الدوافع سلبياً من خلال الحرمان من الدرجات أو الأنشطة، ثمّ إزالة هذا المثير في حال أداء السلوك المرغوب.

كما تبيّن أنّ القول بأنّ بعض المواد (الفنون، الاجتماعيات، ...) تسمح للتلميذ بالتقلت من الضوابط المفروضة في الصفّ، باعتبار هذه المواد «غير أساسية» مقارنة بالرياضيات والعلوم، غير صحيحة. وبالتالي فإنّ إدارة الصفّ وتعديل السلوك غير المرغوب ترتبط بالمعلم ووعيه وقدراته وليس بالمادّة التي يدرّسها. لذلك فإنّ المعلمين في المواد المختلفة لا يختلفون في النظرة إلى التعزيز ودوره في تعديل السلوك غير المرغوب.

**4-** في ما يتعلّق بالفرضية الرابعة: هناك فروق دالة إحصائية على نوع التعزيز الذي يساهم في تقليل ظهور السلوك العدواني من وجهة نظر المعلمين تعزى إلى متغيّر القطاع (نوع المدرسة).

أظهرت النتائج أنّه لا تأثير لمتغيّر نوع المدرسة على النتائج الإحصائية لأثر التعزيز الإيجابي والتعزيز السلبي على السلوك العدواني للطلاب، حيث كانت جميع درجات الدلالة الإحصائية أكبر من هامش الخطأ، لذا تعتبر الفرضية غير مقبولة. وقد يعود ذلك إلى أنّ المعلمين سواء كانوا ينتمون إلى مدرسة رسمية أو خاصّة، فلا يغيّر ذلك من رؤيتهم الواقعية لحقيقة مشكلة السلوك العدواني، الذي تكون فرص تعديله عبر التعزيز الإيجابي أكبر منها عبر التعزيز السلبي. إلّا أنّ ذلك لا يلغي

دور التعزيز السلبي الذي قد ينفذ اعتماده كدعم للتعزيز الإيجابي، مما يردع التلميذ خاصة في الحالات الحرجة التي يصبح معها ضبط الصف أولوية.

كما أن ذلك قد يحض الاعتقاد السائد بأن معلمي المدارس الخاصة يهتمون أكثر بتلاميذهم، أولاً لأنهم يعتبرونهم زبائنهم مما يدفعهم إلى تحسين الخدمة التي يقدمونها لضمان استمرار مؤسساتهم، وثانياً لأن المدارس الخاصة تعمل على تطوير مهارات المعلمين وتحسين أدائهم.

كما يمكن القول أن هذه النتيجة تبيّن أن المدارس الرسمية تلجأ إلى ما هو إيجابي في تعامل معلمها مع التلاميذ، وهذا أيضاً يحض الاتجاه السلبي الذي يسود عند البعض بتراجع دور المدارس الرسمية مقارنة بالمدارس الخاصة.

كما تؤكد هذه النتيجة أن المعلمين يواكبون التطور التربوي، ويهتمون بتطوير قدراتهم في إدارتهم للصف ووعيهم لطبيعة المرحلة العمرية.

5- في ما يتعلق بالفرضية الخامسة: هناك فروق دالة إحصائية على نوع التعزيز الذي يساهم في تقليل ظهور السلوك العدوانى من وجهة نظر المعلمين تعزى إلى متغير سنوات الخبرة.

أظهرت النتائج أنه ليس هناك فروق ذات دلالة إحصائية على مساهمة التعزيز بنوعيه السلبي والإيجابي في تعديل السلوك العدوانى تعزى إلى متغير الخبرة المهنية. أي أنه لا تأثير لمتغير سنوات الخبرة على النتائج الإحصائية لأثر التعزيز الإيجابي والتعزيز السلبي على السلوك العدوانى للتلاميذ، حيث كانت جميع درجات الدلالة الإحصائية أكبر من هامش الخطأ، لذا تعتبر الفرضية غير مقبولة.

وقد يعود ذلك إلى أن معظم المعلمين والمعلمات ذوو خبرة تفوق الإحدى عشرة سنة (63.2%)، مما يجعلهم يقتربون من الإجماع على أن التعزيز الإيجابي أكثر فعالية في تقليل ظهور السلوك العدوانى من التعزيز السلبي. كما أن الخبرة المهنية تزيد من قناعة المعلم بما يؤمن به، أو تساهم في تغيير قناعاته إذا ثبت له أنها خاطئة.

إن المعلم الذي يؤمن بالثواب أكثر من العقاب كوسيلة لتعديل السلوك سترسخ قناعاته بذلك، خاصة أنه يفحص هذه القناعة على أرض الواقع ويرى نتائجها، والمعلم الذي يؤمن بالعقاب سيكتشف عاجلاً أم آجلاً أن السلوك لم يعدل إنما فقط أدى إلى

إيقافه بشكل مؤقت. خاصة أن المعلمين ذوي الخبرة يكونون قد أمضوا مع التلميذ الذي يعاني من هذا الاضطراب السلوكي فترات طويلة من عمره، لأن تلميذ الصف السادس تكون لديه على الأقل سنتان دراستان يمضيها في المدرسة مع معلميه.

من هنا فإن سنوات الخبرة تأتي بالنتائج نفسها سواء للمعلمين أو للمعلمات، وتعزز الاتجاه نحو اعتماد التعزيز الإيجابي في الحد من السلوك العدواني أكثر من التعزيز السلبي.

6- في ما يتعلق بالفرضية السادسة: هناك فروق دالة إحصائية على نوع التعزيز الذي يساهم في تقليل ظهور السلوك العدواني من وجهة نظر المعلمين تعزى إلى متغير الدورات التي خضع لها المعلمون والمعلمات.

أظهرت النتائج أن هناك تأثيراً لمتغير الخضوع لدورات في السلوك على دور التعزيز السلبي في ضبط السلوك اللفظي للتلاميذ الموجه ضد الآخرين والموجه ضد الممتلكات، حيث أظهرت المعدلات الوسطية أن المعلمين الذين خضعوا لدورات تدريبية في السلوك يعتبرون أن التعزيز السلبي له قدرة في ضبط السلوك اللفظي للطلاب الموجه ضد الآخرين (المتوسط الحسابي = 3.81) أكثر من المعلمين الذين لم يخضعوا لمثل هذه الدورات (المتوسط الحسابي = 2.78) مع درجة دلالة إحصائية أصغر من هامش الخطأ (0.017)، وكذلك المعدلات الوسطية للمعلمين الذين خضعوا لدورات تدريبية، ويعتبرون أن التعزيز له قدرة في ضبط السلوك العدواني الموجه ضد الممتلكات (المتوسط الحسابي = 2.69) أكثر من المعلمين الذين لم يخضعوا لمثل هذه الدورات (المتوسط الحسابي = 1.81) مع درجة دلالة إحصائية أصغر من هامش الخطأ (0.007)، لذلك يمكن اعتبار الفرضية مقبولة جزئياً.

وقد تكون النتائج دقيقة ويمكن الأخذ بها، وفي هذه الحالة يمكن تفسيرها على أن المعلمين الذين خضعوا لدورات في تعديل السلوك، يدركون ماهية التعزيز السلبي، فلا يخطون بينه وبين التعزيز، وكذلك يطبقونه بشكل فعال بحيث يركزون على المثير غير المحبب بالنسبة إلى التلميذ، ويعملون على الوعد بإزالته كلما قام التلميذ بالسلوك المرغوب. أما كون السلوك العدواني اللفظي الموجه ضد الآخرين والعدوان الموجه ضد الذات، هي السلوكيات التي يعتبر المعلمون الذين خضعوا لدورات أن التعزيز يساهم في تقليل مظاهرها، فربما ذلك يعود إلى أنها مستفزة، وتفرض على المعلم

التدخل لحماية حقوق التلاميذ الآخرين من الاعتداء، وكذلك حمايتهم من الترويع الذي قد ينتج عن الاعتداء على الممتلكات.

7- في ما يتعلق بالتساؤل: ما مدى اعتماد معلّمي الصف السادس الأساسي في بعض مدارس بيروت التعزيز كأسلوب في تعديل السلوك العدواني؟  
الجدول رقم ( 2 ) يوضح مدى اعتماد المعلمين لأسلوب التعزيز في تعديل السلوك:

عينة الدراسة	نعم	%	لا	%	لم يجيبوا
ن = 261	242	92.7	19	7.3	5,4

أظهرت النتائج أن نسبة 92.7% من عينة الدراسة تعتمد التعزيز كأسلوب في تعديل السلوك.

### ثامنا: خاتمة

ضرب الزملاء ، شتمهم، تقليد المعلم بسخرية أمام الزملاء أو تخريب الممتلكات، كلّها من مظاهر السلوك العدواني، سواء أكان ذلك غريزياً بدافع الدفاع عن النفس، أو مكتسباً بسبب الإحباط أو التنشئة الأسرية، فهو في الحالين سلوك يحتاج إلى تعديل. وتعتبر البيئة الصفية من البيئات الأكثر ملاءمة لذلك، نظراً لوجود المثيرات أو المحفزات التي تستثير هذا السلوك.

لذلك فقد اخترنا المعلمين لاستطلاع آرائهم حول موضوع الدراسة لأنهم المعنيون بعد الأهل بالمساهمة في تعديل السلوك. إلا أن إشكالية الأسلوب الأنسب للتدخل تضع المعلم أمام تحدّ صعب، يحتاج لتخطيه إلى التزوّد بالعلم حول السلوك العدواني وأسبابه وطرق علاجه، وكذلك التزوّد بمهارات وأساليب تعديل السلوك.

من هنا يمكن أن تفيد نتائج هذه الدراسة المعلمين، ومن أهمها فعالية التعزيز الإيجابي في تقليل حدوث السلوك العدواني، سواء أكان موجّهاً ضدّ الذات أو موجّهاً ضدّ الآخرين لفظاً أو جسداً، أو موجّهاً ضدّ الممتلكات ، حيث أظهر الجدول رقم 28 تفوق التعزيز الإيجابي على التعزيز السلبي في تقليل حدوث هذه الأنواع الأربعة من السلوك العدواني، وذلك حسب وجهة نظر معلّمي الصفّ السادس في بعض مدارس بيروت.

كما أظهرت دراستنا إلى أنه لا تأثير لأيّ من متغيرات الجنس، مادة التدريس، نوع المدرسة وسنوات الخبرة، على مساهمة التعزيز الإيجابي في تقليل حدوث السلوك العدواني، بينما كان لمتغير الخضوع لدورات تأثير جزئي حيث أظهرت النتائج أنّ المتوسّطات الحسابية للمعلّمين الذين خضعوا لدورات تدريبية، واعتبروا أنّ للتعزيز السلبي فعالية في تقليل حدوث السلوك العدواني الموجه ضدّ الممتلكات والموجه ضدّ الآخرين لفظاً، أكبر من المتوسّطات الحسابية للمعلّمين الذين لم يخضعوا لدورات.

وعلى الرغم من عدم وجود أيّ تأثير لمتغيرات الدراسة على فعالية التعزيز في تقليل حدوث السلوك العدواني، إلا أنّ القسم النظريّ من الدراسة بيّن أنّ لهذا السلوك أسباباً تتخطى غرفة الصف، كالوضع الأسريّ والمؤثرات البيولوجية والنفسية والعصبية، لذلك من المهمّ للمعلّم أن يأخذ بعين الاعتبار هذه المؤثرات البيئية حتى تكون خطته لتعديل سلوك التلاميذ فعالة. كما من المهمّ أن يحرص المعلّم على معرفة خصائص تعديل السلوك بأسلوب التعزيز كاختيار المعزّزات المناسبة، فالتلميذ المهمل عاطفياً مثلاً قد تكون الابتسامة والحنوّ والتربيت على الكتف والاهتمام، من المعزّزات المهمة بالنسبة إليه، وكذلك اختيار الجدول المناسب للتلميذ حسب ما يحفّزه ويشجّعه ويبعد عنه الانطفاء.

كذلك بيّن القسم النظريّ أنّ على المعلّم أن يحدّد بدقة ما إذا كان يمكن اعتبار السلوك الذي يظهره أحد تلامذته سلوكاً عدوانياً، إن لجهة قوّته وتكراره، وإن لجهة نوعه. ومن النتائج التي بيّنها القسم النظريّ والتي تؤثر في فعالية التعزيز تنوع المعزّزات، اعتماد نوع واحد من المعزّزات قد لا يكون فعّالاً وذلك لوجود الفروق الفردية بين التلاميذ، لذلك قد يكون من المهمّ دراسة تأثير نوع واحد من المعزّزات ودراسة تأثير عدّة أنواع على تعديل السلوك العدواني، ممّا يثري تجربة المعلّم ويمدّه بوسائل مجرّبة علمياً.

ومن النتائج التي ظهرت في المقاربة النظرية، والتي تؤثر في فعالية التعزيز، ضرورة اتّباع خطوات محدّدة لتعديل السلوك، من تحديد السلوك المستهدف وقياس عدد المرّات التي يحدث فيها، إلى تصميم الخطة الإرشادية ومتابعتها وتقويمها. من هنا قد يعتبر المعلّمون أنّ مجرد إثابة التلميذ على سلوك مرغوب تعديلاً للسلوك، ولكن ذلك غير صحيح لأنّه لا يمكننا الحديث عن تعديل السلوك إلا حين نلاحظ

تغيّراً دقيقاً في السلوك قابلاً للقياس، كأن يخفّ الشتم في اليوم الواحد من 5 إلى 3 مرّات مثلاً. وهنا تبرز إشكالية لطالما دار الجدل حولها وهي مسؤولية تعديل السلوك، هل تقع على المعلم أم تحتاج إلى مرشد مدرسي يتولّاها، خاصة أنّ عملية تعديل السلوك تحتاج إلى متابعة ومراقبة خلال الحصص وأثناء الاستراحة، وهو ما لا يقدر عليه المعلم؟

لذلك قد يكون من الدراسات المهمة التي تفيد المعلمين والمرشدين التربويين تجريب خطط في تعديل السلوك العدوانية، وتطبيق خطواتها ولحظ نتائجها مع كل نوع من أنواعه، ومع فئات عمرية مختلفة، ممّا يجعل النتائج أكثر دقة وموضوعية. وكذلك من الدراسات التي توسّع الأفق في هذا المجال مثال البحث في فعالية أساليب أخرى من أساليب تعديل السلوك، كالتمذجة والإطفاء وغيرها، ممّا يسمح بمقارنة النتائج وتحديد الأسلوب الأكثر فعالية وتأثيراً، فضلاً عن دراسات تسلط الضوء على دور المرشد المدرسي، والضرورة الملحة لعمله في المدرسة، خاصة أنّ التوجيه والتعديل الذي يعتبر مهمة الأهل الأساسية في عملية التربية، بات ناقصاً بانشغال الأهل وعمل الأمهات وغياب الوعي التربوي، كما أنّ المعلم لن يتمكن من سدّ هذه الثغرة مع ثقل المسؤوليات الملقة على عاتقه، وعدم قدرته على المراقبة الفردية لكلّ طالب. أضف إلى ذلك أنّ النظام العالمي يتوجّه إلى تخصيص المهام التربوية، ممّا يجعلها أكثر فعالية.

## لائحة المصادر والمراجع

1. جوني ( غادة)، «أساليب الثواب والعقاب المعتمدة في الصف السابع الأساسي في بعض مدارس بيروت»، 255 صفحة غير مستنسخة.
2. رسالة ماجستير: تربية، بيروت، جامعة القديس يوسف، 2005.
3. الدليمي (طه)، الهاشمي (عبد الرحمن)، استراتيجيات حديثة في فنّ التدريس، الطبعة الأولى، عمّان، الأردن، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2008.
4. الفتلاوي (سهيلة)، تعديل السلوك في التدريس، الطبعة الأولى، عمان، الأردن، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2005.
5. عباس (حوراء)، «دور التعزيز في رفع مستوى التحصيل في مادّة اللغة الانكليزية لتلاميذ الصف الخامس الأساسي في بعض مدارس الضاحية الجنوبية لبيروت»، 156 صفحة غير مستنسخة.رسالة ماجستير: تربية، بيروت، جامعة القديس يوسف، 2010.
6. عبيدات (ذوقان)، وآخرون، مذكرات عن مناهج البحث عن كتاب البحث العلمي : مفهومه، أدواته وأساليبه، لا طبعة، الأردن، عمّان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، بدون تاريخ.
7. قطامي (نايفة)، قطامي (يوسف)، سيكولوجية التعلّم الصّفيّ، الطبعة الأولى، عمّان، الأردن، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2000.
8. كاظم ( عبد الواحد)، «السلوك الصّفيّ المشكل في مدارس البحرين الحكومية: واقعه وتطوّر أساليب تعديله»، 209 ص (مستنسخة).
9. لمحادين (حسين طه)، تعديل السلوك: نظرياً وإرشادياً، لا طبعة، منصّة إلكترونية: المنهل، 2009.
10. لمعاينة (خليل)، القمش ( مصطفى)، الاضطرابات السلوكية والانفعالية، الطبعة الأولى، عمان، الأردن، دار المسيرة، 2007.
11. يعقوب(غسان)، دمة(ليلي)، المعجم الموسوعي في علم النفس، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان ناشرون، 2015.

## عبد المحسن شلاش دوره السياسي وانجازاته الوطنية

علي ظاهر محسن

### المقدمة

امتاز تاريخ العراق الحديث بظهور العديد من الشخصيات الوطنية التي كان لكل منها دوره البارز في بناء كيان العراق المعاصر ، ومن تلك الشخصيات شخصية الحاج (عبد المحسن شلاش) الذي كان له دور واضح في بناء العديد من أجهزة الدولة العراقية الحديثة ، فقد تنقل بين اسطنبول وبغداد في العديد من المراكز وعندما شكّلت الحكومات العراقية المتعاقبة سواء في ظل الاحتلال أو بعد قيام الحكومة الملكية وجدناه لم يكن يلهث وراء تلك المناصب فكان همه الانصراف لعمله التجاري خصوصاً.

لذا حاولت في هذه الصفحات أن أسلط عليه الضوء الكثيف على الرغم مما سبق ان قام به العشرات من الباحثين في تغطية هذه الشخصية، فقد جاء بحثي في مقدمة وثلاثة مباحث يتناول المبحث الأول نسبه وحياته و آثاره، أما الثاني فكان يتناول الوظائف التي شغلها سواء في وزارة النقيب الثالثة أو الحكومات اللاحقة الأخرى، أما الثالث فهو يختص بدوره في مجلس الأعيان ونظرتة الاصلاحية في كافة الاتجاهات. وتضمّن البحث خاتمة لأبرز النتائج التي توصلت إليها وقائمة بالمصادر التي اعتمدها في هذا البحث.

لقد حاولت جاهداً أن أتابع كلّ ما كُتب عن شخصية الحاج عبد المحسن شلاش غير أنّ المشكلة الوحيدة التي واجهتني خلال البحث هو عدم تمكني من العثور على ملفاته الشخصية في مجلس الأعيان، وذلك للكوارث التي ألمت بالوثائق وأرشفاتها في العراق نتيجة أحداث عام 2003 م وما سبقها لأنّ هنالك ملفّات من المتعذر جدّاً العثور عليها.

### المبحث الأول: حياته وآثاره

#### أ- أسرته

تعد أسرة آل شلاش من الأسر العربية التي ينتهي نسبها إلى قبيلة خفاجة، وقد سكنت هذه الأسرة مدينة النّجف الأشرف أبان القرن الثالث عشر الهجري ومن

الجدير بالذكر أن سبب تسميتهم بال شلاش تعود إلى جدهم شلاش الخفاجي من فرع العجمي<sup>(1)</sup>.

#### ب - نسبه ومولده وحياته:

هو الحاج عبد المحسن بن الحاج عبود بن مهدي شلاش<sup>(2)</sup>. ولد في النجف الأشرف في 22 / كانون الأول / 1882 م، ينحدر من أسرة عربية سكنت النجف وتعاطت التجارة والأعمال فيها ، وكان والده الحاج عبود شلاش من التجار المعروفين في النجف الأشرف<sup>(3)</sup>، بنى خاناً في عام 1890 م، وقد أرخ الشاعر جعفر كمال الدين ذلك بقوله:

لله ما أكرمه منزلاً      فيه تراح الأنفس المتعبة  
شاد مبانيه أبو محسن      في همة فوق السهى مرتبة<sup>(4)</sup>

ورث الحاج عبد المحسن شلاش مهنة التجارة عن أبيه، فأصبح من التجار الجلبيين المشهورين، عيّن في بداية شبابه وكيلاً تجارياً في النجف الأشرف لآل رشيد أمراء حائل<sup>(5)</sup>. وعمل في الإقراض وأخذ الأرباح الكبيرة عند جني الحاصل ويذكر أنه أقرض الحكومة لدعم ميزانية الدولة في أحد السنين<sup>(6)</sup>.

ويذكر أحد معاصريه جعفر الخليلي أنه كان يدفع الحوالات من مختلف الجهات في الخارج كاستنبول وبيروت وإيران والهند والخليج، فضلاً عن قبوله الحوالات لأغلب المدن العراقية، ولا بد من الإشارة هنا أنّ الحاج عبد المحسن أقرض البنك العثمانيّ عند بداية الاحتلال البريطانيّ للعراق مبلغاً وقدره مائة ألف ليرة عثمانية سلّمها لحاكم الشامية السياسيّ المقيم في النجف<sup>(7)</sup>.

لم يكن الحاج عبد المحسن سياسياً بارزاً أسهم في الكثير من الأحداث التي مرّ بها بلده فحسب، بل كان رجلاً اقتصادياً وأديباً بارعاً عُرف عنه حبه لنظم الشعر،

(1) رشيد القسام، الأسر النجفية وسبب تسمية الألقاب، ( النجف، 2007 )، ص 161.

(2) محمد هادي الأمين، معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام، ج 2، ط 2 (بيروت، 1992) ص 75.

(3) مير بصري، أعلام الوطنية والقومية، (دار الحكمة: لندن، 1999) ص 278.

(4) كامل سلمان الجبوري، النجف والثورة العراقية الكبرى 1920، (دارا لقارئ، بيروت: 2005)، ص 512.

(5) المصدر نفسه، ص 513.

(6) حنا بطاطو، العراق، ترجمة عفيف الرزاز، ج1، (طهران : 2005 )، ص 329.

(7) جعفر الخليلي، هكذا عرفتهم، ج1، (قم المقدسة: اوفسيت، 1963)، ص 160.

فقد نظم أرجوزة في العملة يوم كان التعامل بالروبية الهنديّة قبل وضع قانون العملة العراقيّة في عام 1931 م قال منها<sup>(1)</sup>:

تسعيّرة التحويل والمبادلة      قد أشكلت في قطرنا المعاملة  
والسبب الوحيد في الروبية      فذاك فيه جوهر القضية  
لو رفعت وناب عنها الذهب      لانكشفت عن البلاد الكرب

كما عُرف عنه حبّه لإحياء ورعاية المشاريع الخيريّة والثقافيّة، فقد انبرى لإعادة طبع ديوان السيّد محمد سعيد ألبوبي في عام 1913<sup>(2)</sup>، وفي عام 1914م حاول تأسيس شبكة إسالة ماء في النّجف الأشرف، إلا أنّ اندلاع الحرب العالميّة الأولى حال دون ذلك وأحبط المشروع<sup>(3)</sup>.

ونظرًا لجهوده المتميزة في الأنشطة التجاريّة الداخليّة والخارجيّة، حاز على الوسام المجيدي من الدولة العثمانيّة وعلى لقب (رئيس) من الحكومة الإيرانيّة<sup>(4)</sup>.

وقد أسهم في تجديد بناء مسجد الخضراء في عام 1934م تحت إشرافه وعلى نفقة الأوقاف<sup>(5)</sup>.

أعقب الحاج عبد المحسن شلاش ولدين هما عبود الذي أكمل دراسته فأصبح محاميًا وأديبًا متضلّعًا في الكتابة، طيب الأخلاق عذب الحديث فكانت مقالاته التاريخيّة وبحوثه المستفيضة التي غطّت معظم الصحف النّجفية خير دليل على ذلك، وله مؤلف هو (خراسان أو المشهد الرضوي) أما الابن الآخر فهو رؤوف<sup>(6)</sup>.

لقد ترك الحاج عبد المحسن شلاش مؤلف بعنوان (آبار النّجف ومجاريها) ضمّنه أفكارًا حول الرّؤى المستقبلية لتطوير مدينة النّجف الأشرف وإمدادها بشبكة الماء والمجاري<sup>(7)</sup>.

(1) مير بصري، المصدر السابق، ص 279.

(2) عبد الغفار ألبوبي، ديوان السيد محمد سعيد ألبوبي، ج 2، (بغداد: 1980)، ص 608.

(3) كامل سلمان الجبوري، المصدر السابق، ص 513.

(4) كامل سلمان الجبوري، المصدر السابق، ص 513.

(5) محمد حسين حرز الدين، تاريخ النجف الاشرف، ج 1، (منشورات دليل ما ، قم المقدسة: 1997 )، ص 382.

(6) محمد هادي الاميني، المصدر السابق، ص 61.

(7) جعفر محبوبية، ماضي النجف وحاضرها، ج1، ص 355.



أودعه في نفوسهم من حبّ وارتباط متينين<sup>(1)</sup>.

كان الحاج عبد المحسن شلاش من ضمن الذين حضروا اجتماع السير أي . تي . ولسن الحاكم الملكي العام المنعقد في 30 / تشرين الثاني / 1918 ، حول موضوع الاستفتاء العام<sup>(2)</sup>، لمعرفة الرأي العام العراقيّ حول ثلاثة اسئلة محددة هي :

- 1 - هل يرغب العراقيّون في إقامة دولة عربيّة تمتد من الحدود الشماليّة لولاية الموصل حتى الخليج العربيّ وتحت وصاية بريطانية ؟
  - 2 - وهل يرغبون برئاسة عربيّ بالاسم ليرأس هذه الدولة؟
  - 3 - ومن هو الذي يفضلونه ليتم تنصيبه رئيساً للدولة؟<sup>(3)</sup>
- وطالبوا بتأسيس حكومة عربيّة يرأسها أحد أنجال الشّريف حسين.

وفي الثّورة العراقيّة الكبرى كان ضمن أوائل العاملين فيها فقد انضم إلى الحزب السّريّ في النّجف الأشرف وأسهم بشكل فاعل في الثّورة من خلال الاجتماعات التي عقدت في داره تمهيداً لإعلانها<sup>(4)</sup>.

وبعد قيام الثّورة في حزيران 1920م، كان ضمن الوفد الدّيني الذي وصل الكوفة للتفاوض مع الميجر نوربري حول وقف إطلاق النار وتحقيق مطالب الثّوار، إذ كان الوفد مؤلفاً من الشّيخ عبد الكريم الجزائريّ وعبد الرضا الشّيخ راضي، والحاج عبد المحسن شلاش وآخرون، وتوصل المتفاوضون إلى الاتّفاق على هدنة لمدة أربعة أيام، تكفل زعماء العشائر حماية الحامية البريطانيّة المحاصرة في أبي صخير وأنسحابها للكوفة مقابل حصول العفو العام وتوقيف الحركات العسكريّة بأقسامها كافة من تسوية السّكة الحديديّة ونقل القوات وإطلاق سراح المعتقلين وتشكيل المؤتمر العراقيّ على النّحو الذي طلبه الثّوار سابقاً<sup>(5)</sup>.

فضلاً عما سبق فإنّه قد انتدبه مع مجموعة من العلماء والأشراف من قبل عموم

(1) كامل سلمان الجبوري، المصدر السّابق، ص 513.

(2) المصدر نفسه، ص 514

(3) عزّ الدّين عبد الرسول، محسن أبو طبيخ ودوره في الحركة الوطنيّة حتى عام 1958، رسالة ماجستير، (جامعة الكوفة: كلية الاداب، 1999) ص 36.

(4) حسن لطيف الزبيدي، موسوعة الاحزاب العراقيّة، (لبنان: 2007)، ص 425.

(5) عبد الله فياض، الثّورة العراقيّة الكبرى 1920، ط2، (بغداد: 1975)، ص 309 - 311.

أهالي النّجف والشامية ليمثلوهم أمام حكومة الاحتلال للدّفاع عن الحقوق والمطالبية بالاستقلال في عام (1) 1920، كما نجده يعقد اجتماعًا تاريخيًا في بيته في الليلة الحادية والعشرين من رمضان 1338 هـ / 1920 م ؛ دعا إليه العديد من الشّخصيات فضلًا عن الرّعاء والتّجار للتّداول والاتّحاد ونبذ الخلافات وحسبان قضية العراق فوق كل الاعتبارات(2)، وعند تأسيس حزب الثّورة العراقيّة كان من الطّبعة الثالثة حسب تكوين الحزب(3).

كما كان عضوًا في المجلس العلميّ الأعلى للإشراف على شؤون الثّورة وإدارتها(4)، ومن ضمن الذين انتدبوا من قبل عموم أهالي النّجف في مضبطة التوكيل(5).

وبعد جلاء الإنكليز من النّجف أسهم في إدارة النّجف اذ كان من أعضاء اللجنة العليا التي قامت بتشكيل المجلس التشريعي والتنفيذي لإدارة النّجف في عام 1920، وعند تأسيس المجلس البلدي اقيمت فيه هيئتان محليتان، الأولى منها هيئة أعضاء مجلس الإدارة، إذ كانت مكوّنة من الشّيخ جواد الجواهريّ رئيسًا، والحاج عبد المحسن شلاش ناظرًا للمالية، والسّيد مهدي السيد سلمان رئيس القوة الإجرائية، أمّا الثّانية فهي هيئة القوة التّفيذية(6).

ومن الجدير بالذّكر أنّ الحاج عبد المحسن شلاش قد كلّف من قبل علماء الدين بتعهد الأسرى الذين أسروا في معركة الزّارنجية وتقدّد أحوالهم وفقًا للشريعة الإسلامية، وقد قام بمهمته على أكمل وجه(7)، كما أنّه قام بدفع المبلغ المعين ثمنًا لإبرة المدفع التي سرقت من معسكر الهنديّ (الرشيد) وجيئ بها إلى الكوفة لاستعمالها في المدفع الذي غنمه الثّوار من الإنكليز في معركة الزّارنجية، حيث دُمّرت السفينة الحربية (فايرفلاي) الرّاسية أمام مدينة الكوفة(8).

وعلى أثر فشل الثّورة واحتلال النّجف مرة أخرى، اعتقل الحاج على يد السّلطة

(1) كامل سلمان الجبوري، المصدر السّابق، ص 514.

(2) كامل سلمان الجبوري، المصدر السّابق، ص 514.

(3) محمد حسين حرز الدين، المصدر السّابق، ج3، ص 267.

(4) كامل سلمان الجبوري، المصدر السّابق، ص 515.

(5) محمد حسين حرز الدين، المصدر السّابق، ج3، ص 273.

(6) عبد الله فياض، المصدر السّابق، ص 311.

(7) كامل سلمان الجبوري، المصدر السّابق، ص 514.

(8) جعفر الخليلي، المصدر السّابق، ج 1، ص 167.

المحتلة مع مجموعة من المطلوبين ونُقل إلى الحلة، ولم يفرج عنه إلا بعد إعلان العفو العام في 30 / ايار / 1921 م<sup>(1)</sup>.

وعند تأسيس الحكم الوطني وتأليف الحكومة العراقية أُسندت إليه عدة مناصب وزارية مختلفة، كذلك كان له دور بارز في مجلس الأعيان العراقي، وسوف نفصل ذلك في مباحث لاحقة.

### المبحث الثاني: المناصب الوزارية التي شغلها

تقلد الحاج عبدالمحسن شلاش العديد من الحقايب الوزارية التي مرت على تاريخ العراق المعاصر، فقد كان اسمه ضمن لائحة الوزراء المقدمة من قبل عبد الرحمن النقيب والمرفوعة إلى الملك فيصل الاول<sup>(2)</sup>، ليشغل منصب وزارة المعارف في حالة حضوره إلى العاصمة بغداد، وعند صدور الإرادة الملكية بتشكيل الوزارة بقي منصب وزارة المعارف شاغراً إلى يوم 17/تشرين الثاني/ 1922، وصدر الامر الملكي بأن يكون شلاش وزيراً للمعارف، لكنّه اعتذر عن قبول المنصب بحجة انشغاله بأعماله التجارية، ومن الجدير بالذكر أنّ منصب وزارة المعارف بقي شاغراً لحين استقالة الحكومة في 16/تشرين الثاني/1922<sup>(3)</sup>.

وعند تشكيل وزارة عبد المحسن السعدون<sup>(4)</sup> الأولى التي تالفت في 18/تشرين الثاني/1922، أُبرق السعدون إلى الحاج عبد المحسن شلاش بتاريخ 17/تشرين الثاني/1922، يطلب منه أن يدخل كوزير للاشغال والمواصلات في وزارته، فاعتذر شلاش عن قبول هذا المنصب والظاهر أنّ شلاش كان يخشى العلماء وتكفيرهم له- وهو يعيش بين ظهرانيهم- فلم يجد غير الاعتذار سبيلاً إلى السلامة<sup>(5)</sup>.

(1) كامل سلمان الجبوري، المصدر السابق، ص 514.

(2) فيصل الاول، وهو احد انجال الشريف حسين من اشراف مكة، ولد في الطائف بتاريخ 20/آيار/1883، قاد الجيش العربي في الثورة العربية الكبرى عام 1916، تولى عرش العراق في 23/آب/1921، توفي في انترلاكن بسويسرا بتاريخ 7/ايلول/1933م، للمزيد انظر: عبدالمجيد التكريتي، الملك فيصل الاول ودوره في تأسيس الدولة العراقية الحديثة (1921-1933).

(3) عبدالرزاق الحسيني، تاريخ الوزارات العراقية، ج1، ط7، (بغداد:1988).

(4) عبدالمحسن السعدون: رئيس وزراء عراقي سابق، ولد في ناصرية المنتفق عام 1880 وانتحر ببغداد عام 1929، ألف أربع وزارات (الأولى: 18/تشرين الثاني/15-1922/تشرين الثاني/1923) (الثانية: 26/حزيران/ 1-1925/تشرين الثاني/1926) (الثالثة: 14/كانون الثاني/20-1928/كانون الثاني/1929) (الرابعة: 19/ايلول/ 13-1929/تشرين الثاني/1929)، للمزيد انظر: عبدالرزاق الحسيني، المصدر السابق، ج1، ص 175.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص 155.

وعندما شكل جعفر العسكري<sup>(1)</sup> وزارته الأولى بتاريخ 22/تشرين الثاني/1923، عقب استقالة الوزارة السعدونية الأولى في 15/تشرين الثاني/1923، شغل شلاش منصب وزير المالية، وتذكر المصادر البريطانية بأن إسناد منصب وزارتي المعارف والمالية هو محاولة لاسترضاء الشيعة الذين نقموا على الوزارة السعدونية الأولى بسبب نفيها لعدد من علماء هذه الطائفة إلى إيران، والتمهيد لعودة هؤلاء بعد إجراء انتخابات المجلس التأسيسي عام<sup>(2)</sup>1922.

وقد نوقش في وزارته مشروعان جليلان، هما مشروع كري سعدة الذي تبرع به الحاج محمد علي رئيس تجار عربستان، لإيصال الماء إلى مدينة النجف، وقد أمر الملك فيصل الأول بتشكيل لجنة حكومية برئاسة الحاج عبد المحسن شلاش والحاج عبد الحسين الجلي وأخرون، وقد باشر الملك العمل بنفسه لكن المشروع أثبت فشله لأن المواصفات والاستشارات الفنيّة كانت غير متقنه، فاسترد المتبرع ما تبرع به كاملاً وتكبّدت الحكومة العراقيّة المبالغ التي صرفت على الحفر ونحوه<sup>(3)</sup>.

وهكذا كتب الفشل لهذا العمل الانسانيّ الجليل نتيجة لخطأ الاستشارة الاجنبيّة. أمّا المشروع الثاني فكان مشروع أصفر، فقد حاول نجيب أصفر وهو مسيحي من لبنان وحمدي الباجه جي<sup>(4)</sup> وثابت عبدالنور مراجعة الوزارة السعدونية الأولى لمنحهم الامتياز لإنشاء خزان الحبانيّة والفلوجة لإرواء الأراضي الواقعة في لواء الديلم. لكن الوزارة استقالت قبل أن تبت في المشروع، وعند تشكيل وزارة جعفر العسكري الأولى عرض المشروع عليها مجدداً لكنّه فشل أيضاً بسبب قلة الخبرة والتقنية<sup>(5)</sup>.

ويذكر السيّد عبدالرزاق الحسني رد الحاج عبدالمحسن عن كيفية إعطاء هذا الامتياز فأجاب قائلاً : إنّ من واجبات الحكومة الوطنيّة أن تنظر إلى هذا المشروع

(1) جعفر العسكري: رئيس وزراء عراقي سابق، ولد في بغداد 1885، انتمى الى جمعية العهد، كان له نشاطا في الحرب العالمية الأولى في الجيش العثماني، انضم للثورة العربية الكبرى فيما بعد، تولى رئاسة الوزارة لمرتين (الأولى: 22/تشرين الثاني/1923-2/1924/أب/1924) (الثانية: 21/تشرين الثاني/8-1926/كانون الثاني/1928)، للمزيد انظر: علاء جاسم محمد، جعفر العسكري ودوره السياسي والعسكري في تاريخ العراق حتى عام 1936، (بغداد: 1987)، ص 24.

(2) عبدالرزاق الحسني، المصدر السابق، ج 1، ص 192.

(3) عبدالرزاق الحسني، المصدر السابق، ج 1، ص 201.

(4) حمدي الباجه جي: رئيس وزراء عراقي سابق من عائلة بيرو قرطبية، ولد في بغداد في 1885 وتوفي فيها في 28/أذار/1948 ألف وزارتين: (الأولى: 3/حزيران/1944 - 28/أب/1944)، (الثانية: 29/أب/1944 - 30/كانون الثاني/1946) للمزيد انظر: عبد الرزاق الحسني، المصدر السابق، ج 1، ص 204.

(5) عبدالرزاق الحسني، المصدر السابق، ج 1، ص 202.

رغبة منها في إعمار البلاد وإنعاش اقتصادياتها، ولما كان من الضروري استثمار مياه الرافدين الداهية طعمة للبحار وتنظيمها بأحدث أساليب الري، إذ لامتازن تحفظ المياه من الذهاب سدى في مواسم انخفاضها، ولأجداول فرعية منتظمة تنظم مجاريها ولأمبازل، إنما كانت معظم أراضي العراق معطلة بالعطش، أو الغرق ومبتلة بالأملاح والصبخ<sup>(1)</sup>، ويوضح أيضا بأن المشروع كان يتطلب رؤوس أموال كبيرة، وليس باستطاعة وزارة المالية تحملها، إذ كانت المفاوضات بين الحكومة والشركة قد انتهت على الشكل الذي لا يكلف البلاد شيئاً من الدين والتفقات؛ وافقت على منح هذا الامتياز إلى شركة وطنية قوامها الابتدائي من نجيب أصفر وحلمي بيك الباجه جي بالإيجار لمدة ستين سنة، على أن تستوفي الحكومة ضريبة ممتازة من اصل النتائج قدرها %11، دون أن تتحمل أي مسؤولية عن رؤوس الأموال المنفقة، وبعد انقضاء المدة المنصوص عليها تكون جميع الآلات والأراضي والسدود والخزانات وكافة المرافق الخاصة بالمشاريع ملكا للحكومة من دون بدل<sup>(2)</sup>.

كما شغل منصب وزارة الأشغال والمواصلات في وزارة عبدالمحسن السعدون الثالثة التي تشكّلت بالإرادة الملكية رقم(5) في 14/كانون الثاني/1928-1928/ نيسان/1929<sup>(3)</sup>.

وفي هذه الوزارة نوقش مشروع الترامواي الذي منح من قبل الحكومة العثمانية إلى محمود جلبي الشابندر في 12/أذار/1912 لتتوير مدينة بغداد بالكهرباء، وتأسيس مصلحة قداد (ترامواي) فيها لنقل الركاب، وقد حال اندلاع لهيب الحرب العالمية الأولى 1914 من دون تنفيذ المشروع<sup>(4)</sup>. وعند تأليف الوزارة السعودية الثالثة، أبرمت اتفاقية جديدة للامتياز المذكور في يوم 2/حزيران/1928، تقدمت بها الوزارة المذكورة إلى مجلس النواب فأقرها في 20/أيلول/1928 بأكثرية 58 صوتاً ضد تسعة أصوات، وعند انقضاء مدة الامتياز تصبح جميع المؤسسات والماكنات ملكاً للحكومة بلا بدل<sup>(5)</sup>.

(1) المصدر نفسه، ج1، ص204.

(2) الحسني، المصدر السابق، ج1، ص205.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص147.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص181.

(5) المصدر نفسه، ج2، ص182.

كما شغل منصب وزارة الاشغال والمواصلات في وزارة توفيق السويدي<sup>(1)</sup> الأولى التي تشكلت في 28/نيسان/19-1929/ ايلول/1929<sup>(2)</sup>.

وقد سعت هذه الوزارة إلى تنفيذ عدة مشاريع، كمشروع الحبانية، وخزان عقرقوف، وإصلاح التلّيفونات وتخفيض أجورها تخفيضاً مهماً، وحلّ مشكلة المنازل، وأعمال التثقيف، والعملية والبنك الأهلي، وتحسين المنتوجات الوطنية كالتبغ والقطن والتمر وتشجيع إصدارها وتأمين رواجها في الأسواق الأجنبية<sup>(3)</sup>.

وختاماً فإنّ الحاج عبدالمحسن شلاش قد تقلّد منصب وزارة الاقتصاد في وزارة نوري السعيد السابعة المشكلة بالارادة الملكية رقم(534) في 8/تشرين الاول/1942-25/ كانون الاول/1943<sup>(4)</sup>.

وفي هذه الاثناء كان شلاش راقداً في المستشفى، وقد أعرب عن رغبته في إعفائه من منصبه، فاستصدر رئيس الوزراء الإرادة الملكية المرقمة (575) بقبول استقالته، وكتب اليه:

«صاحب المعالي السيد عبدالمحسن شلاش المحترم»

«يؤسفني أن أبلغ معاليكم صدور الارادة الملكية بقبول استقالتم من منصبكم، وبينما اقدر الاسباب الصحية التي حدثت بكم إلى الاستقالة فانهي هذه الفرصة لأشكر لكم مؤازرتكم الثمينة ، ولأتمنى لكم دوام الصحة والتوفيق»<sup>(5)</sup>.

بغداد/14/تشرين الثاني/1942 رئيس الوزراء:

نوري السعيد<sup>(6)</sup>

(1) توفيق السويدي: رئيس وزراء عراقي سابق، ولد في بغداد سنة 1892م، وتوفي في بيروت في 15/ تشرين الاول/1968م، ألف ثلاث وزارات هي: (الأولى: 28/نيسان/25-1929/ آب/1929)، (الثانية: 23/شباط/1946 - 30/مارس/1946)، (الثالثة: 5/شباط/12-1950/ ايلول/1950).

للمزيد انظر: عبدالرزاق الحسني، المصدر السابق، ج2، ص229.

(2) عبدالرزاق الحسني، المصدر السابق، ج2، ص229.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص237.

(4) المصدر نفسه، ج6، ص95.

(5) عبد الرزاق الحسني، المصدر السابق، ج6، ص98.

(6) نوري السعيد: رئيس وزراء عراقي سابق، ولد في بغداد سنة 1888 وانحدر في 15/تموز/1958 بعد زوال نظام الحكم الملكي ومحاولة قتله. كان له دور بارز في تأسيس جمعية العهد، وفي الثورة العربية، وفي كل ما رافق تأسيس حكومة الملك فيصل وتطورها في سنوات الانتداب، ألف أربعة عشر وزارة، (الأولى: 23/ آذار/1930 - 19/تشرين الثاني/1931)، (الاخيرة: 3/آذار/14-1958/مايس/1958)، للمزيد انظر: سعاد رؤوف شير محمد، نوري السعيد ودوره في السياسة حتى عام 1945، مراجعة: كمال مظهر احمد، (بغداد: 1988)، ص13 وما بعدها.

وبهذا تنتهي الحياة الوزاريّة للحاج عبد المحسن شلاش.

### المبحث الثالث: دوره في مجلس الأعيان 1937 - 1945

أدت مكانه الدينيّة والاجتماعيّة والانتماء العائليّ والماضي السياسيّ دورًا بارزًا لاختيار الاشخاص لعضوية مجلس الأعيان، فقد وقع مجلس الأعيان تحت تأثير هذه الشرائح الاجتماعية لحاجته الماسة إلى مؤهلاتهم الثقافية، أو لكونهم من العسكريين ذوي الرتب العالية أو الوجاهة من خلال امتلاكهم الثروة<sup>(1)</sup>.

لقد كان الحاج عبد المحسن شلاش من الأعضاء البارزين في مجلس الأعيان العراقيّ، فقد انتخب عضوًا في المجلس بتاريخ 17 / تشرين الاول / 1937 - تشرين الاول 1945 . كما انتخب نائبًا ثانيًا لرئيس مجلس الأعيان في 2 / كانون الاول / 1944 ، حتى استقال في 14 / حزيران / 1945<sup>(2)</sup>.

شارك في المناقشات التي جرت في مجلس الأعيان وكانت له رؤيا إصلاحية دعا من خلالها إلى الوحدة الوطنيّة ونبذ الخلافات.

وعند مناقشة الأعيان للأوضاع السياسيّة ومنها العمل الحزبي وحرية الانتماء للأحزاب، تباينت الآراء فمنهم أكد على ضرورة وجود الأحزاب بينما عارضها آخرون، منهم العين عبد المحسن شلاش الذي رأى ان التوسع في تأسيس الأحزاب يساعد على تسرب التيارات الغربية المنافية لروح الأمة<sup>(3)</sup>. ورفض بشكل قاطع التحزب في القوات المسلحة خوفًا من انعكاس ذلك على دورها في خدمة البلاد وحمايتها<sup>(4)</sup>.

وفي مجال آخر دعا إلى أبعاد الطلبة والمدرسين عن الاشتغال في الأمور السياسيّة. ولا بد من الإشارة إلى حقوق الأفراد والحريات التي شكّلت هاجسًا للأعيان في مناقشاتهم فكان للعين عبد المحسن شلاش نصيبًا في تلك المناقشات إذ أكد ضرورة رفع الاحكام العرفيّة وإقامة العدل والمساواة<sup>(5)</sup>.

وعند مناقشة مسألة السجّاء ومصادرة أموالهم طالب بفصل الأملاك عن الجرائم اذ

(1) محمد رشيد عباس، مجلس الاعيان العراقي 1925 - 1958، اطروحة دكتوراه، (جامعة بغداد : كلية ابن رشد، 1995 )، ص 90.

(2) مير بصري، المصدر السابق، ص 279 ؛ كامل سلمان الجبوري، المصدر السابق، ص 515

(3) محمد رشيد عباس، المصدر السابق، ص 178.

(4) المصدر نفسه، ص 187.

(5) المصدر نفسه، ص 205.

ليس من العدل وضع اليد على أملاك المسجونين<sup>(1)</sup>.

وعند مناقشة الأعيان لمسألة إعداد الجيش وتطويره أكد العين أهمية تطوير الجيش من خلال الاهتمام بتسليحه وزيادة أصنافه<sup>(2)</sup>. ونالت حقوق الأقليات والمسألة الكرديّة وخاصة عند اندلاع الحركات الكردية بين عامي 1943 - 1949؛ اهتمام العين عبد المحسن شلاش وشكّلت هاجسًا لديه فقد دعا إلى الوحدة الوطنيّة قائلاً : (مادمنّا نسعى لإيجاد الوحدة العربيّة يجب علينا أولاً أن نبني لوازم الوحدة العراقيّة)<sup>(3)</sup>.

وفي مناقشات المجلس لسوء الإدارة في الدولة وإصلاح الجهاز الإداري طالب الإداريين في الأولوية أن يُشعروا الأهالي بأنّ الحكومة معهم موضعًا بأنّ هناك ضعفًا عامًا وانحطاطًا في مستوى الكفاءة لدى موظفي الدّولة نتيجة لتفشي الرّشوة والتّدني في مستوى الأخلاق العامّة<sup>(4)</sup>.

ونظرًا لتدهور الأوضاع الاقتصاديّة وارتفاع تكاليف المعيشة وبخاصّةً بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية عام 1945 م، ناقش الأعيان هذه المسألة فقد طالب العين عبد المحسن شلاش الحكومة بمساعدة الشعب في تخفيض أسعار المواد الغذائيّة ولاسيما السّكر والشاي نتيجة ارتفاع أسعاره إلى 80 % مما كانت عليه سابقًا<sup>(5)</sup>.

لقد شهد عقد الخمسينات المطالبة بالإصلاح الجذري لكل نواحي الحياة لان هنالك عادات اجتماعية ضارة تصدى لها الأعيان في مناقشاتهم منها الدّعوة إلى مكافحة الطائفية والعنصرية فقد أكد العين عبد المحسن شلاش ضرورة حفظ التّوازن بين الأديان والطوائف والقوميات مشيرًا إلى أنّ الاختلال النّاجم عن العنصريّة والطائفية موجود لدى جميع الأمم، لكن الأمر المهم الذي يقع على عاتق المسؤولين وأولياء الأمور هو حفظ التّوازن<sup>(6)</sup>.

وعند مناقشة قانون العشائر في مجلس الأعيان أكد العين أنّ هذا القانون أصبح وبالاً على البلاد وموجّهًا لأحداث الفلاقل والفتن لأنّه قضى على المدنيّة والأخلاق

(1) المصدر نفسه، ص 209.

(2) محمد رشيد عباس، المصدر السابق، ص 213.

(3) المصدر نفسه، ص 214.

(4) المصدر نفسه، ص 219.

(5) محمد رشيد عباس، المصدر السابق، ص 227.

(6) المصدر نفسه، ص 229.

وكل شيء مؤكدًا أنّ هذا النظام لا يليق بالنهضة الحديثة، وطالب بأن تحال مشاكل العشائر إلى المحاكم كي لا تشغل الإدارة وان يخضع العراقيين للقضاء جميعًا، وطالب أيضا بإعطاء مخصّصات لبعض شيوخ الفرات(1).

ولقد نال التّعليم اهتمامًا خاصًا في مجلس الأعيان، فقد طالب العين عبد المحسن شلاش بالاهتمام بالتّعليم بصورة عامة مؤكّدًا أهمية التّعليم المهنيّ وضرورة الاهتمام به وإعداد المناهج الدراسية الخاصة به والامتحانات(2).

كما اعترض على تدريس التّاريخ الاسلامي في دار المعلمين العالية بشكل يوجّه من خلاله الطّعن للدين الإسلامي، وإصدار مجلة الطليعة التي تبشر بأفكار الشيوعيّة حسب رأيه(3).

وطالب بضرورة احتواء مناهج التّربية مبدأ التوحيد والايمان والمبادئ السامية والأخلاق العالية، وأكد ضرورة عدم الاستعانة بالمدرسين الاجانب الذين يدرسون النشاء الأفكار التي تتكر وجود الله، وطالب بأن تعرض هذه المناهج على مجلس الأمة(4).

وفي مجال آخر دعا إلى عدم فرض الرّسوم على الأهالي لقاء الخدمات التي تقدمها الدّولة من رصف وتبليط الشّوارع وكذلك رسوم عبور الجسور لأنّ ذلك من واجبها(5).

أمّا الرّعاية فقد شغلت اهتمامات الأعيان ونالت نصيبًا وافرًا في المناقشات، فقد طالب العين عبد المحسن بإرسال بعثات من الفلاحين ليطلعوا على التّجارب العالميّة وينقلونها لبلادنا(6).

كما أكّد أهمية مشروع النكارات(7) التي باتت تهدد أراضي الشامية وغماس وأبي

(1) المصدر نفسه ، ص 232.

(2) محمد رشيد عباس، المصدر السابق، ص 242.

(3) المصدر نفسه، ص 243.

(4) المصدر نفسه، ص 244.

(5) المصدر نفسه، ص 254.

(6) محمد رشيد عباس، المصدر السابق ، ص 256.

(7) النكارات: عبارة عن انخفاض يحصل في قاع النهر حيث يتحول الى شبه شلال وبذلك ينخفض ماء النهر إلى درجة كبيرة مما يؤدي الى عدم الاستفادة منه. للمزيد انظر: المصدر نفسه ص 257.

صخبر وأهمية مكافحتها والاهتمام بمشاريع الري والبزل وخاصة مشروع الحبانية لدفعه مضار كبيرة وجلبه منافع كثيرة<sup>(1)</sup>.

كما دعا لزيادة مخصصات الري وتقديم مشاريعه على المشاريع الأخرى وضرورة خزن المياه ورفع مستواها عن الأرض وإنشاء السدود وفتح الجداول والترع<sup>(2)</sup>، وطالب أيضا بضرورة الاهتمام بالبساتين ومكافحة الآفات التي تهددها لغرض تصدير منتوجاتها للأسواق الأجنبية، ودعا أيضا إلى رفع الضرائب المتعددة التي كانت تفرض على الأرض والماء إذ نجده يرحب بتقرير لجنة الأمور المالية والاقتصادية لعام 1939م وعدّه خدمة للزراعة والمزارعين ، فضلاً عن مطالبته لمساعدة الفلاحين وإعطائهم البذور والسلف الزراعية لرفع المستوى الزراعي وتحسينه<sup>(3)</sup>.

أمّا بخصوص الملكيات الزراعية فقد رأى أنّ للمشاريع الكبيرة فوائد إدارية واقتصادية لا تتوفر في الملكية الصغيرة من حيث استخدام الآلات وتوفير لوازم الإنتاج<sup>(4)</sup>.

وختاماً لا بدّ لنا أن نذكر موقفه المشرف مع كوكبة من الأعيان العراقيين الذين أثارهم الاعتداء الفرنسي على سوريا ولبنان فطالبوا الحكومة اتخاذ موقفاً حازماً اتجاه ما يحدث من عدوان، فقد وصفه بالهمجية ويشكل ضغط على الحريّات العامة لأنّ استخدام الدبابات واعتقال وزير الدولة ورئيس الوزراء وحلّ المجلس النيابي المنتخب امرًا غير شرعيًا لذا طالب بقطع العلاقات مع فرنسا وشجب بشدة الاعمال الإجرامية والبطش والتعذيب التي قامت بها القوات الفرنسية<sup>(5)</sup>.

(1) المصدر نفسه، ص 258.

(2) المصدر نفسه ، ص 259.

(3) المصدر نفسه ، ص 262.

(4) محمد رشيد عباس، المصدر السابق، ص 263.

(5) المصدر نفسه، ص 294.

## الخاتمة

يتضح لي من خلال دراستي لشخصية الحاج عبد المحسن شلاش وأبعادها الوطنية والأخلاقية والدينية، أن هنالك لغزاً لم استطع التمكن من حله وهو التناقض الواضح والكبير في مسلكه من ثورة النجف التي قادها الحاج نجم البقال عام 1918م، ودوره النشط عندما اندلعت الثورة العراقية الكبرى عام 1920 م، فهل كان موقفه السلبي من ثورة النجف هو بتأثير موقف بعض المراجع من تلك الثورة آنذاك من أمثال السيد كاظم اليزدي، أو كان بتأثير من العامل الاقتصادي المتمثل بإغلاق أسواق النجف، وكساد تجارتها نتيجة الحصار الذي فرضته القوات البريطانية على النجف بشكل عام وعلى المعتصمين من الثوار في الصحن الحيدري الشريف، أو كان بتأثير العامل الاجتماعي لقيادة تلك الثورة التي كان من بين أفرادها أناس من الطبقة الدنيا من أمثال الحاج نجم الذي كان يمتهن البقالة في سوق الحويش، وإن كان من بين قادتها من الطبقة العليا في النجف من أمثال الحاج عطية أبو كلل وتومان عدوة وكاظم صبي وآخرين. أو لأن صورة بريطانيا أمام الرأي العام العراقي والنجفي بصورة خاصة وسياستها الانتدابية المقيتة لم تتضح بعد.

## قائمة المصادر والمراجع

- 1 - القرآن الكريم.
- 2 - ارنولد ولسن، الثّورة العراقيّة، ترجمة جعفر الخياط، (بيروت : 1971 ).
- 3 - جعفر الخليلي، هكذا عرفتهم، ج1، (قم المقدسة: أوفسيت ، 1963 ).
- 4 - جعفر محبوبه، ماضي النّجف وحاضرها ، ج1، ط2، (النّجف:1958).
- 5 - جيمس سوماريز مان، مذكرات الكابتن مان، ترجمة كاظم الساعدي، تقديم وتحقيق وتعليق /كامل سلمان الجبوري ( بيروت: 2002 )
- 6 - حسن لطيف الزبيدي، موسوعة الاحزاب العراقيّة، ( لبنان : 2007 ) .
- 7 - حنه بطاطو، العراق، ترجمة عفيف الرزاز، ج 1، ( طهران : 2005 ) .
- 8 - رشيد القسام، الاسر النّجفية واسباب تسمية الالقاب، ( النّجف: 2007 ) .
- 9 - سعاد رؤوف شير محمد، نوري السعيد ودوره في السياسة العراقيّة حتى عام 1945، مراجعة كمال مظهر احمد، (بغداد: 1988).
- 10 - عبد الجليل التكريتي، الملك فيصل ودوره في تأسيس الدولة العراقيّة الحديثة (1921-1933) ، ط1، (بغداد: 1992).
- 11 - عبد الغفار الحبوبى، ديوان السيد محمد سعيد الحبوبى، ج2، ( بغداد : 1980 ) .
- 12 - عبد الله فياض، الثّورة العراقيّة الكبرى 1920، ط 2، ( بغداد : 1975 ) .
- 13 - عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقيّة، ط7 (بغداد: 1988) .
- 14 - عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السّياسي الحديث، ط7(بغداد: 1989).
- 15 - عز الدين عبد الرسول، محسن ابو طبيخ ودوره في الحركة الوطنيّة حتى عام 1958، رسالة ماجستير، (جامعة الكوفة: كلية الاداب، 1999 ) .
- 16 - علاء جاسم محمد، جعفر العسكري ودوره السّياسي والعسكري حتى عام 1936، (بغداد: 1987).
- 17 - فريق المزهّر آل فرعون، الحقائق الناصعة في الثّورة العراقيّة،(بغداد:1952).
- 18 - كامل سلمان الجبوري ، النّجف والثّورة العراقيّة الكبرى 1920، (دار القارئ ، بيروت: 2005 ) .
- 19 - محمد حسين حرز الدين، تاريخ النّجف الأشرف، ج1، منشورات دليل ما، ( قم: 1997 ) .
- 20 - محمد رشيد عباس، مجلس الأعيان العراقيّ 1925 - 1958، أطروحة دكتوراه، ( جامعة بغداد: كلية ابن رشد، 1995 ) .
- 21 - محمد هادي الاميني، معجم رجال الفكر والادب في النّجف خلال الف عام، (بغداد : 1992 ) .
- 22 - مير بصري، أعلام الوطنيّة والقومية، ( دار الحكمة: لندن، 1999 ) .

## لفظة «الأخ» في اللغة العربية

أحمد نديم أمون

### 1 - أصل كلمة «أخ»، ولغاتهما، ومشتقاتها:

أصل «أخ»: «أخُو»: لأنه جُمِعَ على «آخاء» مثل: «آباء». والذَّاهِبُ منه واو؛ لأنك تقول في التنثية: «أخوان». وبعض العرب يقول: «أخان» على النقص<sup>(1)</sup>. وقال ابن فارس: همزة «أخ» مبدلة من الواو؛ ولذلك شرحها في كتاب الواو<sup>(2)</sup>.

وجاء في لسان العرب: «قال بعض النحويين: سُمِّيَ الأخُ أَخًا؛ لأنَّ قَصْدَهُ قَصْدُ أخيه، وأصله من «وخي» أي: قَصَدَ، فُقِّلِبَت الواو همزة. قال المبرد: الأب والأخ ذهب منهما الواو، تقول في التنثية: «أبوان» و«أخوان»، ولم يُسَكَّنوا أوائلهما؛ لئلا تدخل ألف الوصل، وهي همزة على الهمزة التي في أوائلهما، كما فعلوا في «الابن» و«الاسم» اللذين بُنِيَ على سكون أوائلهما، فدخلت ألف الوصل» لفظة «الأخ» في اللغة العربية<sup>(3)</sup>.

ولكلمة «الأخ» خمس لغات أخرى، وهي: 1- الأَخُّ<sup>(4)</sup>. 2- الأَخُو<sup>(5)</sup>. 3- الأَخُو<sup>(6)</sup>. 4- الأَخُو<sup>(7)</sup>. 5- الأَخَا<sup>(8)</sup>.

ومن مشتقات «الأخ»:

- أَا فلانًا أخوه أَخُوَّةٌ: صار له أَخًا<sup>(9)</sup>.

- (1) - لسان العرب 14/19 (أخا).
- (2) - انظر: المصدر نفسه 6/95.
- (3) - لسان العرب 14/22 (أخا).
- (4) - دائرة المعارف 7/349؛ والمعجم الكبير 1/136. وفي تاج العروس 37/44: «وإنما سُيِّدَ؛ لأنَّ أصله «أخُو»، فزادوا بدل الواو خاء.
- (5) - لسان العرب 14/19 (أخا)؛ وتاج العروس 37/44؛ دائرة المعارف 7/350؛ والمعجم الكبير 1/136. ومنه قول رجل من طيِّئ (من البسيط)  
ما المرءُ أخوك إن لم تُلْفِهْ وزرًا  
عِنْدَ الكريهةِ مَعُونًا على التُّوبِ  
(البيت مع نسبه في همع الهوامع 1/129. والكريهة: الحرب. التُّوب: المصائب).
- (6) - تاج العروس 37/44؛ والمعجم الكبير 1/136.
- (7) - لسان العرب 14/19 (أخا)؛ ودائرة المعارف 7/349؛ والمعجم الكبير 1/136.
- (8) - تاج العروس 37/44 (أخا)؛ ودائرة المعارف 7/349. ومنه قول العرب: «مُكْرَةٌ أخاك لا بطل» (همع الهوامع 1/129).
- (9) - لسان العرب 14/22 (أخا)؛ والمعجم الكبير 1/133.

- آخى بينهما مؤاخاةً وإخاءً وإخاوةً ووخاءً<sup>(1)</sup>: جعلهما كالأخوين. ويقال في طيئ: «واخى بينهما». وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: آخى بين المهاجرين والأنصار<sup>(2)</sup>. قال أبو الأسود الدؤلي يرثي (من الكامل):

من ذا الذي بإخائه وبودّه      من يعدُّ ودك أو إخائك أفرح؟<sup>(3)</sup>

وأخى فلانًا: اتّخذه أخًا. وفي المثل: «آخ الأكفاء، وداهن الأعداء»<sup>(4)</sup>. وقال أبو الأسود الدؤلي (من الرمل):

لا تُؤاخِ الدَّهْرَ جِبْسًا راضِعًا      مُلْهَبَ الشَّدِّ سَرِيعَ الْمَنْزَعِ<sup>(5)</sup>

وقال مسكين الدارمي (من الطويل):

أواخي رجالًا لستُ أطلِّعُ بعضَهم      على سرِّ بعضٍ غيرِ أتِي جماعها<sup>(6)</sup>

وفي لسان العرب أَنَّ العامّة تقول: واخاه. قال ابن بري: حكى أبو عبيد في «الغريب المصنّف»، ورواه عن الزّيديين: «أخيت» و«واخيت» و«أسيت» و«واسيت»، و«أكلت» و«واكلت» ووجه ذلك من جهة القياس هو حمل الماضي على المستقبل، إذ كانوا يقولون: «يُواخِي»، بقلب الهمزة واوًا على التّخفيف. وقيل: إنّ «واخاه» لغة ضعيفة. وقيل: هي بدل. قال ابن سيده: وأرى الوفاء عليها، والاسم: «الأخوة». تقول: بيني وبينه أخوة وإخاء. وتقول: «أخيته» على مثال «فاعلته». قال: ولغة طيء: واخيته»<sup>(7)</sup>.

- تأخى فلان وفلان: صارا كالأخوين<sup>(8)</sup>.

- تأخّى فلانًا: اتّخذه أخًا، أو دعاه: يا أخاه. وتأخّى الشّيء: تحرّاه. وفي حديث ابن عمر «أنّه كان يتأخّى مناخ رسول الله ﷺ»<sup>(9)</sup>.

(1) - لسان العرب 14/22 (أخا)؛ والمعجم الكبير 1/133.

(2) - لسان العرب 14/22 (أخا)؛ والمعجم الكبير 1/133.

(3) - ديوانه، ص 331.

(4) - مجمع الأمثال 1/76.

(5) - ديوانه، ص 241. والجئس: الجبان الضعيف. الرّاضع: اللّئيم البخيل.

(6) - ديوانه، ص 52. والجماع: اسم لما يُجمع به الشّيء.

(7) - سان العرب 14/22 (أخا).

(8) - المعجم الكبير 1/133.

(9) - لسان العرب 22 /14 (أخا)؛ والمعجم الكبير 1/133.

- الأُخُوَّة: الصِّلة بين الأخوين بالقرابة أو بالرِّضاعة أو بالصِّداقة<sup>(1)</sup>. قال أبو فراس الحمداني (من المتقارب):

كَسَوْنَا أُخُوَّتَنَا بِالصَّفَاءِ      كَمَا كَسَيْتَ بِالْكَلامِ المعاني<sup>(2)</sup>

- الأُخُوِّيَّة: جماعة تؤلِّف بينها رابطة دينية، أو فكرية، أو اجتماعية<sup>(3)</sup>.

- الإخوَانِيَّة: الأُخُوِّيَّة<sup>(4)</sup>.

- الإخاء: رباط تضامن اجتماعي<sup>(5)</sup>.

- المؤاخاة: قيام بعمل أخوة وتعاطف أو تضامن<sup>(6)</sup>.

- التآخي: علاقة كالأخوة<sup>(7)</sup>.

## 2 - معاني «الأخ»:

لم يجد أحمد بن فارس (395هـ/1004م) صاحب نظرية المعنى المشترك لمعاني المادة الواحدة ومشتقاتها، والذي يسميه «مقياس» أو «أصل»، والتي على أساس هذه النظرية سمى معجمه «مقاييس اللغة»، لم يجد لمعاني الجذر (أخو) ومشتقاته أصلاً مشتركاً. قال: «الهمزة والخاء والواو ليس بأصل؛ لأنَّ الهمزة مبدلة عندما من الواو»<sup>(8)</sup>، وقال في مادة (وخي): «الواو والخاء والحرف المعتل كلمة تدل على سائر وقصد. يقال: وحث الناقة تخي وخياً». قال [من الرجز]:

يَنْبَعْنَ وَخِي عَيْهَلِ نِيافِ<sup>(9)</sup>

وهذا وَخِي فلان، أي: سمته. وما أدري أين وَخِي، أي: توجّه»<sup>(10)</sup>.

(1) - المعجم الكبير 1/136.

(2) - ديوانه، ص 306.

(3) - المنجد في اللغة العربية المعاصرة، مادة (أخا).

(4) - المرجع نفسه، المادة نفسها.

(5) - المرجع نفسه، المادة نفسها.

(6) - المرجع نفسه، المادة نفسها.

(7) - المرجع نفسه، المادة نفسها.

(8) - مقاييس اللغة 1/70.

(9) - الرجز للسردني النيمي في تاج العروس 24/443؛ وبلا نسبة في لسان العرب. والعَيْهَل: الناقة السريعة. نياف: طويلة.

(10) - مقاييس اللغة 6/95.

ورأى مجمع اللغة العربيّة في القاهرة أنّ بين معاني هذا الجذر ومشتقاته معنيين مشتركين: 1- المقاربة. 2- الملازمة<sup>(1)</sup>.

وأثبتت المعاجم اللغويّة العربيّة لكلمة «الأخ» المعاني الآتية:

أ- من وُلد من أبيك وأمك، أو من أحدهما<sup>(2)</sup>. وفي القرآن الكريم: «قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ»<sup>(3)</sup>.

وقال ابن هرمة (من الكامل):

وَإِذَا رَأَيْتَ شَقِيقَهُ وَصَدِيقَهُ      لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا أَخُو الْأَرْحَامِ<sup>(4)</sup>

وإذا كان «الأخ» قد يكون من أحد الوالدين، فإنّ «الشقيق» لا يكون إلاّ منهما معاً<sup>(5)</sup>. من هنا القول للأخ من الوالد أو من الوالدة: الأخ غير الشقيق.

- من رَضَعَ من أمّ الآخر (الأخ بالرضاعة)<sup>(6)</sup>.

- من كان من قبيلك ومعشرك<sup>(7)</sup>، وفي القرآن الكريم: «وَأَلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا»<sup>(8)</sup>.

- الصديق<sup>(9)</sup>، ومنه قول العرب: «رُبَّ أَخٍ لَمْ تَلِدْ أُمَّكَ»<sup>(10)</sup>، و«إِنَّ أَخَاكَ مِنْ آسَاكَ»<sup>(11)</sup>. قال أبو فراس الحمداني (من الطويل):

وَلَا تَغْتَرِزْ بِالنَّاسِ مَا كَلَّ مَنْ تَرَى      أَخُوكَ، إِذَا أَوْضَعْتَ فِي الْأَمْرِ أَوْضَعًا<sup>(12)</sup>

وتقول العرب: «فلان أخو كُرْبَةٍ، أي: صاحبها»<sup>(13)</sup>. وقولهم: «يا أخا الخير»، و«يا

(1) - المعجم الكبير 1/133.

(2) - \*\*\*

(3) - يوسف 59:12.

(4) - ديوانه، ص 242.

(5) - انظر: المعجم الوسيط، مادة (شقق).

(6) - دائرة المعارف 7/350؛ والمعجم الكبير 1/134.

(7) - المعجم الكبير 1/134.

(8) - الأعراف 65:7.

(9) - دائرة المعارف 7/350؛ والمعجم الكبير 1/134.

(10) - جهرة الأمثال 1/425؛ ومجمع الأمثال 1/291؛ والمستقصى 2/93؛ وموسوعة أمثال العرب 4/75.

(11) - مجمع الأمثال 1/72؛ والمستقصى 1/402؛ وموسوعة أمثال العرب 2/51.

(12) - ديوانه، ص 183.

(13) - دائرة المعارف 7/350.

أخا الجود»، يعني: صاحبه<sup>(1)</sup>.

- بمعنى: «مثل»، ومنه قول العرب: «لقي فلاناً أخا الموت»، أي: مثله<sup>(2)</sup>.
  - المشارك في عمل أو غيره<sup>(3)</sup>. وفي القرآن الكريم: «فَأَخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ»<sup>(4)</sup>.
  - الملازم أو المصاحب<sup>(5)</sup>، ومن أمثال العرب: «أخو الظلماء أعشى بالليل»<sup>(6)</sup>.
- وكلُّ ما نُسب إلى شيء، فهو أخوه، يقال: أخو سقر، وأخو عزمات، وأخو قفار<sup>(7)</sup>.
- قال امرؤ القيس (من الطويل):

تقطع أسباب اللبابة والهوى      عشية جاوزنا حماة وشيزرا  
بسيّر يضج العودُ منه يمينه      أخو الجهد لا يلوى على من تعدّرا<sup>(8)</sup>

وعدّد الدكتور إميل بديع يعقوب في كتابه «العذراء مريم بين القدوس والقديسين» المعاني التي لكلمة «الأخ» في الكتاب المقدّس؛ ليستنتج أنّ هذه اللفظة لا تعني بالضرورة من وُلد من والدك ووالدتك، وأنّ مريم العذراء لم تُجب أولاداً غير يسوع المسيح. وهذه المعاني هي<sup>(9)</sup>:

- 1 - ابن الأخ، فإبراهيم يسمّى لوطاً أخا، وهو ابن أخيه: «قال إبراهيم للوط: لا تكن خصومة بيني وبينك، ولا بين رُعاتي ورُعاتك، فنحن رجلان أخوان»<sup>(10)</sup>. وفي مكان آخر من سفر التكوين: «استرجع [أي: إبراهيم] لوطاً أخاه أيضاً»<sup>(11)</sup>.
- 2 - ابن الأخت، فلابان يسمّى يعقوب أخاه، وهو ابن أخته: «الأثكّ أخي تخدمني

(1) - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(2) - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(3) - المعجم الكبير 1/134.

(4) - التّوبة 9: 11.

(5) - المعجم الكبير 1/134.

(6) - مجمع الأمثال 1/55.

(7) - المعجم الكبير 1/134.

(8) - ديوانه، ص 62. وحماة وشيزر: موضعان في ناحية الشّام. العود: المُسِن من الجمال. يضجّ: يُحدث ضجّة لخوف أو لغيره. يمينه: يُضعفه. تعدّرا: أتى بعذر. يصف أنّهم يسيرون متعجلين.

(9) - انظر: العذراء مريم بين القدوس والقديسين، ص 166-162.

(10) - سفر التكوين، الإصحاح الثالث عشر، الآية الثامنة.

(11) - سفر التكوين، الإصحاح الرابع عشر، الآية السادسة عشرة.

مجانًا» (تكوين 15:29).

3 - ابن العمّ: «ابنا محلي ألعازار وقيس. ومات ألعازار، ولم يكن له بنون، بل بنات، فأخذهنّ بنو قيس، إخوتهنّ» (أخبار اليوم الأول 23: 22-21). وبنات ألعازار وبنو قيس أولاد عمّ.

1- ابن ابن العمّ، فأولاد عمّ هارون تسمّوا «إخوة» لأولاد هارون (اللاويون 4:10).

2- القريب، فيعقوب وعمّه وأقاربهم تسمّوا إخوة (تكوين 31: 45 و54)، وأقارب إبراهيم أسماهم وكيله إخوته (تكوين 27:24).

3- ابن القوم، أو ابن الجنس، أو ابن الدّين الواحد: «حدث في تلك الأيام لمّا كبر موسى أنّه خرج إلى إخوته لينظر في أفعالهم، فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانيّاً من إخوته» (الخرج 11:2).

4- الفقير المسكين (متّى 25: 31-46).

5- ابن الإيمان الواحد: «في تلك الأيام، خطب بطرس في الأخوة. وكان عدد الحاضرين نحو مئة وعشرين. فقال: يا إخوتي، كان لا بدّ أن يتمّ ما أنبأ به الرّوح القدس في الكتاب من قبل بلسان داود، على يهوذا الذي جعل نفسه دليلاً للذين قبضوا على يسوع»<sup>(1)</sup>. وكثيراً ما دعي المسيحيون إخوة<sup>(2)</sup>.

6- الصّديق المحبوب، فقد دعا داود يونانان أخاً: «قد تضايقتُ عليك يا أخي يونانان» (صموئيل الثاني 1:26).

7- الرّجل من نفس الجنس: «والآن لحمنا كلحم إخوتنا» (نحميا 6:5).

8- الرّجل من أمة قريبة: «لا تركه أდوميّاً؛ لأنّه أخوك» (التثنية 7:23).

9- الرّجل من أمة حليفة: «هكذا قال الرّبّ: من أجل ذنوب صُور الثلاثة والأربعة، لا أرجع عنه؛ لأنّهم سلّموا سبيّاً كاملاً إلى أدوم، ولم يذكروا عهد الإخوة» (عاموس 9:1).

(1) - أعمال الرّسل، الإصحاح الأوّل، الآيتان: 15، 16. وانظر أيضاً: أعمال الرّسل، الإصحاح التاسع، الآية السابعة عشرة.

(2) - انظر: إنجيل متّى، الإصحاح الثالث والعشرين، الآية الثامنة.

10- الإنسان الغريب، كنوع من حُسن الخطاب، فقد دعا أخاب بنهدد أخًا (ملوك الأول 32:20).

11- أيّ إنسان من الجنس البشريّ، مراعاةً لأخوة البشر (التكوين 5:9).

12- رسول من رسل المسيح: «فقال لهما يسوع: لا تخافا، اذهبا، وقولا لإخوتي أن يذهبوا إلى الجليل، وهناك يرونني» (متّى 10:28). و«قال لها يسوع: لا تلمسيني؛ لأنّي لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي، وقولي لهم: إنّي أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم. فجاءت مريم المجدليّة، وأخبرت التلاميذ أنّها رأت الرّب، وأنّه قال لها هذا» (يوحنا 20: 17-18).

### 1- تشنية «الأخ»:

يُثنّى «الأخ» على «أخوان»<sup>(1)</sup>، و«أخان» على النقص<sup>(2)</sup>، وكذلك على «أخوان» في الشعر<sup>(3)</sup>. قال خُلَيْج الأعيويّ (من الطويل):

وقَدْ قُلْتُ يَوْمًا، والرِّكَابُ كَأَنَّهَا      قَوَارِبُ طَيْرٍ حَانَ مِنْهَا وَرَوْدُهَا  
لُأَخْوَيْنِ كَانَا خَيْرَ أَخْوَيْنِ شِيمَةً      وَأَسْرَعُهُ فِي حَاجَةٍ لِي أُرِيدُهَا<sup>(4)</sup>

### 2- جمع «الأخ»:

يُجمع «الأخ» على:

أ- أخون<sup>(5)</sup> جمع مذكّر سالم وشاهده قول عقيل بن عُلفَة المريّ (من الوافر):

وكان بنو فَرَارَةَ شَرَّ قَوْمٍ      وَكُنْتُ لَهُمْ كَثْرًا بَنِي الْأَفِينَا<sup>(6)</sup>

وقول العباس بن مرداس السلمي (من الوافر):

فَقُلْنَا: أَسْلِمُوا، إِنَّا أَخُوكُمْ      فَفَقَدْ سَلِمَتْ مِنَ الْإِحْنِ الصُّدُورُ<sup>(7)</sup>

(1) - لسان العرب 14/19 (أخا)؛ ودائرة المعارف 7/350.

(2) - دائرة المعارف 7/350.

(3) - لسان العرب 14/19 (أخا).

(4) - البيت مع نسبته في لسان العرب 14/19 (أخا).

(5) - جمع مذكّر سالم، يُرفع بالواو، ويُنصب بالياء. انظر: سان العرب 14/20؛ وتاج العروس 36/47؛ ودائرة المعارف 7/350؛ والمعجم الكبير 1/1035.

(6) - البيت مع نسبته في لسان العرب 14/20 (أخا).

(7) - البيت له في ديوان، ص 52؛ ولسان العرب 14/20 (أخا).

ب- آخاء<sup>(1)</sup>، وشاهده قول بشر بن المهلب (من الوافر):

وَجَدْتُمْ بَيْنَكُمْ دُونَنا، إِذْ نُسِبْتُمْ وَأَيُّ بَنِي الْآخَاءِ تَتَّبِعُونَ مَناسِبُهُ<sup>(2)</sup>

ت- إخوان<sup>(3)</sup> يقال: هم إخوان العزاء، وإخوان العمل<sup>(4)</sup>، قال لبيد بن ربيعة (من الرَّمْل):

أَعْمَلَ الْعَيْسَ عَلَى عِيَلَتِهَا إِنَّمَا يَنْجَحُ إِخْوَانُ الْعَمَلِ<sup>(5)</sup>

ث- أخوان<sup>(6)</sup>، قال الحارث بن مالك الهذلي (من الوافر):

وَتَوْمًا نَقَلُ الْأَبْطَالَ شَغَفًا

وَقَدْ خَرَجَتْ نَفُوسُهُمْ فَمَاتُوا عَلَى أُخْوَانِهِمْ وَهُمْ صَاحُ<sup>(7)</sup>

ج- إخوة<sup>(8)</sup>، وفي القرآن الكريم: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ<sup>(9)</sup>، وجاءت بمعنى الاثنين في الآية أَفَأَنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأَمِّهِ السُّدُسُ<sup>(10)</sup>؛ لأنَّ الاثنين يوجبان للأُمِّ السُّدُسَ<sup>(11)</sup>.

ح- أخوة<sup>(12)</sup>، وهذا الجمع قال به أهل اللغة؛ أمَّا سيبويه، فقال: إنَّه اسم للجمع، وليس بجمع؛ لأنَّ «فَعَلًا» ليس ممَّا يُكسَّر على «فُعَلَةٌ»<sup>(13)</sup>.

خ- أخوة<sup>(14)</sup>، قال اللحياني بهذا الجمع، وهو عنده «أخوة» على مثال «فُعول»، ثمَّ لحقت الهاء لتأنيث الجمع كالبُعولة والفُحولة<sup>(15)</sup>.

(1) - لسان العرب ٢٠/١٤ (أخا)؛ وتاج العروس ٤٦/٣٧؛ ودائرة المعارف ٣٥٠/٧؛ والمعجم الكبير ١٣٥/١.

(2) - البيت له في الخصائص 1/201؛ وبلا نسبة في لسان العرب 14/20 (أخا).

(3) - لسان العرب ٢٠/١٤ (أخا)؛ وتاج العروس ٤٦/٣٧؛ ودائرة المعارف ٣٥٠/٧؛ والمعجم الكبير ١٣٥/١.

(4) - لسان العرب 14/20 (أخا)؛ والمعجم الكبير 1/135.

(5) - البيت له في ديوانه، ص 179؛ ولسان العرب 14/20 (أخا).

(6) - لسان العرب 14/20 (أخا)؛ دائرة المعارف 7/350؛ والمعجم الكبير 1/135.

(7) - البيتان له في شرح أشعار الهذليين، ص ٢٣٨؛ ولسان العرب ٤٨١/٢ (سرح). شغفًا: زوجًا، أي: اثنين اثنين. سراح: جمع سرحان، وهو الذئب.

(8) - لسان العرب ٢٠/١٤ (أخا)؛ وتاج العروس ٤٦/٣٧؛ ودائرة المعارف ٣٥٠/٧؛ والمعجم الكبير ١٣٥/١.

(9) - الحجرات 10:49.

(10) - النساء 11:4.

(11) - لسان العرب 14/20 (أخا).

(12) - لسان العرب 14/20 (أخا)؛ ودائرة المعارف 7/350؛ والمعجم الكبير 1/125.

(13) - لسان العرب 14/20 (أخا).

(14) - لسان العرب 14/20 (أخا)؛ والمعجم الكبير 1/135.

(15) - لسان العرب 14/20 (أخا).

وقال أهل البصرة: «الإخوة» في النسب، و«الإخوان» في الصداقة. تقول: «قال رجل من إخواني وأصدقائي»، فإذا كان أخاه في النسب، قالوا: «إخوتي»<sup>(1)</sup>.

وهذا غلط، والصواب أن أكثر ما يُستعمل «الإخوان» في الأصدقاء، و«الإخوة» في النسب، وليس مُلتزماً دائماً<sup>(2)</sup>. وفي القرآن الكريم: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»<sup>(3)</sup>، ولم يَعْنِ النسب، وفيه: «أَوْ يُبَوِّتِ إِخْوَانَكُمْ»<sup>(4)</sup>، وهذا في النسب. وفيه: «فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ»<sup>(5)</sup>.

### 3- تصغيره، والنسبة إليه، ومؤنثه:

يُصَغَّرُ «الأخ» على «أخي»<sup>(6)</sup>، والنسبة إليه: «أخوي»<sup>(7)</sup>.

و«الأخت» مؤنث «الأخ»، وهي «صيغة على غير بناء المذكر، والتاء بدل من الواو، وزنها «فَعْلَةٌ»، فنقولها إلى «فُعَلٌ»، وألحقتُها التاء المبدلة من لامها بوزن «فُعَلٌ»، فقالوا، أخت، وليست التاء فيها بعلامة تأنيث. كما ظنَّ من لا خبرة له بهذا الشأن؛ وذلك لسكون ما قبلها. هذا مذهب سيبويه، وهو الصحيح، وقد نصَّ عليه في باب ما لا ينصرف، فقال: لو سُمِّيَتْ بها رجلاً، لصرفتها معرفة. ولو كانت للتأنيث، لما انصرف الاسم، على أن سيبويه قد تسمَّح في بعض ألفاظه في الكتاب، فقال: هي علامة تأنيث، وإتِّمَّ ذلك تَجَوُّزَ منه في اللفظ؛ لأنَّه أرسله عُفْلاً. وقد قيده في باب ما لا ينصرف. والأخذ بقوله المعلل أقوى من الأخذ بقوله العُفْلُ المُرْسَل. ووجه تجوُّزه أنه لما كانت التاء لا تُبدل من الواو فيها، إلا مع المؤنث، صارت كأنها علامة تأنيث. وأعني بالصيغة فيها بناءها على «فُعَلٌ»، واصلها «فَعَلٌ». وإبدال الواو فيها لازم؛ لأنَّ هذا عمل اختصَّ به المؤنث، والجمع: أخوات»<sup>(8)</sup>.

وقيل: حدَّ «الأخت»: «أحة»، فصار الإعراب على الهاء، والحاء في موضع رفع، لكنها انفتحت بحال هاء التأنيث، فاعتمدت عليه؛ لأنها لا تعتمد إلا على حرف

(1) - لسان العرب 14/21 (أخا).

(2) - المعجم الكبير 1/135.

(3) - الحجرات 10:49.

(4) - النور 61:24.

(5) - الأحزاب 5:33.

(6) - المعجم الكبير 1/135.

(7) - لسان العرب 14/20 (أخا)؛ والمعجم الكبير 1/135.

(8) - لسان العرب 14/21 (أخا).

متحرّك بالفتحة، وأُسْكِنَت الخاء، فَحَوَّلَ صرفها على الألف، وصارت الهاء تاء كأنّها من أصل الكلمة، ووقع الإعراب على التّاء وألْزِمَت الضّمة التي كانت في الخاء الألف(1).

وقيل: الأُخْتُ في الأصل: «أخوة»، فَحُذِفَت الواو كما حُذِفَت من «الأخ»، وَجُعِلَت الهاء تاءً، فَنُقِلَت ضمة الواو المحذوفة إلى الألف، فقيل: «أخت»، والواو أُخْتُ الضّمة(2).

وقال الجوهري: وإنما قالوا: أخت، بالضّم، ليدلّ على أنّ الذّاهب منه واو، وصحّ ذلك فيها دون «الأخ»؛ لأجل التّاء التي ثبتت في الوصل والوقف كالاسم الثلاثي(3).

وهذان التعليلان في تأنيث «أخ» على «أخت»، لم يفكر بهما العرب إطلاقاً عند نطقهم بلغتهم، ولا وجود لهما إلا في مخيلة اللّغويين الذين يريدون «منطقة» اللّغة، أي جعلها تخضع لقوانين المنطق وقواعدهم اللّغوية، والنطق قبل المنطق، فليس من الطّبيعي إخضاعه له، والتعليل الصحيح لتأنيث «الأخ» على الأخت هو قول العرب ليس إلا.

والنسبة إلى «الأخت»: «أخوي»(4)، أي: كالتّسبة إلى المذكر. وكان يونس يقول: «أختي»، وليس بقياس(5).

#### 4- إعرابه:

إنّ لفظة «الأخ» من الأسماء الستّة: أب، أخ، حم، فم، هن، ذو. وهي تُعرب بالحروف، فترفع بالواو نيابة عن الضّمة، نحو: «نجح أخوك»، وتُنصب بالألف نيابة عن الفتحة، نحو: «كافأت أخاك»، وتجرّ بالياء نيابة عن الكسرة، نحو: «مررتُ بأخيك». ولهذا الإعراب ثلاثة شروط:

- أولها أن تكون مُفردة، فإذا تُنّيت، أُعربت كالمثنى بالألف رفعا، وبالياء نصبا وجرّا، نحو: «نجح أخوان»، و«كافأت أخوين»، و«مررتُ بأخوين».

(1) - لسان العرب 14/22 (أخا).

(2) - المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

(3) - انظر: مادة (أخا) في الصّحاح؛ ولسان العرب 14/22.

(4) - المصدر نفسه 14/20 (أخا).

(5) - المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

وإذا جُمعت جمع تسكير، أُعربت بالحركات، بالضمة رفعًا، نحو: «جاء إخوتك»، وبالفتحة نصبًا، نحو: «شاهدت إخوتك»، وبالكسرة جرًّا، نحو: «مررت بإخوتك». وإذا جُمعت جمع مذكر سالم، رُفعت بالواو، نحو: «جاء أخون»، ونُصبت وجُرت بالياء، نحو: «رأيت أخين»، و«مررت بأخين».

- ثانيها أن تكون مكبرة، فإذا صُغرت، أُعربت بالضمة رفعًا، نحو: «جاءني أخيم»، وبالفتحة نصبًا، نحو: «رأيت أخيك»، وبالكسرة جرًّا، نحو: «مررت بأخيك».
- ثالثها أن تكون مضافة إلى غير ياء المتكلم، فإن كانت غير مضافة، رُفعت بالضمة، نحو: «هذا أخ»، ونُصبت بالفتحة، نحو: «رأيت أخًا»، وجُرت بالكسرة، نحو: «مررت بأخ». وإذا كانت مضافة إلى ياء المتكلم، أُعربت بالحركات (الضمة رفعًا، والفتحة نصبًا، والكسرة جرًّا) المقدرة على الخاء منع من ظهورها الكسرة المناسبة للياء، تقول: «جاء أخي»، و«شاهدت أخي»، و«مررت بأخي»<sup>(1)</sup>.

وهذا الإعراب هو الأشهر والأفصح، وثمة إعرابان آخران، وهما:

- الإعراب بالحركات على لغة بعض العرب، فتقول على هذه اللغة: «هذا أخك»، و«رأيت أخك»، و«مررت بأخك»<sup>(2)</sup>. وعلى هذه اللغة قول رُبة (من الرجز):

بأبيه اقتدى عدي في الكرم  
ومن يشابه أبه فما ظلم<sup>(3)</sup>

- لإعراب بالحركات المقدرة على الألف كإعراب الاسم المقصور<sup>(4)</sup>، وذلك على لغة بعض العرب، فتقول على هذه اللغة: «نجح أخاك»<sup>(5)</sup>، و«شاهدت أخاك»<sup>(6)</sup>، و«مررت بأخاك»<sup>(7)</sup>. وعلى هذه اللغة قول الرّاجز:

(1) - أوضح المسالك 41-30/1؛ وهمع الهوامع 123-122/1؛ ودائرة المعارف 351-350/7.

(2) - أوضح المسالك 44/1؛ وهمع الهوامع 128/1؛ ودائرة المعارف 351/7.

(3) - الرجز له في ملحوظ ديوانه، ص 182؛ والمقاصد النحوية 129/1؛ وبلا نسبة في أوضح المسالك 44/1؛ وهمع الهوامع 128/1.

(4) - انظر: أوضح المسالك 46/1؛ وهمع الهوامع 128/1؛ ودائرة المعارف 351/7.

(5) - «أخاك»: فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر.

(6) - «أخاك»: اسم منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر.

(7) - «أخاك»: اسم مجرور بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر.

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا      قد بَلَغَا لي المجدِ غايتهاها<sup>(1)</sup>

واختلف الكوفيّون والبصريّون في إعراب الأسماء الستّة من ناحية مكان إعرابها، فقد قال الكوفيّون: إنّها معربة من مكانين: الحرف الذي قبل حرف الإعراب (الواو، والألف، والياء)، وهذا الحرف. وقال البصريّون: إنّها معربة من مكان واحد، وهو حرف الإعراب<sup>(2)</sup>.

واحتجّ الكوفيّون بأنّ هذه الأسماء تُعرب بالحركات إذا لم تكن مضافة، وإضافة لا تُلغى إعرابها على الحرب الأخير منها: وذلك كالأسماء غير المعتلّة، نحو: «هذا غُلامُك»، و«شاهدتُ غلامُك»، و«مررتُ بغلامِك». ومنهم من تمسّك بالقول إنّما أُعربت هذه الأسماء الستّة من مكانين لقلّة حروفها، تكثرُ لها، وليزيدوا بالإعراب في الإيضاح والبيان، فوجب أن تكون معربة من مكانين<sup>(3)</sup>.

واحتجّ البصريّون على مذهبهم بأنّ فائدة الإعراب التي هي إبانة المعاني المختلفة، تتأتّى من إعراب واحد، فلا حاجة إلى الجمع بين إعرابين، ولو جاز أن يجتمع في اسم واحد إعرابان متّفقان، لجاز أن يجتمع فيه إعرابان مختلفان، وهذا يؤدّي إلى التناقض؛ لأنّ كلّ واحد من الإعراب، يدلّ على نقيض ما يدلّ عليه الآخر. وكما يمتنع اجتماع إعرابين مختلفين، فكذلك يجتمع فيه إعرابنا متّفقان<sup>(4)</sup>.

وردّوا على قول الكوفيّين: «إنّما أُعربت هذه الأسماء الستّة من مكانين لقلّة حروفها»، بقولهم: «هذا يُنتقض بـ «عَدٍ» و«يَدٍ» و«دَمٍ». فإنّها قليلة الحروف، ولا تُعرب في حال الإضافة إلّا إلى مكان وحد<sup>(5)</sup>.

أمّا قول الكوفيّين: «ليزيدوا بالإعراب في الإيضاح والبيان»، فردّوا عليه بالقول: إنّ الإيضاح والبيان يحصلان بإعراب واحد، فصار الإعراب الزائد لغير فائدة، والحكم لا يزيد شيئاً لغير فائدة، فوجب أن تكون مُعرّبة من مكان واحد كسائر ما أُعرب من الكلام<sup>(6)</sup>.

(1) - الرجز لرؤية في ملحق ديوانه، ص 168؛ وله أو لأبي النجم في المقاصد النحوية 1/133؛ وبلا نسبة في أوضح المسالك 1/46؛ وخرزانة الأدب 4/105؛ وهمع الهوامع 1/168.

(2) - الإنصاف في مسائل الخلاف 1/24.

(3) - المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

(4) - المصدر نفسه 1/27.

(5) - المصدر نفسه 1/37.

(6) - المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

والملاحظ أنّ هذا الخلاف لا يفيد شيئاً لا في تخطيء أسلوب أو تصوب آخر؛ وذلك كمعظم المسائل الخلافية التي أثبتها ابن الأنباري في كتابه «الإنصاف في مسائل الخلاف بين التحويين البصريين والكوفييين».

### 5- «الأخ» في أمثال العرب وكناياتهم:

أحصيت من هذه الأمثال والكنايات، ما يأتي:

- أَخٌ أَرَادَ الْبِرَّ صَرَخًا فَاجْتَهَدَ<sup>(1)</sup>. يُضْرَبُ لِمَنْ اجْتَهَدَ فِي بَرِّكَ، وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ رِضَاكَ.
- أَخَاكَ أَخَاكَ،
- إِنَّ مَنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بَعِيرٍ سِلَاحٍ<sup>(2)</sup>
- يُضْرَبُ لِمَلَاذِمَةِ الْأَخِ، وَإِكْرَامِهِ وَالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهِ.
- أَخُو الظُّلْمَاءِ أَعْشَى بِاللَّيْلِ<sup>(3)</sup>. يُضْرَبُ لِمَنْ يُخْطِئُ حِجَّتَهُ، وَلَا يَبْصُرُ الْمَخْرَجَ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ.
- أَخُو عَيْلَةٍ. كِنَايَةٌ عَنِ الْفَقِيرِ<sup>(4)</sup>.
- أَخُو الْكِطَاطِ مَنْ لَا يَسْأَمُهُ<sup>(5)</sup>. وَالْكِطَاطُ: الشَّدَّةُ وَالنَّعْبُ وَطُولُ الْمَلَاذِمَةِ، وَالْمَمَارَسَةُ الشَّدِيدَةُ فِي الْحَرْبِ. وَالْمَعْنَى: أَخُو الشَّرِّ لَا يَمَلُّهُ. يُضْرَبُ لِمَنْ يُؤْمَرُ بِمَشَارَةِ الْقَوْمِ.
- إِخْوَانُ الْعِزَاءِ: كِنَايَةٌ عَنِ الْأَصْحَابِ الْمَلَاذِمِينَ<sup>(6)</sup>.
- أَخُوكَ أَمْ الذَّنْبُ<sup>(7)</sup>؟ أَي: هَذَا الَّذِي تَرَاهُ: أَخُوكَ أَمْ الذَّنْبُ؟ يَضْرَبُ لِلشَّيْءِ تَرْتَابَ بِهِ فِي ظُلْمَةٍ وَلَا تَسْتَبِينُهُ.
- أَخُوكَ أَمْ اللَّيْلُ<sup>(8)</sup>؟ أَي: الْمُرْتَبِيُّ: أَخُوكَ أَمْ سَوَادُ اللَّيْلِ؟ يَضْرَبُ عِنْدَ الْإِرْتِيَابِ بِالشَّيْءِ فِي سَوَادِ وَظُلْمَةٍ.

(1) - مجمع الأمثال 1/69. صَرَخًا: خَالِصًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

(2) - مجمع الأمثال 1/23. وَالْبَيْتُ لِمَسْكِينِ الدَّارِمِيِّ فِي دِيْوَانِهِ، ص 29.

(3) - مجمع الأمثال 1/55.

(4) - دائرة المعارف 7/350.

(5) - مجمع الأمثال 1/54.

(6) - لسان العرب 14/20 (أخا).

(7) - جمهرة الأمثال 1/168؛ ولسان العرب 6/88 (دمس)؛ ومجمع الأمثال 1/50.

(8) - مجمع الأمثال 1/56.

- أخوك البكرى، ولا تأمنه<sup>(1)</sup>. «البكرى» صفة «أخوك»، والخبر محذوف، تقديره: محذور، أو مخوف، أو ذلك. والمعنى أنه أخوك، وأنت لا تأمنه فكيف بغيره؟ يُضرب في الحثّ على الحذر، وسوء الظنّ.
- أخوك من آسأك<sup>(2)</sup>. انظر: «إنّ أخاك من آسأك».
- أخوك من صدقك<sup>(3)</sup>، أي: من صدقك المودة والنصيحة، أو أن يصدقك عن عيوبك؛ لأنّ عيوب كلّ نفس تستتر عنها، وتظهر لغيرها.
- أخوك من صدقك النصيحة<sup>(4)</sup>، أي: من صدقك في النصيحة التي تكون في أمر الدين والدنيا.
- إنّ أخا الخِلاط أعشى بالليل (أو: بالليل أعشى)<sup>(5)</sup>. الخِلاط: القتال. والذين يقاتل بالليل لا يدري من يضرب. يُضرب للمريب الخائن.
- إنّ أخا العزّاء من يسعى معك<sup>(6)</sup>. العزّاء: السنّة الشديدة. والمعنى أنّ أخاك من لا يخذلك في الشدّة.
- إنّ أخا الهيجاء من سعى معك، ومن يضرب نفسه لينفعل<sup>(7)</sup>. الهيجاء: الحرب. يُضرب في المساعدة.
- إنّ أخاك في الأشاوي ضربك<sup>(8)</sup>. أي: إنّ أخاك في الأشياء مثلك ونظيرك.
- إنّ أخاك من آسأك<sup>(9)</sup>، آسى الرّجل الرّجل، عزّاه وسلّاه، أو شاركه في معاشه.
- انصُر أخاك ظالمًا أو مظلومًا<sup>(10)</sup>. كان العرب في العصر الجاهليّ ينصرون أقرباءهم وأصدقاءهم وجيرانهم، سواء كان هؤلاء ظالمين أو مظلومين. ويروى أنّ

(1) - زهر الأكم 1/71.  
(2) - جمهرة الأمثال 1/182.  
(3) - جمهرة الأمثال 1/72؛ والمستقصى 1/112.  
(4) - مجمع الأمثال 1/23.  
(5) - مجمع الأمثال 1/76؛ وموسوعة أمثال العرب 3/50.  
(6) - مجمع الأمثال 1/55؛ وموسوعة أمثال العرب 3/50.  
(7) - مجمع الأمثال 1/34؛ وموسوعة أمثال العرب 3/34.  
(8) - المستقصى 1/402؛ وموسوعة أمثال العرب 1/402.  
(9) - مجمع الأمثال 1/72؛ والمستقصى 1/402؛ وموسوعة أمثال العرب 3/51.  
(10) - مجمع الأمثال 2/334؛ والمستقصى 1/392؛ وجمهرة الأمثال 1/58؛ وموسوعة أمثال العرب 3/156.

النَّبِيِّ قال هذا المثل، فقيل له: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ فقال: تردّه عن الظلم.

- تركته أبا الفراش، أي: مريضاً<sup>(1)</sup>.
- تركته بأخي الخير، أي: تركته بِشَرِّ<sup>(2)</sup>.
- رَبِّ أَخٍ لَمْ تَلِدْهُ أُمَّكَ<sup>(3)</sup>، أي: ثَمَّةُ أَصْدِقَاءِ تَحِبُّهُمْ وَيَحِبُّونَكَ كَأَنَّهُمْ أَخُوَةٌ لَكَ.
- لَا أَخًا لَكَ بِاللَّيْمِ<sup>(4)</sup>، يُضْرَبُ فِي النَّهْيِ عَنِ إِكْرَامِ اللَّيْمِ، وَمَعْنَاهُ أَتَىكَ إِذَا قَلْتَ لِلَّيْمِ: يَا أَخِي، جَهْلَ قَدْرِهِ، وَرَأَى أَنَّهُ فَوْقَكَ.
- مُكْرَهُ أَخُوكَ لَا بَطْلَ<sup>(5)</sup>، يُضْرَبُ فِي حَمْلِ الرَّجُلِ صَاحِبِهِ عَلَى مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ بِالْإِكْرَاهِ.
- يَا أَخَا الْعَرَبِ، تَرِيدُ: وَاحِدًا مِنَ الْعَرَبِ. وَمِثْلُهُ: يَا أَخَا بَكْرٍ، وَيَا أَخَا تَمِيمٍ<sup>(6)</sup>.

## 6 - خلاصة البحث:

أجمع اللغويون أنّ جذر «الأخ» هو «أخو» بدليل تثنيتهما على «أخوان». وذهب بعضهم إلى أنّ الهمزة فيها أصلها واو. وفيه لغات. واشتقّ العرب من «الأخ» أفعالاً وأسماءً، فأكثرُوا من الألفاظ الدالة على التّواصل الاجتماعيّ القائم على المحبة، دلالةً على إنسانيّتهم. وللأخ معانٍ عديدة يجمعها المعنيان: المقاربة والملازمة.

ويُشتقّ «الأخ» على «أخوان» و«أخان»، ويُجمع على «أخوان» و«أخاء» و«إخوان»، و«أخوان»، و«إخوة»، و«أخوة»، و«أخوة». وجاء تعدّد هذه الجموع نتيجة تعدّد لهجات (لغات) القبائل العربيّة التي جمع المعجميون ألفاظها. ولم يخصّص العرب لفظة «الإخوة» للنسب، و«الإخوان» للأصدقاء، كما ذهب إليه بعضهم، بل استعملوا كلا اللَّفظين للنسب والأصدقاء معاً، وإن كانوا أكثرُوا من استعمال الأولى للنسب، والثانية للأصدقاء.

(1) - دائرة المعارف 7/350.

(2) - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(3) - جمهرة الأمثال 1/425؛ والمستقصى 2/93؛ ومجمع الأمثال 1/291.

(4) - جمهرة الأمثال 2/405.

(5) - جمهرة الأمثال 2/213؛ ومجمع الأمثال 2/318؛ والمستقصى 2/347.

(6) - دائرة المعارف 7/350.

ويُصَغَّرُ «الأخ» على «أخي»، والنسبة إليه: «أخوي»، ويؤنث على «الأخت» على غير قياس. وت \*\* اللغويون في تعليل هذا الخروج عن القياس. وجمع «أختن»: «أخوات»، والنسبة إليها: «أخوي»، و«أختي» على غير قياس.

وثمة ثلاث لغات في إعراب هذه اللفظة، وأخواتها من الحروف الستة، وهي:

1 - الإعراب بالحروف، أي: بالوا رفعاً، وبالألّف نصباً، وبالياء جزاً، بشرط ألا تكون مثناة أو مجموعة أو مصغرة، أو مضافة إلى ياء المتكلم. وهذه هي اللغة الأفضح والأشهر.

2 - الإعراب بالحركات الظاهرة على الخاء.

3 - إعرابها بالحركات المقدرة على الألف، وذلك كإعراب الاسم المقصور.

واختلف الكوفيون والبصريون في إعراب الأسماء الستة: فهي معربة من مكان واحد كما قال البصريون، أم من مكانين كما ذهب إليه الكوفيون. واختلافهم وجدالهم في هذه المسألة لا يخطئ تعبيراً، ولا يُصوّب آخر، إنّما هو ترف لغويّ وتقلُّسف، اللّغة منه براء؛ لأنّه لا يفيدّها شيئاً.

وللعرب في الأخ أمثال كثيرة تدلّ على حكمتهم وخبرتهم في الحياة، ويتمحور معظمها على أنّ الأخ الحقيقيّ هو اذي يكون معك في الشدّة، سواء أكان من والديك معاً، أو من أحدهما، أو من غيرهما، ف«رُبَّ أخٍ لم تلده أمُّك».

## المصادر والمراجع:

- 1 - الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، عبد الرحمن بن محمد الأنباري، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه حسن حمد، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1998م.
- 2 - أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك، ابن هشام (عبد الله جمال الدّين بن يوسف)، ومعه كتاب عدّة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك، محمد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1979م.
- 3 - تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج غيره، مطبعة حكومة الكويت، ط1، 1965-2001.
- 4 - جمهرة الأمثال، الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، ط2، 1988م.
- 5 - خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1989م.
- 6 - الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق محمد علي النّجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لا ط. لات.
- 7 - دائرة المعارف قاموس عامّ لكلّ فنّ ومطلب، إدارة فؤاد أفرام البستاني ونشره، بيروت، 1956.
- 8 - ديوان ابن هرمة، تحقق محمد نفاع وحسين عطوان، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، لا ط، لات.
- 9 - ديوان أبي الأسود الدّؤليّ (ظالم بن عمرو)، تحقيق محمد حسن آل ياسين، مؤسّسة إيف للطباعة، بيروت، ط1، 1982م.
- 10 - ديوان أبي فراس الحمداني (الحارث بن سعيد)، تحقق محمد التّونجي، منشورات المستشارية الثقافيّة للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة بدمشق، لا ط، 1987م.
- 11 - ديوان امرئ القيس، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط1، 1958م.
- 12 - ديوان رؤبة بن العجاج، تحقيق وليم بن الورد، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1980م.
- 13 - ديوان العباس بن مرداس، جمع وتحقيق يحيى الجبوري، نشر مديريةيّة الثقافة العامّة في وزارة الثقافة والإعلام في الجمهوريّة العراقيّة، بغداد، ط1، 1968م.
- 14 - ديوان مسكين الدارمي (ربيعة بن عامر)، جمع وتحقيق خليل إبراهيم العطية وعبد الله الجبوري، مطبعة البصري، بغداد، ط1، 1970م.
- 15 - زهر الأكم في الأمثال والحكم، حسن اليوسي، تحقيق محمد حجّي ومحمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1981م.
- 16 - الصّاحح تاج اللّغة وصاحح العربيّة، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق إميل بديع يعقوب ومحمد نبيل طريقي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1999م.
- 17 - العذراء مريم بين القداسة والقديسين، إميل بديع يعقوب، مكتبة السّائح، طرابلس (لبنان)، ط1، 2017م.
- 18 - القرآن الكريم.
- 19 - الكتاب المقدّس، دار الكتاب المقدّس في العالم العربي، لا ناشر، لا طبعة، لا تاريخ.

- 20 - لسان العرب، ابن منظور (محمد بن مكرم)، دار صادر، بيروت، لا طبعة، لا تاريخ.
- 21 - مجمع الأمثال، أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت، لا ط، لا ت.
- 22 - المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري (محمود بن عمر)، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط2، 1987م.
- 23 - المعجم الكبير، مجمع اللّغة العربيّة، القاهرة، ط 1، 1981.
- 24 - المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربيّة، القاهرة، ط 5، 2021م.
- 25 - المقاصد النّحويّة في شرح شواهد شروح الألفيّة، محمود بن أحمد العيني، مطبوع مع خزانة الأدب، دار صادر، بيروت، لا ط، لا ت.
- 26 - مقاييس اللّغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبد السّلام محمد هارون، دار الفكر، لا ط، 2008م.
- 27 - المنجد في اللّغة العربيّة المعاصرة، أنطوان نعمة وغيره، دار المشرق، بيروت، ط1، 2000م.
- 28 - موسوعة أمثال العرب، إميل بديع يعقوب، دار الحيل، بيروت، ط 1، 1995م.
- 29 - همع الهوامع في شرح جمع الجوامع في علم العربيّة، السيوطي (عبد الرّحمن بن الكمال)، تحقيق وشرح عبد العال سالم مكرم، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، لا ط، 1992م.

اللذة الجنسية وأزمة إدمان المرئيات الإباحية لدى الشباب الجزائري: البحث عن  
الإشباع والجرعة الزائدة

**Intervention title:** Sexual pleasure and the pornographic addiction  
crisis among Algerian youth: Search for gratification and overdose.

أ. كرايس الجبالي

جامعة وهران 2 الجزائر

Kerais2014@hotmail.fr

أ. جومانة إبراهيم عبد الستار

الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الأول.

JomanahAbdulsater@gmail.com

د. عباس الزهر

جامعة مستغانم الجزائر

abbaszohra89@yhoo.fr

ملخص:

إنّ المتعة الجنسيّة وطلب اللذة لمن أهمّ ما يشغل عقل الإنسان، خاصّة بعد البلوغ  
والكشف الرغبة الجنسيّة لديه، وتلقه بالبحث عن ما يشبع رغباته الشهوانيّة، حيث  
يستلذّ كلّ من الجنسين بالآخر، وتصبح صور الأجساد العارية هاجساً وهوساً يرافق  
الشخص، فوجود المرئيات الإباحية سهل من عملية الإشباع عن طريق المشاهدة  
والمتابعة التي أتاحت كمّاً هائلاً من الأجساد والممارسات الجنسيّة والوضعيّات،  
فأصبحت تشدّ الإنسان خاصّة في مجتمعاتنا ذات الخلفية الإسلاميّة، أين يدخل  
الجنس في خانة المحرّم و«الطابو»، لكنّ تلك المواقع والروابط الإلكترونيّة وفّرت  
الأجساد كسلعة جنسيّة، حتّى غدت تلك الإتاحة والوفرة تأخذ منحى الإدمان، فما  
كان يبهر ويقضي شهوة اليوم، قد يصبح عادياً وغير كافٍ في الغد، وبذلك يتحوّل  
إلى البحث عن نوعيّة أخرى، وأجساد أخرى. وهذا ما ينقل الشابّ من مرحلة إلى  
مرحلة أخرى، وهي مراحل لا تختلف عن إدمان العقاقير المهلوسة، حيث إنّ كلّما زاد

التعلق بها، أصبح الفرد بحاجة إلى جرعة أكبر وأقوى من الرغبة الجنسيّة وبحثًا عن الإشباع، ينتقل من جرعة إلى جرعة أشدّ منها؛ فمن اللقطات الساخنة، إلى الجنس العاديّ، فالجنس الشاذّ، وصولاً إلى الجنس المتطرّف، وهذا ما سنحاول التطرّق إليه من خلال هذه الورقة البحثيّة.

**الكلمات المفتاحيّة:** المرئيّات الإباحيّة، العقاقير الجنسيّة، الهلوسة الجنسيّة، اللذة العبر قوميّة، الطابو، إدمان.

### **Abstract:**

Sexual pleasure and seeking for pleasure is one of the most important concerns of the human mind, especially after puberty and the discovery of his sexual want, and his attachment to the search for what satisfies his desires sensuality, where both sexes enjoy the other, and the images of naked bodies become an obsession and obsession accompanying the person, however the presence of the visuals made it easier to pornography from The process of gratification through watching and follow-up, and made available a tremendous amount of bodies and sexual practices and situations, which became a pull of man, especially in our societies with an Islāmic background, where sex enters the class of forbidden and taboo, however, those websites and electronic links provided bodies as a commodity Nationality, because that availability and abundance took the addiction direction, where what was dazzled and spends the lust of the day, may become insufficient or normal tomorrow, and thus the search for another quality and other bodies, and this is what moves the young man from one stage to another, which are not different from the addiction of hallucinogenic drugs, where more attached to them the more they become an individual who needs a bigger dose, and that desire and the search for gratification, moves us from one dose to a higher dose, from

hot shots, to normal sex, to homosexual to extreme sex, and that's what we are trying to discuss through this paper.

**Keywords:** pornographic visuals, sexual drugs, sexual hallucinations, transnational globalized pleasure, taboo, addiction.

### مقدمة:

يقول الكسندر بوب واصفاً التعرّض للإباحية: «الرذيلة هي وحش ذو سحنة مخيفة، ولكي نكرها يجب أن نراها، لكن إذا نظرنا إليها كثيرا فوجهها سيصبح مألوفاً، فعندئذ سنتحمّلها أولاً، ثم نشفق عليها، ثم نعانقها» (اسكندر أنطوان إكوبيان، 2010: 10) هي مقولة تعكس حقيقة توجّهنا نحو الإدمان، والتحوّل إلى مصابين بالهوس الجنسي، حيث إننا في البداية، يقودنا الفضول وحبّ الاكتشاف، لمشاهدة المقاطع الجنسيّة الساخنة، أو حتّى قراءة جريدة صفراء، أو كتاب، ربما في البداية تكون صوراً لثياب داخلية، ممّا يحرك رغباتنا وشهواتنا، لكن بعد مدة ستصبح عادية وغير كافية، وتحوّل إلى مشاهد مألوفاً، لا تحرك فينا ساكننا؛ إنّها بداية الإدمان، وبداية البحث عن الجرعة المناسبة لحصول النشوة، أو الرّغبة الجنسيّة، وبذلك نتحوّل إلى مجبرين على التّقل من مشهد إلى مشهد، ومن وضعيّة إلى أخرى، حتّى نلبي الطلب رغبة في الوصول إلى درجة الاستثارة القصوى، وهو أمر سهل في البداية، لكنّه مع مرور الوقت يصبح أمراً صعب المنال، ويتطلّب جهداً ووقتاً، فحال المدمنين على المواقع الإباحية، لا يختلف عن حال المدمنين على المخدّرات وعقاقير الهلوسة، حيث تصبح الجرعة وزيادة حدتها هي سيّدة الموقف.

والأمر نفسه بالنّسبة إلى الرّغبة الجنسيّة التي تكون عارمة وجامحة في بدايتها، وتستثيرها أيّ لقطة حميميّة، لكن مع مرور الوقت والانخراط في اللعبة ستصبح المسألة أكثر تعقيداً، كونها أصبحت على علاقة وطيدة بالأعصاب والمنبّهات، خاصّة بعد بداية أفول المراهقة، ودخول مرحلة الشّباب، فالوصول إلى اللذّة وإشباعها يأخذ منحى خطيراً، لا سيّما عند التعلّق بالمواقع الإباحية، وارتباط إشباع اللذّة والرّغبة بما نشاهده، ونعتمد عليه في عمليّة الإثارة، وهذا ما يحوّل المشهد الإباحي إلى شبه مخدّر يتحكّم فينا ويملي علينا شروطه، وينقلنا داخل ما يقّمه لنا في شكل سلع جنسيّة تعتمد على الاستهلاك من أجل الإشباع، وهنا يمكن أن نطرح الإشكاليّة التي تنطلق منها هذه الورقة البحثيّة وصيغت كالآتي: كيف تصبح مشاهدة المرئيات

الإباحية نوعاً من الإدمان الذي تتحكم فيه الجرعة والزيادة فيها؟  
وتتفرّع عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية:

1. كيف يجبرنا البلوغ على البحث عن اللذة الجنسية؟
  2. هل يؤدي متغيّر الوقت في مشاهدة المرئيات الإباحية إلى التخدير، ومنه الوصول إلى مرحلة الإدمان؟
  3. كيف يتحوّل الإدمان على المرئيات الإباحية إلى بحث دائم عن نوع من الجرعة الزائدة؟
- الفرضيات:**

1. نضج الأعضاء الجنسية في مرحلة البلوغ يثير الرغبة الجنسية لدى الشاب.
2. التعرض للإثارة الجنسية من خلال المرئيات الإباحية، يؤدي إلى نوع من الإدمان.
3. المشاهدة المفرطة للمرئيات الإباحية يفقدها عنصر الإثارة، ويدفع بالمدمن إلى البحث عن ممارسات أكثر تطرفاً لإشباع رغباته، والوصول إلى قمة اللذة والمتعة.

#### مفاهيم الدراسة:

سنكتفي في هذه الورقة العلمية بالتعريفات الإجرائية للمصطلحات المقترحة من طرف الباحثين، كونها تساعدنا على قياس الظاهرة واختبارها في الواقع، وللتتويه فإنّ معظم مفاهيم الدراسة هي من نحت الباحثين.

– **المرئيات الإباحية:** هي كلّ ما تعرضه المواقع والروابط الألكترونية من الصور والصور المتحرّكة (GIF) الفيديوهات البورنوغرافية، ونعني بها الحقيقية المسجّلة، والفيديوهات التجارية المحترفة، التسجيلات الصوتية، التواصل على الخاصّ مقابل مبلغ ماليّ يدفع إلكترونياً.

– **العقائير الجنسية:** هي كلّ الممارسات الجنسية المتطرّفة وغير المألوفة؛ والتي تمثّل ممارسة الجنس بين الإنسان والحيوان، الجنس عن طريق التعذيب وهو ما يعرف بالسادية والمازوشية - الجنس الجماعي، وحتّى ممارسة الجنس عن بعد

بواسطة مكالمات الفيديو عبر مواقع التواصل الواتساب والفايبر ...

- **الجرعة الجنسية الزائدة:** تتحكم فيها درجة الإدمان، وتشمل المدة الزمنية التي يقضيها المتصفح في مشاهدة المحتوى الإباحي، أين تتضاعف هذه المدة لتزيد الإثارة، وهذه الأخيرة لا تزداد ولن تصل بالشخص إلى قمة المتعة الجنسية إلا إذا تغير المحتوى الإباحي عن المؤلف الذي اعتاد مشاهدته (الجرعة تزداد كما ونوعا)
- **الهلوسة الجنسية:** هي الوصول إلى أقصى درجات النشوة، بعد مشاهدة المرئيات الإباحية، ومعه الشعور بالسعادة، كما يفعل المخدر في المتعاطي.
- **اللذة العبر قومية:** هي البحث عن الثقافة الجنسية الغربية وكل ما تحمله من ممارسات جنسية جديدة، وهو ما تروج له الفيديوهات الإباحية التي يقوم بتمثيلها أشخاص محترفون في ميدان الجنس.

### المدخل النظري:

مما لا شك فيه أن أي دراسة لابد أن تنطلق من نظرية، وتتبع الحاجة إليها من فكرة أن الحقائق لا تعبر عن نفسها فهي ساكنة، مركبة، متعددة، وقد يصعب في كثير من الأحيان فهمها أو توقع ظهورها، ومعرفة مدى تأثيرها وطريقة استعمالها والاستفادة منها، وعليه يجب أن تبسط ويبعثر عنها بنماذج بسيطة حتى يمكن فهمها واستخدامها. (سلوى السيد عبد القادر، 2010: 27) و تكمن أهمية تبني نظرية ما في كونها تساعد الباحث وتؤطره وتضبط عمله، فيستطيع تقديم تفسيرات وتحليلات للظاهرة المدروسة.

وبما أن دراستنا تتصل بصفة مباشرة بالإنترنت وما توفره من محتويات إباحية مجانية ووفيرة كما ونوعا، فهي تعوض الشاب عن القمع الذي يمارسه المجتمع حول الجنس، والذي يبيح ممارسته في إطار الزواج فقط؛ رأينا أن نظرية التعويض هي الأنسب لتفسير الظاهرة، أين ترى أن الفرد يجد تعويضا متصلا بالهوية الذاتية وتقديرا للذات، وتفاعلا اجتماعيا أكثر على الأنترنت، فالقدرة على خلق عالم افتراضي تساعد الفرد على ترك عالمه الحقيقي، وكل ما يحمله من عقبات ومشكلات شخصية وقمع ممارس، ليغرق في عالم افتراضي مليء بالمتعة لتعويض ذلك النقص. (بسمه حسين

عيد يونس، 2016: 28)

### المنهج المتبع:

اعتمدنا المنهج الكيفي التحليلي في دراسة هذا الموضوع، والإجابة على سؤال إشكاليته، ولأنّ بحثنا يدخل ضمن البحوث الكيفية التي تركز أساساً على تصريحات المبحوثين، فإنّ التقنيّة الملائمة التي اخترناها كأداة مركزية لجمع المعطيات الميدانية، هي المقابلة النصف موجّهة؛ لأنّها أكثر خدمة ومساعدة للبحث والباحث، والتي حرّرتنا لها دليلاً يتضمّن مجموعة من الأسئلة، وأضيفت أخرى أثناء المقابلة، التي صيغت انطلاقاً من فرضيات ومحاور الدراسة، كما تمّت عن طريق مكالمات عبر الفيس بوك (Messenger)، لأنّ العينة تمّ اختيارها إلكترونياً، وتراوحت مدّة المكالمات (مقابلة) من ساعة إلى ساعة ونصف.

### الحدود الزمنية والمكانية:

استغرقت الدراسة حوالي الشهر، منذ اختيار الموضوع وإجراء الدراسة الميدانية حتى الصياغة النهائية للبحث، أمّا المجال المكاني فتركنا المجال مفتوحاً، ولم نركّز على منطقة دون أخرى؛ لأنّ ما يهمّنا هو الوصول إلى مجتمع البحث من دون الاهتمام بالمجال الجغرافي، فكانت مواقع التّواصل الاجتماعيّ فضاءً للدراسة.

### مجتمع البحث وعينة الدراسة:

حدّدنا الشّباب كمجتمع بحث لدراسة موضوعنا على اعتبارها الفئة التي تواكب تكنولوجيات الاتصال، وقد كان الوصول إلى عينة الدراسة صعباً في البداية؛ لأنّ الموضوع المدروس من الطابوهات والمحرم الاجتماعيّ - خصوصاً ما تعلق بممارسة الجنس - وشبه مستحيل أن تجد شخصاً يعترف بأنّه يزور ويشاهد المحتويات الإباحية، فمثل هذه الممارسات يحدث في الخفاء وبسرّية، ولهذا لجأنا إلى مواقع التواصل الاجتماعيّ ورواد صفحات الفيس بوك بالتحديد، لاختيار عينة قسديّة تضمّنت ثلاثة عشر مبحوثاً، توزّعت بين (11) أحد عشر شاباً و(02) شابتين، تتراوح أعمارهم بين 23 إلى 40 سنة، معظمهم غير متزوّجين، ذوو مستوى جامعيّ، أمّا عن النشاط الذي يزاولونه فمنهم طلبة الجامعة، والبطّالون والموظّفون.

### 1 - البلوغ وبداية الجنسانية لدى الشاب:

إنّ المخيال العربيّ الإسلاميّ يعدّ غياب الانتصاب والإيلاج أساساً للضعف الجنسيّ الذكوريّ، كونهما العاملين الأساسيين في تحقيق العلاقة الجنسيّة (يوسف ألفة، 2014: 09). هي مرحلة المراهقة، أو البلوغ من الناحية الشرعيّة، وهي مرحلة يصبح فيها للأعضاء التناسليّة معنى آخر، فمن مجرد عضو للتبول، سواء بالنسبة للذكر أو الأنثى، إلى شيء يبدو مصدرًا للذة، لن نفكّ طيلة حياتنا نبحث عن إشباعها، وتسخير جلّ وقتنا للتفكير فيها، وما دمنا في مجتمع ذكوريّ وأبويّ، فإنّ التّركيز سيكون حول القضيب، وسترتبط حياة المجتمع به، فهو مصدر الفخر، والاعتزاز، ومنذ البلوغ سيصبح القضيب قضية اجتماعية تفرض منطقتها، وترسم حياة الأفراد، فلا حديث سوى عن كبره وشدة انتصابه، وخوف العشيقات منه، لكن سرعان ما ينهزم الذكر العربيّ أمام قضيب شاهده في مقطع إباحيّ، وهنا سيتسلّل الشكّ إليه، فلا انتصابه مقنع، ولا قدرته على إحداث الألم عند الإيلاج أصبح له معنى أمام القضيب المعولم، أو المتخيّل، الذي سينجرّ وراءه كلّ ذكر يريد أن يكون الأكثر فحولة، والأشدّ تأثيراً من الناحية الجنسيّة على إناث القبيلة، وهنا سنبلّغ لنتكتشف هواجسنا الجنسيّة. ومن جهة أخرى سنتعرف على ثقافة جنسيّة وافدة أو مصدرّة نحونا، بما يعرّز كلّ خطاب ذكوريّ، ويحكم بالضمور والانسحاب على كلّ ما هو أنثويّ، حيث ستعزّز لدينا الثقافة الذكوريّة المولعة بالجنس، والمولعة بحجم العضو التناسليّ الذكوريّ، إذ يرى مالك شبل أنّ هناك أهميّة لأحجام الأعضاء التناسليّة الذكوريّة (شبل مالك، 2010: 142) إنّ هذه الثقافة هي التي ستحكم الجسد في الفضاء العربيّ وهو ينمو، ويتحوّل من كونه طفوليّاً عبثيّاً، إلى شيء خطير، وشهويّ يقدّس كلّ ما هو ذكوريّ، وينظر لكلّ ما هو أنثويّ على أنّه موجود آلة لصناعة المتعة وتلبية الرّغبة وإشباع الشهوة.

فعلى الرّغم من تمييز الطّبيعة الإلهيّة بين الذكر والأنثى؛ فلكلّ منهما خصائص جسميّة فيزيولوجيّة وتشريحيّة تميّزه، وفي كلّ مرحلة عمريّة تتطوّر وتتغيّر هذه الخصائص، لتظهر معها وظائف جديدة حتّى يصل إلى مرحلة البلوغ، أين يكتمل النضج الجسميّ والجنسيّ، إذ يحسّ كلّ من الذكر والأنثى بأعضائه، ويتعرف عليها من جديد، وتعمل لديهم الأعصاب والغدد التناسليّة، ويشعر بالحاجة إلى تجربة هذه الغريزة الفطريّة فيه، وهي «ممارسة الجنس» حيث يعدّ الجسد في سنّ المراهقة اكتشاف صندوق من الألعاب بالنسبة إلى طفل صغير، إذ يتحوّل جسدنا إلى أكبر

مصدر اللغوية والإغراء لذواتنا ولغيرنا من الذوات (كرايس الجيلالي وعباس الزهرة، 2019: 14) فالجسد الذي كان طفوليًا ومتاحًا ولا أحد يأبه به، أصبح بعد المراهقة مغربًا وجذابًا ولا يمكن تركه دون مراقبة ومتابعة، خاصّة الجسد الأنثويّ، فالمجتمع يعترف برغبات ذكوره، لكنّه يحذّر إناثه من أيّ تهوّر، وعلى الأنثى أن تكبت رغباتها، وأن تتحكّم في نزواتها، ومنذ البلوغ سيصبح جسدها ليس ملكًا للأسرة فقط، بل ملكًا للعائلة ككلّ، وجريرة الجسد الأنثويّ إنّه مُغرٍ ولا حيلة للذكور أمامه.

يعرف الشأن الجنسيّ نكتّمًا وسرّيّة داخل الأسرة، فهي تسعى إلى تجنب أطفالها أيّ أسئلة حول الممارسة الجنسيّة، لكن سرعان ما يخرج الأطفال إلى الشارع والمدرسة، أين سيتاح لهم الجنس بطريقة مخيفة ودون أيّ مقدّمات، خاصّة الكلام البذيء وألفاظ السباب والشتم، ويكون أيضا العضو الذكريّ أوّل كلمة يتعلّمها الذكور والإناث، فهو يستخدم للمدح ولإظهار القوّة، والتذمّر والشتم، وللاحتمار، وقد يصبح كلّ شيء في حياة الطفل، كما أنّ تقدّم السنّ وبداية الاقتراب من سنّ المراهقة، وتحرك الشهوة الجنسيّة، وظهور التغيّرات الفيزيولوجيّة، خاصّة الأعضاء التناسليّة، تلك التغيّرات التي تمثّل الكشوفات الجغرافيّة في الجسد (كرايس الجيلالي وعباس الزهرة، 2019: 04) وهي كشوفات أيضا تترافق مع السعي إلى إشباع تلك الشهوة والنكيف مع التغيّرات الحاصلة، وفي مجتمع منطويّ يعتبر الجنس أحد الممنوعات فيه، فإنّ البحث عن الممارسة الجنسيّة لكلا الجنسينّ ستكون عبر الممارسات العشوائيّة، حيث لا يمكن الوقوف في وجه الأجساد الطامحة إلى التلاقي والتواصل، يقول أحد المبحوثين: «كانت أمّي تديني للحمام معها، ونبقى نلعب في الماء، بصح مع الوقت وليت نبغي نشوف النساء وهوما يدوشو، ومرة وحدة قالت لأمي ماتزيديش تجيبه راه كبير ويعرف كلّش، حشاك شافنتي نشوف فيها وحاط يدي في..... والله بلا ما نفيق كي نتكرها نضحك» فالحمام هنا لم يعد يتقبّل الجسد الآخر، فقد كان فضاءً أنثويًا، حيث لا تكثرث الإناث بأجساد بعضهن، وسرعان ما اكتشفن جسداً آخر، يشتهينه ويشتهيهنّ، فقبل أسابيع كان طفلاً بريئاً، واليوم هو رجل يحذر منه ومن جسده، وهو أيضًا أدرك تلك اللعبة، وربط بين الجسد الأنثويّ العاري، وبين مداعبة قضيبه، فهناك شيء قد تغيّر، ولا بدّ من الخضوع له، والاحتراز منه، فموضوع الجنس هو أقوى وسيلة تجعل الطفل يشعر إنّه شرّير (شرابي هشام، 1984: 44)

وهنا يمكن الربط بين الجسد المولود حديثاً، وبين الممارسة الجنسية، فالرغبة والأجساد الجامحة، لا يمكن تركها لتصنع ما تشاء، حيث يتدخل المجتمع بأخلاقه ونواميسه، وحتى ظروفه الاقتصادية، وواقعه الاجتماعي، ليهندس الأجساد، ويهندس الشهوات، ويعلن طهارة المجتمع، بينما يسكت عن كل ما يحدث في الخفاء، إذ يترك الحبل للذكر على الغارب، بينما يطلب من الأنثى في هذا العصر المعولم أن تحمي بكارتها، وأن تجعلها خارج أي تفاوض جنسي، إذ مارست بكاره الأنثى على الرجل في كل الأزمنة والأمكنة تأثيرات غامضة، ولأنها كانت في الوقت ذاته مرهوبة مرغوبة (شبل مالك، 2010: 77) في هذا الشأن ترى عادة السمّان بأن: «ممارسة الجنس ليست قضية غريزية بيولوجية كما هي لدى الحيوان، لكن قضية إنسانية خطيرة ترتبط بمقومات شخصية» (عزيزي وفيق، 1994: 09) وترتبط أيضاً بثقافة المجتمع وأخلاقه، فلا أحد ينكر إكراهات الرغبة الجنسية، وحمية تليبيتها، لكن دون النيل من المجتمع وهندسته للعلاقات الجسدية، وتلك الفضائات التي يقم فيها الجسد الذكوري، والفضائات الخاصة بالجسد الأنثوي، إضافة إلى ما يرتبط بكلاً الجسدين من ثقافة فيها القليل من التصوص الديني، والكثير من روح المجتمع وهويته وعقيدته التي أنتجها ويعيد إنتاجها، حيث إنه لا وجود للجسد في حالته الطبيعية، إذ يتحدّد دائماً داخل نسيج المعاني (لوبورتون ديفيد، 2014، 64) إذا فالجنس تضبطه قواعد ومعايير يحددها قانون الجماعة والمجتمع، لذا فالمجتمعات الإسلامية لا تعترف ولا تسمح للذكر والأنثى بممارسة الجنس إلا في إطار الزواج، ربّما هذا هو الشائع، لكن هناك الكثير من الجنس المسكوت عنه، جنس بعلاقة كاملة، وجنس بعلاقات سطحية، وشذوذ، وجنس متخيّل ومرئي، وهناك العادة السرية التي خرجت للعلن ولم تعد مرتبطة بفترة زمنية معينة، بل أصبحت متعهّد البالغين، في عصر تأخر فيه الزواج كثيرا، يقول أحد المبحوثين: وقد تبين من تصريح أحد المبحوثين الإشارة إلى بداية البلوغ الذي كان مبكراً، وبداية هاجس الجسد، وهاجس إشباع الرغبة، عن طريق المخارج الجانبية، وهي مرتبطة بالجسد الذي تغيرت تركيبته وتعدّدت متطلباته، في مجتمع يعرف تحولات كبرى، ستجعل الزواج كمخرج شرعيّ ووحيد لتلبية الرغبة الجنسية أمراً غاية في الصعوبة.

مما سبق، فإن الأسرة الإسلامية عامّة، والأسرة الجزائرية خاصة، تتشكّل أفرادها على معايير أخلاقية، تمنع كلّ محاولة لممارسة الجنس قبل الزواج، وهي تولي أهمية

بالغة للتطورات التي تطرأ على الجسد، خاصة الجسد الأنثوي، وبذلك تقوم الأسرة بتعزيز الكثير من القيم التي حثّ عليها الإسلام كالحشمة، والستر، الحرام، الشرف، لكنّها لا تكتفي بما هو ديني شرعي، بل تعتمد إلى تضمينها بالكثير ممّا هو في خانة العيب، أي المحذورات والقوانين الاجتماعيّة، التي اخترعها المجتمع، وجعلها ربّما في مرتبة تفوق النصّ الدينيّ أو الحرام أحيانا، خاصّة في ما يتعلق بالبلوغ، والنضج الجنسيّ، حيث يتمّ تخجيل المراهق، ومضاعفة حالة الضغط التي يمرّ بها، فالمجتمع يرفض تغيّرات أقرّها الدين والفطرة، وهي تحتاج إلى تهذيب ومرافقة، لكنّ المجتمع يختار أسهل الطرق، وهي تعميم الفرض في العلن، والسماح بكلّ أشكال الانحراف في الخفاء، حيث إنّ العيب ما يقوله الناس عن الفرد العربيّ، أي لا عيب فيما لا يراه الناس (شرابي هشام، 1984: 44) هي القيم والمعايير توظّف خلال التنشئة الاجتماعيّة والتربّية الجنسيّة للفرد، ففي سنّ المراهقة، وبداية بروز الثديين لدى الإناث، إضافة إلى الحيض، وبروز فكرة الطهارة والنجاسة، وبداية الاحتلام للذكور، كلّها متغيّرات طبيعيّة، يتعامل معها المجتمع بما يربك المراهق ويزيد من قلقه، خاصّة إصابة بعض الذكور بالتثدي، وهو انتفاخ تحت الحلمة، يشبه بداية تشكّل الثدي عند الفتاة، هذا الأمر الذي سيقمع الجسد لدى المراهق، وسيلحق به أذى نفسيّا وماديا كبيرا، حيث إنّ الوظائف البيولوجيّة للطفل وبصورة خاصّة الوظائف الجنسيّة تصبح أداة سيطرة؛ لإثبات تعلّم الطفل الخجل من جسده (شرابي هشام، 1984: 43) لكنّ السؤال المطروح هنا: ما نوع التربّية الجنسيّة التي يتلقّاها الفرد الجزائريّ؟ وكيف تسهم في تجاوز مرحلة المراهقة وميلاد الجسد الجديد دون عقد نفسيّة واجتماعيّة؟

للإجابة على هذا السؤال كان يجب أن نحدّد مفهوم التربّية الجنسيّة أولا، أين ينقسم هذا المفهوم إلى شقين: التربّية ثمّ الجنس، فالتربّية تعني التنشئة والتهذيب، أمّا الجنس فيقصد به ذلك السلوك أو الفعل الذي يحدث نتيجة العلاقة الحميميّة بين الذكر والأنثى، أو ذلك الاستعداد الفطريّ الذي يدفع بالفرد إلى القيام بسلوك جنسيّ معين، فقد اتّقت الكثير من تعاريف المفهوم على إنّها: تشمل في معناها العلميّ الحديث على ناحيتين أساسيتين هما: الحقائق البيولوجيّة والرعاية الجنسيّة، التي تساعد الفرد على تكوين اتجاه سويّ، يقوم على تلك الحقائق ويؤثر على سلوكه، ويرتبط ارتباطا مباشرا بمعايير الجماعة وقيمها الخلقية وإطارها الثقافيّ (السيد البهيّ فؤاد، 1975: 314) فالفرد الجزائريّ لم يتلقّ من التربّية الجنسيّة إلا الاعتناء بأعضائه التناسليّة،

وستر عورته، وتخوفه من الكشف عنها أمام غريب، لسوء ما سيحصل له خصوصاً الأنثى، وبذلك يصبح الجسد والرغبة الجنسية شأنًا عامًا، رغم إنهما يتعلّقان بالفرد، وميولاته ورغباته، وحقيقة ما يشعر به، لكنّ المجتمع يعتقد أنّ الممارسة الجنسيّة غير المقنّنة، ومشاعية الجسد، أو إقحامه في الشأن الخاصّ للفرد، قد ينجّر عنه ما يخدش هوية المجتمع ونظامه، ولذلك ينشأ الجسد في المجتمع المحليّ بين توجّهين متناقضين، أو على حدّ تعبير مافيزولي هناك فكرتان بانيتان اجتماعيتا الوجود سويًا؛ الأولى تحيل إلى الفرض الخارجي الصارم والتعميميّ المفروض من الأعلى، والذي يجيب على سؤال ما ينبغي أن يكون، فيما الثانية على العكس، تنحو باتجاه تقسيم الشعوريّ والعاطفيّ في الجماعة، الذي يستجيب لمبدأ دعه يكن (فالنتيا غراسي، 2018: 103) وبهذا ينمو الجسد مضطرباً ومشوّهاً ومشوّشاً جنسيًا، ويعكس واجهة الرهبان والراهبات، لكنّه يخفي في كثير من الأحيان أجواء أكثر المواخير عربدة وانفلاتا من حيث الرغبة الجنسيّة، رغبة تتصادم بهيمنة مجتمع يعترض على نواميس الكون، وبين جسد يحترق رغبة، لكنّه لا يعبر عنها سوى في أماكن الظلّ، حيث تنمو الفردانية، وتزدهر كلّ أشكال الانحراف. أضف إلى ذلك، باقي التساؤلات والاستفهامات حول الجنس، وحول أجسادنا التي تصبح مخيفة في سنّ المراهقة، وتطلب منّا أشياء لم نكن نعرفها، وفي الوقت نفسه نجد المجتمع لنا بالمرصاد، تقول إحدى المبحوثات: «كنت ألعب مع أبناء الجيران (ذكورا وإناثا) حتّى سمعت أبي يقول لأمي: الطفلة لازم تتسنّ، واللعب نتاع برى خلاص، راهي مرا الله يبارك، وثاني لتسيها حجاب راهي كبرت، ولاد الحرام بزاف. حينها نظرت إلى جسدي واكتشفت أنّ صدري تغيّر، وأنّ الكثير من الأشياء قد تغيّرت، لقد أصبحت امرأة وأصبح جسدي مرغوبا ومطلوبا، لكن لم يشرح لي أحد الأمر، فقط طلب مني أن أكفّ عن أشياء، وأن أعود على أشياء أخرى»

فكلّ شيء يصبح في حكم المتحفّظ عليه والمسكوت عنه، أين يبقى كلّ شيء مبهمًا وغامضًا لأنّه طابو؛ ففي نظرهم -أي الآباء- أن إرضاء فضول الأفراد سيدفعهم حتمًا إلى التجربة في وقت مبكر، ويستلزم وقوع الفرد في المحظور أو الإصابة باضطراب نفسيّ/ جنسيّ، حيث إن التجربة الجنسيّة عند الطفلة تتّصف بالفوضى والألم والغموض (شرابي هشام، 1984: 43) وهذا إن دلّ على شيء، فهو يدلّ على أنّ عملية إعادة الإنتاج للتنشئة الاجتماعيّة والثقافية التي تلقاها الآباء، بكلّ ما

تحمله من قيم ومعايير أخلاقية وثقافية واجتماعية، باقية ومستمرة رغم كل موجات التغيير التي مسّت المجتمع، إلا أنّ التربية الجنسية لم يتغير محتواها، ولعلّ هذا النمط الخاطيء من التربية، وكلّ ما تقدّمه الوسائط التكنولوجية من إغراءات، إضافة إلى وصول الشاب إلى مرحلة النضج الجنسي، كلّها مجتمعة ستساهم في خوض تجربة ممارسة الجنس، والوصول إلى النشوة بشتى أشكالها، سواء أكانت ممارسة فعلية أو عن طريق العادة السرية، ومشاهدة المرئيات الإباحية التي توفرها عدة مواقع وروابط إلكترونية، كون المجتمع لا زال يهدّب السلوكات، وخاصّة الجنسية، عن طريق القمع والرفض والإنكار.

## 2 - المواقع الإباحية وفكرة العقاقير الجنسية:

يقول إبراهيم الحيدري: «قمع الطاقة الجنسية وكتبها لا يمكّن من التسامي بها، وما سيلزمها هو عنف تفجيرها» (الحيدري إبراهيم، 3003: 134) أشرنا سابقا إلى تلك الضبابية التي تلفّ الجنس وتؤزّم الجسد، في مجتمعنا المحليّ، وتربك المراهق، وتجعله يبحث عن مخارج جانبية، لتفجير طاقته الجنسية، خاصّة وأنّ سنّ الزواج قد تأخر، وانتشرت العنوسة، وفي الوقت نفسه تراجعّت التربية الإسلامية، التي تهدّب النفس وتضبط سلوكها، وكذلك هناك إتاحة مخيفة للجنس، خاصّة العلاقات المحرّمة والشاذة، أو حتّى تلك المتعلقة بالمواقع الإباحية، التي خرجت من سلطان الهوائيات المقعّرة، وانفلتت عبر الإنترنت والميديا الجديدة، وأصبحت مثل فيروس أو وباء قاتل سهل الانتقال وسريع العدوى، ومن الصعب جدّا التحكم فيه، أو الحدّ من انتشاره، لقد تحوّل إلى هوس نكتشفه ونحن مراهقون، لكنّه يستمرّ معنا إلى آخر العمر، فهو يبهرنا ويقدم إلينا على إته الجنس الأكثر إشباعا للرغبة، والأكثر تحقيقا للنشوة، وهو يختلف عن المحليّ محدود الفاعلية، وبذلك نعيش عصر التحرّر الجنسيّ، حيث إنّنا نريد أن تكون علاقاتنا الجنسية كتلك التي نشاهدها في المواقع الإباحية، وهنا نجد هاربر ماس يقول: «التحرّر الجنسيّ من بين الانفلاتات الاجتماعية التي تضرب العالم عرضا وطولا» (هاربر ماس يورغن، 2010: 10) انفلات يجعلنا نتجاوز سؤال: هل هناك من يتابع المواقع الإباحية؟ إلى سؤال إلى أيّ مدى أصبحنا مرتبطين بالمواقع الإباحية؟ وكيف أصبحنا مدمنين على مشاهدتها، بل متعلّقين بها بشكّل مرضيّ أقرب إلى الإدمان على الموادّ المخدّرة؟ حيث إنّ من بين أشكال

الإدمان على الإنترنت هو إدمان الجنس عبر السير، وهو استخدام قهريّ لشبكات الراشدين بحثاً عن الفحش والجنس (كاظم محمد أمل، بدون سنة: 114) إنَّ استخدام مفهوم القهريّ يشير إلى وجود قوة تتسلّط على الإنسان وعقله ورغباته، وتجعله تابعاً لها وخاضعاً لجبروتها، وهذا ما عبّر عنه كلّ المبحوثين، إذ لم يعودوا قادرين على الإقلاع والابتعاد عن تلك المواقع. يقول أحدهم «بيدت نتفرج كي كان عندي تسعة سنين، وضرك ما قدرت نحبس، مرات نتفرج يومياً، الله غالب ما فوق يدي» إنّه خطر الإدمان والانسياق وراء اللذة والمتعة، والانفصال عن الواقع، وتحويل اهتماماتنا نحو الخيال أو المتخيّل، فبعد التعرّف على المتعة السائلة، والوصول إلى النشوة، لا نستطيع الانسحاب، رغم كلّ محاولتنا، كوننا انخرطنا في لعبة على علاقة بالدماع والأعصاب، وكلّما حاولنا الانقطاع عنها لفترة، عدنا إليها بنهم أكثر، وإقبال منقطع النظر، وبذلك فاللعبة مستمرة بغضّ النظر عمّا نفع (باومن زيجمونت: 2016: 153) وهنا سيصبح التقاني في البحث عن المتعة واللذة الجنسيّة هو من يدفع الشاب إلى ولوج عالم الإباحيّة التي تعرض محتوى متنوّعاً ومجانياً «غير أنّ هذه الأفلام الإباحيّة تختصر الإنسان إلى مجرد أجساد وأعضاء، غالباً ما تكون محسّنة جراحياً، أو مبالغ في تصويرها وإخراجها، ومجرّدة من الروح والإنسانيّة وليس لها أيّ عاطفة، وتظهر النساء على إنهنّ غير آدميات، وليس لهنّ مشاعر بل تُعاملن كمتاع وجسد وُجد ليتمتّع به الرجال» (غاري ويلسون، 2014: 16) متعته تبدأ بأدنى شيء من الإثارة، فعند بداية التعرّف على المواقع الإباحيّة، يكون مجردّ قبله أو لمسة ساخنة كافية للإثارة، وربّما دافعاً ومحفزاً لممارسة العادة السريّة، التي تعدّ الشريك الرسميّ للإدمان على المواقع الإباحيّة؛ لكن مع مرور الوقت تصبح بعض المشاهد غير مؤثّرة ولا تحرك فينا ساكناً، وهنا يكون الدماغ قد تشبّع، وأصبح يبحث عن مثير أكثر حدة، وأكثر جرأة، حيث تبدأ رحلة البحث عن الموقع أو المقطع الأكثر إثارة وهوساً وتطرفاً، ولذلك استخدمنا مفهوم العقاقير المهلوسة، حيث إنّ متابعة المواقع الإباحيّة تعني الإدمان على مشاهدة الأجساد العارية، والتلذّذ بمشاهد التواصل الجنسيّ، وربما أصبحنا لا نستطيع ممارسة الجنس دون ما محفّز المواقع، حيث يقول أحد المبحوثين: «حياتي قاع نتفرج، حتّى وليت بلا البورنو نفسي قاع ما تقومش، وسبت الطلاق مع مرتي، كنت ندير فيلم بورنو باش نقدر نجامعها، أمّني هي قدامي عريانة والله ما تقوم نفسي عليها، ما قدرتش تصبر وعندها الصّح» إنّ عقل هذا المبحوث، قد

تعود منذ طفولته على أن يربط بين المتعة الجنسية وبين مشاهدة المواقع الإباحية، حيث تصبح تلك المشاهد بديلاً عن الممارسة الفعلية، وتصبح العادة السرية أكثر نشوة من الممارسة الجنسية الطبيعية، أو تكون مكملاً ومحفزاً لا استغناء عنه، كون الجنس السبيراني هو انفعال جنسي تعرّف عليه عقل الفرد وارتبط به، وأصبح لا يفكك أيّ شيفرة جنسية دون ذلك التحفيز الخارجي العنيف وغير الطبيعي، وهذا ما يمكن وصفه بالإدمان، حيث عرفته موسوعة علم النفس والتحليل النفسي بأنه المداومة على عادة تعاطي موادّ معينة، أو القيام بنشاط معين لمدة طويلة، بقصد الدخول في حالة من النشوة، وابتعاد الحزن والاكتئاب (سليمة حمودة، 2015: 214) فالمقاطع الإباحية تقدّم موادّ مثيرة، وبمعايير مطلوبة محلياً، وغير متوقّرة في الوقت عينه، وهي تقدّم كلّ أشكال الممارسة الجنسية، من دون قوانين أو تحفّظ أو أخلاق دينية، وبذلك فهي تقدّم لضحيّتها الجنس بوفرة ولذة ومتعة غير مسبوقّة، في مجتمع يعاني من أزمة ثقافية واجتماعية، وبذلك تصبح هذه المواقع هي كلّ ما يمتلكه الإنسان المحليّ، ويوظّفه لتلبية رغباته، كما إنّها مستعدّة لتزويده بمقاطع لا تنتهي ولا تتضب، وبوضعيات متنوّعة ومثيرة ومتجدّدة (انظر المخطّط) تقول إحدى المبحوثات: «ما نقدرش نحبس، خطرات نقول غي لقطه ونخرج، بصح غي نبدي نقلى روجي جبت زوج سوايع ولا أكثر وأنا نتفرج» فرغم أنّ المرئيّات الإباحية تصوّر الإنسان كأداة للمتعة، إلّا إنّها تؤدّي دور المثير، وتصل بالشابّ إلى ذروة النشوة والشبق، ويتبعها أكيد، ممارسة للعادة السرية. ولعل ما يطبع هذه الممارسات الجنسية، إنّها تحدث في الخفاء، وبشكل فرديّ، أي هي نوع من الاكتفاء الذاتي في الممارسة الجنسية، ويلفّها الكثير من التكتّم والسرية، ونادراً ما تجد شخصاً يكشف وجهه، ويعترف أنّه مدمن على مشاهدة المرئيّات الإباحية، وأنّه يمارس الجنس في شكله غير الطبيعيّ، ومن جهة أخرى هي سهلة وتلبّي الطلب، ويمكن أن تعثر على ما تريد بكيسة زرّ واحدة، حيث إنّ الوسائل التكنولوجية الحديثة سهّلت عمليّة الولوج للمواقع الإباحية، وجعلتها سهلة في يد المراهقين وحتّى الأطفال (زمام ربيع وكرايس الجباللي، 2017):

إنّ ما يجعل الشباب يتّجه إلى ممارسة ومشاهدة المحتويات الإباحية، هو الحاجة للتّجربة وإرضاء فضوله، وكسر قيود القمع الذي يمارسه المجتمع، فمعه يختبر قدرته الجنسية، ويبحث عن اللذة العبر قومية، وتتكون لديه ثقافة جنسية لممارسات جديدة، ووسائل يمكن أن تستعمل لزيادة الإثارة والمتعة؛ مثال ذلك الجنس الفمويّ

والوضعيات التي تجعل العقل يتوقف أمامها، خاصة إنها تعتمد على المؤثرات البصرية والسمعية، فالمرئيات الإباحية، وبعد التورط فيها، لا يمكن الابتعاد عنها، حيث تعطيك نوعاً من الجنس المعولم، الذي يجعل الجسد والعلاقة الجنسية قابلين للاستثمار فيهما، وتحقيق أكبر قدر من المتعة، عن طريق جعل عملية الإيلاج والقذف كتحصيل حاصل في نهاية العلاقة الجنسية، التي يرافقها كم هائل من المداعبة الجنسية، والتي تنجح المواقع الإباحية في إخراجها، وتحويلها إلى شيء أشبه بالعقاير المهلوسة، عقاير جنسية، تجعل المتابع متمسراً في مكانه ومندمجاً مع المشهد بكلّ خضوع، غير آبه بالوقت، فتلك المداعبات، وكيفية إثارة المرأة، وجعلها شبه مستسلمة لذلك الذكر الجامح، هو ما يشدّ المدمنين على تلك المواقع، حيث يرى بول فريشاور أنّ عملية مداعبة العشيقة أو الزوجة عملية جدّ مهمة، وأكثر ثراء عند الإنسان مقارنة بالمخلوقات الأخرى (بول فريشاور، 1999:) هذه المداعبة التي لا يعترف بها الجنس المحليّ، أو يعدّها منافية للأخلاق، خاصة اندماج المرأة في الممارسة، وتفاعلها مع المداعبة، حيث لازال المجتمع المحليّ يعتقد أنّه من غير اللائق رؤية الزوجين لجسديهما عاريين، كما أنّ العلاقة الجنسية تكون في الليل، وبدون ضوء، والكثير من المداعبات تبدو غير أخلاقية، وتمارس مع العشيقة لا مع الزوجة (بلغازي محمد وكرايس الجيالي، 2017: 12) وبذلك فإنّ المرئيات الإباحية تبدو في نظر المدمنين عليها، خاصة بعد مقارنتهم الممارسة الجنسية المحليّة، بتلك التي تصنعها التكنولوجيا، تجعل من الجنس يرقى إلى مفهوم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر ببال إنسان، إنّه الإنسان المحليّ، الذي لا أحد يعترف به جنسياً، والمجتمع يرفض أن يربط في العلن بين البلوغ وبين سلطة الجنس، وارتباطنا به بشكل مرضي، فإمّا الزواج، وإمّا كلّ أشكال الانحراف، وكلّ الممارسات تصبح مباحة بقوة اللذة والرغبة، والبحث عن المتعة، يقول أحد المبحوثين: «كي نتفرج ما نحشش بالوقت، وكل فيديو يخليك تشوف لبعديو، وثاني تلقى مجموعة من المقاطع، وملي تسخن تزيد تدخل واحد آخر، المشكلة ما تقدرش تحبس حتى ديقاجي حاشاك» إنها وضعيّة جعلت الفرد العربيّ أو الإنسان المحليّ يقع في مشكلة الإدمان، وتحولت تلك المقاطع إلى عقاير جنسية، ما إن نتعرّف عليها حتى لا نستطيع التحرّر منها، بسبب تحولها إلى منبّه للرغبة الجنسية، وكلّ مقطع يقود إلى مقطع آخر، وهناك من لا يمارس العادة السريّة من دون مشاهدة تلك المقاطع ولوقت طويل، حيث لا يحدث له

الانتصاب ولا تثار رغباته، إلا بعد تحفيز العقل، ومشاهدة قدر كاف من تلك المواقع التي كانت في البداية قادرة على إثارته، لكن مع مرور الوقت، صار يتطلب الأمر جهداً، ولذلك نجد أنطون اسكندر يقول: التعرض الجنسي الذي نعاني منه اليوم لا مثل له في تاريخ الإنسانيّة، (اسكندر أنطون: 2010: 11) هو تعرّض أصبح له مبرراته لدى مجتمع المدمنين؛ مجتمع توسّعت فئاته العمريّة ومستوياته التعليميّة، وأصبح مسوّغاً له من طرف مجتمع لم يعد قادراً على التوفيق بين رغباته الجنسيّة وبين إكراهات واقعه الاجتماعي والاقتصادي، وبذلك كانت تلك المواقع هي أقرب الحلول وأكثرها سهولة وتلبية للطلب، والمشكلة أنّه لا المراهقون ولا البالغون يريدون الاعتراف أنّ هناك مشكلة ما (اسكندر أنطون: 2010: 11)

إنّ من بين ما لاحظناه في تصريحات المبحوثين، أنّهم يتبادلون المحتويات الإباحيّة فيما بينهم، بشكل عاديّ عبر الفيس بوك، وبدون أيّ تحفّظات أو حساسيّة، وكأنّهم يتبادلون معلومات عاديّة، وهذا ما يجعلنا نقرّ على أنّ الشّباب أطلقوا العنان لأنفسهم، وجعلوا من مشاهدة المحتوى الإباحيّ سلوكاً عادياً وأمرًا طبيعيّاً؛ لأنّ الإنترنت توفّر ذلك، ولا يدخل ضمن اللا-أخلاقيّ، لأنّه ليس بالغريب حتّى في كلامهم اليوميّ مع بعضهم البعض، فهم يستخدمون عبارات جنسيّة صريحة وأخرى فيها إحياءات، حيث إنّ التعرّض لتلك المقاطع، وبكلّ ما تقدمه من ممارسات جنسيّة، تقع بين العاديّ والعنيف والشاذّ، خلقت نوعاً من التحرّر أو التمرد، وأصبحت تلك المواقع تشاهد بشكل جماعيّ، وهذا ما صرّح به أحد المبحوثين: « كنا في الجامعة نجيبو أفلام بورنو، ونتفرّج مع بعض، والله غي هبلنا وليبغى ... يروح للطولات ويرجع، المشكلة كي تنفّرج تولى ما تحشمش وتولي دير كلّش» إنّها وضعيّة تجعلنا نصرّح أو نصرّ على أنّ تلك المواقع وما تحمله من مواد إباحيّة، ليس الغرض منها إشباع الشهوة أو تحقيق المتعة، بقدر ما هو ضرب للعقل، وتحطيم للأخلاق، وكسر لكلّ القيود، إنّ متابعة هذه المواقع يؤدّي إلى انتشار العنف على نحو متضخّم، ويصبح الجنس المرئيّ مثل دوامة تتجاوز كلّ طقوس العريضة (جيل لوبفسكي وجان سيرو، 2012: 94) فهي أداة لتحطيم الإنسان المسلم، وبرمجته وفق أخلاق غريبة وغربيّة، وتتجاوز كلّ حدود المعقول، حيث إنّ الموادّ الإباحيّة المعروضة لا تتوقف عند حدّ، بل ستجرّ المتابع وتقوده من متاهة إلى أخرى، إذ لا يستطيع الإقلاع، وفي الوقت نفسه يصبح مجبراً على الغوص أكثر فأكثر، فهي أشبه بمتاهة، فكلمّا فتحت باباً أو مقطعاً تناسلت منه

عشرات المقاطع، وكلّ مقطع له أيضا لواحقه (انظر الملحق رقم 01) وهذا الشكل يوضح كيفية ترابط المقاطع الإباحية ببعضها البعض، (من اقتراح الباحثين) وبذلك فهي تقدّم لك حرية الاختيار، لكنه اختيار شيء إباحي والتفاعل معه، حيث إنّ هناك سِتّة مظاهر وأنت حرٌّ في الاختيار، لكنّ اختيار واحد من السِتّة، حيث ليس هناك اختيارات أخرى ( زيجمونت باومن، 2016: 196 )

وهنا يمكن القول إنّ المرئيات الإباحية وما تقدمه من مواد جنسية، مصمّمة لضرب قيم المجتمع وتعزيز القيم الوافدة، حيث إنّها تعلن حرية الممارسة الجنسية، وتنفي أيّ علاقة بينها وبين الأخلاق والقيم الدينية، إنّها تقول: تورّط في متابعتها، افعل كلّ ما يلبي رغبتك، ويشبع شهوتك، خاصة أنّنا في مجتمع يقنّن الجنس، ويربط بينه وبين مؤسّسة الزواج، ويرفض كلّ أشكاله خارج هذه المؤسّسة، خاصة وأنّ متغيّرات العصر والظروف التي نعيشها، جعلت من الرّواج أمرًا بالغ التعقيد، وفي الوقت نفسه حافظت على نفس تمثّلاتها للإشباع الجنسي، وهنا جاءت تلك المواقع، لتحرّر الفرد من قيود المجتمع، لكنّها أسرته من جهة أخرى في قيود العولمة وحشوتها الثقافية والأخلاقية. يرى هابرماس أن هناك نوعين من السيطرة: سيطرة قامعة، وسيطرة محرّرة (يورغن هابرماس، 2010: 50) حيث يجري وبكلّ إخلاص تدمير جيل كامل عن طريق ربطه بالمرئيات الإباحية، التي أصبحت تمتلك نفس ثقل العقاقير المخدّرة، حيث نشأ جيل كامل مولع بالممارسة الجنسية الوافدة، ومتأفّف من الجنس المحلي المرتبط بغايات نبيلة داخل مؤسّسة الزوجية. هي أهداف العولمة الساعية إلى جعل الكوكب مضيافا لأوروبا على حدّ تعبير باومن ( زيجمونت باومن، 2016: 193 ) عن طريق التصدير الثقافي، الذي لا يقلّ خطورة عن تصدير السلع والاحتفاظ بنا كمجتمع استهلاكي وغير منتج، وما نحن اليوم نتفرّج على ضياع قيمنا وأخلاقنا، ونحن مرتبطون بالجنس الوافد المشحون بالمتعة واللذّة، التي تضرب كلّ القيم ولا تعترف بأيّ وازع ديني، بل تهدف إلى نفي مؤسّسة الرّواج، وجعل الجنس والنهم الجنسي أهمّ شيء في العلاقات العاطفية، التي يجب أن تخضع للرغبة وللرغبة وحدها، وعلى حدّ تعبير نشييه هناك نيّة لإعدام الكائن أو الإنسان، عن طريق إفراغ القيم العليا من قيمتها. (جاني فاتيمبو، 2014: 30) فتلك المواقع، وحسب تصريحات المبحوثين، حولتهم إلى كائنات جنسية، لا يؤثّر فيها وازع ديني ولا قيمي، وقد أصبح لديها شراهة جنسية، ومتابعة غير محدودة للمرئيات الإباحية، خاصة باستعمال الهواتف الذكية

والألواح الإلكترونية، والحواسيب المحمولة، إذ لا يتوقف التدفق الجنسي، وبسلاسة وسهولة، وقدرة على اختراق العائلة، حيث ستكون المشاهدة ليس في البيت فقط، بل في كل ركن منه، وبحضور الأب والأم، إذ فقدت كل تلك المؤسسات الرقابية هيبتها وقدرتها على الحد من تعاطي الجنس. (زمام ربيع وكرايس الجيلالي، 2017: )

وهنا يمكن الإشارة إلى سبب انتشار متابعة المرئيات الإباحية، وسهولة الوصول إليها، إنها التكنولوجيا الفائقة، التي تفوقت على كل مؤسسات التنشئة الاجتماعية، وضربت المحلي في الصميم، حيث أصبح كل شيء يأتي من هناك، وحتى المتعة أصبحت تصدر إلينا في شكل عقاقير جنسية، تصينا بالهلوسة، فالتوتر والفتور، تعبت بعقولنا وتنگل بأعصابنا، تسحقنا وتتغلب علينا، وهذا ما أجمع عليه المبحوثون، فبرغم تلك السعادة والنشوة التي يصلون إليها في أثناء المشاهدة، إلا إنهم يدركون أنهم في ورطة كبيرة، وهم يحملون المسؤولية لوسائط التكنولوجيا الجديدة التي أعادت تعريف الزمان والمكان. يرى إدموين إمري أننا جعلنا الزمن والفضاء طوع إرادتنا باستخدام الحاسبات الآلية وأنظمة الإرسال الفوري (إدموين إمري وآخرون، 2000: 15) فسحريّة تلك الوسائط، وقدرتها على جلب الكون إلينا، إضافة إلى جملة من الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وضعف الوازع الديني عند الأفراد، وحتى أزمة فتور الخطاب الديني، كلها اجتمعت لتحوّل تلك المرئيات إلى مخرج نجدة لمجتمع يعيش حالة من اليأس، ولذلك، ومن خلال تصريحات المبحوثين، يمكن أن نجمل أهم الأسباب والدوافع التي تقف وراء تفشي طاعون الإباحية في مجتمعاتنا المحليّة:

- قلة الإمكانيات المادية لتوفير الظروف من أجل الزواج.
- الوصول إلى النشوة الجنسية، والشعور بالسعادة التي لا يمكن أن نشعر بها في الممارسة الفعلية.
- الخوف من الإصابة بالأمراض التي تنتقل عن طريق ممارسة علاقة جنسية فعلية، فالشاب يفضل مشاهدة المرئيات الإباحية، وممارسة العادة السرية، على أن يدخل في ممارسة فعلية يمكن أن يصاب بعدها بمرض ما.
- الخروج من تجربة زواج فاشلة انتهت بالطلاق، جعلت كلا الجنسين ينفر من إقامة علاقة مع الآخر.

- التنوع المستمر من ناحية الكم والكيف فيما تقدّمه الروابط والمواقع الإباحية.
- سهولة الوصول إليها ولا معقولة ما تقدّمه من جنس ومن متعة.
- الإدمان عليها وعدم القدرة على الإقلاع.

من خلال هذا يمكن القول: إنّ المرئيات الإباحية أصبحت تعرف نوعاً من النقشيّ الوبائيّ داخل المجتمع، وهي حقيقة تبدأ في سنّ المراهقة الذي أصبح يبدأ هو بدوره مبكراً، لكنّ المشكلة الأخطر، أنّ هذا السنّ قد تمّ تمديده إلى أجل غير مسمّى، فمن جهة هناك ظروف اجتماعية قاهرة أعادت رسم خارطة الزواج، إضافة إلى جنون وعبثية ما تقدّمه تلك المواقع، التي تأسر المتابع وتشدّه إليها حتّى بعد الزواج، فهي تعيد تعريف المتعة والنشوة، وتعطي للانتشاء والإشباع تعريفاً آخر يتجاوز مسألة الإيلاج والقذف، إلى دوامة من الجنس اللامتناهي، فكّلما شاهدت أكثر، كلّما طلبت أكثر.

### 3 - الإدمان على المواقع وحمية زيادة الجرعة:

تحدث روجر روزنبلات في كتابها ثقافة الاستهلاك، في الصفحة 63، عن فكرة الاستهلاك من أجل الحبّ (روجر روزنبلات، 2011: 63) أو لنقل الاستهلاك من أجل الوصول إلى حدود قياسية من المتعة والنشوة، والاستهلاك من أجل إرضاء الفرد لفردانيته دون الالتفات لأي شيء في هذا الكون، فما الحبّ إلّا ذلك الجانب الموحش منّا، حيث نريد إرضاء أنفسنا، فنختار أفضل ما في غيرنا لنحبّه ولنستهلكه، ولننتشي باستهلاك ما نحبّ ومن نحبّ، ثمّ لا أحد ينكر أنّ الجنس هو لعبتنا المفضّلة، وهو تلك الممارسة التي تغرينا وتثيرنا، وتشدّنا إليها كلّ ما تعزّزت وتنوّعت، وكانت قادرة على إثارتنا في كلّ مرة، وبنفس القوة وبنفس الرّغبة، وهذا ما أصبحت توفّره المرئيات الإباحية للمدمنين عليها، والجدير بالذكر أنّ كلّ المبحوثين أجمعوا على صعوبة التخلّص منها، وأنها بالنسبة إليهم أحد أشكال الترفيه عن النفس، والهروب إليها يكون في حالة الشعور بالحزن الكآبة، حيث تكون تلك المقاطع الإباحية قطعة من زمن أسطوريّ وخياليّ، يجعلهم يتلذّدون بكلّ الأجساد، وبكلّ الألوان والوضعيات، لكن سرعان ما تتضب تلك المقاطع وتصبح غير مؤثرة في المتابع النهم، فمشاهدتها لمرات عديدة، يجعلها مألوفة، وغير مجدية، خاصّة الجنس العاديّ، أي رجل/ امرأة، وهذا ما تبدأ به رحلة الإباحية. فكّل الذكور وكلّ الإناث توافقون لرؤية الأجساد

العارية، خاصة الرجل، حيث يكون جسد المرأة وتفحص أعضائها والتعرف عليها عن كذب، هو شغلها الشاغل منذ البلوغ، في مجتمع إما أن تتزوج فيه، ولك حرية ممارسة الجنس، وإما أن تبقى فيه خارج مؤسسة الزواج، وتقمع كل رغباتك في العلن، هنا نجد المواقع والمرئيات الإباحية سهلة من جهة، ومن جهة أخرى تقدم كميات رهيبية من الجنس، بداية من العادي أو المؤلف إلى غاية أكثر المقاطع تطرفاً، خاصة في التعامل مع جسد المرأة، ونفي كل إنسانية عنها، وتحويلها إلى مجرد آلة لصنع المتعة، بشكل مغرٍ وجذاب لا يقاوم. يقول أحد المبحوثين: «فديوات نتوع راجل مع مرآة خلاص ولاو ما يأتروش فيا مع الوقت، بصح ديما كاين جديد، وأنا ضرك ليجيبولي الرقاد كتكون وحدة صغيرة مع واحد كبير وتبدي تعيط وهو داخل عليها، كارثة وخلاص» إن هذا التصريح يشير إلى أن عقل المبحوث أصبح في مرحلة متقدمة، وأصبحت الإثارة الجنسية لديه تعني مزيداً من الغوص فيها، وأن تكون أكثر إغراء يقول إبراهيم سرتي: «الإغراء الجنسي هو بالفعل أكثر الأسلحة فتكا بالرجال» (محمد إبراهيم سرتي، 2008: 103)

يسجل الدماغ مشاهدة الأفلام الإباحية على أنها نشاط ذو قيمة، وذلك بسبب التجديد الدائم للمادة المرئية التي تثير غريزة الجنس، والتهيّج الجنسي الشديد الذي تسببه المرئيات الإباحية، إذ يقوي الروابط العصبية، والتي بدورها تلج عليك بأن تطلب المزيد من هذا النوع من الإثارة، وبالتالي تغدو كل المثيرات الجنسية التي كنت تعرفها سابقاً باهتة، بالمقارنة بما سنكتشفه من خلال دوامة من المقاطع اللامتناهية، والتي تتقلك من مقطع إلى آخر، وتنتقل بك من وضعية إلى أخرى، حتى تكاد تبدو وكأنك في رحلة بحث عن الجرعة المناسبة لحصول النشوة المرغوبة، فالأمر لا يرتبط بطول الوقت الذي يقضيه المرء في التصفح، ولكنها تتناسب طردياً بالتنوع في المحتوى الإباحي، ودرجة التهيّج الجنسي الذي يشعر به (غاري ويلسون، 2014: 34) أي أن المدمن لا يشعر بالوقت الذي يمرّ، ويفتعل أي سبب من أجل مواصلة المشاهدة.

فالإدمان يمكن أن يرتبط بسنّ مبكّر لدى الشاب عند مشاهدته أول محتوى إباحي، هذا الذي يمكن أن يزيد في عمق ومستوى الإدمان، حيث تتكدس أدمغتنا بتلك المواد الإباحية، إلى درجة أنها تفقد تماماً عنصر التنبيه، ويمكن بعد فترة من الزمن

ومن المتابعة أن تصبح بعض الإيحاءات الجنسية لا تحرك ساكنا في المدمن، مثل (التقبيل، التحسس، مقطع جنسيّ لأقلّ من 16 سنة، صور لنساء عاريات، وقد تصل أحيانا لعلاقة جنسيّة كاملة بين ذكر وأنثى) فالدماغ قد تشبّع ولم يعد يتفاعل مع تلك الأشياء، إنّه يبحث عن جرعة أكثر حدّة، وأكثر غرابة، وربما لا تتقبّلها الفطرة السليمة، لكن ليس هناك حلٌّ أمام المدمن سوى تلبية الرّغبة أمام هذه العقاقير الجنسيّة، والتي لا تقلّ خطورة عن العقاقير المخدّرة، حيث تبدأ بكميّة قليلة، غير أنّها في كلّ يوم نشعر أنّ الوصول إلى مرحلة الانتشاء يتطلب مزيدًا من المادّة المخدّرة، وكذلك المرثيات الإباحيّة، كلّما ألغناها، كلّما أصبح وصولنا إلى مرحلة الانتعاض، وتحقيق أعلى درجات اللذّة الجنسيّة (إبراهيم محمد، بدون سنة: 25) يتحتم علينا الحصول على جرعة أكثر حدّة، ومقاطع أشدّ غرابة وقذارة أحيانا، وهذا ما عبّر عنه جلّ المبحوثين، فهناك من تغيّرت ميولاته الجنسيّة، وأصبح يبحث عن المقاطع الشاذّة (إسحاق ولواط) والبعض اتّجه نحو الجنس الجماعيّ، وزنى المحارم.

الأمر لا يتوقف هنا، فهناك أيضا الجنس العنيف، حيث الصّعق بالكهرباء والتعليق، والضرب بالسّوط، وإدخال الأشياء في الشرج والمهبل، إضافة إلى أشياء أخرى لا تصدّق، كغرز المسامير في المناطق الحميمة والأثداء، كلّها مقاطع أصبح لها جمهورها الخاصّ، والذي يبحث عنها ولا يشاهد غيرها، وهي تعبّر عن حالة جدّ متقدّمة من الإدمان والخروج عن الطبيعة الإنسانيّة والفطرة، حيث أصبحت الجرعة في أعلى مستوياتها، وأصبح المدمن يناضل من أجل الوصول إلى مرحلة النّشوة، وهنا لا بدّ أن ندرك جيّدا أنّ السينما الإباحيّة لم تعد عبثيّة، بل أصبحت تحمل أهدافا مدروسة، ولها أساليبها في الإيقاع بضحاياها، حيث إنّنا اليوم لسنا أمام الفيلم الجنسيّ البذيء بالأسلوب القديم سيّء السمعة، المخفيّ والمخصّص لعدد قليل من الأفراد، ولكن نحن نسير نحو نوع جديد بممثّلين محترفين ومعرفين ومعترف بهم (ممثّل إباحيّ، ممثّلة إباحيّة، ويستهدف جمهورا عريضا) (جيل لوبفسكي وجان سيرو، 2012: 95) هو جمهور من كلّ الفئات والأعمار، حيث لم تعد مسألة متابعة المرثيات الإباحيّة خاصّة بالمراهقين، أو بمرحلة ما قبل الرّواج، بل أصبحت ظاهرة أكثر تعقيدًا وقد تستمرّ مع المدمن إلى آخر العمر، حيث ينظر بعض الناس إلى أنّ المرثيات الإباحيّة هي جزء من الثقافة الجنسيّة (بلغازي محمد وكرايس الجليلي، 2017: ) وربّما هذا التّصوّر ما هو إلا نوع من تبرير ذلك التعلّق المرضيّ، وارتباط الوظيفة الجنسيّة لدى الكثير

من المدمنين بنوع من التحفيز، والمتمثل في الإثارة عن طريق مقطع إباحي، يكون المقبلات التي تفتح شهيتنا للاستهلاك، يقول أحد الباحثين: «كي نخرج مع مدامتي وليت ندير فيديو بورنو باش نقدر نقصر معها، شفتها كمشغل تزحف، من بعد وليت ندير مقاطع نتاع التعذيب والضرب، أيا ما عجبهاش الحال وتسيبارينا على جالهم، بصح أمني لوكان ما يدخلش فيها الضرب نفسي قاع ما تقومش» إن هذا التصريح يبعث على القلق، ويشير إلى كارثية ما نحن مقبلون عليها، وربما يجعلنا نعود إلى سؤال جوديث بتلر: هل يمكن أن ينشأ معنى جديد للأخلاق من مثل هذا الإخفاق الأخلاقي المحتوم؟ (جوديث بتلر، بدون سنة: 95) وربما الجواب يكون بنعم، فنحن مقبلون على مجتمع منحل أخلاقيا وخطير، يفهم الجنس والعلاقات الجنسية على أنها ممارسة همجية الهدف، منها إرضاء النفس وتتبع إكراهاتها الشهوية.

إذ يصاب المدمن على مشاهدة المرئيات الإباحية بهلوسة جنسية، ويعيش حالة لاوعي، يشعر حينها بقمّة السعادة واللذة عندما يصل إلى ذروة النشوة، وتصبح نوعية المحتوى الإباحي جرعة المخدر/ المؤثر، التي تتحكم في شعوره بالمتعة ثم الراحة، هكذا يصبح المدمن عبدا لهذه المرئيات، حيث لا يحس بفحولته إلا عندما يشاهدها، وهذا الإدمان يجعله مطلقا على جديد الفيديوهات، وأسماء المحترفين الجنسيين، وترتيبهم حسب أعلى نسب المتابعة، وأكبر عدد مشاهدة، وكذا الرتب التي يحتلونها حسب كل ممارسة، مثال: من تحتل المرتبة الأولى في الجنس الفموي لسنة 2019 وهكذا... إذ يعدّ الجنس الفموي أكثر الأشياء التي تشدّ المشاهد المحلي، وقد تمّ نقل هذه الممارسات إلى مؤسسة الزواج، فلا أحد يستطيع مقاومتها، خاصة أنّ هناك فتاوى شرعية أبحاثها وقتنتها، وبذلك تأثرت الممارسة الجنسية المحلية بالممارسة المعولمة، ووجد الفرد المحلي ما يشفي غليله الجنسي (بلغازي محمد وكرايس الجبالي، 2017: 15)، لكن وعلى الرغم من ذلك، سيبقى الفرد مشدودا إلى تلك المواقع، خاصة إذا تبدّل سلوكه الجنسي، وأصبح يميل إلى الانحراف والبحث عن الغرابة، فلا يمكن أن يتأثر أو ينتشي إذا لم يطّلع على محتوى صادم جنسياً وأخلاقياً، إذ إنّ سنةً باحثين أصبحوا يتابعون مقاطع مقرّزة، تتمثل في مواقع متخصصة في مقاطع جنسية يستخدم فيها البراز والتبول على الوجه، وشرب البول وأكل الغائط، وهم يعدونها مثيرة، بل وتحرك مشاعرهم، رغم أنهم يقرّون بأنّ الأمر غير طبيعي، لكنّ البحث عن النشوة وتحقيق أعلاها، يفرض زيادة الجرعة وولوج عوالم مخيفة وغريبة، وتراهم بعد كل

مشاهدة يشعرون بالندم، ويدركون أنهم في متاهة جنسيّة، وهم يخشون أن تستمرّ معهم هذه الرغبات المتطرّفة، كونها ارتبطت بمسألة البحث عن الإشباع والاكتفاء، مسألة بدورها تعلّقت بالأعصاب وبعمل الدماغ، الذي أُلّف الجسد العاري ولم يعد ينبّه، بل أصبح يبحث عن الاستثمار في الجسد، وإنهاكه شهوا، حتّى الوصول إلى النّشوة، وتحقيق القذف، الذي لم يعد سهلا مع مرور الوقت وفقدان لذّة الجنس العاديّ لقدرته على التأثير.

في هذه المرحلة من الإدمان يعتقد الشاب فكرة الجنسانيّة الألكترونيّة، أي يصبح تابعاً لها، ولا يشعر بوجودها إلّا إذا تصفّح هذه المواقع كلّ يوم، وأسرف في المشاهدة، لأنّ المحتوى المألوف لديه لم يعد يؤثّر على دماغه، مما يستدعي جرعة زائدة ليحدث التأثير وتسجّل الاستجابة، وهنا يبدأ البحث عن الممارسات المتطرّفة كالجنس الذي يمارسه الإنسان مع الحيوان، جنس التعذيب، وفي هذه الحالة سيتحوّل الإدمان إلى اضطراب نفسيّ سلوكيّ، فتظهر اضطرابات كالساديّة والمازوشيّة، والعدوانيّة، والميل إلى إهمال النظافة والعناية بالجسد، حيث تصبح كلّ المظاهر غير السويّة جزءاً من اللّعبة الجنسيّة، فأغلب المبحوثين صرّحوا بأنهم لا يهتمّون كثيرا بمسألة النظافة، كما أنّهم لا يصلّون إلّا في شهر رمضان، وأحيانا يشاهدون تلك المواقع في رمضان وفي النهار، وهم يسوّغون ذلك بعدم قدرتهم على كبت رغباتهم أو التحكم فيها، وهم أيضا يميلون إلى عدم الرّواج، حيث تصبح لديهم رغبات جنسيّة شاذّة ومتطرّفة، مثل ممارسة الجنس المشترك، أو التبادل الجنسيّ، بين الشريكين، خاصّة الذكور، وهذا راجع إلى طبيعة ما يشاهدونه، خاصّة إنّهُ متعلق بمجتمعات متطرّوة، ومنقّمة، إذ إنّ أغلبهم ينفي فكرة علاقة الإثم بالممارسة الجنسيّة مهما كان شكلها، ما دامت عن تراض أو بتوفّر شروط السلامة الصحيّة، وهذا ما يروّج له الغرب عن طريق عولمة الثّقافة وتقنين الجنس والرّغبة، عن طريق تحريرها من كلّ القوانين والقيم. تشير **مريام جورسمان** إلى أنّ هناك دراسات تدلّ على الإقبال الواسع للممارسات الجنسيّة المنحرفة، لكنّ هناك نصائح لتفادي الأمراض الجنسيّة (مريام جورسمان، 2011: 31) إنّ هذه الثّقافة تسرّبت إلينا من خلال الوسائط التكنولوجيّة التي عصفت بكلّ القيم، وهددت كلّ المجتمعات، وها نحن تجاوزنا مرحلة الانحراف وممارسة الجنس خارج مؤسّسة الرّواج، إلى الانحراف في الانحراف، والتعلّق بممارسات جنسيّة تقع بين المتطرّفة والشاذّة، وصولاً إلى المقرفة والمستقرّة للعقل والفطرة، ويمكن القول إنّنا

نعيش مرحلة ما بعد الانحراف، وهي مرحلة تعصف بأعصاب المنحرف، وتجعله أسير نزواته وتقلباتها، فالجنس الشرس الذي أدمنه قطاع واسع من رواد المواقع الإباحية، نقل إلينا تلك الأزمات النفسية والأخلاقية التي يعيشها الغرب المنتشي بعقلانية، لكن، وعلى حدّ تعبير جورسمان لاشيء عن التبعيات النفسية للممارسات الجنسية المتطرّفة والمنحرفة (مريام جورسمان، 2011: 31)

كما أنّ هوس المشاهدة، وعبودية المقطع الإباحي المتطرّف، تجعل من المدمنين المرتبطين بفكرة الجرعة الزائدة، ينتقلون من المشاهدة إلى الممارسة، والبحث عن شركاء، بمواصفات محدّدة، عبر مواقع التواصل الاجتماعيّ، حيث أصبحت هناك صفحات للشواذ، وللسحاقيات، وللجنس المتبادل، ودخل الجميع في لعبة السوق والتشيؤ والاستهلاك، ويمكن أن تتحوّل من شريك افتراضيّ إلى شريك فعليّ واقعيّ، ويمكن أن تحظى بفرصة ممارسة الجنس الساديّ أو المازوشيّ، كون الجرعة خرجت عن نطاق تنبيه العقل، من أجل ممارسة العادة السريّة، إلى اختيار توجّه جنسيّ عنيف. وهنا يمكن الإشارة إلى خطورة التكنولوجيا، وارتباط العقل بها، حيث يرى هاربرماس أنّ العقل التقنيّ ذاته أيديولوجيا وليس استخدام التقنية (هاربرماس يروغن، 2010: 45) إنّ العقل المنبهر بفكرة ألوهية العقل، وكلّ ما يسعد البشر هو جائز ولا حرج فيه، وربّما هذا هو الدرس الأوّل الذي نتعلّمه من إدمان الإباحية، حيث تخبرك أنّ كلّ شيء متاح في سبيل المتعة.

إنّ دخول الشّبّاب عالم الإباحية، والانغماس في كمّية هائلة من المتعة غير المشروطة ولا المحدودة، يجعل من المستحيل إيجاد مخرج لها، حتّى وإن كان المدمن على العقاقير الجنسية المتمثّلة في إنتاج أفلام محدودة لا تتعدى الثلاث دقائق موجهة من أجل استهلاك وجبات سريعة على شاشة هائلة (جيل لوفسكي وجان سيرو، 2012: 16) يشعر بعد زوال مفعولها، بنوع من الندم وتأنيب الضمير؛ لأنّ الأمر هنا يتعلق بأهمّ عضو عند الإنسان وهو الدماغ وبرمجياته التي يمكن أن تتلف الأعصاب بمرور الوقت، وتضع الشاب في حالة الموت السريريّ إن حاول الإقلاع عن إدمان هذه المواقع نهائيّا، لأنّ الإدمان عليها سهل ويتكوّن بسرعة، لكن الإقلاع عنها يأتي تدريجيّا ويمكن أن يطول، وتكون له آثار جانبية وخيمة، مثل:

- الانزواء والانطواء عن المجتمع.

- تغيّر ملحوظ في السلوك، وميل واضح إلى السلوكيات الشاذة عموماً.
- فتور في التدبّين ونفور من النظافة.
- التأخّر في الزّواج أو عدم التزوّج كلياً.
- تكوين علاقات شاذة.
- العنف خاصّة في التعامل مع النساء.
- الكسل والخمول والنفور من العمل.
- التدخين وتناول المسكرات، وقد يصل الأمر إلى المخدرات.
- ضعف في البنية الجسميّة والخوف.
- النفور من الرياضة ومن النشاطات الصّحيّة.

ربّما هي جملة من الملاحظات استطعنا التوصل إليها من خلال هذه الورقة، خاصّة أنّ لدينا اهتماماً بالموضوع، ولنا أعمال سابقة في هذا المجال، وهذا يدفعنا إلى القول بأنّ الإدمان على المواقع الإباحيّة لا يقلّ خطورة عن إدمان المخدّرات، فكلاهما يؤدّي إلى تدمير الأعصاب، والتوجّه نحو السلوكيات العنيفة، بل إنّ العقاقير الجنسيّة أكثر خطورة كونها على علاقة وطيدة بالعولمة الثقافيّة، وضرب كلّ ما هو محليّ، حيث استشعر الغرب فشل مشروع الحداثة، خاصّة في جانبه الأخلاقيّ والقيم، لذلك راح يعمل على تصدير تلك الحداثة المزيفة إلينا، وهي حداثة محشوّة بانهيّار أخلاقيّ غير مسبوق، يقرّ به الغرب نفسه، وهو يدقّ ناقوس الخطر، تخوفاً من نهاية الحضارة الغربيّة، ليس بسبب التخلف العلميّ أو التكنولوجيّ، بل بسبب ذلك العداء غير المبرّر لله، حيث يقول جاني فاتيمو: «الله في العالم المعاصر قد مات، لكنّ أمور الإنسان ليست على ما يرام» (جاني فاتيمو، 2014: 43)

## الخاتمة

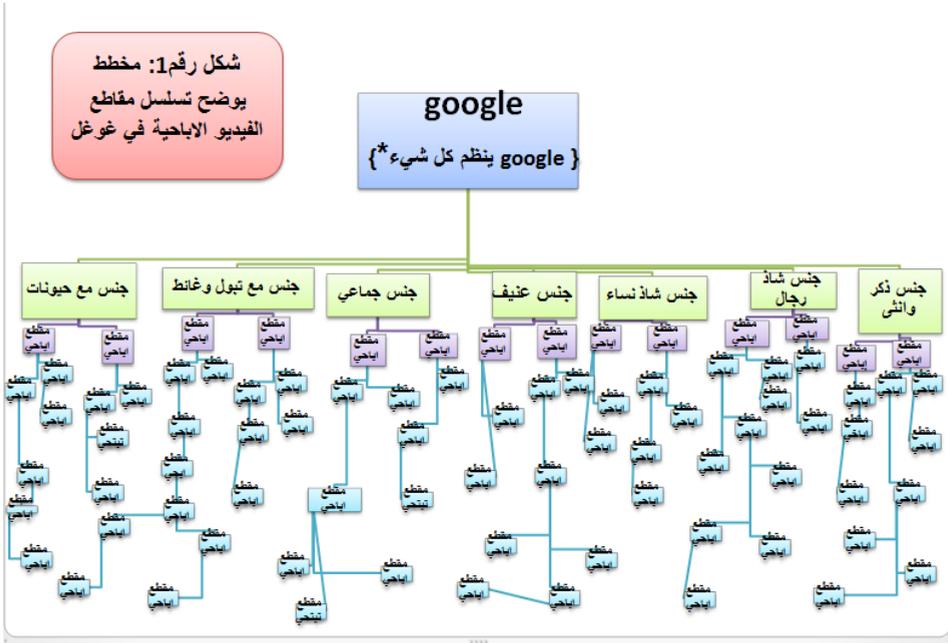
ختاماً، الجنس لم يمارس من أجل التناسل فقط، وإنما من أجل النموّ الروحيّ في الإنسان (كيال باسمه، 1983: 35) أي تحقيق الراحة النفسيّة لديه، عكس ما تدعو إليه الممارسة الجنسيّة لدى الحيوان، الذي يسعى من أجل التناسل والتكاثر فقط، غير أنّه يجب أن يمارس بالنمط الطبيعيّ، في علاقة حميميّة بين ذكر وأنثى، بعيداً من الممارسات الشاذّة وغير المقبولة، دينياً وأخلاقياً واجتماعياً، وهذا تفادياً لكلّ ما يمكن أن يصيب الشّباب من اضطرابات نفسيّة وجسميّة، ممّا يؤدّي إلى ضعف في الأداء الجنسيّ، وخلل في الجانب النفسيّ والاجتماعيّ، خاصّة عندما تكون الممارسة الجنسيّة من جانب واحد، كالتفاعل مع المرثيات الإباحيّة، ثمّ ممارسة العادة السريّة كمخرج وحيد للطاقة الجنسيّة، كما أنّ متابعة المرثيات الإباحيّة يتحوّل مع مرور الوقت إلى هوس بها، ونوع من الإدمان على متابعتها، بل الغوص فيها مع استحالة الإقلاع عنها، حيث تتحوّل المادّة الجنسيّة إلى شبه عقار جنسيّ يعتمد على مسألة الجرعة، والبحث عن كلّ ما هو غريب أو قذر، المهمّ فيه تحقيق اللذّة والوصول إلى مرحلة الانتعاض، كما أنّ تبعات الإدمان على الجنس المرثيّ خطيرة على الصّحة البدنيّة، والنفسيّة وحتىّ العلاقات الاجتماعيّة، ومثل هذه الممارسات التي كنّا نعتقد أنّها هامشيّة، لكنّ الواقع أو المسكوت عنه، يخبرنا أنّها مركزيّة، ومستفحلة بطريقة مخيفة، وهناك الكثير من التعقيم حولها، حيث يصرّ المجتمع على طهارته، وهو يعلم أنّه غارق في المدنس بطريقة جدّ مخيفة وجدّ مقلقة.

قائمة المراجع:

1. إبراهيم الحيدري، (2003)، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، الطبعة الأولى، لبنان، دار الساقى.
2. إبراهيم محمود، (بدون سنة)، الشبق المحرّم أنطولوجيا النصوص الممنوعة، بدون طبعة، لبنان، مكتبة عسكر.
3. إدموند إيمري وآخرون، (2000)، الاتصال الجماهيري، ترجمة إبراهيم سلامة، بدون طبعة، مصر، المشروع القومي للترجمة.
4. إدوار ويستمارك، (2001)، موسوعة تاريخ الزواج: دراسة انتروبولوجية، تر: مصباح الصمد وآخرون، ط1، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
5. اسكندر أنطوان أوكبيان، (2001)، علاج الإدمان على الإباحية (وسائل الشفاء)، المغرب الأقصى شعاع للنشر والعلوم.
6. أمل كاظم حمد، (2011)، إدمان الأطفال والمراهقين على الإنترنت وعلاقته بالانحراف (107 - 128) مجلة العلوم النفسية، مركز البحوث النفسية والتربوية، العراق، العدد 19.
7. بسمه حسين عبد يونس، (2016)، إدمان شبكات التواصل الاجتماعي وعلاقتها بالاضطرابات النفسية لدى طلبة الجامعة في محافظة غزة، رسالة ماجستير في علم النفس، غزة، جامعة الأزهر.
8. بلغازي محمد، وكرايس الجبالي، (2017)، النوازل الجنسية كتدفق تواصلية وحتمية البحث عن الفتوى الدينية -علاقة المستفتي بالمفتي في المجتمع الجزائري-، يوم دراسي، كراسك وهران، جامعة وهران 02، غير منشورة.
9. بول فيشاور، (1991)، الجنس في العالم القديم، ترجمة فائق دحدوح، الطبعة الأولى، العراق، دار نينوى.
01. جاني فاتيمو، (2014)، نهاية الحداثة، ترجمة نجم بوفاضل، الطبعة الأولى، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.
11. جوديث بتلر، (2014)، الذات تصف نفسها، ترجمة فلاح رحيم، لبنان، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.
12. جيل لوبوفسكي وجان سيرو، (2012)، شاشة العالم ثقافة وسائل الإعلام والسينما في عصر الحداثة الفائقة، ترجمة راوية صادق، بدون طبعة، المركز القومي للترجمة.
13. دفيد لوبورتون، (2014)، سوسولوجيا الجسد، ترجمة عياد أبلال وإدريس المحمدي، الطبعة الأولى، مصر، روافد للنشر والتوزيع.
41. روجر روزنبلات، (2011)، ثقافة الاستهلاك والسعي وراء السعادة، ترجمة ليلي عبد الرزاق، الطبعة الأولى، مصر، المركز القومي للترجمة.
15. زمام ربيع وكرايس الجبالي، (نوفمبر 2017)، إدمان المواقع الإباحية لدى المراهقين ودور التكنولوجيا التواصلية في انتشار الظاهرة - دراسة ميدانية - (07 - 25)، مجلة الرواق، المركز الجامعي غليزان، العدد الثامن.
61. زيجمونت باومن، (2016)، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة سعد البزاعي وبثينة

- إبراهيم، بدون طبعة، هيئة أبو ظبي للسياسة والثقافة.
17. سلوى السيد عبد القادر، (2010)، **الأنثروبولوجيا الاقتصادية**، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
18. السيد البهي فؤاد، (1975)، **الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة**، القاهرة، دار الفكر.
19. عزيزي وفيق، (1994)، **الجنس في أدب غادة السمان**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الطليعة.
20. غاري ويلسون، (2014)، **دماغك تحت تأثير الإباحية؛ أضرار المرئيات الجنسية على الإنترنت في ضوء علم الإدمان الحديث**، تر: مي بدر، المملكة المتحدة، كومون ويلث للطباعة والنشر.
21. فالنتيا غراسي، (2018)، **مدخل إلى علم اجتماع المخيال نحو فهم الحياة اليومية**، ترجمة محمد عبد النور وسعود المولى، الطبعة الأولى، لبنان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
22. ألفة يوسف، (2014)، **وليس الذكر كالأنثى في الهوية الجنسية**، الطبعة الأولى، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان.
32. كرايس الجبالي وعباس الزهرة، (2020)، **الجسد والمراهقة - كشوفات جغرافية وصدّات نفسية - دراسة في التغيرات الفيزيولوجية لدى المراهقين**، يوم دراسي حول الجسد، جامعة وهران 2، غير منشورة.
24. كيال باسمة، (1983)، **سيكولوجية المرأة**، بيروت، مؤسسة عزّ الدين للطباعة والنشر.
25. كيفن سكينر، (2010)، **علاج الإدمان على الإباحية**، تر: اسكندر أنطون أكوبيان، ط1، سوريا، شعاع للنشر والعلوم.
26. مالك شبل، (2010)، **الجنس والحريم روح السراري السلوكيات الجنسية المهمّشة في المغرب الكبير**، ترجمة عبد الله زارو، دار إفريقيا الشرق.
27. محمد إبراهيم سرتي، (2008)، **الأنثى المقدّسة وصراع الحضارات المرأة والتاريخ منذ البدايات**، الطبعة الأولى، دار الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات المطبعية.
28. مريم جروسمان، (2011)، **الإباحية ليست حلا**، ترجمة: وائل العلاوي، الطبعة الأولى، مصر، منشورات سطور الجديدة.
29. ميريام جروسمان، (2011)، **فرض الإيديولوجيا الإباحية: أجيال في خطر**، تر: وائل الهلاوي، ط 1، القاهرة، سطور جديدة للنشر.
03. هشام شرابي، (1984)، **مقدمات في دراسة المجتمع العربي**، الطبعة الثالثة، لبنان، دار المتحدة للنشر.
31. يورغن هابرماس، (2010)، **إبتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة**، ترجمة عمر مهيبيل، الطبعة الأولى، الجزائر، منشورات الاختلاف.

الملحق رقم 01:



\* - محمد علي فرح صناعة الواقع وضبط المجتمع أفكار حول السلطة والجمهور والوعي والواقع، مطابع البائات الدولية لبنان ، ط 1، 2014

## الملاحق:

الملحق رقم 01: جدول يمثل عينة الدراسة وخصائص المسحوتين						
الرقم	الجنس	السن	المستوى الدراسي	النشاط المهني	الحالة الاجتماعية	مدة المشاهدة بالسنوات (الإيمان)
01	ذكر	26	جامعي	مطال	أعرب	13
02	ذكر	23	جامعي	طالب	أعرب	09
03	ذكر	31	جامعي	طالب	أعرب	17
04	ذكر	34	جامعي	موظف	مطلق	15
05	ذكر	31	جامعي	مطال	أعرب	12
06	ذكر	36	جامعي	طالب	أعرب	15
07	ذكر	38	جامعي	موظف	أعرب	11
08	ذكر	40	جامعي	موظف	أعرب	20
09	ذكر	32	جامعي	مطال	أعرب	12
10	أنثى	28	جامعي	موظفة	عرباء	12
11	ذكر	23	جامعي	طالب	أعرب	11
12	أنثى	27	جامعي	طالبة	مطلقة	08
13	ذكر	29	جامعي	موظف	أعرب	13

## ملحق رقم 02: دليل المقابلة

- البيانات الشخصية: السن، المستوى التعليمي، النشاط المهني، الحالة الاجتماعية.
- أتذكر أول استملاء حدث لك؟ ماذا كان سببه؟
- ماذا تعرف عن العادة السرية، كيف ومتى تمارسها؟
- ما نوع المحتوى الإباحي الذي شاهدته أول مرة؟ ماذا شعرت !
- عدد لي أنواع المرئيات الإباحية التي تشاهدها. ( صور وصور متحركة، فيديوهات حقيقية، فيديوهات مخترقة، تسجيلات صوتية ) .
- هل تشاهد المقاطع الشاذة او المنطرفة؟ ( جنس جماعي، جنس عن طريق التعذيب، جنس مع حيوانات ) . متى بدأت تبحث على مشاهدة هذه المقاطع؟
- ما هو أكثر وقت تحب تصفح المواقع الإباحية وفي أي مكان؟
- ما هي المدة التي تقضيها في المشاهدة؟
- هل ترى أن مدة المشاهدة قد تضاعفت عما كانت عليه قبلاً؟ كيف ذلك؟
- أتحس أنك مدمن على المشاهدة المرئيات الإباحية؟
- هل ظهرت لديك بعض الاضطرابات؟

عندما

رانية مرعي

عندما كنتُ ملاكًا  
كنتُ أحملُ باكرًا ندى القبلات  
لأكون أول الواصلين  
إلى قلب النور ...

كنتُ أفركُ عيون الليل  
وأطبع على جبين الأمل  
قبلة الحياة  
ليطول عمرُ الفرح ...

والحبُّ كنتُ أصليهِ  
أرويه على مسامع الوقت  
أطربُ به لهفة العائدين  
من مجاهل الزّمن ...

عندما كنتُ ملاكًا  
مرآتي كانت وردة  
تهديني كلَّ عشق الربيع  
وتخصّبُ نبضي بالعطر ...  
ووسادتي كانت محمّلةً بالأسرار  
أتأنّق لأحلامي  
أهديها عبق أنوثتي  
فتهديني طيفك ...

وكلمًا أرقتني الحنين  
كنتُ أودّع الحقيقة  
أتكوّرُ في رحم القيامة  
لأولد امرأةً عاشقة ...

التهمةُ أني عربيّه  
عالية عيسى/ اليمن

اصنع من عيني سيوفًا  
وفؤوسًا  
كي تُحدث في الأرضِ قضيةً  
لا أحلم في خمرٍ وكوؤس  
وشموعٍ وليالٍ غجريه  
اغمض عينك  
لا تتفحص جسدي  
فوراء الفاتنة السمراء  
يختبئُ غضبُ الجنيةِ  
إني التفُّ كمشنقةٍ  
إن كُئلت بقيدي  
ووندتُ بحبلِ الحريه  
أنا امرأةٌ من صبرٍ  
من فقرٍ، من شعرٍ  
وجذوري من رملٍ يمنيّه  
حملتُ عبء الحربِ  
على كتفي، وعبء الأرضِ  
وغدوتُ كنوزًا منسيّه  
وأنا في الحبِ كأغنيةٍ  
كزهورِ التوتِ البريه  
لكني أشعلت النار  
على وجهي  
وبُليتُ بسوءِ الدرّيه  
وطني تغتالُ كأوردتي  
والتهمةُ أني عربيّه

## أقلام واعدة

### كيف لك

#### بتول حمادة<sup>(1)</sup>

أن تسكنني  
فتعيدني إلى صغري  
إلى صغرنا، إلى ماضينا  
لم أتوه في عينيك كلما أراك؟  
وبعدها لا أعرف الطريق  
إلى نفسي

...

كيف لك  
أن تشعل ناراً تاهت وقودها  
وتلاشى دخانها  
أليست عشر سنين؟  
ألم تكف؟  
لتخرج مني  
لا، لا أظنّها،  
لكن إلى متى يبقى لقاء عينيك لهيباً  
يحرقني، ويحييني بعد موتي؟  
ظننت أنني اكتفيت  
بعينين جاوراني  
لكن كلما صادفت ذوبك

(1) طالبة في قسم الماجستير الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم والإنسانية قسم اللغة العربية.

أفقد يقيني

وظنّي،

إلى متى المايل بينكما

فلا بد للقدر أن يسلك دربه نحوي

وأكمل طريقي من دون

من دون عينيك

أو عينيه

لكن لا بد من سكينه

...

أن تقودني خلف ورقة وقلم

أكتب بها سطوراً

اكتنزت عشقاً تأنّها

ماضياً

لم يخرج في حاضري أبداً

ولولا الورقة والقلم

لم يكن يوماً ليخرج

كيف لك ؟

## أقلام واعدة

### الحلاج في بلادي

نورهان غدار<sup>(1)</sup>

هرولتُ مسرعةً قبل أن تتفجر دموع السحاب المدهم، احتميتُ تحت قناطر سوق صيدا القديم أتجول بين حوانيته أتصفح وجوه المارة. جُلْتُ بنظري في المكان كأنني أتوغل فيه للمرة الأولى، ما عدتُ أعرف ملامح أبناء الوطن، واجتاحني شعور عميق بالغرابة.

هذا المكان المألوف المطبوع في ذاكرتي ممزوجًا بأصوات الباعة وضحكات الأطفال، كنت أهرب إليه لأتذوق السعادة وأتجرع التراث الثقافي، أضحي اليوم ساكنًا أشبه بالرّسوم الدّارسة التي هجرتها القبائل، فأمعنت الرّيح والصّواري بتجسيد صورة كئيبة لها، عكستها مرآة الزمن في عيون النّاس فوجدت صداها على تقاسيمهم. وعيون النّاس حكاية أخرى حكاية انكسار ومهانة، بل بلور متجمّد من الدّموع...

منذ بدأت أصابع السّاسة القتلة تتلاعب بسعر صرف الليرة أضحي للأسى والبؤس في بلادي تجليات صارخة أكثر عمقًا تكشف عن أزمة فكرية ثقافية دينية سياسية بمقاييس أسطورية... أسرع نحو حانوت «منير البساط»، اشتريت «كيلو حلاوة بالشوكولا»، فنقدته ثمنه مئة ألف ليرة لبنانية، يا للسّخرية تضاعف سعره أكثر من عشرة أضعاف. هذا واقعنا اليوم: القيم الشّرائية ترتفع والقيم الإنسانية إلى إضمحلالٍ و زوال. كلّ شيء زاد سعره عشرات بل ومئات الأضعاف، إلّا أرواح المواطنين أصبحت تباع بثمنٍ بخس.

كنت على وشك المغادرة لأنّي لا أطيق التّجول في سوق يرتاده أموات يتنفسون، لولا أن رأيتُ شيخًا جليلاً مشرق الجبين حسن الهيئة يتوكأ على عصا خشبية متينة، وقد خلع زيّه الأبيض عليه خفراً ووقاراً وهيبة. تحلّق حوله الناس ينظرون في أمره فما كلّمهم. كان يبدو منقطعاً إلى دعاءٍ أو متعلّقاً بأسباب العشق. اخترقت الجمع ودنوت منه:

- السلام عليك يا شيخ، حيّرت بحالك القوم فهلاً أخبرتنا متكرّماً من تكون.
- ماذا طوى قلبك حتى فاض على سيمالك؟
- كيف قرأت هذا؟

(1) طالبة في الجامعة اللبنانية / كلية الآداب والعلوم الإنسانية الفرع الخامس قسم اللغة العربية.

- ما من جرحٍ روحيّ يخفى على الحسين بن منصور الحلاج يا ابنتي.  
لما سمع الجمع دعواه أدلى كلّ بدلوه، فمنهم من اتّهمه بالجنون والعتة، ومنهم من  
عاد ليستحضر الزندقة والكفر، ومنهم ضحكٍ بعهزٍ طالباً منه التّوجه إلى مستشفى  
الأمراض النفسيّة، فانفضّ الجمع. ثم تحرّك الحلاج باتجاه زاوية بعيدة فتبعته وقلت:  
- يا مولانا، ما لك ولهذا الزمان؟ ألم تصلب؟ ألم تقتل؟ ألم تظلم؟ لماذا عدت؟

- عدت لأثبت قلوب المقهورين والفقراء والمستضعفين بقوة النور الإلهيّ. روحي  
لن تطمئن والاستبداد يعتصر الأرواح الطاهرة. فأنا قُتلت لكنّي ما ارتحت... دموع  
الأبرياء تعذبني!

- لقد نهوك من قبل يا مولاي فما انتهيت، ولكني سأنهاك الآن فانته، فلا أحد  
يتجاسر على تطبيق ما تقول، لا أحد يتجرأ على التتّف والتمرد ورفض العبوديّة،  
إنهم شعب ساديّ مازوشيّ.

- إني لأعلم أنّ أحداً لن يطيق ما أقول. لكن حسبي أن أقول قول الحقّ بوجه  
السّلطان الجائر.

قالها ورفع صوته:

- يا أبناء الله، أي أحباب الله، إليّ إليّ. فتخلّق الناس حوله من جديد. وفقتُ مذهولةً  
أراقب تطوّر الأحداث وقد أعادت خيوط النور إليّ مشهد اعتقاله في مسرحيّة مأساة  
الحلاج، عندما كان يفيض بتأمّلاته وينابيع أسراره وكشفه وحكمته على الناس. قال:  
- أكرم الحقّ الإنسان بأن جعله حرّاً فلماذا تتشدون العبودية؟

فأجاب أحد الواقفين: روديكا يا شيخنا فما نحن بعبيد أفما علمت أنّ زمن الاسترقاق  
قد ولى؟

- بلى أنتم عبيد. وما العبيد؟ أليسوا أناساً مستضعفين لا يملكون من أمرهم شيئاً  
يجوعون ليشبع أسيادهم، ويموتون ليعمر زعيمهم؟! أليسوا أناساً ما ملكوا حقّ  
القول وحقّ نقد السّلطة الظّالمة المتعهرة باسم الدين والطائفة؟! أليسوا أناساً يباعون  
ويشترون بالمادّة؟! وإذا لم يكن العبد من لا يملك حريّة فكريّة ثقافيّة سياسيّة ومن  
حُرّم من أبسط حقوقه كإنسان وكمواطن فمن يكون؟ لقد تغيّر العالم وتبدّلت طرق  
الاستبداد والاستعمار، فالأنظمة الإقطاعيّة التي تحكم بعض الشعوب وأنتم منها،  
تلبس اليوم لبوس الديمقراطية والحريّة والعدالة. أنتم في قرارة أنفسكم تقرّون بذلك  
فلماذا لا تتمرّدون على هذا الواقع؟

-ويلك يا شيخ، أتريدنا أن نثور! فنخون ونطعن سادتنا وساستنا؟ وهب أننا أردنا ذلك ورغبنا به كيف نواجه قوتهم وجبروتهم؟ كيف نقاوم قسوة أمواج المحيط.

-يا بني، لا أنتم بقسوة ولا هم بأمواج المحيط، ذاك الجبروت وتلك القوة استمدوها من دعم النَّاس لهم وموافقتهم على أفعالهم فلو انفضَّ القوم من حولهم ورُفضت سياساتهم لما ملكوا الجرأة على تجويع وتعذيب الشَّعب لهذه الدرجة، فعلى الرغم من كلِّ ما فعلوا ويفعلون، تعيدون إنتاج الطبقة الحاكمة الفاسدة نفسها. إنَّهم ببساطة يستمدون القوة على تحطيمكم منكم.

-يا شيخ إنَّ نظامنا ديمقراطيّ ويحقّ لنا انتخاب من يمثلنا. ثمَّ إنه لما تضيق بنا السبيل فإننا نهاجر ونترك هذه البلاد.

-وهذه مشكلة من نوع آخر فمفهوم الديمقراطية يجب أن يحرم العبد حق الانتخاب لأنَّه سيعيد انتخاب سيِّده مهما كان ظالمًا. ثم إنك تتكلَّم عن الإغتراب والتغرُّب كأنَّ ثمنه بخس. عجبًا لمنطقكم اللامنطقيّ، الأجدر بكم إذا وجدتم من يراحمكم على بيتكم حماية البيت وليس مغاردته وتركه للمعتدين، بحجة وجود بيوت كثيرة. فما كان ملكك ليس كالذي تكتريه، وأينما ذهبت تبقى ضيفًا، ويبقى بيتك هو بيتك... هزَّ المكان هزيم الرعد، وانبثق من الجمع الغفير بعض البلطجية فجعلوا يفرقون بعضيَّهم الناس. ولما نظرت إلى السَّماء ألفت خيوط النُّور تتسلل من بين الغيوم كأنَّها تمدَّ جسرًا نورانيًا بين الأرض والسَّماء، وما كادوا يفضون الجمع حتى اختفى الحلاج. كلاً ما كانت أيدي الحاقدين لتصل إليه مجددًا. عاد إلى موطنه بلاد النُّور حيث العدل والسلام والحق.

غادرت وفي قلبي غصّة كبيرة، ليت الحلاج أخذني معه، ليتني ما كنت هنا... لكنني هنا وما دمت هنا سأفعل ما فعل الحلاج... سأقول وسأكتب فنحن من سيغير وجه الزمن، وليس العكس.

خرجت من السوق تحت وابلٍ من الأمطار، أسرعرت إلى موقف «البخور» فوجدت سيارة أجرة تقلني إلى بلدي القريبة. ركبت وانطلق بنا السائق الذي كان يشكو ارتفاع أسعار المحروقات خاصة البنزين الذي يزداد سعره أسبوعيًا.

هناك دمعت عيني فوليت وجهي إلى السماء: رباه ساعدنا وارحمنا، فإننا ما رحمنا أنفسنا، والمستبدون ما رحمونا... رباه ساعدنا وخلصنا فالحلاج يقتل فينا كلَّ يوم! كلَّ يوم!

العشقُ المُباح

منيرة الحجّار<sup>(1)</sup>

٢ - خَرَبَشَاتُ

نَبَحْتُ عَنْهُمْ بِصَمْتٍ  
في خبايا قلوبنا  
بينَ تجاعيدِ أيماننا...  
نَبَحْتُ عَنْهُمْ  
في سطورنا،  
في لحظَاتنا،  
فَلَا نَجِدُ سِوَى  
خَرَبَشَاتٍ...  
رُسِمَتْ على رِمالِ الشَّاطِئِ  
فَأَضَاعَتِ الأمْوَاجُ مَلامِحَها...  
وَتَاهَتْ أَحلامُنَا  
في دُروبِ الإنْتِظارِ.

١ - العشقُ المُباح

وَلِي مَعَ الحُرُوفِ قِصَصٌ  
تَهْمِسُ في قلبي  
فَتُرْتَبِّهُ تارَةً  
وَتُبَعِّثُهُ أَطوارًا...  
في سَكِينَتِها حُبٌّ  
وَفِي صَاحِبِها انْبِعاثٌ...  
هِيَ ذلِكَ العِشْقُ المُباحِ  
الَّذِي دَخَلَ قَلْبِي دونِ اسْتِئْذانٍ...  
أُحَدِّثُكُمْ عن أَلْفِ  
تَمَدَّدَ مَعَ الأَهاتِ،  
وَباءِ كَحَبَّاتِ البَرَدِ فَوْقَ الجَمراتِ،  
وَجِيمِ رَفَعَنِي إلى أَعلى الجِنانِ،  
وَحُرُوفِ أَبْصَرْتُ فيها حُبَّ القُرْآنِ...  
عَشَفَها  
وَلِي مَعها قِصَصٌ  
لا تَنْتَهي حَتَّى المَماتِ!

(1) طالبة في قسم الماستر الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم والإنسانية قسم اللغة العربية.

## قرأت في العدد الماضي

## رانية مرعي

تُعدُّ مجلة المنافذ الثقافية منصّة معرفيّة هامّة في هذا الزمن لا سيّما أنّها ما زالت تحافظُ على الإرث الورقي الذي يُعدُّ برأيي الأكثر ثباتًا، إذ لا شيء يُضاهي كلمة محفوظةً بين دفتي كتاب .

أبدأ بالكلام المهمّ والجوهريّ الذي كتبه الأستاذ عمر شبلي عن المثقف المنافق الذي يُسهّم في ضرب القيم المعرفيّة والأخلاقيّة للمجتمع، وهذا ما نراه حولنا ! فالخلل بات شرخًا يُهدّد بإسقاط هيبة الكلمة التي صارت ألعوبةً في أقلام مشبوهة عاثت فسادًا بالمعاني والحقائق في مؤامرة جليّة. عمر شبلي يؤكد حقّ قبول الاختلاف في الرأى مهما علا هذا الخلاف، ولكنه يرفض الكتابة التي تحمل خللاً أخلاقيًا.

وأنتقلُ إلى موضوع آخر يجوز أن نصفه بالطارئ والدقيق، ألا وهو التّعليم عن بعد الذي شغلّ مساحات البحث والنقاش في إمكانية تطبيقه في بلد يفقدُ كلّ مقومات الدّعم اللّوجستية لتحقيق المبتغى .

بحثنان يسألان الصّوء على إيجابيات وسلبيّات الواقع الجديد، وسوف يجدُ القارئ شرحًا مسهبًا لما كابده كلّ من المعلّم والطالب في هذا التحوّل الذي لم يحقّق المطلوب في بلدٍ يفتقرُ إلى مقومات الاستمراريّة .

فالبحثان ثبّتا المشكلة القائمة، لأنّها تتفاقم دونما قدرة على مجاراة الهدف وهو تعويض التّعليم الحضوريّ الذي تأثّر كثيرًا بسبب جائحة كورونا .

وحبّدًا لو تطرّقَ بحثٌ ثالثٌ إلى الحلول التي يجب أن تكون سريعةً ومدروسةً بعد ظهور كلّ هذه الثّغرات المُشار إليها ، فالتّعليم عن بعد قد يطول مداه وما زالت الدّورات الجديّة للأساتذة ومعالجة أمر الانترنت خارج جدول الأعمال وإمكانية السيطرة عليها .

كما أنّني على تشجيع المجلّة للأقلام الواعدة التي كثيرًا ما تُظلم في فوضى النشر العشوائي من جهات غير مرخّصة وغير مؤهلة، فيذهب الصّالح مع الطّالح وهذا أمر

تداركته المنافذ لإعطاء الموهوبين فرصة حقيقية لإثبات جدارتهم .  
وما لم أقرأه وأرجو تخصيص المساحة اللازمة له في الأعداد القادمة ، المواضيع  
الفنية التي تُعدُّ جزءاً أساسياً في ثقافة الفرد والمجتمع .  
فقد أصابَ الفن أيضاً خللٌ أخلاقيّ في الكلمة واللحن والأداء . لذا وجبَ علينا  
التصويب عبر نشر مواضيع فنية متنوّعة فنضع القارئ أمام مسؤولياته .  
فلنعرفه على أهميّة الرّسم وسحر الريشة الناطقة بالألوان، واللحن الذي عزفته  
الأنامل المثقفة، والأغنية التي تحمل رسالةً وقضيّةً، لعلنا نتخطّى العبث بالعقول  
ونصوّب المسلّمات الأخلاقية المستباحة .  
وختاماً، تحية للجهود المبذولة للارتقاء بالمجتمع .

## قصص وجيزة ق ق ج أ.د. درية فرحات

### • أهواء

جثم على الأرض، يبتغي السجود، فهم بخشوع لخالقه، ناشدًا التآلف والرضا.  
لكن...  
من خلفه وقف اثنان يرفعان كتاب الله بيد، واليد الأخرى تمتد مصافحة أيدي الفتنة.

### • أرجوحة

بوابة قديمة متأكلة، الصدا يُغطي قضبانها...  
منتصبة في مكان يسوده الغبار...  
تتأرجح ذهابًا وإيابًا...  
تعلق بقضبانها طفل بانس، يحلم بأرجوحة الحياة.

### • امتحان

حبيبان معًا  
اجتمعا في قاعة امتحان واحدة  
غرد حبرها على القرطاس معبرًا ومحللاً.  
شرد خياله في الأفق يبحث عن بارقة أمل، نشد برّ الأمان من أنثاه الحبيبة.  
فكان المنع تحت طائلة عاقبة الطرد.  
خرجا من قاعة الامتحان، تفرقت بهما السبل، وغاب الحبّ عن أفق حياتهما.

### • حياة

تكدّست أكياس الطحين في الزاوية، امتلأت الساحة بها...  
فتسرّبت ثلاثة أكياس كبار هاربة من مصيرها...  
تصارعت في الطريق، نزفت طحينًا...  
فتحت عينيها، وجدت أختيها بقربها.

### • قراءة

جلست تقرأ حكايتها، تنتقل بين السطور تقرأ فرحًا... تعقبها غصة...  
تتذكر غضبًا... تلمس شعرها الأبيض...  
ينبها صوت،  
جدتي متى تعلّمت القراءة؟

تبتسم

الحياة كتاب مفتوح.

• مقامات

ترنم بصوته، ونغم بأوتار عوده على الصبا والنَّهاوند والبيات والحجاز...  
فصدحت آهائه... متيمًا القلوب العاشقة.  
أما هو فكان يبحث عن ذاته، في ترجيع صوت يختنق في صدره بحثًا عن مقام العجم.

• تسبيح

اتكأ على تكايته المزركشة في دكانه الكبير مزهواً بمسابيحه ذات الأحجار الكريمة النفيسة.  
ينوع في اختيار السُّبحة التي سيناجي بها ربّه.  
لكنّه ظل يتساءل ما سرّ خشوع بائع العربة الصّغيرة عند رؤيته في تلك الليلة المظلمة.

• قيمة

نظرت إلى الأواني الذهبية، تتأكد من عددها ووزنها.  
وتتذكر كلّ مناسبة لها.  
تلقت يميناً فترى ورقة طلاقها التي حصلت عليها مع الأواني بعد افلاس زوجها.  
مرّ في خاطرها قيمة ما أمامها.

• دموع

انسكبت دموعها بغزارة تلهب وجهها، تثير الرّأفة بعين ناظرها.  
وبين الرّمشة والأخرى تبحث عن درب يقودها إلى الوسواس الذي استوطن قلب شريكها.  
وما إن تصل إلى مرادها...

أبت ضاحكة وفي عينيها دموع التماسيح.

• معادلة

قضت معظم نهاراتها جالسة على مقعدها الهزاز في شرفتها، تنظر إلى أطفال يلعبون في البستان القريب، تتألم حرمانها نعمتهم.  
حانت منها نظرة إلى شجيرات حقلها، فاغتبطت أمومتها.

# **L'impact de l'histoire collective sur la psychologie individuelle dans l'ÂGE D'OR de Diane Mazloum.**

**Michelle Georges Saab.**

## **Introduction**

« Mosaïque de religions et de communautés, le Liban est une miniature du Moyen Orient. L'emplacement de ce pays en a fait un brassage de civilisations et de cultures. Longtemps déchirée par la guerre civile, cette jeune et faible démocratie, qui compte dix-huit communautés, demeure un terrain où s'affrontent de nombreux régionaux aux intérêts souvent contradictoires »<sup>1</sup>. Cette géopolitique du Liban et les violences qu'elle a entraînées ont un impact majeur sur la psychologie des individus, leurs réactions et les relations sociales qui se nouent dans leur vie.

Analyser L'ÂGE D'OR, le roman de Diane Mazloum qui nous emporte au cœur de la poudrière du Moyen Orient, nécessite une lecture de l'histoire du pays des cèdres qui a su forger une identité malgré les luttes et les difficultés rencontrées. Ce sont les hostilités israélo-égyptiennes qui ouvrent les parenthèses d'une situation instable servant de toile de fond aux événements du roman. En effet, ce sont les attitudes des personnages, les principaux en particulier, qui servent de points de repères dans l'analyse et qui aident à l'évolution de l'action. A chaque événement historique, politique, social répondent des réactions multiples qui opposent les communautés, les citoyens et les membres de la famille même. Quelles seraient les diversités personnelles des réactions aux événements ? Que pourraient-être les stratégies d'adaptation des Libanais du roman vivant des situations difficiles ? Comment les personnages de Mazloum, gèrent leurs comportements pour améliorer leur bien-être psychologique ? A toutes ces interrogations répond cette étude fondée sur les approches géopolitique, psychologique et socio-psychologique qui livrent les clés permettant de mieux comprendre les raisons socio-politiques des réactions individuelles et les capacités propres à chaque être humain « lui permettant de survivre en s'adaptant aux conditions d'existence »<sup>2</sup>.

## **Diversité personnelle des réactions anxieuses.**

« La violence, sous toutes ses formes, entraîne certainement des traumatismes, des dommages psychologiques ou des problèmes d'adaptation »<sup>3</sup> et La variabilité de la réaction à ces effets s'explique en grande partie par « la constitution émotive des sujets en cause »<sup>4</sup>.

En 1967, le 6 juin, lorsque la radio annonce « que le Liban a descendu un avion : un avion marqué de l'étoile de David, l'assemblée bondit et applaudit avec frénésie »<sup>5</sup>. Tout le monde exhibe sa joie espérant que cette victoire libanaise stimule les pays arabes à s'unir pour « reprendre d'un coup la terre et les droits des Palestiniens »<sup>6</sup>. Cet acte est pour Ali Hassan, le jeune palestinien, personnage principal du roman, « un retournement inespéré »<sup>7</sup>. Malgré ses vingt-cinq ans, son jugement s'appuie sur ses connaissances fournies aussi bien par son expérience que par « les systèmes de croyances et idéologies partagées socialement »<sup>8</sup>. C'est pourquoi, il a sa façon particulière de voir les choses et de les interpréter, ce qui aggrave son anxiété et sa colère. Ses paroles et ses affirmations visent « de limiter les expressions émotionnelles chez les autres, voire de limiter leur ressenti et sa diversité »<sup>9</sup> vu que le meilleur pour lui est d'attendre prudemment, d'analyser objectivement ces « informations contradictoires divulguées par la radio du Caire et Radio-Israël »<sup>10</sup>. Ali Hassan contrôle son émotion pour ne pas réagir sous l'emprise de son anxiété ce qui « condui(r)ait à des comportements inappropriés »<sup>11</sup> dans ces conditions critiques.

Dans la suite du roman, Les informations divulguées par la radio du Caire annoncent « un désastre subi la veille par l'aviation des pays arabes »<sup>12</sup>, ce qui affirme les craintes d'Ali Hassan et confirme ce qu'il savait. Bien que le bulletin suivant ajoute que « la Jordanie déclare officiellement la guerre à Israël »<sup>13</sup>, il conseille de raisonner, adoptant des stratégies d'ajustement pour faire face sagement aux événements. Les cris de joie des citoyens, le bruit fracassant de leurs klaxons le dérangent. Cette joie, illogique pour lui, fait perdre son esprit et la destruction des avions arabes lui « était un désastre »<sup>14</sup>, rien à réjouir donc. De plus, il savait déjà qu'il était « irréaliste de compt(er) sur la direction des régimes arabes pour libérer la Palestine »<sup>15</sup>, aussitôt sa tête tourne, « ses tempes battent tellement fort qu'il en a mal au cœur »<sup>16</sup>. A ceux qui festoient, il demande de se calmer et de ne pas se laisser gagner par l'anarchie. Les événements traumatiques génèrent chez lui des émotions négatives et du stress, à force d'être cumulés, par conséquent, ce jeune chef souffre parce qu'il lui est impossible d'agir dessus ou de contrôler l'excitation des autres, et pour évacuer sa colère il « fait sauter le quatrième bouton de sa chemise [...] avant de glisser une nouvelle cigarette dans sa bouche »<sup>17</sup>.

Evidemment, le désastre subi la veille par l'aviation des pays arabes touche Ali Hassan au fond du cœur. Il se sent tendu devant cette impuissance arabe face à l'ennemi sioniste et la réaction des autres le pousse à éviter leur rencontre parce qu'ils risquent de le mettre en colère à force d'être ravis. Ce jeune chef déploie, en vain, des efforts importants pour convaincre ses compatriotes de redevenir rationnels, « nous devons raisonner »<sup>18</sup>, leur dit-il, mais le peuple continue à acclamer hautement les chefs arabes :

«Vive Nasser ! Vive Nasser ! »<sup>19</sup>. Pour lui, mieux vaut être plus proche de la réalité en considérant l'influence des informations sur leurs comportements. Ali Hassan est attentif, conscient de la difficulté de la situation, de la lutte contre un ennemi acharné et cela lui « perme(t) de transformer certaines certitudes apparentes en doutes plus cléments »<sup>20</sup>. Il analyse finement la situation qu'il perçoit avec réflexion, mais ne peut s'interdire de s'émouvoir et de se sentir tendu. Coincé entre la rancune d'un ennemi invincible et la volonté de ne pas tout avouer, il fut gagné d'un malaise dont il cherche la fuite, la libération, « J'ai besoin de retrouver mes esprits »<sup>21</sup> avoue-t-il à son amie Mona. Mais il s'efforce à ne pas laisser l'impact de ses émotions modifier ses attitudes et ses comportements.

Ces années jalonnées par des épisodes violents le stressent, mais il est convaincu que « devant un événement incontrôlable, nous ne pouvons rien faire sur l'événement en pratiquant l'évitement ou la réévaluation positive »<sup>22</sup>. De toute façon, ces bouleversements ne doivent pas interrompre son action, mais l'organiser autrement et pour faire face centrée sur l'affaire, sans déclarer ses intentions en tant que leader engagé, « [il] cherche des solutions pour résoudre le problème, [...] tente de mettre en place des plans d'action »<sup>23</sup> : reprendre le combat de son père et se battre pour sa terre. Même le sérieux et l'ennui des bureaux de l'Organisation de libération de la Palestine, où rien ne se passe, le met hors de lui : changer de situation, de lieu permettrait d'agir autrement. Le retraitement affaiblirait l'intensité de son émotion parce que « des gouttes de sueur lui glissent dans le dos, une onde brûlante lui remonte l'échine jusqu'au sommet du crâne »<sup>24</sup>.

L'attitude joyeuse des autres ne cesse de l'agacer et au lieu de crier sa colère, il les laisse et dirige volontairement son attention à régler son émotion. Au groupe qui l'entoure, Ali Hassan n'exprime pas ses émotions de peur d'être incompris ou considéré comme faible. D'ailleurs, son statut ne lui permet pas de montrer son angoisse ou d'avouer tout ce qu'il savait. Mais, à sa femme, il parle de ce qu'il ressent, de ce qu'il décide, pour ne pas rester isolé face à son problème, recherchant sa compréhension et son soutien, lui expliquant ses préoccupations : se révéler à sa femme le rend attachant auprès d'elle et développe l'intimité avec elle. Il lui avoue que rien n'arrêtera son action, qu'« [il] change de vie »<sup>25</sup>. Et afin de « diminuer la tension émotionnelle »<sup>26</sup> et de modifier la situation, il décide de s'éloigner, d'aller vers Amman « au centre de recrutement Fatah[...] (et d') embrasse(r) la cause »<sup>27</sup>.

Pour leur part, les membres de l'armée libanaise ne peuvent se décider sur le sort des pilotes israéliens, conducteurs de l'avion descendu : « si on ne les rend pas tout de suite, Israël le prendra comme un acte de guerre, si on les relâche, ce sera vu comme une trahison à l'égard des Arabes »<sup>28</sup>.

Le lieutenant-colonel Antoun Tarazi est convaincu de garder les distances avec l'ennemi : mieux vaut éviter le pire ! Bien qu'il soit enthousiasmé pour l'armée libanaise, il connaît que, dans une telle situation « la sagesse tient dans la réflexion sans émotion »<sup>29</sup>. Au fond, il est sûr que le Liban n'a pas les capacités de résistance et cette lutte avec Israël lui coûtera cher en âmes et en argent et se soldera par un grave discrédit dans l'opinion arabe, dont il fait part. Ce contrôle de l'émotion tient à la volonté d'éviter l'échec et la perte, et « cette distance qu'il parvient à conserver en toutes circonstances lui a valu la confiance de ses supérieurs et une nouvelle promotion »<sup>30</sup>, bref une accession à quelque grandeur.

En acte de vengeance, les israéliens saccagent les avions libanais. Par conséquent, « les appareils attaqués sont irrécupérables, les pertes évaluées à plus de quarante millions de dollars »<sup>31</sup>. Magda, l'épouse du colonel Tarazi, juge les événements contrairement à lui. Elle considère l'attaque qui « vis(e) le cœur, le poumon, l'organe premier d'un pays touristique »<sup>32</sup> comme illogique, injuste, voire illégale. Selon elle, l'acte annonce « la fin [...] du Liban »<sup>33</sup> qui glisse impuissamment sans être soutenu par ses frères arabes. Devant sa famille, elle ne peut maîtriser sa colère parce qu'elle était anxieuse : anxieuse pour la paix de sa patrie, de sa famille et de sa communauté chrétienne. Rusinek affirme que « l'état d'humeur [des individus anxieux] les conduit à la fois à se souvenir préférentiellement d'événements plutôt négatifs et à extraire de l'ensemble des événements remémorés plus d'éléments négatifs »<sup>34</sup>. Ainsi, Magda accuse les palestiniens de fournir les prétextes aux Israéliens pour attaquer le Liban, d'avoir « vendu leurs terres »<sup>35</sup> et le FPLP (Front populaire de libération de la Palestine), d'être « une faction extrémiste »<sup>36</sup>. C'est aussi son inquiétude de perdre cet état de bien-être, par la perte de la paix et du calme, qui la « fait réagir de manière impulsive, inadaptée, et sûrement imprévisible »<sup>37</sup>. Par attachement à son bien-être, elle est focalisée sur les défauts des partis politiques qu'elle considère comme responsables de la guerre, focalisée sur toutes ces petites choses sans signification qui ont le pouvoir de la mettre en colère.

Antoun, de son côté, propose des interprétations positives, évalue objectivement la situation et ses conséquences. Selon lui, « chaque action doit être réfléchie pour ne pas aboutir à des résultats néfastes »<sup>38</sup>. A sa femme qui se laisse influencer par ses réflexes, il conseille « Ayons confiance et restons soudés »<sup>39</sup>. L'exaspération de Magda l'irrite, lui, qui contrôle ses comportements et qui refuse de se mettre hors de lui, conscient de l'inanité d'un tel acte. Sans hésiter, il déclare à sa femme, avec toute franchise, que « ce qui gêne Israël, c'est que ça fait plus de vingt ans qu'on réussit à ne pas se laisser entraîner dans une action de provocation militaire malgré notre soutien moral à la cause palestinienne »<sup>40</sup>. C'est parce qu'il sait contrôler ses émotions qu'Antoun juge avec raison les événements, les

mesures à prendre et les conséquences de chaque acte. A son fils, il raconte l'histoire de la Palestine occupée avec beaucoup d'objectivité, lui affirmant la solidarité des libanais avec les palestiniens, choisissant les mots les plus pertinents à un jeune libanais et adressant, implicitement, un message à la mère coléreuse. « Ils ont vendu leurs terres, [intervient Magda] [..]

–Ils ont été chassés, ils ont dû fuir, corrige Antoun.

–Ils auraient dû rester coûte que coûte là où ils étaient. [...]

–Pour nous, Libanais, ce sont des réfugiés.

–Des terroristes de la pire espèce, pour les Israéliens »<sup>41</sup>.

A chaque avis de Magda, Antoun oppose un argument qui soutient la cause palestinienne d'un côté et de l'autre, il cherche une paix familiale importante dans ces conditions-là. Ce chef de famille joue le rôle du sage qui « pense avant d'agir, qui ne se laisse presque pas déborder par ses sentiments »<sup>42</sup>. Fidèle à l'armée libanaise, triste pour le sort des palestiniens, Antoun demeure conscient que « ce n'est pas au sein de l'armée d'un pays à vocation pacifiste qu'on doit s'attendre à trouver de l'action. [...] Il ne se fait plus aucune illusion »<sup>43</sup>. Devant sa femme qui se laisse prendre par des accès émotionnels, il réagit avec sang-froid, quiétude, et pour mettre fin à cette discussion, maîtriser ses réactions, « il sort de la poche de son peignoir un clou à trois têtes et le glisse dans la petite paume de Micky.

–Pour ta collection, fiston. Les israéliens en ont déversé sur les routes pour empêcher l'armée d'arriver à l'aéroport la nuit passée »<sup>44</sup>.

A la violence extérieure ne manque pas une instabilité à l'intérieur qu'Antoun doit garder par sa supériorité d'esprit. De plus, cette personne pacifiste, jouissant d'une paix intérieure, cherche à répandre la quiétude dans son entourage chrétien anxieux pour son existence au Liban, en lui affirmant tout calmement qu' « on n'est pas directement menacés. Les musulmans eux-mêmes n'en voudraient pas de (ce) scénario »<sup>45</sup>.

« Notre intérêt porte donc tout particulièrement sur le rôle que joue l'émotion politique (terrorisme, guerres, tortures...) dans la vie des humains »<sup>46</sup>. En effet, les événements politiques emplissent le roman et à chacun d'eux répondent des réactions et des commentaires qui diffèrent d'un personnage à l'autre. En 1968, les palestiniens attaquent un avion à Athènes, l'endommagent et tuent un Israélien dissimulé sous le siège. Acte auquel suivent des réactions variables d'un groupe de jeunes étudiants dont l'un affirme qu' « Israël tient le Liban pour responsable [...] parce que c'est de Beyrouth que les deux Palestiniens sont partis par un vol régulier pour Athènes »<sup>47</sup>. Raison qui rend les Libanais impliqués dans l'affaire sans l'être véritablement et aura pour conséquences inéluctables des représailles sur

le Liban et les « autorités n’y pourront rien »<sup>48</sup>. Certains de l’incapacité du pays à confronter un ennemi malintentionné, ces jeunes ne savent s’il faut accuser les palestiniens, agents de l’acte, de partir de Beyrouth, ou maudire la violence d’Israël qui utilise sa force et ses menaces à l’encontre du Liban. C’est Georgina Rizk, la Miss World, qui les « défie[...] du regard »<sup>49</sup>, étant sûre que « [les palestiniens] sont sympas, [qu’ils] ont des armes [et qu’] ils pourraient nous défendre, eux »<sup>50</sup>. Elle leur fait part d’une excursion dans le sud du Liban, où elle a rencontré des combattants palestiniens qui lui ont tout appris sur leur situation. Georgina semble regretter l’attitude des pays arabes qui « n’en veulent pas, de ces pauvres réfugiés »<sup>51</sup>. Elle critique ces pays qui ne leur prodiguent pas de véritable intérêt, ne saisissent pas bien leur problème, ne se mettent pas à leur place. Elle considère le soutien arabe comme absolument verbal, sans partager les difficultés des palestiniens, ce qui les fait sentir plus seuls dans les difficultés. Au lieu de renforcer leur attachement à la cause palestinienne, « les pays arabes ne feront jamais rien pour améliorer les conditions de vie dans les camps, de peur, ajoute-t-elle, que ces camps soi-disant temporaires ne deviennent des villes permanentes »<sup>52</sup>. Georgina s’affirme en faisant valoir ce qu’elle pense, ce qu’elle connaît, par des exemples du vécu palestinien, sans blesser les autres qui ne savent « gérer ces situations émouvantes »<sup>53</sup>.

### **Les stratégies d’adaptation des personnes vivant des situations difficiles.**

Psychologiquement parlant, «[Un événement, déclencheur d’émotion, aura pour résultat d’influencer les actions d’un individu, d’influencer son état émotionnel ultérieur et ses relations avec autrui »<sup>54</sup>. Mais les libanais sont connus par leur capacité à l’adaptation et à la coexistence avec l’Autre, qu’elle que soit son identité. Au cours du roman, ils ont cherché à survivre aux événements violents, qui ébranlent périodiquement leur pays, avec patience et endurance.

En 1967, ils craignent la riposte d’Israël contre la descente de son avion par l’armée libanaise. Comme suite logique à l’incident, « à l’intérieur des maisons et des institutions, les lumières seront tamisées et les vitres des fenêtres seront peintes en bleu foncé »<sup>55</sup>. Apeurés, les citoyens mettent leurs efforts en place pour éviter le pire et les jeunes s’activent à l’unisson pour badigeonner les vitres des portes et des fenêtres qui laissent filtrer la lumière. « On dit même que l’arrière-boutique [de la pharmacie] dispose de l’infrastructure nécessaire pour opérer une appendicite et accoucher une femme dans le plus grand luxe »<sup>56</sup>. Dans cet état d’urgence, médecin, pharmacien, infirmier, boulanger, chacun accomplit sa besogne dans des limites raisonnables, afin de garantir un niveau de vie minimum à chaque

citoyen, sans distinction. Cependant, lorsque les journaux énumèrent les treize pays arabes entrés en guerre, les raids et les bombardements effectués au Liban, les chutes de tension se répètent, « les vertiges et palpitation n'en finissent pas, (et) la nuit risque d'être longue »<sup>57</sup> : une peur de l'inconnu s'empare des individus.

D'ailleurs, « Le stress, la crise, la maladie ont été et sont pour beaucoup de personnes des occasions de se dépasser et de se révéler [...] la lutte contre la mort et le danger peuvent aider à trouver le bonheur en découvrant en soi des ressources qu'on ne se connaissait pas »<sup>58</sup>. En 1968, à l'attaque du Boeing El Al à Athènes, les libanais s'attendent aux représailles de l'ennemi israélien. Mais, au lieu de plaindre leur situation, ils l'acceptent et cherchent à améliorer leurs conditions en optimistes.

Georgina Rizk, la belle du Liban, et ses amis discutent « ces frictions entre Arabes et Israéliens »<sup>59</sup>. Pour éviter l'impact négatif de l'événement sur leur humeur, ils cherchent le bonheur en organisant une excursion dont la devise est « Vivons nos clichés sans complexes »<sup>60</sup>. Cette excursion a été marquée par l'oubli du stress, la recherche de la joie et de l'authenticité « dans le rapport à autrui »<sup>61</sup>. S'adapter aux conditions de l'existence, malgré leur difficulté, collaborer avec les autres personnes pour gérer convenablement les contraintes stressantes, chercher à alléger la tension créée par les événements, sont les processus à suivre pour faire face aux changements de la vie. Autrement dit, ils ne demandent qu'à s'épanouir, qu'à contribuer à dépasser ensemble, chrétiens et musulmans, les contraintes de la situation géopolitique de leur pays. Et, « Quand l'heure du déjeuner arrive, [...] ils font halte pour pique-niquer face au plus haut sommet du Liban, à l'entrée de la forêt de cèdres »<sup>62</sup>. Leur besoin de se conformer à ces circonstances – là en réagissant avec acceptation et joie, légitime leur comportement contre les négativités imposées par la crise politique. Pour eux, « il s'agit de croître et de se développer même dans les conditions objectivement les plus difficiles »<sup>63</sup>. Pour ce faire, « ils se ruent tous [...] sur le bloc de neige [...] fixé sur le toit de l'autobus [...] courent (joyeusement) en poussant des cris [...] s'affairent autour d'une assiette de fruits [...] recherchent des bouffées de narguilé [...] et jouent au trictrac »<sup>64</sup>. De retour à Beyrouth, ces jeunes la trouvent éclairée, ses ruelles encombrées de passants motivés, comme eux, par la volonté de vivre. Brièvement, ce peuple possède la conscience de distinguer entre les comportements à adopter et ceux à négliger dans une situation donnée et qui « est mise au service de l'atteinte d'objectifs sociaux ».<sup>65</sup>

Plus tard, lorsque la guerre civile de 1975 détruit le pays, la capitale a été divisée en deux par une ligne de démarcation, les Beyrouthins se sont rassemblés dans les quartiers correspondant à leurs religions et la nuit s'est

éclairée uniquement par les obus. Alors il s'est établi « entre l'événement et les individus, [...] une constante interaction et chacun des personnages réagit en fonction de ses conditions sociales, de son expérience passée et de sa capacité à l'adaptation »<sup>66</sup>. Comme les libanais sont devenus des experts : les uns boivent jusqu'à l'ivresse, les autres croquent des calmants à pleines dents, avalent de la morphine et quelques-uns prient. D'une manière ou d'une autre, ils acceptent les changements, font face aux défis avec un savoir-être particulier.

Deux ans après, « tout [au Liban] alimente un désordre massif sur fond de corruption »<sup>67</sup>. A Beyrouth surtout, se multiplient les vols, les massacres, la contrebande, mais les libanais refusent de s'adonner au désespoir. Ils s'adaptent convenablement suite à ce qui arrive : leur seul but est de survivre en coexistant harmonieusement. Ils se conforment aux contraintes imposées par la violence, et afin de maintenir leur bonheur, « on était au cœur de la guerre, les gens sortaient pour s'enivrer, le groupe était soudé comme jamais, et tous sentaient que la ville leur appartenait »<sup>68</sup>. Pour le faire, ils modifient leur programme, les chemins à suivre et même le choix des amis. Conscients que la situation de leur pays est en perpétuel changement, ils sont toujours à l'attente d'un choc. Mais, chaque épreuve les oblige à vivre d'une façon différente qu'ils orientent vers le mieux.

« Bien entendu chez l'être humain, on constate la présence de conduites de niveaux adaptatifs très divers, qui impliquent, selon les cas, des processus plus ou moins complexes de prise de conscience, de prise de décision, de choix d'orientation »<sup>69</sup>. Pour les libanais qu'un puissant instinct de vie habite, la notion de stratégie implique l'utilisation de tâches et d'activités multiples orientées vers la résolution de leurs problèmes dans un temps plus ou moins long. Cette adaptation fait appel à des activités diverses : alcoolisme, amour, jeu, natation... C'est pourquoi, « ils continuent de visiter les plages et les lieux d'amusement détruits par la guerre »<sup>70</sup>. Le dimanche, « les mêmes baigneurs [...] se prélassent sur les rochers, les mêmes bavardages, les mêmes chicaneries [...] et les marchands ambulants continuent de proposer de leur voix criarde des épis de maïs grillés »<sup>71</sup> sans être découragés par les canots qui trônent partout. En l'occurrence, « l'avancée de la guerre n'a pas seulement entraîné la métamorphose des intérieurs, elle a aussi imposé de nouvelles habitudes »<sup>72</sup>, les libanais stérilisent l'eau du robinet par une étoffe, habitent les cages d'escalier transformés en abris, possèdent deux cartes d'identité, s'amusent même à tendre de faux-barrages pour terrifier les passants inconnus, « font circuler les clés de leurs appartements parmi leurs voisins pour que chacun puisse se protéger en cas d'alerte »<sup>73</sup>. Et lorsque la nuit de Beyrouth ne s'éclaire que par le feu, ensemble ils retrouvent le calme autour d'un verre de whisky « et les longues parties de cartes disputées à la lueur des bougies et des fusées éclairantes revêtent

une dimension particulière »<sup>74</sup>. Pour toute issue, ils s'autorisent à boire, se droguer, faire l'amour, afin d'ajouter des couleurs à leur sombre existence.

D'ailleurs l'adaptation pourrait avoir d'autres façons, celle par exemple de choisir comme conjoint une personne d'une autre religion, d'une autre culture, à qui, malgré toutes les hostilités religieuses on pourrait demander un soutien affectif sans hésiter. En effet, la coexistence des chrétiens et des musulmans au Liban se manifeste dans les échanges de la vie quotidienne, dans la coopération et l'entraide à des moments multiples, dans les tentatives pour dépasser les circonstances en paix. Quand même, quelques libanais considèrent la présence des palestiniens dans leur pays une « occupation territoriale »<sup>75</sup>, alors que d'autres voient « la diversité des communautés [...] enrichissante »<sup>76</sup> à condition de vivre harmonieusement dans un esprit de liberté intellectuelle. Georgina Rizk, pour sa part, tombe amoureuse du leader palestinien musulman, Ali Hassan. Son altruisme lui coûte cher et chaque fois qu'elle retourne à Achrafieh, « il lui faut braver la litanie de regards noirs, pleins de sous-entendus, qu'on lui lance dans la rue »<sup>77</sup>.

Pour elle, « être en relation avec une personne c'est « vivre » cette personne d'une autre façon »<sup>78</sup>. Avec lui, elle vit la différence en se conformant à ses conditions : le fait de devenir sa deuxième femme, le danger qui entoure sa vie étant recherché par le Mossad et son combat pour libérer sa terre natale. Certes, leur relation se développe dans un respect mutuel et à chaque difficulté rencontrée ils retrouvent une issue convenable. « Ce qui est au départ opposition [...] évolu[e] et attein[d] un point d'équilibre qui s'actualise par une adaptation réciproque des intentions particulières »<sup>79</sup>. Georgina, la reine de beauté, consent à épouser ce chef de guerre et Ali Hassan trouve en elle « son design [...] à la fois belle et utile »<sup>80</sup>. Cette relation présente une signification très particulière pour chaque partenaire de l'échange. L'adaptation de chacun aux conditions de l'autre, l'affrontement des obstacles rencontrés, fondent la cohérence dans cet amour. Georgina demande un soutien affectif, à cela Ali Hassan répond par un appui compréhensif et chaleureux et chacun se comporte en responsable de son choix. Rejetant les influences des cadres sociaux et culturels de cette époque-là, les deux personnages sont influencés par leurs caractères d'adaptation qui conduisent leur relation au mariage. « Cette union mixte et hautement controversée, source de violentes polémiques entre voisins, était finalement perçue comme une victoire sur la guerre. Plus que de marquer la réconciliation entre les deux parties de la population qui s'étaient déchirées, elle en consacrait l'unité et révélait avec glamour le métissage culturel et géopolitique qui caractérisait le pays »<sup>81</sup>. Donc, la poursuite du bonheur nécessite une adaptation aux changements et l'acceptation des variations renforce la relation à l'autre.

## Conclusion

En définitive, c'est la géopolitique du Liban qui détermine son destin et celui de ses habitants. Du jeu complexe des acteurs locaux et régionaux au Liban, dans un contexte dominé par le conflit israélo-palestinien, découlent une division politique interne et des actes de violence désastreux. Au bouleversement de la vie normale résultant, chaque individu répond sous l'emprise de son émotion et de ses tendances, cherchant parfois à dépasser rationnellement les événements perturbateurs. Les libanais, figurant dans le roman, se distinguent par leur capacité à survivre en s'adaptant aux conditions d'existence, les pires même. Spécialistes des astuces de se protéger, ils défient les dangers et « comme le Phénix qui renaît de ses cendres »<sup>82</sup>, ils transforment en beauté la laideur de la guerre, ébauchent des passerelles au bonheur, nouent des liens qui les soudent aux autres afin de redonner un goût à leur vie et une valeur à leur identité.

.....

**Diane Mazloun** est une auteure franco-libanaise née à Paris. Elle a écrit « Nucleus en plein cœur de Beirut City » (Ed. de la Revue Phénicienne, 2009), « Beyrouth la nuit » (Stock, 2014) et « L'ÂGE D'OR » (JC Lattès, 2018), salué par la critique et qui a obtenu le prix France-Liban 2018, et le prix Amic de l'Académie française. Son dernier roman « Une piscine dans le désert » (JC Lattès, 2020) a été sélectionné dans les prix Femina, Medis et Renaudot.

## Notes.

1. Masri Feki, Géopolitique du Liban, Constats et enjeux, Studyrama, Paris, 2011, p.11.
2. Cyril Tarquinio & Elisabeth Spitz, Psychologie de l'adaptation, Groupe de Boeck, Bruxelles, 2012, p.154.
3. <http://mobile.inspq.qc.ca-définition>.
4. Pierre Maronni, La Peur, PUF, Paris, 1982, p.15.
5. Diane Mazloum, L'ÂGE D'OR, JC Lattès, Paris, 2018, p.15.
6. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.16.
7. Ibid. p.15.
8. La Peur, op. cit.p.89.
9. Stéphane Rusinek, Les émotions. Du normal au pathologique, Dunod, France, 2020, p.82.
10. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.15.
11. Les émotions. Du normal au pathologique, op. cit. p.83.
12. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.p.15-16.
13. Ibid. p.16.
14. Ibid.p.16.
15. Ibid. p.16.
16. Ibid. p.17.
17. Ibid. p.15.
18. Ibid. p.17.
19. Ibid. p.17.
20. Stéphanie Hahusseau, Tristesse, peur, colère. Agir sur ses émotions, Odile Jacob, Paris, 2011, p.36.
21. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.17.
22. Tristesse, peur, colère. Agir sur ses émotions, op. cit. p.135.
23. Ibid. p.134.
24. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.17.
25. Ibid. p.19.
26. Tristesse, peur, colère. Agir sur ses émotions, op. cit. p.134.

27. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.18.
28. Ibid. p.22.
29. Les émotions. Du normal au pathologique, op. cit. p.11.
30. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.24.
31. Ibid. p.47.
32. Ibid. p.48.
33. Ibid. p.48.
34. Les émotions. Du normal au pathologique, op. cit. p.34.
35. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.51.
36. Ibid. p.49.
37. Les émotions. Du normal au pathologique, op. cit. p.9.
38. Ibid. p.93.
39. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.48.
40. Ibid. p.49.
41. Ibid. p.51.
42. Les émotions. Du normal au pathologique, op. cit. p.12.
43. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.23.
44. Ibid. p.51.
45. Ibid. p.30.
46. Françoise Sironi, Psychopathologie des violences collectives, Odile Jacob, Paris, 2007, p.25.
47. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.38.
48. Ibid. p.39.
49. Ibid. p.39.
50. Ibid. p.39.
51. Ibid. p.39.
52. Ibid. p.39-40.
53. Tristesse, peur, colère. Agir sur ses émotions, op. cit. p.229.
54. Les émotions. Du normal au pathologique, op. cit. p.50.
55. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.24.

56. Ibid. p.27.
57. Ibid. p.28.
58. Psychologie de l'adaptation, op. cit. p.65.
59. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.40.
60. Ibid. p.35.
61. Psychologie de l'adaptation, op. cit. p.64.
62. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.37.
63. Psychologie de l'adaptation, op. cit. p.65.
64. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.41.
65. Psychologie de l'adaptation, op. cit. p.41.
66. Les émotions. Du normal au pathologique, op. cit. p.65.
67. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.242.
68. Ibid. p.243.
69. Psychologie de l'adaptation, op. cit.147.
70. Ibid. p.146.
71. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.222.
72. Ibid. p.256.
73. Ibid. p.256–257.
74. Ibid. p.257.
75. Ibid. p.168.
76. Ibid. p.116.
77. Ibid. p.220.
78. Raymond Chappuis, La psychologie des relations humaines, PUF, Paris, 1986, p.6.
79. La psychologie des relations humaines, op. cit. p.16.
80. L'ÂGE D'OR, op. cit. p.230.
81. Ibid. p.238.
82. Ibid. p.240.

### **Bibliographie.**

- **Diane Mazloum, L'ÂGE D'OR, JC Lattès, Paris, 2018.**
- Cyril Tarquinio & Elisabeth Spitz, Psychologie de l'adaptation, Groupe de Boeck, Bruxelles, 2012.
- Françoise Sironi, Psychopathologie des violences collectives, Odile Jacob, Paris, 2007.
- Masri Feki, Géopolitique du Liban, Constats et enjeux, Studyrama, Paris, 2011.
- Pierre Maronni, La Peur, PUF, Paris, 1982.
- Raymond Chappuis, La psychologie des relations humaines, PUF, Paris, 1986.
- Stéphane Rusinek, Les émotions. Du normal au pathologique, Dunod, France, 2020.
- Stéphanie Hahusseau, Tristesse, peur, colère. Agir sur ses émotions, Odile Jacob, Paris, 2011.

## **Les voix narratives dans La Couronne du diable d'Alexandre Najjar**

### **Vraisemblance et énonciation**

**Michelle Georges Saab**

La principale caractéristique de la narration dans *La Couronne du diable*, d'Alexandre Najjar, c'est la polyphonie. Il est vrai qu'au premier abord, le prologue met le lecteur en présence d'un récit à la première personne, lui donnant ainsi l'illusion d'une autobiographie. Mais les témoignages qui suivent, racontés par des personnages différents, changent la perspective narrative. Il s'agit plutôt d'un ensemble de témoignages conçus à partir d'une expérience vraie, vécue par le globe terrestre, narrés de façon à donner au roman l'apparence de l'exactitude historique. Cette écriture prend l'histoire comme objet et dans chaque témoignage, le narrateur, aux rôles multiples, raconte son expérience personnelle, riche de détails, qui donne plus de crédibilité au récit.

Ces récits testimoniaux créent l'effet de réel, déterminent l'époque précise de l'action, le lieu d'habitation du personnage et les informations scientifiques en rapport avec la pandémie de 2020, à savoir le coronavirus. Tous les témoignages sont racontés à la première personne, voix narrative donnant l'illusion d'une parole authentique. On se demande alors si la narration peut se maintenir aussi objective qu'elle le paraît. Ce témoin narrateur ne livre-t-il pas sa perception de l'expérience vécue ? Quel message adresse l'auteur à travers ces témoignages ?

Evidemment ces témoignages servent de cadre d'interprétation au témoin sur son expérience voire une vision du monde réel. C'est ce que tenterait de montrer cette étude. Nous allons également montrer comment ces récits présentent des personnages possédant les mêmes caractéristiques fondamentales que des personnes réelles et posent des actions dans des lieux et à une époque que l'on pourrait retrouver dans la vraie vie. Mais cette narration qui se veut neutre, transgresserait-elle les lois de l'objectivité ?

### **Polyphonie des témoignages.**

Le narrateur a joué plusieurs rôles qui ont servi de pilotes à l'authenticité de son discours, principe élémentaire de cette forme romanesque. Le romancier prend soin de situer la première scène à Wuhan, ville originaire du virus, lieu identifiable par tout le monde. « Les lieux vont d'abord fonder l'ancrage réaliste ou non de l'histoire »<sup>1</sup>. Il suffit au narrateur d'être

installé à Wuhan pour que le lecteur soit tombé dans le piège de l'illusion romanesque. A chaque scène il a créé aussi un discours propre à l'action et semblable à la vérité historique. « L'effet de réel est renforcé dans le cas des paroles, puisque le langage semble subir des transformations moindres que les actions lorsqu'il est textualisé »<sup>2</sup>. Le style direct prédomine dans le roman de Najjar et sert à exprimer clairement, librement les pensées des personnages.

Lanceur d'alerte chinois opposé aux mensonges des autorités, le narrateur se trouve interrogé par le chef du département de police de Wuhan, Yang Li. Le discours de ce dernier est jalonné de termes scientifiques appropriés au mal vécu : « un virus mortel,... les résultats d'analyse communiqués par la directrice des urgences de l'hôpital Wuhan,... un virus proche du SRAS,... infections au coronavirus »<sup>3</sup>.

A ce champ lexical s'oppose celui du narrateur-docteur se défendant : « la contamination des hommes,.... les gens prennent leurs précautions,..... je ne suis qu'un simple médecin,.... un risque de pandémie »<sup>4</sup>. En tant qu'accusé, le narrateur diffuse un message dénonçant la négligence des autorités chinoises.

L'interrogatoire se passe « dans une salle mal éclairée de la rue Zhongnan »<sup>5</sup>. Cette précision du lieu permet de construire une couche culturelle et une détermination des coutumes des personnages. La simultanéité du récit et de l'histoire, la vraie, facilite la compréhension du texte par le lecteur et permet une assimilation entre les deux actions. « Vous avez prétendu sur les réseaux sociaux qu'un virus mortel sévit dans nos hôpitaux. Le 30 décembre 2019, à 17h.43, sur la messagerie Wechat, vous avez posté les résultats d'analyses communiqués par la directrice du service des urgences de l'hôpital de Wuhan, Ai Fen »<sup>6</sup> dit sèchement Yang Li. L'époque est de la sorte bien déterminée de sorte à renforcer l'effet de réel.

Les paroles du narrateur sont ceux d'un médecin censé prévenir la population des dégâts de la pandémie, accomplissant ainsi, consciencieusement son métier : « Sauf votre respect, commissaire, il est de mon devoir en tant que médecin, d'alerter la Chine et le monde pour que les gens prennent leurs précautions »<sup>7</sup>. En tant que commissaire, Yang Li, use d'un dialecte menaçant qui cherche l'intimidation et l'obéissance de l'autre : « Vous avez transgressé la loi, [...] Nous vous mettons sévèrement en garde : si vous insistez et ne changez pas d'avis, vous serez poursuivi en justice pour propagation de fausses rumeurs et diffamations, comprenez-vous ? »<sup>8</sup>. Malgré son bon sens, le narrateur-docteur craint le pire, signe une déclaration où il s'engage à s'abstenir de répandre des rumeurs sur le

virus, convaincu de l'inutilité de la résistance.

Distingué des autres témoignages, celui du père jésuite porte les traces d'un libanais (pays d'origine de l'auteur) qui se montre perspicace dans l'analyse de la situation politique du pays depuis le 17 octobre 2019, époque où « les manifestations enflamment le centre-ville de Beyrouth »<sup>9</sup>. Il légitime sa participation aux manifestations en citant le verset 15 du chapitre II de l'Évangile selon Jean « Cessez de faire de la maison de mon Père une maison de commerce ! »<sup>10</sup>. Cet homme de religion évoque avec précision les slogans lancés par les manifestants « *kellon yaané kellon* » ou encore « *héla, héla, héla...* ». Le style est celui du prédicateur et du fin observateur qui analyse le comportement de chaque association ou syndicat en le rattachant à ses intérêts politiques. C'est « autour du monument aux martyrs qui trône au milieu de la place des canons »<sup>11</sup> qu'est située la scène : précision qui fixe le récit sur un terrain connu historiquement par sa valeur symbolique et comparant implicitement l'objectif des manifestants à celui des martyrs : Reprise de la liberté. Il se réfère à des mutations sociales réellement passées.

La mission du narrateur est pieuse c'est pourquoi la grande part du récit rapporte ses actions ecclésiastiques. Il évoque des réunions avec « quelques paroissiens pour échanger [leurs] points de vue à propos de l'épidémie en cours »<sup>12</sup> et chaque occasion débute par une prière ou une imploration d'un saint, conformément aux rites des pères jésuites dans leurs couvents. Le narrateur les exhorte à ne pas « perdre la foi »<sup>13</sup> et à espérer en l'aide de Dieu qui « [leur] donne la force de rester debout et de mieux affronter la mort »<sup>14</sup> : discours propre à un ecclésiastique et jalonné de termes religieux. En outre, pour créer l'espoir chez son auditoire, il leur rappelle les libanais qui ont survécu à la guerre, aux combats, à l'invasion israélienne....et leur foi qui doit les aider « à surmonter l'épreuve du coronavirus ».<sup>15</sup>

Pour rendre le récit plus transparent et éloigner le doute de la véracité de l'histoire, la narration se veut sérieuse, objective et basée sur le vécu libanais. Ainsi, le narrateur dénonce la négligence de « la population [qui] a tardé à prendre au sérieux la menace virale »<sup>16</sup>. A cela s'ajoute l'analyse de leur obsession à l'approvisionnement qu'il justifie par le manque qu'ils avaient enduré durant les événements passés. Ce récit explicatif qui montre la raison de cette conséquence est celui d'une personne cultivée, maîtrisant la logique et au courant de la démonstration par les faits. De plus, « pour rendre plus vivante la narration et faire croire à la fiction »<sup>17</sup>, le narrateur véhicule un savoir commun, celui de « la communion capable de guérir l'âme et le corps »<sup>18</sup>. Et pour donner au lecteur l'impression que le texte

décrit le monde réel du Liban en 2020, il rapporte le discours qui l'oppose aux paroissiens, refusant « les instructions [de protection] de l'évêché »<sup>19</sup> et obstinés à recevoir « les morceaux d'hostie »<sup>20</sup> directement à leur bouche. La fonction de cette scène est d'apporter au récit un indice sur la fonction du narrateur et sur la nature psychologique des fidèles qui se permettent de contredire un homme de religion. Cette forme de réaction leur était refusée, conséquence du virus. En effet, cet élément donne plus de force à la scène.

Passager britannique prisonnier d'un navire de luxe, le narrateur était parti en croisière, en janvier 2020, pour la lune de miel avec son épouse Rachel. Le témoignage prend l'aspect d'un journal de bord où les événements sont évoqués suivant des dates précises « 20 janvier 2020, 21 janvier, 1<sup>er</sup> février.... »<sup>21</sup>. « Plus [les indications de temps] seront précises, en harmonie avec celles régissant notre univers, plus elles renverront à un savoir fonctionnel en dehors du roman, et plus elles participeront avec d'autres procédés à la construction de l'effet de réel »<sup>22</sup>. En fait, ces indications déterminent l'évolution du récit et marquent les étapes de ce voyage. Ce sont aussi des références sur notre univers. D'ailleurs, c'est le temps que le narrateur passe avec sa femme qui lui permet « de mieux apprivoiser son caractère »<sup>23</sup>. Il rapporte les faits dans leur succession chronologique ce qui peut produire la réalité. D'abord, la localisation de l'action n'est jamais laissée au hasard et la mise en place d'une situation géographique et spatiale précise constitue un apport précieux à l'illusion réaliste. Les lieux où se déroule l'intrigue sont généralement connus. La narration de faits connus par toute la société du 21<sup>ème</sup> siècle suit un ordre chronologique strict : le 21 janvier, le narrateur « [a] appris que le coronavirus s'était répandu en Chine et que des mesures draconiennes allaient être prises pour contrer le fléau »<sup>24</sup>. Le 1<sup>er</sup> février 2020 le narrateur se surprend d'apprendre « qu'un passager de 80 ans, originaire de Hong Kong et débarqué le 25 janvier en raison de « symptômes suspects », a été testé positif au COVID-19 et qu'une mise en quarantaine est envisagée »<sup>25</sup>.

L'action évolue par ordre temporel, les dates et les évolutions de la maladie reflètent la vérité sanitaire de l'époque évoquée. Le 4 février 2020 « les autorités sanitaires japonaises sont montées à bord »<sup>26</sup>. Le narrateur refuse de céder au désespoir et s'interroge sur le moyen de calmer sa femme qui panique à l'écoute de l'alerte. Le lendemain, il raconte la misère des deux mariés « condamn[és] à l'abstinence »<sup>27</sup> par le coronavirus.

Cette structure temporelle qui adopte la logique du déroulement réel des événements rend les faits narrés vraisemblables et reproduit l'expérience quotidienne du temps du fléau. La construction chronologique se poursuit

jusqu'au 22 mars 2020 épousant la propagation de l'épidémie. La lecture réaliste de cet épisode est rendue possible par les dates précises qui permettent au lecteur de se repérer, « de se localiser dans le temps »<sup>28</sup>.

Les mesures prises par les membres de l'équipage s'opposent aux activités des passagers qui ne « song[ent] pas que cette promiscuité risquait de les mettre en danger »<sup>29</sup>. Bien que le roman ne soit pas réaliste, il reproduit une situation historique, géographique et sociale explicitement déterminée. « Les noms des villes viennent introduire du vrai dans le faux, un peu de réalité dans un univers imaginaire »<sup>30</sup>. Ils permettent, en outre, de tisser un fil du début à la fin du roman puisque chaque scène est marquée par un déplacement ou la visite de villes différentes.

Le voyage « commence au Japon pour se terminer à Taïwan en passant par la Chine et le Vietnam »<sup>31</sup>. Au jour le jour, le narrateur raconte sa peur de cohabiter avec des personnes porteuses du virus et son incapacité de rejoindre sa ville, Londres. Mais cette épreuve difficile, vécue avec Rachel, a l'avantage de les rapprocher l'un de l'autre et leur « permettra de mieux affronter les futures épreuves de la vie »<sup>32</sup>. Leur nuit de la Saint Valentin, par exemple, est un élément narratif dénué de valeur fonctionnelle dont la présence est justifiée par le concept d'effet de réel. Cette nuit ne semble rien apporter au récit, n'a aucune fonction dans l'intrigue mais crée la ressemblance entre le récit et le monde matériel.

Selon Yves Reuter « aucun texte ne peut faire sens en dehors de ses renvois [...] aux réalités du monde »<sup>33</sup>. Le narrateur commence son troisième chapitre par l'indication « cloîtrée dans mon studio du boulevard Raspail »<sup>34</sup> évitant les descriptions ennuyeuses, ce qui rend l'ancrage dans le réel plus parfait et l'histoire plus réelle. Cette situation dans un cadre précis et vraisemblable permet de situer l'histoire en France, de plus à Paris. L'énumération des « gilets jaunes, [des] grèves et [de] l'épidémie »<sup>35</sup> par le narrateur, au fil du récit, ancre la scène dans le contexte historique et social de Paris en 2020. Le lieu décrit et les événements cités ont une dimension référentielle et réaliste importante. L'époque évoquée est découpée dans l'histoire de personnes réelles appartenant à notre univers, c'est le 21<sup>ème</sup> siècle, époque où les protestations mobilisent les habitants de plusieurs zones, s'organisent dans des métropoles où se produisent des épisodes violents, notamment sur l'avenue des Champs-Élysées.

En outre, « l'effet de réel s'appuie encore sur le vraisemblable [...]. Ainsi, les personnages sont explorés dans leurs dimensions les plus quotidiennes. [...] Ils se définissent par la répétition d'informations identiques fournies à l'occasion de leurs activités privées ou professionnelles »<sup>36</sup>. Ce sont

des êtres ordinaires dont la description physique et psychologique, riche en détails, les rend plus réels. La narratrice, une enseignante parisienne, « ronge son frein »<sup>37</sup>, inquiétée par la suspension de ses cours et le sort de ses élèves. Son statut social la contraint à se mettre au courant des actualités : confinée chez elle, devant le téléviseur, elle suit avec terreur l'ampleur des dégâts provoqués par le coronavirus. « Pour tromper l'ennui, [elle se] lève et choisi[t] un volume dans sa bibliothèque : le tome II des œuvres complètes d'Albert Camus »<sup>38</sup>. Elle le feuillette et transmet son savoir sur La Peste, cite la lettre de l'auteur à Roland Barthes et commente le contenu du livre. Elle cite également le discours du président Macron, précisant sa date le 16 mars 2020. Son caractère et ses préférences sont ceux d'une personne cultivée qui dispose de beaucoup de connaissances sur le monde, sur son fonctionnement, sur ce qui l'entoure. Son discours sur le coronavirus étale les connaissances qu'elle a déjà acquises, dans des domaines variés, convenablement à sa profession. Sa capacité à accumuler et à transmettre des savoirs peut forcer sa ressemblance à une enseignante réelle, personne du monde qui nous entoure.

A son activité culturelle s'ajoute l'explication de son psychisme par son comportement lors de la maladie de sa mère. Informée de son atteinte par le virus, l'enseignante « [a] fondu en larmes »<sup>39</sup>, elle, qui pleure rarement. Elle se rappelle, avec émotion, les difficultés que sa mère avait endurées courageusement, et conclut avec amertume que « ce serait trop injuste, vraiment, qu'elle succombe à cette « cochonnerie ».... »<sup>40</sup>. Agissant de la sorte, la narratrice ressemble à tout individu attristé pour la maladie de sa mère, impuissant de surmonter l'épreuve de la voir souffrir sans pouvoir lui porter secours.

En effet, à chaque témoignage l'auteur a créé un style propre, distingué par la fonction du narrateur. Dans le témoignage de l'italien, étudiant en cinéma enfermé à Milan, c'est le statut du narrateur, sa position familiale et ses préférences qui véhiculent l'ancrage dans la réalité. Renseigné précisément sur son métier, l'auteur le modèle en fonction de ce dernier et du cadre spatio-temporel adéquat, ce qui donne un aspect réel à la fiction. Ni les termes scientifiques appropriés à la pandémie, ni les indications spatiales précises ne manquent à cette narration qui jette une lumière égale sur les dégâts du fléau en Italie et son impact sur la vie du narrateur. « Les rues de Milan sont désormais vides »<sup>41</sup> et le narrateur, un milanais, est confiné seul dans un studio. Son père, « de Naples, communique avec [lui] par Skype »<sup>42</sup> pour s'assurer de sa santé. Pour que la solitude ne bascule pas son équilibre psychique, il se promet de lire mais « [son] emploi du temps chargé à l'Université Cattolica del Sacro Cuore »<sup>43</sup> l'en empêche. Cette

précision et ces informations « renvoient à un savoir culturel repérable en dehors du roman. »<sup>44</sup>. Ces lieux signifient aussi des professions et des qualités attribuées à l'acteur : l'université est un établissement relevant de l'enseignement supérieur visité par des personnes à la recherche du savoir.

D'ailleurs, l'hôpital est le lieu où travaillent des personnes dont l'action est humaine, vouée souvent au sacrifice. Sa mère, « infirmière en chef à l'hôpital de San Giovanni Rotondo de Foggia »<sup>45</sup>, en contact avec des patients infectés, craint rencontrer le même sort que ses collègues mis en quarantaine. Les lieux sont nombreux mais se réfèrent toujours au réel. Bref, L'auteur se fonde sur la réalité et « les lieux du roman peuvent « ancrer » le récit dans le réel et donner l'impression qu'ils le « reflètent » »<sup>46</sup>.

En outre, le narrateur multiplie les informations médicales, comptant sur la connaissance que lecteur doit avoir à propos des conséquences du coronavirus sur l'Italie en 2020. C'est à Milan que « les médecins étaient contraints à « faire le tri »<sup>47</sup>, c'est-à-dire à condamner les vieux pour sauver les jeunes, faute d'équipements de réanimation. Le récit est situé dans un cadre (l'Italie) conforme à ce qui est raconté : « Ambiance de couvre-feu. [...] Les sites déserts défilent »<sup>48</sup>. Les villes se vident à cause du virus mortel contracté, selon le narrateur, par une femme à son retour de Hong Kong.

Ce qui affirme la contiguïté entre le texte et le monde réel c'est aussi la narration du quotidien du narrateur dans ses moindres détails, même ceux qui semblent dénués de valeur fonctionnelle. A l'instar de tout individu, pendant le confinement, il est anxieux et il « guette le moindre dysfonctionnement de [son] organisme. »<sup>49</sup>. Privé de sortir, il consomme « les provisions accumulés dans son frigo »<sup>50</sup>, ne se rase pas, ne visite pas le coiffeur et s'immobilise devant les chaînes télévisées à attendre les dernières actualités du virus. Le récit est aussi jalonné de termes italiens tels « Tutti a casa,... La Gazzetta dello sport »<sup>51</sup>, « L'Eco di Bergamo,... Tanti auguri »<sup>52</sup>, « L'Italia ci ha abbandonati »<sup>53</sup>, pour donner au récit des sources italiennes.

En outre, le texte semble une imitation du réel car tous les personnages mis en scène sont montrés dans leur réalité du moment, dans leur existence quotidienne telle qu'ils la vivent : non seulement le narrateur mais aussi son père et sa mère, non seulement son compagnon Alberigo mais aussi le chauffeur de taxi qui hésite d'abord de le mener hors de la ville, par peur de l'amende, mais qui « finit par céder »<sup>54</sup>, en contrepartie d'un pourboire. On peut certes dire que le confinement a changé leur mode de vie passé, mais ce fait n'interdit pas au narrateur de continuer ses études, quoique à distance. Sa mère, infirmière à l'hôpital, continue à soigner les malades avec prise de mesures. Son père, touché par la mort de sa sœur, n'hésite pas

à « appel[er] les pompes funèbres de Naples »<sup>55</sup> pour venir lever le corps, mais l'acte est remis pour après le résultat du test. Le résultat positif le fait frémir sans pouvoir agir dans un pays où « les urgences sont engorgées, les urgences refoulent les malades »<sup>56</sup>. La scène est édifiée sur une vérité historique (le coronavirus en Italie), habilement racontée de sorte qu'elle reproduit toutes les conséquences du fléau sur la société italienne en « mett[ant] en jeu les procédés de la vraisemblance pour l'imposer au lecteur comme quelque chose de naturel »<sup>57</sup>, de vrai.

### **Focalisation.**

C'est surtout à travers la focalisation du récit que les intentions idéologiques du roman nous semblent le mieux exprimées. La focalisation, ou perspective narrative, répond à la question « qui perçoit dans le roman ? »<sup>58</sup>, qui diffère de la fonction de raconter. Dans le texte de Milan, on perçoit la fiction selon la perspective ou l'optique du narrateur et de ses parents. Ajoutons que « la perspective narrative est influencée par le psychisme du narrateur »<sup>59</sup>. Ce dernier se sent isolé dans cette ville fermée, et « [son] anxiété naturelle s'est transformée en psychose »<sup>60</sup>. Sa manière de considérer la vie de l'homme et de la société humaine a complètement changé au présent. Ce changement intervenu dans sa manière de vivre influe l'idée qu'il se fait des circonstances où il vit et du futur ambigu. Une fois isolé obligatoirement par l'épidémie, il comprit que les sociétés ne doivent pas être jugées selon quelque modèle idéal de ce qui serait désirable dans l'absolu, mais selon leurs propres normes intellectuelles, historiques et sanitaires. « [Il vi[t]] dans la terreur des autres, [il a] la phobie du prochain »<sup>61</sup>, « Etre confiné, c'est être en exil, coupé du monde, c'est renoncer à sa liberté »<sup>62</sup>. En fin du récit, lorsqu'il arrive à la frontière de Milan, vers Nice, « [il] songe à *The sound of Music* (1965) de Robert Wise »<sup>63</sup>, film où le héros fuit l'Autriche à pied, pour se réfugier en Suisse, et lorsqu'il voit sa mère, en vidéo, « dans un tel état de fatigue et de tristesse »<sup>64</sup>, il décide de retourner, convaincu que « Partir, c'est trahir »<sup>65</sup>. Cette prise de conscience nous touche par le taux de responsabilité et de fidélité qui caractérise le narrateur.

Le récit développe aussi l'angoisse de la mère pendant l'accomplissement de son métier d'infirmière : elle attribue la dissémination du virus, en Italie, au fait de la vieillesse d'une grande part de la population et à l'indiscipline de ceux qui n'ont pas respecté les précautions à prendre. Point de vue approuvé par le père, habitant de Naples : « Les jeunes faisaient encore la fête, [...] malgré les avertissements et les amendes distribués par les carabinieri »<sup>66</sup>. Les parents sont convaincus que des connaissances abstraites

et générales ne permettent pas de lutter contre le fléau, la solution doit être cherchée exclusivement dans le respect des mesures et la solidarité sociale. Un changement doit s'opérer dans les profondeurs de la vie quotidienne du peuple, parce que c'est là seulement qu'il est possible de survivre à une pandémie universelle. « Entre l'insouciance et la survie, [ils ont] choisi la survie »<sup>67</sup>.

Dans l'idée fixe du narrateur, la difficulté réside en ce que, la solitude, l'anxiété et la phobie des confinés s'associe à la parfaite indifférence de quelques-uns. Un combat en faveur de la santé et du retour à la vie normale ne peut se concevoir, selon lui, que s'il donne lieu à une intervention rationnelle de l'Etat dans le véritable état des choses, afin de le modifier et de le bouleverser. L'aspiration à l'idéal doit s'accorder avec la réalité existante au moins suffisamment pour la rencontrer, afin que toutes deux puissent s'affronter dans un véritable conflit. Tous ses actes deviennent incompatibles avec le monde réel et une peur fixe s'empare de son esprit. Ses essais de s'adapter n'ont aucune chance de succès et n'ont aucun point d'impact avec le réel : ils se perdent dans le vide. Même sans intention de sa part, il pénètre au cœur des choses, se sent engagé dans la responsabilité et la faute, ce qui fait de lui un personnage respectueux. Sa dernière attitude est une bonne illustration de ses rapports avec la réalité concrète : attitude qui incarne son idéal, symbole des relations que cet esprit dérangé entretient avec les phénomènes de ce monde.

Le narrateur de la première scène « raconte ce qui lui arrive au moment où cela lui arrive »<sup>68</sup>. Il est donc un narrateur homodiégétique et on a l'impression d'être au plus proche de ses sensations et de ses pensées dès qu'elles se forment. De plus, les événements sont évalués et jugés par lui. Le chef du département de police de Wuhan est évoqué d'une manière qui le rend haïssable. Il le montre agressif là où il décrit son acte violent quand il « [lui] a assené une tape sur la nuque qui a fait voler [ses] lunettes »<sup>69</sup> pour l'obliger à signer une déclaration rédigée par les autorités chinoises. Le traitement inacceptable du narrateur et de ses amis médecins, jetés en prison, le refus de lui effectuer le test du coronavirus lorsqu'« [il] a ressenti un mal de tête terrible »<sup>70</sup> sont des éléments qui permettent au narrateur de produire des effets sur le lecteur et de provoquer chez lui des émotions de dégoût négatives. C'est lui qui gère la perception des actions, qui voit et nous imprègne de son point de vue. Un lien affectif se crée forcément entre le lecteur et le narrateur victime. Cette séquence d'événements correctement mis en scène permet de créer un stimulus qui oblige le lecteur à ressentir l'émotion que l'auteur essaie de créer. Ce narrateur étant doté d'un point de vue propre, peut émettre des commentaires générateurs d'effets idéologiques

sans que les jugements et marques d'affection ne portent sur le personnage ou ne soient exprimés au travers du point de vue de ce dernier. Cette relation peut cependant avoir un impact sur la représentation de la relation narrateur-personnage et sur les effets pragmatiques de celle-ci.

De plus, le narrateur du cinquième chapitre s'est montré méfiant à l'égard « de la classe politique pourrie qui a mené le Liban au désastre »<sup>71</sup>. Il sympathise avec le peuple conscient enfin de « crier sa colère et [d'] exprimer son ras-le-bol »<sup>72</sup>. Malgré son statut de père jésuite il exprime son approbation et son estime à l'attitude de chaque libanais qui « a enfin compris que son appartenance nationale doit primer son appartenance partisane ou confessionnelle »<sup>73</sup>. Son manque de confiance en ses autorités s'exprime par des questions auxquelles il ne trouve aucune réponse : « Comment sortir de cette épidémie qui a déjà fait des dizaines de victimes confinés dans l'hôpital Rafic Hariri ? Pourquoi permet-on encore que des avions en provenance d'Iran ou d'Italie atterrissent sur le tarmac de l'aéroport international de Beyrouth ? »<sup>74</sup>. D'un côté il accuse les autorités de mal gérer la propagation du virus, de l'autre il redoute la responsabilité des libanais « indisciplinés de nature »<sup>75</sup> qui continuent à se réunir, comme si de rien n'était. Bien que comprenant l'attachement des fidèles aux instructions de l'Eglise, il regrette leur arrogance, fait face à leur colère et « agi[t] avec la fermeté de celui qui refuse le fait accompli »<sup>76</sup>.

Dans le témoignage du britannique, la propagation de la maladie et les moments cruciaux du voyage sont racontés du point de vue du narrateur. D'abord, c'est lui qui s'est moqué des croisières bien que des milliers de touristes l'adoptent. Selon lui, « la croisière est au voyage ce que le fast-food est à un bon plat traditionnel savouré avec délectation, en prenant le temps de flatter son palais. Mais cette croisière-là, c'est autre chose »<sup>77</sup>. En plus, l'adjoint du commandant de bord, Gennaro Arma, est décrit de sorte qu'il sème la tranquillité chez les passagers en affirmant : « ne craignez rien ! On ne risque pas de vous mettre en quarantaine »<sup>78</sup>, sa coupe de champagne à la main. Le narrateur s'est montré indulgent envers sa femme qui « s'est mise à grelotter »<sup>79</sup> en écoutant les instructions des autorités japonaises qui conseillent les passagers de s'enfermer. Bien qu'il cherche à être objectif dans la narration des transformations résultant de l'épidémie, le narrateur exprime son inquiétude envers ces passagers qui « répétaient ensemble des exercices de gymnastique ou de yoga sans songer que cette promiscuité risquait de les mettre en danger »<sup>80</sup>. Cette situation sur le navire jugée « chaotique » par le narrateur, laisse le lecteur considérer les passagers indifférents et les autorités irresponsables vu que ces dernières ne séparent les zones contaminées des autres « que par une ligne imaginaire »<sup>81</sup>.

Le texte de Paris rapporte le bouleversement du mode de vie de la narratrice qui parle du coronavirus. Elle fait partie de l'histoire et le récit se fait à travers son regard et son point de vue. C'est elle qui nous informe des méfaits de la pandémie dans le monde entier, obligeant « des centaines de millions d'individus [à se] confin[er] chez eux, comme [elle] »<sup>82</sup>. Selon elle, le spécialiste israélien qui « préconise l'usage de la géolocalisation par téléphone pour tracer les personnes infectées et vérifier que le confinement est respecté »<sup>83</sup> prive ces individus de leur liberté et défie la vie privée. Aux dégâts du fléau énumérés par les spécialistes, la narration ajoute sous sorte d'appui à l'argumentation, les paroles de Camus et de Macron qui qualifient la pandémie de guerre, autrement dit, un état de siège pour les habitants de toute la terre. La narratrice conclut en infligeant au virus un double rôle désagréable : nuire aux gens psychologiquement parce qu'ils « ne sont plus libres [...] confinés chez eux comme des canaris »<sup>84</sup> et socialement parce que « s'ils sortent, ils ne se serrent plus la main »<sup>85</sup>. En exprimant des perceptions et des sentiments à travers la sensibilité et la subjectivité du narrateur, ce point de vue permet au lecteur de mieux cerner la psychologie du personnage et de mieux le comprendre de l'intérieur. En somme, la focalisation interne créée, entre le lecteur et le narrateur une complicité favorisant le phénomène d'identification des émotions.

### **L'enjeu du récit.**

La Couronne du diable décrit un moment de l'histoire économique et sociale du 21<sup>ème</sup> siècle. Il prend pour toile de fond l'épidémie qui gagne du terrain à l'époque citée, le coronavirus.

Pendant une interview, le romancier affirme qu' « [il] a toujours pensé avec Sartre qu'il y a « une responsabilité de l'écrivain » et cru avec Camus en « l'obstination du témoignage »<sup>86</sup>. Face à une catastrophe de cette ampleur, un artiste ne doit pas rester les bras croisés. Le roman véhicule donc, sans doute, un message adressé surtout aux dirigeants des pays qui ont tardé à prendre les mesures qui s'imposaient ou qui ont manqué de transparence, ce qui a aggravé la situation. Ce qui donne plus de signification à ce récit c'est le fait d'être écrit à l'époque même, et ce rapprochement entre le temps historique et celui de la narration facilite la compréhension des intentions de l'auteur.

Quant aux habitants des pays évoqués affrontés au virus, ils choquent par leur irresponsabilité, ignorant le danger du Covid 19 ou bien contrariant les directives de leurs Etats. Ignorance du nouveau virus mortel ou confiance absolue en l'évolution scientifique et ses capacités en 2020 ?

Les dirigeants, selon Najjar, ne sont pas innocents dans la dissimulation de la vérité et la duperie de l'opinion publique. A ce diable « qui sème le mal, mais [qu'] on ne voit pas »<sup>87</sup>, chacun des protagonistes réagit selon sa culture et ses problèmes endémiques auxquels le virus vient se greffer. Ainsi donc, le narrateur, porte-parole de l'auteur, offre un panorama mondial du premier acte de cette pandémie dans ce qu'il dévoile de l'homme, de nos sociétés et de nos dirigeants.

Cette irresponsabilité, selon les témoignages, comme selon la réalité, est une conséquence de la méfiance du peuple en ses dirigeants. Cette idée se rencontre surtout chez les libanais (du roman) dont les dirigeants « sont plus nocifs que le virus »<sup>88</sup>. La fonction de la narration consiste ainsi à souligner, et par le fait même à accuser, les dirigeants de mal gérer la situation sanitaire de leurs pays. L'écrivain, pour sa part, lance un cri chargé d'amertume aux gouvernements et aux habitants de plusieurs pays, leur demandant de s'entraider fidèlement, comme ultime solution à ce fléau mortel. C'est, en quelque sorte, un cri d'alarme, un sérieux appel pour une situation meilleure. C'est le cri d'un contemporain qui cherche à secouer les consciences et à les stimuler.

Roman conçu donc à partir d'une histoire vraie, La Couronne du diable est une œuvre distinguée par la multitude des témoignages qui tentent de transmettre la vérité de l'expérience vécue. Cette polyphonie est une technique efficace pour créer l'illusion réaliste. Mais les frontières entre le fictionnel et le factuel s'effacent parfois et le narrateur transmet le point de vue de l'auteur dont il est le porte-parole : dénoncer l'attitude des gouvernements accusés de cacher la vérité du fléau et celle des citoyens irresponsables face au danger de la pandémie. Ce cri chargé d'angoisse, lancé par l'auteur, est un appel à agir consciencieusement afin de sauver l'humanité de ce diable qui « sème le mal [et] on ne le voit pas. »<sup>89</sup>.

Le roman ne serait-il qu'à lire ?

#### نبذة عن البحث باللغة العربية :

«اكليل الشيطان» هو كتاب لالكسندر نجار يتميز بتعدد الرواة الذين يسردون، كل على طريقته، شهادته عن تجربة ذاتية ومعانات عاشها أثناء تفشي وباء كورونا في العالم اجمع عام 2020. يتطرق البحث لدراسة الأساليب المتبعة لاعطاء الرواية طابع الحقيقة التاريخية من حيث تحديد التواريخ والامكنة والمعلومات الصحية في توصيف الجائحة. فالشخصيات المذكورة في السرد وظروف حياتها تتشابه الى حد كبير مع واقع حياتنا اليومية. ضمن هذا الاطار الروائي يطرح الراوي وجهة نظره الخاصة للامور ويقترح حلولاً لمواجهة جدية للوباء. مما يدفعنا للتساؤل هل يحافظ الراوي، الناطق باسم الكاتب الحقيقي، على موضوعيته المفترضة في السرد ام انه يدلي برأيه وتقييمه لأداء السلطات الحاكمة ولامبالاة الافراد في زمن الصعوبات. هذا ما سنحاول الاجابة عنه في البحث.

-**Michelle Georges Saab**: professeur assistant à l'université libanaise, faculté des lettres, section V, département de langue française.

• **ميشال جورج صعب**: أستاذة مساعدة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية (الفرع الخامس), قسم اللغة الفرنسية وآدابها - الجامعة اللبنانية.

#### -Notes

1-Yves Reuter, L'analyse du récit, Armand Colin, rue Paul Bert, Paris, 2016, p.36.

2-Ibid. p.41.

3-Alexandre Najjar, La Couronne du diable, PLON/L'ORIENT DES LIVRES, Paris, 2020, p.17.

4-Ibid. p.18.

5-Ibid. p.17.

6-Ibid. p.17.

7-Ibid. p.18.

8-Ibid. p.19.

9-Ibid. p.79.

10-Ibid. p.79.

11-Ibid.p.80.

12-Ibid. p.81.

13-Ibid.p.83.

14-Ibid. p.83.

15-Ibid.p.84.

16-Ibid. p.85.

17- L'analyse du récit, op. cit. p. 57.

18-La Couronne du diable, op. cit. p.89.

19-Ibid. p. 90.

20-Ibid. p. 90.

21-Ibid. p. 30.

22-L'analyse du récit, op. cit. p.38.

23–La Couronne du diable, op. cit. p.30.

24–Ibid. p.30.

25–Ibid. p.31.

26–Ibid.p.32.

27–Ibid. p.33.

28–Julie La Chapelle, Mémoire présenté sur le réalisme travesti ou l'illusion de la réalité dans le roman Sphinx d'Anne Garreta, Québec, 2006, p.59.

29–La Couronne du diable, op. cit. p.36.

30–Mémoire présenté sur le réalisme travesti ou l'illusion de la réalité dans le roman Sphinx d'Anne Garreta, op. cit. p.61.

31–La Couronne du diable, op. cit. p.30.

32–Ibid. p.39.

33–L'analyse du récit, op. cit. p.98.

34–La Couronne du diable, op. cit. p.43.

35–Ibid. p.43.

36–L'analyse du récit, op. cit. p.104.

37–La Couronne du diable, op. cit. p.43.

38–Ibid. p.45.

39–Ibid. p.48.

40–Ibid. p.49.

41–Ibid. p.61.

42–Ibid. p.64.

43–Ibid. p.64.

44–Yves Reuter, Introduction à l'analyse du roman, Nathan/VUEF, Paris, 2003, P.55.

45–La Couronne du diable, op. cit. p.65.

46–Introduction à l'analyse du roman, op. cit. p.55.

47–La Couronne du diable, op. cit. p.74.

48–Ibid. p.73.

49–Ibid. p.61.

- 50–Ibid. p.61.
- 51–Ibid. p.61.
- 52–Ibid. p.63.
- 53–Ibid. p.69.
- 54–Ibid. p.71.
- 55–Ibid. p.67.
- 56–Ibid. p.68. Erich
- 57– Erich Auerbach, *mimésis la représentation de la réalité dans la littérature occidentale*, Ed.Gallimard, Paris, 1946, p.347.
- 58– Introduction à l’analyse du roman, op. cit. p.68.
- 59–Ibid. p.69.
- 60– La Couronne du diable, op. cit. p.61.
- 61–Ibid. p.62.
- 62–Ibid. p.62.
- 63–Ibid. p.74.
- 64–Ibid. p.74.
- 65–Ibid. p.75.
- 66–Ibid. p.66.
- 67–Ibid. p.66.
- 68– L’analyse du récit, op. cit. p.53.
- 69– La Couronne du diable, op. cit. p.19.
- 70–Ibid. p.21.
- 71–Ibid. p.79.
- 72–Ibid. p.80.
- 73–Ibid. p.80.
- 74–Ibid. p.81.
- 75–Ibid. p.85.
- 76–Ibid. p.91.
- 77–Ibid. p.29.

78–Ibid. p.31.

79–Ibid. p.33.

80–Ibid. p.39.

81–Ibid. p.36.

82–Ibid. p.45.

83–Ibid. p.45.

84–Ibid. p.46.

85–Ibid. p.46.

86– [www.agendaculture.com](http://www.agendaculture.com).

87–Ibid.

88–Ibid.

89– La Couronne du diable, op. cit. p.85.

#### –Bibliographie

– **Najjar, Alexandre.** La Couronne du diable, **PLON/L'ORIENT DES LIVRES, Paris, 2020.**

– Auerbach, Erich. La représentation de la réalité dans la littérature occidentale, Ed. Gallimard, Paris, 1946.

–La Chapelle, Julie. Mémoire présenté sur le réalisme travesti ou l'illusion de la réalité dans le roman Sphinx d'Anne Garreta, Québec, 2006.

–Reuter, Yves. – L'analyse du récit, Armand Colin, rue Paul Bert, Paris, 2016.

– Introduction à l'analyse du roman, Nathan/ VUEF, Paris, 2003.

–[www.agendaculture.com](http://www.agendaculture.com).

**Les âmes agonisantes dans un espace infernal**  
**dans Les Hirondelles de Kaboul de Yasmina KHADRA**

Dr Ghina EL SAYED<sup>1</sup>

Université Libanaise

## **INTRODUCTION**

Les Hirondelles de Kaboul est le onzième roman de Yasmina KHADRA qui, dans la plupart de ses romans, dénonce le fanatisme et l'intolérance, en particulier envers les femmes. Le véritable nom de Yasmina KHADRA est Mohammed Moulessehoul. Ce grand écrivain algérien voit le jour le 10 janvier 1955 à Kenadsa, dans le Sahara algérien. C'est dans les années 1990 que, pour des raisons de censure militaire, il adopte le nom de plume Yasmina KHADRA. Puisant son inspiration dans son passé militaire, Yasmina KHADRA aborde les nombreux conflits qui déchirent le Moyen-Orient. Les divergences entre les sociétés orientales et occidentales sont également un thème récurrent de ses œuvres. Dans Les Hirondelles de Kaboul, les personnages sont prisonniers d'un espace agonisant où le temps est suspendu et où la mort est banalisée à travers les tueries les plus horribles. L'auteur raconte un drame de l'ordinaire d'une société sous l'emprise de l'intégrisme religieux. Kaboul est un espace où la nature devient complice d'un système politique qui répand la peur et la terreur, dans une absence de dimension humaine, de droits élémentaires, de dignité ou d'humanité. Dans ces conditions, deux couples, Atiq Shaukat et Mussarat d'une part et Mohsen Ramat et Zunaira d'autre part, incarnent l'échec humain devant l'invasion du monde par un esprit extrémiste. Dans ce roman de Yasmina KHADRA, nous suivons le cheminement des personnages vers des fins tragiques tissées par un parti détenant leur destin dans un espace propice à leur défaillance graduelle. Comment l'espace devient-il un actant qui agit sur le destin des personnages ? Et comment s'effectue la métamorphose des personnages en les vidant peu à peu de leur essence ? Nous essayerons, en recourant à une approche thématique se basant sur les travaux de Gaston Bachelard et à la mythocritique en nous référant à Gilbert Durand, d'analyser la transformation de la Terre-mère en une Terre-ogresse qui engloutit ses enfants, dans un monde soumis à une autorité qui déshumanise les hommes.

---

(1) Professeur de littérature française à l'Université Libanaise, section V

## 1- Kaboul, un espace en agonie

Kaboul est l'espace d'une ville où le temps régresse au lieu d'évoluer. Les personnages sont prisonniers d'un double espace : l'espace infernal de Kaboul et l'espace intérieur qui gît sous le poids de la persécution exercée par les talibans. Cette ville damnée devient le cadre d'une vie qui s'étirole, débouchant inévitablement sur la mort. Les couples sont condamnés à être prisonniers d'une vie mesquine où le temps est suspendu et l'espace est obstrué par la présence monstrueuse des talibans. L'espace suffoquant prend plusieurs aspects menant vers la perte des différents personnages : un espace infernal et un espace de déchéance.

### 1.1. Un espace infernal

L'enfer, à travers les religions et les mythologies, est le lieu de punition et de souffrance, il est l'incarnation de la justice divine, cruelle et violente, torturant le corps et l'âme. Cette image de l'enfer trouve son reflet dans Kaboul. C'est une ville déchue où l'élément « air » se caractérise par une violence destructive : « Au diable vauvert, une tornade déploie sa robe à falbalas dans la danse grand-guignolesque d'une sorcière en transe »<sup>1</sup>. La tempête qui incarne la violence du vent est « une image particulièrement nette de la colère cosmique »<sup>2</sup>. C'est un espace chaotique où règnent des forces monstrueuses représentées par l'image de la sorcière qui matérialise « cette ombre haineuse »<sup>3</sup> et revêt « d'une redoutable puissance »<sup>4</sup>. Le tourment qui domine est accompagné d'une chaleur brûlante : « Ensermée dans l'étuve de ses montagnes rocailleuses, Kaboul suffoque. On dirait qu'un soupirail de l'enfer s'est entrebâillé dans le ciel »<sup>5</sup>. L'élément feu est évoqué à travers la chaleur symbolisée par « l'étuve », et « l'enfer ». Bachelard parle de deux valorisations contraires du feu : « le bien et le mal. Il brille au Paradis. Il brûle à l'Enfer. Il est douceur et torture. Il est cuisine et apocalypse »<sup>6</sup>. Kaboul se trouve donc prisonnière d'un feu apocalyptique incarnant le mal qui engloutit peu à peu la ville. Ajoutons à l'élément feu, l'allusion à l'élément terre, présent sous forme de « montagnes rocailleuses »

(1) KHADRA, Yasmina, *Les Hirondelles de Kaboul*, Pocket, Paris, 2018, p.p.148, p. 7

(2) BACHELARD, Gaston, *L'Air et les songes*, Librairie José Corti, Paris, 1990, 307 pp, p.260

(3) CHEVALIER, Jean et GHEERBRANT, Alain, *Dictionnaire des symboles*, Robert Laffont/Jupiter, Bouquins, Paris, 2005, p.898

(4) Ibid., p.898

(5) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.33

(6) BACHELARD, Gaston, *Psychanalyse du feu*, Gallimard, Collection : Folio/Essais, Paris, 1992, 192 pp., p.19

inspirant un paysage aride accentué par l'absence de l'élément « eau » évoquant ainsi la mort qui rôde dans un paysage sans vie : « Les rares soubresauts du vent (...) s'amuse à suspendre la poussière dans le vide pour ronger les yeux et assécher les gorges »<sup>1</sup>. L'eau qui, selon Bachelard, « donne à la vie un essor inépuisable »<sup>2</sup>, se trouve absente avec l'emploi du terme « assécher ». Les quatre éléments constituent un cadre de vie hostile soumis à la malédiction. Kaboul est une grande prison où les âmes rôdent pour se heurter à un horizon bouché par le despotisme des talibans.

## 1.2. Un espace de déchéance

Comme le cadre spatial présente un monde infernal, les gens à Kaboul subissent une vie menant à la déchéance. La ville est hantée par des scènes terrifiantes « champs de bataille, arènes et cimetières »<sup>3</sup>. Aucun espoir d'une délivrance divine n'est possible dans un lieu où la communication avec Dieu et l'élan spirituel se trouvent contrariés par une barrière qui brise toute voix en quête de délivrance : « Les prières s'émiettent dans la furie des mitrailles, les loups hurlent chaque soir à la mort, et le vent, lorsqu'il se lève, livre la complainte des mendiants au croassement des corbeaux »<sup>4</sup>. L'espace est animé par des symboles thériomorphes selon le régime diurne de l'image : « loups » et « corbeaux » sont liés au symbolisme de la mort. Le loup est un « animal dévorant »<sup>5</sup>, il est le symbole de « l'agressivité, de la cruauté »<sup>6</sup> évoquant la « terreur devant la mort dévorante »<sup>7</sup>. L'allusion au corbeau, qui est « une figure de mauvais augure, liée à la crainte du malheur »<sup>8</sup>, ajoute au mauvais sort qui attend les afghans. Le cri : « hurlent » / « croassement », qui envahit l'espace, est « isomorphe des ténèbres »<sup>9</sup>. Devant cette scène ténébreuse où « l'obscurité est amplificatrice du bruit »<sup>10</sup>, le destin file la fin tragique des personnages piégés dans un enfer dominé par les talibans. Même le ciel, qui pourrait être une échappatoire vers un

(1) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.33

(2) BACHELARD, Gaston, *L'Eau et les rêves*, Librairie José Corti, 1942, 267 pp., p. 21

(3) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.7

(4) KHADRA, Yasmina, op.cit., p. 7

DURAND, Gilbert, *Les Structures anthropologiques de l'imaginaire*, Dunod, Paris, 2002, (c) 536, pp., p. 90

(6) Ibid.

(7) Ibid., p.95

(8) CHEVALIER, Jean et GHEERBRANT, Alain, op.cit., p. 285

(9) DURAND, Gilbert, op.cit., p.99

(10) BACHELARD, Gaston, *La Terre et les rêveries du repos*, Librairie José Corti, 1948, 18e réimpression, Paris, 1982, 343 pp., p. 72

au-delà salvateur, est bouché par les messagers de la mort : « Le ciel afghan (...) se couvrit soudain de rapaces blindés : sa limpidité azurée fut zébrée de traînées de poudre et les hirondelles effarouchées se dispersèrent dans le ballet des missiles »<sup>1</sup>. La métaphore « rapaces blindés » désignant les avions militaires évoque la guerre. Le salut s'avère impossible dans un lieu où la foi s'est désagrégée dans les cœurs : « Les saints patrons ont été destitués. Les prophètes sont morts et leurs fantômes crucifiés sur le front des enfants »<sup>2</sup>. Avec les termes : « destitués », « morts » et « crucifiés », les « prophètes » qui « sont (...) essentiellement considérés comme des simples annonciateurs du Règne de Dieu »<sup>3</sup>, disparus du monde et des cœurs, ont laissé les gens livrés à un destin qui les désoriente. La religion qui est le moyen de se rapprocher de Dieu est détournée de sa vraie mission. L'image du mollah Bashir qui est chargé de prêcher dans la mosquée reflète le caractère terrifiant des talibans : « Son doigt d'ogre brasse l'air comme un sabre. Il (...) trémousse (...), éléphanterque et vampirisant, le visage massif jaillissant au milieu d'une barbe filandreuse »<sup>4</sup>. L'homme religieux est associé à des créatures affreuses « ogre », « éléphanterque » et « vampirisant », déshumanisant le mollah et révélant l'exploitation des gens en rendant la religion un moyen pour les dominer. Comme l'ogre est « l'archétype dévorant et le thème des ténèbres »<sup>5</sup>, le mollah incarne l'image du mal dévorant, paralysant les gens et les terrorisant. Le mollah, par « son regard incendiaire, accule l'assistance pétrifiée dans un silence sidéral »<sup>6</sup>. L'emprise du mollah sur le public se réalise par le regard « symbolisant une prise de pouvoir »<sup>7</sup> sur eux. Elle est renforcée par sa « voix [qui] reprend de plus belle, galvanisée par ses propres propos »<sup>8</sup>. L'espace est envahi par la présence imposante du mollah qui s'approprie les esprits des gens hypnotisés par une voix et un regard impérieux.

L'abandon spirituel et la malédiction qui ont frappé le pays sont accompagnés d'un obscurantisme intellectuel. Le paysage extérieur pétrifie l'esprit des afghans qui sont devenus corps sans âme : « La ruine des

(1) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.14

(2) Ibid., p.8

(3) <https://www.erudit.org/fr/revues/Évode/BEAUCAMP>, « Prophétisme, prophètes et faux prophètes ou les limites d'un genre littéraire Prophétisme », 21 octobre 2013, p.187

(4) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.72

(5) DURAND, Gilbert, op.cit., p.95

(6) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.73

(7) CHEVALIER, Jean et GHEERBRANT, Alain, op.cit., p. 688

(8) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.75

remparts a atteint les âmes. La poussière a terrassé les vergers, aveuglé les regards et cimenté les esprits »<sup>1</sup>. L'espace anéanti de Kaboul est le reflet des âmes damnées des gens que les ténèbres ont rendus atteints d'une cécité intellectuelle révélée à travers le mot « aveuglé ». Durand associe « l'aveuglement [à] une infirmité de l'intelligence »<sup>2</sup>. La pétrification des esprits est renforcée par l'emploi du mot « cimenté » qui évince toute clairvoyance. Dans « un monde obscur et ingrat »<sup>3</sup>, les afghans sont soumis à un destin obscur et un espoir impossible de pointer. C'est un monde où « personne ne croit au miracle des pluies, aux féeries du printemps, encore moins aux aurores d'un lendemain clément »<sup>4</sup>.

Kaboul est hantée par les talibans, empêchant les gens de circuler à leur aise : « Nazih (...) jette un coup d'œil circulaire pour être sûr que la voie est libre, »<sup>5</sup> « [il] tend l'oreille puis, certain que personne ne risquerait de l'entendre (...) »<sup>6</sup>. Pour Nazih, un personnage secondaire dans le roman ayant perdu la raison après la mort de ses enfants, les sensations, la vue et l'ouïe, au lieu de lui permettre de s'ouvrir au monde, sont réduites à le protéger du danger qui l'entoure. Les sensations perdent leur rôle dans la saisie du monde, elles servent seulement à déceler le danger dû à la présence des talibans. Le regard bienveillant de Dieu est substitué par le regard terrifiant des talibans.

L'infirmité intellectuelle et spirituelle est dédoublée d'une infirmité sociale où les personnages sont incapables de communiquer entre eux : « Nazih (...) chevrote d'une voix presque inaudible tant l'émotion est forte »<sup>7</sup>, « il se penche sur le geôlier et lui confie dans un chuchotement (...) »<sup>8</sup>. La communication passe en catimini empêchant les personnages de tisser des rapports l'un avec l'autre. Chacun se trouve enfermé dans une errance intérieure et solitaire, synonyme de détresse et de mort : « chacun préfère grignoter ses déconvenues dans son coin, pour ne pas avoir à s'encombrer de celles d'autrui »<sup>9</sup>. Les personnages sont forcés au refoulement pour rester saufs. Chacun est recroquevillé dans les pénombres de son monde

(1) Ibid., p 8

(2) DURAND, Gilbert, op.cit., p.102

(3) KHADRA, Yasmina, op.cit., p 41

(4) Ibid., p.8

(5) Ibid, p. 66

(6) Ibid., p.53

(7) Ibid, p.66

(8) Ibid., p.53

(9) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.27

intérieur.

Dans un espace où la nature est en agonie s'harmonisant avec la vie mesquine des afghans soumis au despotisme des talibans, la vie des personnages principaux du roman s'étiole peu à peu révélant la misère des âmes meurtries. Aucune lueur d'espoir n'est capable de les orienter vers la délivrance. Leur existence dans l'espace maudit de Kaboul n'est qu'un revers d'une vie.

## 2. Le revers d'une vie

Hommes et femmes, dans le roman, sont des âmes errantes entre les murs d'un édifice virtuel bâti par les talibans, construit par la terreur et l'humiliation. La femme est prisonnière de sa maison et du tchadri, obligée de le porter lorsqu'elle quitte son foyer. Deux femmes figurent dans le roman : Zunaira, la femme de Mohsen et Mussarat, la femme d'Atiq. Zunaira a connu un tournant dans sa vie conjugale quand les talibans ont imposé leur pouvoir et leur volonté sur les gens. La vie en rose qu'elle menait avec son mari connut une déviation. Zunaira est devenue prisonnière d'une vie monotone sans lendemain. Quant à Mussarat, une femme infirme rongée par la maladie, elle périt jour après jour dans un coin de son foyer. Les deux femmes représentent la femme afghane qui a souffert le despotisme des talibans : « Sous le régime conservateur des talibans, les droits et libertés des femmes ont considérablement été réduits et les violences spécifiques de genre ont trouvé une justification autant politique que légale »<sup>1</sup>. Chacune est un cas de la féminité réprimée sous le joug des talibans.

### 2.1. La femme Chosifiée

Les femmes sont réduites au silence, elles ne sont que des silhouettes cachées sous le tchadri. Elles « sont absolument anonymes »<sup>2</sup> et soumises à l'ordre de taliban « ancré dans une interprétation très étroite de la loi religieuse, la charia (...). Les talibans nient que les mesures décrétées le soient à l'encontre des femmes et les privent de leurs droits »<sup>3</sup>. La féminité, dans sa dimension maternelle ou celle érotique, est absente. Dans un espace aride où les âmes sont pétrifiées, les femmes sont dépourvues de leur féminité. Au lieu d'y être perçues comme mères, « matrices de la

(1) <https://www.afghanistan-libre.org/> Les Femmes en Afghanistan

(2) KHADRA, Yasmina., op.cit., p.13

(3) <https://books.openedition.org/> Micheline Centlivres-Demont, *Hommes guerriers, femmes discrètes*, 2001, p. 169-182

vie »<sup>1</sup>, ou des amantes incarnant les « délices de l'amour »<sup>2</sup>, elles sont « des fantômes, sans voix et sans attraits (...) des nuées d'hirondelles en décrépitude, bleues ou jaunâtres, souvent décolorées »<sup>3</sup>. Les femmes sont réduites à des formes mouvantes, dépourvues de leur féminité et de leur âme. Le mot « décolorées » renforce l'absence de vie. Comme la multicoloration est « liée directement dans les constellations nocturnes à l'engramme de la féminité maternelle, à la valorisation positive de la femme, de la nature, du centre, de la fécondité »<sup>4</sup>, son absence est le signe du dépérissement et de stérilité de la vie. La comparaison des femmes à des hirondelles sert à mettre l'accent sur la conformité qui rend les femmes semblables sans aucune originalité qui pourrait caractériser chacune d'elle. La dévalorisation des femmes va jusqu'à les comparer à « de maigres troupeaux [qui] rasent les murs sous la garde rapprochée de quelques mâles embarrassés »<sup>5</sup>. L'uniformité est intensifiée par l'image du « troupeau » qui déshumanise les femmes et les dégrade.

Deux couples sont présents dans le roman : Zunaira et Mohsen, deux professeurs d'histoire qui voient leurs projets d'avenir se dissiper avec le régime répressif des talibans ; et puis le couple formé du gardien de prison pour femmes, Atik, et sa femme, Mussarat, atteinte d'un cancer. Zunaira est incapable de goûter avec Mohsen la liberté des temps passés : « Mais ce n'est plus possible, maintenant. Il y aura constamment un épouvantail malodorant, armé jusqu'aux dents, pour nous rappeler à l'ordre et nous interdire de parler à l'air libre »<sup>6</sup>. Leur vie est hantée par les talibans dont la présence extirpe la vie des couples qui sont devenus incapables de communiquer entre eux lorsqu'ils sont dans un lieu public. Quand Mohsen participe à la lapidation publique d'une femme, attiré par des forces qui dépassent sa volonté et sa conscience, Zunaira se révolte contre l'attitude de son mari en choisissant d'exprimer son indignation par le mutisme : « Ils ont soupé en silence, lui prostré, elle absente (...) Lointaine, le geste machinal, elle refusait de remonter à la surface, de s'éveiller (...) il découvre Zunaira étendue sur une natte, les genoux contre son ventre, tournée vers le mur »<sup>7</sup>. La déception de Zunaira, due à la mutation de son mari et de son

---

(1) CHEVALIER, Jean et GHEERBRANT, Alain, op.cit., p. 625

(2) DURAND, Gilbert, op.cit., p. 384

(3) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.111

(4) DURAND, Gilbert, op.cit., p.253

(5) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.64

(6) Ibid., p. 61

(7) Ibid., p. 48

écroulement dans le monde monstrueux des talibans, la pousse à s'éloigner par son esprit du monde qu'elle refuse. Elle prend le chemin d'une initiation à rebours en choisissant le trajet d'une mort désirée. Toutes ses attitudes, le « silence », le « geste machinal », son refus de « s'éveiller », montrent une volonté de quitter le monde pour chercher la quiétude dans un espace/temps qui transcende la réalité affreuse. Mircea Eliade montre comment « il existe, pour l'homme, une possibilité de transcender le Monde (...) En transcendant ce monde-ci, on réintègre une situation primordiale (...) la perfection du « premier instant », alors que rien n'était « souillé » »<sup>1</sup>. Le besoin de transcender le temps se manifeste par la position que prend Zunaira, « les genoux contre le ventre », où elle prend une position fœtale permettant l'insertion de l'âme « dans le sein maternel, de son séjour dans les ténèbres amniotiques et finalement du passage à la lumière »<sup>2</sup>. La lumière que cherche Zunaira luit dans un passé inaccessible : « Recroquevillée sur sa natte, elle s'est réfugiée dans de lointains souvenirs, ceux du temps où, (...) s'élevait le chant des enfants (...) aucun énergomène ne criait au sacrilège lorsque les cerfs-volants voltigeaient dans les airs »<sup>3</sup>. La nostalgie est le seul souffle qui anime l'âme mortifiée de Zunaira, surtout avec l'évocation du « chant » qui est « le thème d'une régression vers les aspirations les plus primitives de la psyché mais aussi le moyen d'exorciser et de réhabiliter par une sorte d'euphémisation constante la substance même du temps »<sup>4</sup>. Les enfants qui font partie du paysage antérieur, ne figurent pas dans le paysage présent. Les deux couples n'ont pas d'enfants, ce qui met l'accent sur une vie sans lendemain.

Le moment ultime qui constitue un tournant décisif dans la vie du couple, Zunaira et Mohsen, est lorsque Mohsen convainc sa femme de l'accompagner dans une promenade au marché. Les talibans sanctionnent Zunaira et Mohsen pour avoir ri dans la rue : « - vous vous croyez au cirque ? lui crie un taliban (...) tu vas rejoindre les fidèles, dans la mosquée (...) ton épouse va t'attendre ici, au pied de ce mur, en retrait »<sup>5</sup>. Le couple se soumet aux ordres du taliban. Zunaira se sent humiliée. C'est ainsi qu'elle commence à ressentir une mutation qui atteint son être. Cette mutation est une forme de révolte intérieure contre les conditions de vie qui la déshumanisent. Elle « se lève. Comme si elle se relevait d'un abattement.

(1) ELIADE, Mircea, *Mythes, rêves et mystères*, folio essais, Paris 2002, 285 pp., p. 145

(2) Ibid., p.201

(3) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.58

(4) DURAND, Gilbert, op.cit., p.256

(5) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.p.70-71

Faiblement. Incrédule, mais sans colère. Ses lèvres, un moment juteuses, se sont desséchées »<sup>1</sup>. La dégradation physique se manifeste par le manque d'énergie, « faiblement », et les par les lèvres « desséchées » où l'eau qui est « la source de vie »<sup>2</sup>commence à manquer de son corps fragile. Cette dégradation atteint peu à peu son état psychologique en stimulant chez elle un sentiment d'humiliation : « Subitement, elle s'en veut d'être là, assise sur le seuil d'une ruine, semblable à un balluchon oublié, attirant tantôt l'œil intrigué des passantes tantôt le regard méprisant des taliban »<sup>3</sup>.

La comparaison à un balluchon chosifie Zunaira et la déshumanise. C'est surtout le regard intimidant qui la perturbe. C'est grâce au regard que les autres confirment notre existence. Selon Goffman : « C'est par la présentation de soi que [l'individu] tente d'attirer le regard de l'altérité en vue d'obtenir son approbation et de confirmer son existence car le « sentiment d'exister » ne va pas de soi »<sup>4</sup>. Dans le cas de Zunaira, le regard devient un effacement de l'identité. C'est un regard qui la chosifie et la dépersonnalise. Comme il est « l'instrument des ordres intérieurs : il tue,...»<sup>5</sup>, son rôle est mortifiant pour Zunaira qui « a le sentiment d'être un objet suspect exposé à toutes sortes d'interrogations, et cela la torture. La honte la gagne»<sup>6</sup>. Son Tchadri devient son tombeau l'isolant d'un monde qu'elle cherche à fuir : « Zunaira est abasourdie par le soleil. Elle a l'impression que le monde s'est obscurci, que les bruits alentour pirouettent au ralenti, et a du mal à se relever »<sup>7</sup>. Le soleil perd son pouvoir lumineux pour apparaître comme un astre ayant « un aspect maléfique et dévorant, et dans ce cas être un « soleil noir » »<sup>8</sup>. L'obscurité emporte Zunaira vers le précipice d'une perte identitaire. Zunaira expérimente une mort symbolique qui la conduit vers la création d'une nouvelle identité. Selon Mircea Eliade, « Parfois, le symbolisme de l'agonie, de la mort et de la résurrection mystiques est signifié d'une manière brutale et orienté directement vers « le changement de la sensibilité » »<sup>9</sup>. Mais pour Zunaira, la résurrection entraîne la naissance

---

(1) Ibid., p.32

(2) CHEVALIER, Jean et GHEERBRANT, Alain, op.cit., p.375

(3) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.76

(4) GOFFMAN, E., *La mise en scène de la vie quotidienne*, Tome 1 : La présentation de soi, Paris, Minuit, 1987.p.12

(5) CHEVALIER, Jean et GHEERBRANT, Alain, op.cit., p.803

(6) KHADRA, Yasmina, op.cit., p. 76

(7) Ibid., p.78

(8) DURAND, Gilbert, op.cit., p.168

(9) ELIADE, Mircea, op.cit., p.109

d'une identité déformée, créée par le regard humiliant d'une société dégradée et démonie par les talibans. Son courroux fait surgir l'être monstrueux qui ronge son âme réduite à néant. Se sentir déshumanisée à cause de la situation humiliante qu'elle avait expérimentée la pousse à exprimer son indignation et sa révolte par le refus de communiquer en évitant le contact visuel avec son mari : « En s'interdisant à son regard, elle se soustrait à son monde, le renie de fond en comble »<sup>1</sup>. La vraie mort expérimentée par son époux, Mohsen, est due au regard éteint de Zunaira qui l'efface et écrase son entité. Seul le cri est le son qu'elle émane pour manifester sa rage : « [Zunaira] s'est mise à hurler à la manière des forcenées. (...) Les cris de Zunaira se propageaient à travers le quartier, ameutaient les voisins, traquaient [Mohsen] comme une nuée de rapaces déchaînés »<sup>2</sup>. Le cri de Zunaira est retentissant reflétant la douleur profonde qui déchire ses entrailles. Ce cri est comparé à un cri animal renforçant l'agressivité accrue de Zunaira. Bachelard montre comment « le cri inhumain est lié à la « bouche » des cavernes, à la « bouche d'ombre » de la terre, aux voix « caveineuses » incapables de prononcer de douces voyelles »<sup>3</sup>. Le cri est le manifeste du délire qui lance Zunaira dans le précipice du mal. Cette femme blessée dans son amour propre se recroqueville « dans un monde abominable d'où elle ne semble pas près d'émerger »<sup>4</sup>. Sa rage conduit à la mort de son mari qu'elle provoque en le défiant d'affronter les talibans qui l'ont humiliée. Puis une lutte acharnée l'oppose à lui : « elle lui mord l'épaule, le bras, le sein sans parvenir à le décourager (...) elle le griffe sauvagement au visage (...). [Elle] le catapulte contre le mur (...) Sa tête heurte une saillie dans la paroi avant de se cogner violemment sur le sol »<sup>5</sup>. Le monstre rugissant à l'intérieur de Zunaira s'élance pour commettre un crime. Mohsen fut accidentellement tué par sa femme. Les images thériomorphes se déchaînent : « morsure », « griffe », révélant le « mal dévorant »<sup>6</sup>. La métamorphose de Zunaira est le fruit d'une longue période de répression exercée par les talibans. La monstruosité féminine est une réaction à l'injustice et à la marginalisation de la femme.

Mussarat la femme d'Atiq, le geôlier, représente la femme passive qui se soumet à son destin. Affligée par la maladie, Mussarat agonise, elle est

(1) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.97

(2) Ibid., p.97

(3) BACHELARD, Gustave, *La Terre et les rêveries du repos*, op.cit., p.p.194-195

(4) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.96

(5) Ibid., p.p.102-103

(6) DURAND, Gilbert, op.cit., p.91

consciente de l'effritement de sa féminité : « Le reflet que lui renvoie le petit miroir ébréché est sans appel ; elle est en train de se décomposer plus vite que ses prières »<sup>1</sup>. Sa dégradation est dédoublée par une image brouillée reflétée par le miroir qui « est procédé de redoublement des images du moi, et par là symbole du doublet ténébreux de la conscience »<sup>2</sup>. C'est donc, le moi brouillé qui surgit devant Mussarat. Devant sa défaite physique et psychologique, elle décide de se sacrifier pour aider son mari dans sa quête du bonheur à trouver le vrai amour. Atiq s'est épris par Zunaira lorsqu'elle était prisonnière après la mort de son mari. Le jour de l'exécution de Zunaira, Mussarat convainc son mari de l'aider à sauver Zunaira en prenant sa place. Sous le chadri, personne ne devinerait la manœuvre. Le sacrifice de Mussart est une tentative de salut en sauvant l'âme souffrante de son mari qui a mené une vie mesquine côtoyant une femme infirme et menant de longs moments dans la solitude. Mussarat se sacrifie pour assurer la résurrection de son époux dans une nouvelle vie : « Après ton départ, j'ai tâté l'endroit où tu tenais en quête d'une larme oubliée. Je voulais m'y baigner, me laver des afflictions de ce monde »<sup>3</sup>. Elle cherche à se ressusciter en se purifiant par les larmes de son mari, symboles de sa souffrance : « l'image des larmes viendra mille fois à la pensée pour expliquer la tristesse des eaux »<sup>4</sup>. L'élément eau est l'essence des larmes. La volonté de plonger dans les « larmes » est une volonté de transcender la réalité vécue pour aider son époux à accéder à une vie meilleure par un acte de purification qui est « une transmutation du destin »<sup>5</sup>.

La femme, dans *Les Hirondelles de Kaboul*, est condamnée à mener une vie dans l'ombre. Elle représente la femme opprimée sous le nom de la religion par des partis extrémistes. Zunaira et Mussarat partagent un destin qui les a réduites à des créatures sans âmes. La révolte de la première l'a transformée en un monstre poussé par son courroux à commettre un crime. La deuxième s'est volontairement sacrifiée pour mettre fin à la souffrance partagée avec son mari.

## **2.2. L'homme : une âme déperie**

Les hommes dans le roman subissent le même tourment que celui de leurs femmes. Sous un régime oppressant, les hommes sont enchaînés par

---

(1) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.93

(2) DURAND, Gilbert, op.cit., p.109

(3) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.133

(4) BACHELARD, Gaston, *L'Eau et les rêves*, Librairie José Corti, 1942, 267 pp., p.112

(5) DURAND, Gilbert, op.cit., p.351

une vie routinière tournant dans une spirale infinie. Mohsen et Atiq perdent, peu à peu, le sens de la vie. Aucun objectif ne pointe au bout de leur chemin. Même la mort perd sa sacralité. A force d'assister à des exécutions publiques, ils sont devenus impassibles devant la mort : « Il raconte, terrifié par ses propos : (...) lorsque le déluge de pierres a commencé à submerger le succube, je me suis surpris à ramasser des cailloux et à le mitrailler, moi aussi. J'étais devenu fou (...) la foule hurlait, j'ai hurlé avec elle, simplement parce qu'elle a réclamé du sang, je l'ai exigé aussi »<sup>1</sup>. Le déchaînement affectif et mental de Mohsen se manifeste à travers son incapacité de maîtriser son émotion ou son attitude. Les termes « terrifié » et « surpris » montrent un excès d'émotion. Son geste est machinal, il se manifeste à travers la reprise du même cri « hurlait » qui est le propre du loup : « l'animal féroce par excellence »<sup>2</sup> et par le même besoin du sang. Entre la férocité animale et le vampirisme révélé à travers le sang, Mohsen s'engouffre dans les méandres des ténèbres. Il se perd dans un monde inhumain et se comporte en perdant tout contrôle : « J'ai peur de moi, Zunaira, je n'ai plus confiance en l'homme que je suis devenu »<sup>3</sup>. Mohsen subit comme l'expérimente sa femme, une initiation à rebours où la métamorphose fait naître en lui un monstre qui se détache de l'âme humaine pour commettre des actes hideux. Les exécutions sont devenues familières au point que « les gens de Kaboul s'angoissent à l'idée qu'une exécution soit reportée »<sup>4</sup>. Dans une société qui a perdu son aspect humain, la mort est devenue une banalité. De sa part, Atiq, l'époux de Mussarat, côtoie la mort. Son métier de geôlier l'oblige à passer la plupart du temps dans la maison d'arrêt. Il perd le goût de la vie : « il ne supporte plus la pénombre, ni l'exiguïté de l'alcôve qui lui tient lieu de bureau encombrée de toiles d'araignées et de cadavres de cloportes »<sup>5</sup>. Atiq, vu son métier, est prisonnier de la prison pareille à un antre projetant des images nyctomorphes, véhiculant des symboles sous le signe des ténèbres comme « la pénombre », « l'exiguïté de l'alcôve », « toiles d'araignées », « cadavres », tous inspirant l'angoisse et menant à la dépression. Cette ambiance « terrifiante semble motivée par cet archétype (...) que constituent les ténèbres »<sup>6</sup>. Elle est dédoublée par une répugnance de sa maison : « Pour lui pas question de rentrer à la maison retrouver

---

(1) KHADRA, Yasmina, op.cit., p. 31

(2) DURAND, Gilbert, op.cit., p.91

(3) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.32

(4) Ibid., p.12

(5) Ibid., p 17

(6) DURAND, Gilbert, op.cit., p.97

son lit défait, la vaisselle oubliée dans l'eau malodorante des bassines et sa femme couchée en chien de fusil dans un angle de la chambre »<sup>1</sup>. Les images nyctomorphes continuent à entourer Atiq, même dans sa maison qui, au lieu d'être « la coquille initiale »<sup>2</sup>, le lieu qui « permet de rêver en paix »<sup>3</sup>, « un centre de force »<sup>4</sup> qui favorise une « protection majeure »<sup>5</sup>, se montre un lieu chaotique où figurent les éléments d'un monde inquiétant ; l'eau y apparaît sous son « aspect ténébreux »<sup>6</sup> et sa femme n'occupe qu'un coin de l'espace. Comparée à un « chien de fusil », elle perd sa féminité. Dans une condition de vie où Atiq se sent mort-vivant, il a l'impression « de s'enterrer vivant »<sup>7</sup>. La mort implorée inconsciemment par Atiq se manifeste à travers sa joie de ne pas avoir des enfants : « depuis que les rues ne savent quoi faire [des enfants], il s'estime heureux (...) Persuadé que sa stérilité est une bénédiction ...»<sup>8</sup>. Ne pas avoir une progéniture est une volonté de mettre fin à son existence qui baigne dans le désespoir.

Le seul Moyen pour que Mohsen et Atiq échappent à la détresse dans laquelle ils vivent est l'errance. Se déambuler dans les rues de Kaboul ne leur permet pas de voir clair en eux-mêmes. L'extérieur est un labyrinthe où la vie leur échappe. Pour Mohsen, l'errance fut, en premier lieu, un moyen pour fuir son échec moral : « j'errais comme ça, à l'aveuglette, incapable de reconnaître les rues (...) J'étais dans une sorte de brouillard, je n'arrivais ni à me souvenir de mon chemin ni à savoir où je voulais aller »<sup>9</sup>. La perte intérieure est accompagnée d'une perte extérieure. Mohsen n'arrive à se reconnaître ni dans son intimité profonde, ni dans les ruelles de sa ville natale. Le brouillard, «symbole de l'indéterminé (...) de l'indistinction »<sup>10</sup>, montre l'incapacité de reconnaître la ville où il vit. Une barrière l'éloigne de sa Terre-mère et le rejette dans l'inconnu. L'espace l'expulse vers les méandres des chemins de perte. La négation « ni » implique une rupture avec l'espace physique. La perte pour Mohsen est une perte du Moi qui se

---

(1) KHADRA, Yasmina, op.cit., p. 20

(2) BACHELARD, Gaston, *La Poétique de l'espace*, Les Presses universitaires de France, 3<sup>e</sup> édition, 1961, 215 pp., p.32

(3) Ibid., p.34

(4) Ibid., p. 57

(5) Ibid., p. 57

(6) DURAND, Gilbert, op.cit, p.104

(7) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.17

(8) Ibid., p.65

(9) Ibid., p. 29

(10) CHEVALIER, Jean et GHEERBRANT, Alain, op.cit., p.p.149-150

dissocie peu à peu de son entourage. Après l'incident qui a eu lieu dans le marché en se promenant avec sa femme où les talibans les ont humiliés, Mohsen perd sa dignité devant sa femme. Face aux réactions impitoyables de Zunaira, Mohsen trouve dans l'errance loin de sa maison une façon d'écartier sa femme lui inspirant son impuissance : « Chaque matin, il vient par ici contempler les cimes taciturnes, sans toutefois oser les escalader. (...) Dès qu'il sort de chez lui, il se dépêche de regagner le vieux cimetière et s'isole ainsi des heures durant »<sup>1</sup>. Selon Bachelard, la contemplation « du haut des sommets donne le sens d'une soudaine maîtrise de l'univers »<sup>2</sup>. Donc, Pour Mohsen, contempler les cimes est l'expression d'un désir de reprendre le contrôle de sa vie pour retrouver son équilibre émotionnel et physique. Mais la négation, « sans oser », montre qu'il capitule devant l'effondrement de sa vie, surtout conjugale. En se réfugiant dans le cimetière, Mohsen cherche la claustration dans la mort dont le sens est inversé permettant l'isomorphisme « sépulcre- berceau (...) [suggérant] la sécurité d'un être enfermé »<sup>3</sup>. Le cimetière devient, donc, le lieu de tranquillité où Mohsen retrouve le repos intérieur.

Pour Atiq l'errance est infinie. Elle s'incarne dans une répétition interminable des mêmes gestes et rituels, l'emprisonnant dans un temps cyclique : « [Atiq] est fatigué, fatigué de tourner en rond (...) fatigué de ces jours insipides qui le foulent au pied du matin à la nuit tombée »<sup>4</sup>. Même dans la mosquée où il cherche à mettre terme à son errance, il n'arrive pas à y rester : « Atiq Shaukat retourne dans la mosquée (...) Les textes s'entremêlent sous ses yeux et menacent de lui faire éclater la tête (...) Il quitte la mosquée et erre à travers les faubourgs aux allures d'hécatombes »<sup>5</sup>. La religion ne l'aide pas à se débarrasser de l'angoisse qui le ronge. La tourmente est génératrice de la perte et du vertige qui « est un blocage psychique et moral qui se traduit par des phénomènes psychologiques violents »<sup>6</sup>. L'errance devient une quête labyrinthique d'un Moi perdu.

### 3. L'illusion d'une délivrance

Dans l'espace agonisant de Kaboul, les personnages sont prisonniers

(1) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.86

(2) BACHELARD, *La Terre et les rêveries de la volonté*, Librairie José Corti, 1948, 5e impression, 409 pp., p.385

(3) DURAND, Gilbert, op.cit., p.p.270-271

(4) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.41

(5) Ibid., p.50

(6) DURAND, Gilbert, op.cit., p.124

d'une vie abattue par les talibans. Chacun connaît un échec qui le conduit vers la perte ou la mort. Atiq et Nazih affrontent le danger pour pouvoir échapper à la misère dans laquelle ils s'abattent. Atiq expérimente une renaissance à travers l'amour qui illumine son être lorsqu'il rencontre pour la première fois Zunaira, prisonnière et condamnée à mort. Pour Nazih, la renaissance se réalise par l'abandon de l'enfer des talibans en dépassant son infirmité physique. Mais la délivrance est-elle possible dans un monde sans horizon ?

### 3.1. L'amour entre salvation et déception

L'apparition de Zunaira dans la vie d'Atiq constitue une nouvelle étape dans la vie de ce geôlier, prisonnier d'une vie lamentable. Zunaira : « a retiré son tchadri (...) Atiq est éberlué (...). La détenue est d'une beauté inouïe, avec son profil de déesse, ses longs cheveux déployés dans le dos, et ses yeux immenses, semblables à des horizons »<sup>1</sup>. Nous retrouvons dans la description de Zunaira tous les symboles de la féminité qui envahissent la cellule avec l'emploi des termes « déployés », « immenses », « horizons ». La séduction qu'exerce Zunaira remue l'âme d'Atiq jusqu'en ses profondeurs. Le symbolisme de la chevelure, « longs cheveux », sert à « renforcer l'image de la féminité fatale »<sup>2</sup>. La chevelure est en même temps « le fil naturel servant à câbler les premiers liens »<sup>3</sup>. Donc, c'est grâce à sa féminité radiante qu'Atiq tombe dans les mailles de la séduction de Zunaira. La séduction va jusqu'à l'érotisme. Atiq contemple la détenue endormie : « Atiq est sidéré par la sérénité de la détenue (...) ce visage limpide et beau comme une eau de source. Et ces mains de houri, transparentes et fines, que l'on devine douces comme une caresse. Et cette bouche petite et ronde »<sup>4</sup>. Le désir amoureux se manifeste à travers la description minutieuse de chaque partie du corps de Zunaira, accompagnée des allusions sensuelles. Mais, la comparaison du visage à l'eau lustrale renvoie à un amour qui dépasse même le côté charnel. L'eau lustrale « est l'eau qui fait vivre par-delà le péché, la chair et la condition mortelle »<sup>5</sup>. Atiq connaît, grâce à l'apparition de Zunaira dans sa vie, la naissance d'un nouvel être en lui : « Le lendemain, Atiq a l'impression de s'éveiller dans la peau de quelqu'un d'autre. (...) Il subit, sans en pâtir, une sensation vertigineuse et implacable,

---

(1) KHADRA, Yasmina, op.cit., p. 111

(2) DURAND, Gilbert, op.cit., p.116

(3) DURAND, Gilbert, op.cit., p.117

(4) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.114

(5) DURAND, Gilbert, op.cit., p.194

une ivresse extatique »<sup>1</sup>. La nouvelle naissance se révèle à travers les termes « s'éveiller », « sensation vertigineuse » et « ivresse ». Un état d'extase est ressenti par Atiq manifestant le désir de rompre les liens qui le tiennent à son passé. Zunair l'aide à expérimenter une renaissance symbolique qui selon Eliade, sert à « renaître à un autre mode d'être : celui qui est représenté par la délivrance »<sup>2</sup>. Atiq connaît une délivrance au niveau des sentiments qui étaient refoulés à cause d'un espace qui réprime l'homme : corps et âme. L'amour qui illumine le cœur d'Atiq, donne un sens à sa vie. Dans un espace en agonie, l'apparition de Zunaira est la lueur d'espoir qui ranime le cœur d'un homme déchu. Mais Zunaira n'est qu'un mirage qui effleure la vie d'Atiq se retrouvant, seul après la fuite de la femme qui a bouleversé sa vie. Son obsession par Zunaira, la femme-mirage, l'a rendu en proie à une douleur le menant à perdre sa raison. La fin d'Atiq ressemble à ce monde déchu auquel il appartient : « Milles savates dégringolent sur lui, milles bâtons (...) broyé par le tumulte, il s'effondre »<sup>3</sup>. La seule lueur d'espoir est devenue une malédiction renforçant l'impossibilité de vivre dans un espace affligé par la mort.

Si Atiq échoue dans sa tentative de fuir l'espace emprisonnant et dégradant de Kaboul à travers l'amour, Nazih, qui cherche à fuir cet espace déshumanisant, n'arrive à réaliser son ambition qu'à travers un exploit virtuel qui lui donne l'illusion d'une délivrance.

### **3.2. La fuite : quête d'une nouvelle vie**

La prudence s'avère nécessaire à garantir la survie des personnages dans un espace où l'on se sent à chaque moment épié par les talibans. Tout au long du roman, Nazih, le fou, cherche à échapper de Kaboul. Il incarne l'esprit perdu des afghans qui cherchent à renaître dans un espace où leur âme peut se libérer du joug de l'injustice : « Ils fantasment sur des contrées lointaines, des chemins interminables, d'in vraisemblables expéditions parce qu'ils ne pourront pas les réaliser »<sup>4</sup>. La réalité décevante mène les gens vers un défoulement virtuel dans un paradis inaccessible révélé à travers les termes « fantasment » et « invraisemblables ». Nazih alimente son imagination par des plans illusoire pour fuir une réalité décevante : « Je prendrai au hasard un chemin et le suivrai jusqu'à l'océan. Et quand

(1) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.112

(2) ELIADE, Mircea, op.cit., p.278

(3) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.148

(4) Ibid., p.55

j'arriverai sur le bord de la mer, je me jeterai à l'eau »<sup>1</sup>. L'emploi du futur sert à révéler le désir de changer son avenir. Nazih cherche à emprunter un trajet qui le mène vers l'océan où l'eau est « le lait maternel, la mère inamovible, la Mère »<sup>2</sup>. L'image de la « mère » connotée par l'eau de la mer est, selon Durand, « l'archétype de la descente et du retour aux sources originelles du bonheur »<sup>3</sup>. Nazih pétrit dans un espace agonisant, il est en quête d'une délivrance à travers une nouvelle naissance incarnée par l'image maternelle de l'eau fantasmée. Mais, la délivrance n'est qu'un fantasme, un désir qu'on cherche à satisfaire : « Je ne reviendrai plus à Kaboul. C'est une ville damnée »<sup>4</sup>. L'emploi du futur simple indique, donc, que la délivrance reste l'objet d'une quête à réaliser pour accéder à un nouveau monde où le personnage apprendra à vivre.

## CONCLUSION

Dans *Les Hirondelles de Bagdad*, Yasmina KHADRA met l'accent sur un monde où l'extrémisme religieux impose, avec sa violence, un mode de vie où les âmes des hommes s'étiolent, fouettées par le terrorisme. Yasmina KHADRA présente le cas de Kaboul où des massacres se commettent au nom de l'islam, déviant ainsi la religion de sa vraie mission. À travers ses personnages dont le destin de chacun dégringole vers une fin tragique, Yasmina KHADRA invite à être conscient du destin sombre qui attend l'humanité. C'est un monde où les gens deviennent de plus en plus déshumanisés, tournant dans le vide. L'espace dans lequel est située l'action est un miroir de ce vide qui ronge les âmes. La Terre-mère devient une terre meurtrière qui engloutit ses enfants. Les chemins de salvations n'y sont possibles que dans la prise de conscience et d'un éveil qui permettraient à l'humanité de faire face au mal qui l'envahit. Quel sera le destin de l'humanité si le fanatisme continue à répandre le terrorisme inlassablement ?

---

(1) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.54

(2) BACHELARD, Gaston, *L'Eau et les rêves*, op.cit., p.149

(3) DURAND, Gilbert, op.cit., p.256

(4) KHADRA, Yasmina, op.cit., p.54

## BIBLIOGRAPHIE

### I- Ouvrage étudié :

– KHADRA, Yasmina, Les Hirondelles de Kaboul, Pocket, Paris, 2018, p.p.148

### II- Ouvrages mentionnés :

– BACHELARD, Gaston, L'Eau et les rêves, Librairie José Corti, 1942, 267 pp.

La Terre et les rêveries de la volonté, Librairie José Corti, 1948, 5e impression, 409 pp.

La Poétique de l'espace, Les Presses universitaires de France, 3<sup>e</sup> édition, 1961, 215 pp.

La Terre et les rêveries du repos, Librairie José Corti, 1948, 18e réimpression, Paris, 1982, 343 pp.

L'Air et les songes. Essai sur l'imagination du mouvement, Librairie José Corti, Paris, 1990, 307 pp.

La psychanalyse du feu, Éditions Gallimard, Collection : Folio/Essais, Paris, 1992, 192 pp.

– CHEVALIER, Jean, ALAIN, GHEERBRANT, Dictionnaire des symboles, Éd. Robert Laffont /Jupiter, Bouquins, Paris, 2005, 1059 pp.

– DURAND, Gilbert, Les Structures anthropologiques de l'imaginaire, Dunod, Paris, 2002, 536 pp.

– ELIADE, Mircea, Mythes, rêves et mystères, folio essais, Paris 2002, 285 pp.

– GOFFMAN E., La mise en scène de la vie quotidienne, Tome 1 : La présentation de soi, Paris, Minuit, 1987

### III- Sites consultés :

– <https://www.erudit.org/fr/revues>, Évode BEAUCAMP, « Prophétisme, prophètes et faux prophètes ou les limites d'un genre littéraire Prophétisme », 21 octobre 2013

– <https://www.afghanistan-libre.org/> Les Femmes en Afghanistan

- [https://books.openedition.org/ Micheline Centlivres-Demont](https://books.openedition.org/Micheline_Centlivres-Demont), Hommes

guerriers, femmes discrètes, 2001

هذا البحث يتناول ضحول الكينونية لدى الشخصيات في رواية *Les Hirondelles de Kaboul* للكاتب الجزائري الفرونكوفوني ياسمينه خضرا. تدور أحداث القصة في كابول تحت سيطرة طالبان، وهي حركة قومية-إسلامية سياسية مسلحة متطرفة، ويعتقد قياداتها أنهم يطبقون الشريعة الإسلامية. وقد أعلنت قيام الإمارة الإسلامية في أفغانستان. تأمر هذه الحركة الرجال بإطلاق اللحي ولبس العمامة وتمنع إطالة الشعر وتحرم الموسيقى والغناء والصور وتمنع عمل المرأة خارج بيتها ويشرف على تنفيذ ذلك هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. تكمن الإشكالية في الرواية حول تأثير طبيعة كابول الجرداء و القاسية على نمط الحياة الذي تعتمد عليه الشخصيات المنكسرة تحت سيطرة طالبان. تركز دراسة الرواية على النقد الموضوعاتي استنادًا إلى أعمال Bachelard والنقد الأسطوري استنادًا إلى أعمال Durand. ومن خلال الدراسة يظهر تأثير الأدب الفرونكوفوني بمجريات الأحداث في عالم خاضع لقوة الترهيب. ويظهر ذلك عبر النهاية المأساوية للشخصيات التي جُردت من كينونتها. فمن خلال الشخصيات الرئيسية محاولة من الكاتب أن يبعث من خلال الفرونكوفونية دعوة للوعي والإنقلاب على الواقع المرير الذي يسلب من الإنسان إنسانيته.

الدكتورة غنى علي السيد، أستاذة محاضرة في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفرع الخامس